obeikandl.com

الجورنالجى

مركز
الحضارة
العربية

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

obeikandl.com

نصر رأفت

الجورنالجى

رواية

مركز الحضارة العربية

obeikandl.com

نصر رأفت:

روائى مصرى حاصل على بكالوريوس الصحافة والإعلام من جامعة القاهرة، عمل بالعديد من الصحف العربية والمصرية منها.. أخبار اليوم، الأيام البحرينية، الديار اللبنانية، والحياة.. وهو حاليًا مذيع فى إذاعة صوت العرب.

صدرت له من قبل ٣ روايات.. (الرجال لايعرفون الرحمة) التى اختارتها جامعة جورج تاون فى واشنطن لتدريسها لطلابها كأفضل رواية تتناول الحياة فى القرية المصرية فى السنوات العشر الأخيرة، ورواية (شلالات فياجرا) وروايته الثالثة (ماسبيرو)..

للتواصل مع الروائى:

nasrraafat@yahoo.co

الكتاب: الجورنالجى

المؤلف: نصر رأفت

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة 2012

الجمع والصف الإلكترونى: وحدة الحاسوب بالمركز

تصميم وجرافيك: محمد النوبي

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١١٢٠١

رأفت، نصر.

الجورنالجى: رواية/ نصر رأفت. ط١. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٢.

٣٨٤ ص؛ ٢١ سم.

تدمك: ٦ - ١١٠ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ـ القصص العربية.

أـ العنوان

٨١٣

obeikandl.com

إهداء:

إلى رئيسة جمهورية بيتى

أبايعك يا سيدتى على الحب

والطاعة مدى الحياة.

إلى أهراماتى الثلاثة

" ريهام وأحمد وفرح "..

أنتم شمسى وقمرى

وأروع إنجازاتى..

دمتم لى أباهى بكم الدنيا

ما دمت حيًا.

نصر رأفت

obeikandi.com

تنويه:

الطبيب يدفن جريمته فى بطن المريض

والمحامى يخبئ خطيئته فى ملف موكله

والجورنالجى ينشر فضيحته!

تلك هى القضية.

obeikandi.com

تحذير:

" حرام أن يقوم العلماء بتعذيب الحيوانات والفئران ليتهم يجرون تجاربهم على الصحفيين! "

هنريك إبسن.

obeikandi.com

الجورنالجى يقرأ جريدته!

فى أعلى الصفحة.. صورة رجل مات
فى أسفلها راقصة ساخنة راسخة
كالأهرامات..
امتعض الجورنالجى غاضبًا وقلب
صفحات جريدته.. فارتطمت راقصة مصر
الأولى بالرجل الميت.. نهض واقفًا منتشيًا..
أيقظه عطرها الفواح.
فغنى الرجل لراقصة الوطن نشيدًا مرتعش
الخطوات.. لم تكن الراقصة الأولى فقط
كالأهرامات.. بل كانت معجزة المعجزات
تحيى الأموات!
من ساعتها قرر هذا الجورنالجى المنكوب
أن يكتب كل جرائدنا بالمقلوب!

***

obeikandi.com

أقر وأعترف أن:

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يرتدى عباءة الوقار، ويتدثر برداء الفضيلة وهو يخدع الجميع بحبر الرذيلة!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يطلق لحيته ويقف على باب نقابته ممسكًا بالميكروفون يدعو للحرية، وهو نفسه يسجن زوجته وبناته خلف أسوار النقاب، ويحرم عليهن مشاهدة التليفزيون أو ارتداء البنطلون!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يقضى أكثر من نصف الليل ساهرًا يبدع سطورًا عن القيم العليا، والمبادئ الأخلاقية السامية، وبعد صلاة الفجر يسكر ويعربد ويضاجع راقصة مصر الأولى!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى لا يكتب حرفًا ولا يخط سطرًا إلا إذا وصله المعلوم فى مظروف مختوم من جهة سيادية عليا، ومملوء بآلاف الجنيهات ثمن الكلمات ولا يجرؤ مخلوق أن يهمس بأن الكاتب المرموق صاحب القلم الذهبى مرتشيًا!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يرسل بامرأته لمسئول سياسى كبيرفى فندق شهيرتحت حراسة مشددة طمعًا فى أن يمن عليه الكبير بكرسى رئيس التحرير!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يتباهى بحب مصر جهارًا نهارًا ويفخر فى مقالاته بأنه يركب

obeikandi.com

طائرة الرئاسة، وفى سره يلعن المحروسة، ويصف شعبها بالحقير، ويعرب لأقرب المقربين بتأفف أن حظه العثر جعله يعيش فى هذا البلد القذر!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى نال الحصانة الدبلوماسية بعضويته البرلمانية، وأسس حزبًا سياسيًا للعدالة الإنسانية، واتخذه ستارًا للموبقات وغسيل الأموال القذرة، والسمسرة فى الممنوعات والمحرمات!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى جاء من قريته النائية بإحدى المحافظات الزراعية ودخل المهنة، وهو لا يملك تذكرة العودة بالقطار ومع الأيام صار نقيبًا لكل الجورنالجية، واستغل موقعه الحساس ليبتز الأكابر والوزراء، ويصبح من أثرى الأثرياء!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يحج كل عام، ولا يترك ركعة من صلاة، ويعلن الجهاد ضد الفنانات المحجبات، ويطالبهن بنزع الحجاب، والعودة لإرتداء المايوهات!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يبيع صفحات جريدته يوميًا ويؤجرها مفروشة لبرامج الفضائيات الليلية التى يطلقون عليها " التوك شو " لتحقق رواجًا جماهيريًا قبل أن تصبح الصحيفة بين أيدى القراء فى اليوم التالى!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى طاهر قديس شفاف عذب، وآخر داعر واعر عاهر تائه بين الأخيار والأشرار يبحث له عن قرار!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

چنرال المقالات النارية، والمدافع الصحفية، عاش طفولة بائسة ونهشه الضنك، والفقر المدقع حتى ألقت به الأمواج على رأس مؤسسة صحفية

كبـرى فحول أحـد طوابقها إلى فنـدق خمس نجـوم، وكان يدير ٥ آلاف عامـل وموظـف ومحـرر ومصـور مـن تحت المـاء المعطـر فى مقـر إقامته بالچاكوزى الذى أقامه فى المؤسسة!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

بارونـات تربعوا على عـرش الصحافة ربع قـرن، وكان أحدهم يتقاضى ٣ ملايين جنيه شـهريًا، وعندما دخل السـجن طلب صنـدوق مياه ماركة " إيڤيان " الفرنسية!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

قليل من ملائكة الفردوس الأعلى

وكثير من شياطين أسفل سافلين!

***

obeikandl.com

(١)

" لا تختلف الحياة الخاصة للجورنالجى عن الحياة الخاصة لممثلى السينما .. إنها طبيعة النجوم سواء أمام الكاميرا أو أمام الكعبة! "

لم تكن " الجورنالجى " كلمة شائعة فى البلاد العربية قبل بداية القرن الثامن عشر، وعندما جاء الفرنسيون إلى مصر عام ١٧٩٨ بالمطبعة، وأنشأ محمد على صحيفة " الوقائع المصرية " عام ١٨٢٨ صار الجورنالجى هو اللقب الرسمى لكل من يحترف مهنة البحث عن المتاعب، ويتكسب رزقه فى بلاط صاحبة الجلالة!

فمنذ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وخلق فى شرايينه غريزة حب الاستطلاع، تلك الغريزة التى أخرجت آدم وحواء من الجنة، اعتمد الإنسان فى كل مكان وزمان أن يحترف نقل الأخبار عمدًا أو سهوًا ليتواصل مع الآخرين.. حدث هذا منذ آلاف السنين، بمعنى أن عملية نقل الأخبار قديمة قدم الدنيا وولدت مع مولد الإنسان.. وليست النقوش الحجرية فى مصر والصين وعند العرب وغيرهم من الأمم العريقة إلا دربًا من دروب الصحافة فى العصور السحيقة، وقبل أن يعرف الإنسان الصحافة الحديثة بزمان!

ولعل أوراق البردى التى استخدمها المصرى القديم قبل أكثر من خمسة آلاف عام كانت نوعًا من النشر أو الإعلام أو الصحافة فى فجر نهارها الأول.

وكان الحكام والملوك والفراعين يلجأون إلى الحجارة قبل أن يعرفوا ورق البردى لنقش الأوامر الرسمية والحكومية على أنواع متعددة من الأحجار ثم ترسل إلى حيث توضع فى المعابد التى يكثر تردد الناس عليها، ومن أشهر وأخلد هذه الأحجار حجر رشيد الذى فك طلاسم رموز

لغته الهيروغليفية العالم الأثرى العبقرى الفرنسى " شامبليون " ، ومن خلاله وقفت الدنيا كلها على سر الكتابة المصرية القديمة ، وقد وجدوا من هذا الحجر نسختان فى منتصف القرن العشرين، إحداهما أخذها الإنجليز عقب حملة نابليون بونابرت على مصر ، ووضعوها فى المتحف البريطانى فى لندن، أما النسخة الثانية فقد تم العثور عليها بعد ذلك، وهى توجد الآن فى المتحف المصرى بقلب القاهرة.

والطريف فى الأمر أنهم وجدوا أن " حجر رشيد " مكتوبًا بثلاث خطوط هى.. اليونانى والديموطيقى والهيروغليفى، وهذا الحجر العتيق يعود إلى عهد بطليموس، أى نحو عام ١٩٦ قبل الميلاد ، وكان الغرض من كتابته هو إذاعة قرار أصدره المجمع الدينى فى ذلك الوقت، وقد كتبوه بالخط اليونانى ليخاطبوا اليونانيين، والخط الديموطيقى ليخاطبوا به عامة الشعب، والخط الهيروغليفى للكهنة، وبذلك فإن حجر رشيد كان يعد جريدة واسعة الإنتشار قبل أن تعرف الدنيا معنى الجورنال والجورنالجية فى زماننا هذا... ويروى المؤرخ اليهودى " يوسف فلافيوس " أنه كان للبابليين مؤرخون مكلفون بتسجيل الحوادث اليومية ، شأنهم فى ذلك شأن الصحفيين أو الجورنالجية فى عصرنا الحالى، وقد كان لبابل شهرة واسعة ذائعة الصيت لاتقل عن شهرة منف وطيبة فى مصر القديمة والتى بلغت أوج مجدها فى عهد الملك حمورابى عام ٢١٠٠ قبل الميلاد الذى تنسب إليه أول صحيفة فى العالم، وهى مجموعة حمورابى للقوانين، والتى عدها علماء تاريخ القانون أول صحيفة صالحة للتداول بين الناس، ولا تختلف كثيرًا عن صحيفة الوقائع المصرية ، وغيرها من الصحف الرسمية التى تنشر القوانين، واللوائح، وقد لا يعرف الكثيرون أن معظم الحضارات القديمة مثل حضارة الصين، والأغريق والرومان تبادلت الأخبار المخطوطة فيما بينها.

ويذكر المؤرخون أن يوليوس قيصر عقب توليه السلطة عام ٥٩ قبل الميلاد أنشأ صحيفة مخطوطة اسمها " أكتاديورنا " وتعنى " الأحداث "

ونشر فيها أخبار مداولات مجلس الشيوخ، وأخبار الحملات العسكرية، والأخبار الإجتماعية، وأخبار الفضائح والجرائم، وحتى المواليد والوفيات، وكان لهذه الصحيفة محررون، ومراسلون فى جميع أنحاء العالم، وكانوا غالبًا من موظفى الدولة.

ولم يعرف العالم الإنتقال الهائل فى معنى الصحافة إلا فى القرن الخامس عشر الميلادى وبعد إختراع يوحنا جوتنبرج للطباعة بالحروف المعدنية، وكان هذا الفتى الفذ الذى ولد فى مدينة مينز الألمانية عام ١٤٠٠ ميلادى قد كتب تاريخًا جديدًا للكلمة المكتوبة، ولاحظ يوحنا جوتنبرج أن عملية التعلم والقراءة والكتابة، وتداول الكتب مقصورة على الأغنياء فقط من دون الفقراء، وذلك بسبب نظام النساخ الذين ينسخون الأوراق نظير أجر كبير لا يقدر عليه سوى الأثرياء، ومن هنا فكر جوتنبرج فى تكرار النسخ على نطاق أكثر اتساعًا من خلال اختراعه لحروف الطباعة المتفرقة والمسبوكة من المعدن، مما أحدث انقلابًا فكريًا لم يشهده العالم من قبل إذ بفضل هذا الإختراع أمكن حفظ تراث الأجيال السابقة، وتمكين الأجيال اللاحقة من تحصيل العلم والمعرفة، واقتناء الكتب والمطبوعات.

وقد أراد جوتنبرج أن يشكر ربه على هدايته إياه لهذا الإختراع، فبدأ بطباعة الإنجيل، وطبع منه آلاف النسخ بين عامى ١٤٥٢ و ١٤٥٥، وبعد ذلك انتشرت طريقه جوتنبرج فى الطباعة، وعرفها العالم كله، تلك الطريقة التى ساعدت على ظهور الصحافة الورقية بشكلها الحديث.

وبعد النقش على جدران المعابد، وأحجار المسلات والتماثيل تعد مصر أول دولة عربية عرفت الصحافة بمعناها العصرى، وارتبطت معرفتها بالصحافة من خلال الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ ومن خلال صحيفتين أصدرتهما الحملة آنذاك.. الصحيفة الأولى كانت صحيفة عسكرية صدرت باسم "كورييه دى ليجيبت" وأصدرتها الحملة بعد شهر واحد من

غزوها مصر، وكانت تنشر الأوامر العسكرية فضلاً عن بعض النوادر، والفكاهات التى ترفه عن الجنود وترفع روحهم المعنوية، أما الصحيفة الثانية فكانت صحيفة علمية صدرت باسم "لاديكاد اجبيسيان" وصدرت فى أكتوبر من عام ١٧٩٨ وكانت تهتم بدراسة مصر من الناحية العلمية والثقافية والأدبية، ومن المؤسف أن كلا من الصحيفتين لم توجها إلى المصريين ولذلك صدرتا باللغة الفرنسية، ولم يكن من بين محررى الصحيفتين مصرى واحد!

وكانت هناك محاولات لتعويض هذا النقص بإصدار صحيفة باسم "التنبيه" من جانب القائد الثالث للحملة الفرنسية على مصر الجنرال "چاك فرانسوا مينو" الذى عاش بين عامى ١٧٥٠ و ١٨١٠ حيث ولد فى إحدى مدن غرب فرنسا والتحق بالعمل العسكرى فى فترة مبكرة من حياته حتى انضم إلى جيش نابليون بونابرت وبعد مقتل كليبر القائد الثانى للحملة الفرنسية على يد سليمان الحلبى الشاب السورى الذى كان يدرس فى الأزهر الشريف.. تسلم الجنرال چاك مينو أو عبد الله مينو بعد إعلان اسلامه ليتزوج من إمرأة مصرية مسلمة تدعى زبيدة، وهى ابنة أحد أعيان مدينة رشيد، وأثناء قيادته للحملة الفرنسية فى مصر رزق عبد الله مينو من زوجته زبيدة بولد أسماه سليمان تيمنًا باسم سليمان الحلبى الشاب الذى قتل القائد الفرنسى كليبر، وأعدمه الفرنسيون.. وأصر مينو على هذا الإسم لإبنه نتيجة كراهيته الشديدة لسلفه وقائده الجنرال كليبر.. وبعد هزيمة الفرنسيين أمام الإنجليز، وتحطم أسطولهم الذى كان أقوى ما يميزهم، ووأد أحلامهم الإستعمارية فى مصر وقعوا معاهدة الإنسحاب من المحروسة، والعودة إلى فرنسا على متن السفن البريطانية، وعاد الجنرال مينو إلى وطنه أيضًا، وبرغم مرارة الهزيمة وضياع الحلم الفرنسى الجميل على شواطئ مصر قلدته فرنسا العديد من المناصب الرفيعة، وظل محط تقدير واحترام حتى رحل عن الدنيا فى ١٣ أغسطس ١٨١٠، وعمره حوالى ٦٠ عامًا بالتمام والكمال.

obeikandl.com

وبعد نهاية عصر الفرنسيين فى مصر سطع نجم الجندى الألبانى تاجر الدخان المعروف باسم محمد على، وصعد إلى كرسى الحكم فى مصر عام ١٨٠٥ وعرفت البلاد الإزدهار على يديه فى كافة المجالات، سواء من الناحية الثقافية أو العسكرية أو الاقتصادية بهدف بناء الدولة الحديثة القوية، واستدعى ذلك تنظيم إدارى للدولة بفكر جديد مما استلزم تقديم ما يحدث فى صورة تقارير تعرض على الوالى، وعرفت هذه التقارير فى ذلك الوقت باسم " جورنال " وكان فى بداية صدوره شهريًا ثم بعد ذلك أسبوعيًا حتى صار فيما بعد يوميًا.. وتطور اسمه مع الأيام ليصبح " جورنال الوالى " ويطبع منه مائة نسخة بمطبعة القلعة، وكان متضمنًا الأخبار الرسمية، وبعض قصص ألف ليلة وليلة، ومنذ ذلك عُرف كل من يكتب أو يحرر فى " جورنال " باسم الجورنالجى وهى كلمة أصولها القريبة إنجليزية، وجذورها البعيدة لاتينية، وظلت متداولة فيما بعد لتشمل كل من يعمل بمهنة الصحافة، وعندما صدرت أول صحيفة فعلية فى مصر موجهة للمصرين، وتوزع على الشعب ألا وهى " الوقائع المصرية " عام ١٨٢٨ بأوامر من الوالى محمد على باشا أطلق على كل محرر فيها لقب " جورنالجى " وكانت تطبع فى مطبعة بولاق، وتنشر فيها أخبار الحكومة والمحكومين، وما يستجد من شئون البلاد والعباد، وفى بدايتها كانت تحرر باللغة التركية ثم تترجم إلى اللغة العربية، وبلغ عدد النسخ المطبوعة منها كل مرة ٦٠٠ نسخة توزع على كبار رجال الدولة، والعلماء والعسكريين، وطلاب المدارس، وفى سنة ١٨٤٠ تولى رفاعة الطهطاوى رئاسة تحريرها، وقام بإصدارها باللغة العربية على أن تترجم فيما بعد إلى اللغة التركية، حيث كانت مصر فى تلك الفترة لم تخرج بعد من تحت عباءة الدولة العثمانية ولغتها الرسمية التركية!

كانت القاهرة دائمًا وأبدًا هى كعبة هواة الصحافة فى العالم العربى.. وكانت الصحف والمجلات التى تصدر فى مصر فى أيدى جماعة من الصحفيين الشوام.. " الأهرام " من إنتاج أسرة تقلا.. ودار " الهلال " أصحابها

آل زيـدان.. والصحف المصريـة مائة فى المائة، وكانت تزدحم هى الأخرى بالصحفيين والفنيين والإداريين الشوام. واستمر الوضع على هذا الحال، إلى أن تنبـه الجيـل الجديد من الصحفيين المصريين إلـى أهمية هذه الصناعة، وإلـى ضرورة أن تصـدر الصحف بأيدى مصرية، وبأقـلام مصرية، وظهرت مجموعـة مـن الصحـف والمجـلات المصريـة أشـهرها " المصـرى "، و " روزاليوسـف "، و " أخبـار اليـوم "، و " أخر سـاعة ". ثم قامـت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ووضـح منـذ البدايـة أن هناك من لا يرضى عن حريـة الصحافة , ومن يزعجه النقد الذى تنشره الصحف.. كان البعض شديد الحساسية تجاة أيه كلمـة تكتب ضده أو ضـد عمله أو ضد الجهة التى يشـرف عليها.. وكان البعـض لايثق أبدًا فى الصحافة، ولا فى معظم أقلامها القديمة والمعروفة، باعتبـار أن هـذه الأقـلام سـبق أن هللت للماضـى، وأيدت الفسـاد، وباعت نفسـها للأحـزاب، وبالتالى فمن الصعب جـدًا الآن الإطمئنـان إلى إخلاص تلك الأقلام، أو الثقة فى أصحابها، والدليل على عدم ثقة الثورة عند قيامها وخوف السلطة من الصحافة أن مجلس قيادة الثورة قرر اصدار صحيفة تعبر عن الثورة، فصدرت " الجمهورية " وكان صاحب امتياز اصدارها هو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وتولى أنور السـادات رئاسـة تحرير " الجمهورية " بجانب مهامه الأخرى كعضو مجلس قيادة الثورة، ولحسـن الحظ أن أنور السـادات كان قد سـبق له العمل الصحفى قبل قيام الثورة بسـنوات طويلة وكان يعمل محررًا فى مجلة " روزاليوسـف " وعمل فى " المصور "، ومارس جميـع تخصصـات العمـل الصحفـى حيث عمـل مخبـرًا صحفيًـا، وكاتبًا سياسيًا، وترجم القصص عن الانجليزية والألمانية والفارسية.

وهنـاك مـن الضباط الأحرار الذيـن لم يحترفوا الصحافـة من قبل كما احترفهـا السـادات ولكنهـم عملـوا بالصحافـة وتولـوا مراكزهـا الأولى فـى الصحـف والمجلات التـى أصدرتهـا الثورة فى سـنواتها الأولـى.. رأينا خالـد محـى الدين يتولى مسـئولية اصدار صحيفة " المسـاء ".. ورأينا ثروت عكاشـة يتولى رئاسـة تحرير مجلة " التحرير " وتولى صلاح سالم مسئولية

" دار الشعب " وأصدر صحيفة " الشعب " ثم انضمت هذه الصحيفة إلى دار التحرير واندمجت فى صحيفة " الجمهورية " وتولى صلاح سالم رئاسة تحرير " الجمهورية ".

وكانت القاهرة تمتلئ بالصحفيين اللبنانيين منهم الأكفاء، ومنهم غير الأكفاء، منهم من ثقفتهم المعاهد والجامعات، ومنهم من ثقف نفسه بجهوده الذاتية.

منهم من احترف الصحافة لأنها المهنة الوحيدة التى قبلته، ومنهم من عمل بالصحافة لأنها المهنة الوحيدة التى عشقها وأحبها!

وسارت الصحافة فوق الأشواك بين شد وجذب مع السلطة، عملت السلطة الرابعة خادمة تحت أقدام الحكام، وتمردت وثارت أحيانًا ودفعت الثمن بتكميم الأفواه، واسكات الأقلام بقوة السلاح وبلسعات الكرباج!

تلك هى قصة الصحافة عبر العصور.. تلك هى قصة الجورنالجى فى أى عصر وأيه جريدة أو مجلة من البداية ولكن مازالت أحداثها ممتدة بلا نهاية.. والآن نطوى الصفحات القديمة لجورنالجى الزمن الغابر, ونطالع صحيفة أحوال جورنالجى الزمن الحاضر!

***

obeikandl.com

(٢)

" المرتشون واللصوص والقوادون والزناة واللوطيون وحائكو المؤامـرات هم الذين يصيغون وجـه الحياة مثل الصالحين والمصلحين تمامًا! "

لم تكن الشهادة الجامعية هى أزمة ناجى شرف الدين، ولم يكن التخرج معضلته المستعصية، بل كانت أم الأزمات هى التى اصطدم بها بعد التخرج من الجامعة، وحصوله على البكالوريوس فى الاعلام، ودائمًا طوال سنوات الدراسـة فى قسم الصحافة بجامعة القاهرة كان صديقه عزت النجار زميل غرفته فى المدينة الجامعية يقسم له بأغلظ الأيمان أنه رأى بعينيه فى مكتب شـئون الطـلاب بالكلية الآلاف من شـهادات البكالوريـوس المطبوعة على بياض، وتنتظر فقط أن يمسـها الحبر لتدوين أسماء الطلاب.. الكلية ليست فـى حاجة إليهـا.. إذن فالتخرج مضمـون، ولكن الطامة الكبـرى تأتى بعد ذلك.. فالجو معبأ بالمتعطلين، والبطالة تبث سمومها فى جسد المجتمع مثل فيروس رهيب، ولا مجال لاختراق سوق العمل والإفلات من قبضة البطالة إلا ببركة دعاء الوالدين أو وساطة أحد الواصلين ذوى النفوذ فى هذا البلد!

ولت سـنوات الدراسـة كطيف خفيف لطيف عابر، مـرت كحلم وردى هادئ رومانسى، وتراءى له الواقع بعد ذلك قاتم مثل كابوس كئيب أسود لا فكاك منه!

انتهت علاقته العابرة بحاضرة مصر، وقاهرة المعز فى يوم تخرجه، وكأنه يوم خروجه النهائى الأبدى من تلك المدينة التى تشـبه زوجة الأب الشرسـة التى تقسو على ضيوفها من الغرباء وتبارزهم بلا هوادة ولا رحمة!

تحنو على أولادها فقط، وتقسو على ما سواهم، وتبدو بلا قلب ولا منطق عكس كل المدن التى لها قلوب ومشـاعر.. هى مدينة ليسـت كالمدائن

الأخرى فى العالم.. مدينة لها فلسفتها وأبجديتهاالسريالية التى تثير حيرة الكثيرين فى كل زمان ومكان.

عاد ناجى شرف الدين إلى قريته النائمة على كف النيل , ولا مكان لها على خريطة المحروسة سعيدًا تعيسًا ، فرحًا مرحًا قلقًا هلعًا.. نال من جامعة القاهرة العريقة بغيته ، وحقق مأربه ، وحصد شهادته العليا ، وانتزع حلمه من علمه ، وصار واحدًا من حملة الدرجات العلمية الكبرى فى قريته الصغرى ، ومن كلية مرموقة يطلقون عليها فى الصحف كلية القمة.. كانت ومازالت تلك الكلية مقصد الفقراء وأولاد الذوات ، ومحط أنظار أبناء الأكابر والأكرمين.. فهى المفتاح السحرى الذى يفتح أمامهم أبواب صاحبة الجلالة ، ويمنحهم تأشيرة عبور ملكية إلى فضاء الشهرة الصحفية والنجومية فى القنوات التليفزيونية ، والمحطات الإذاعيةٍ .. ولم لا؟! والاعلام صار هو البريق البراق لكل باحث عن شهرة أو ثروة أو مجد ذاتى.. ولم لا؟! وتلال الصحف السيارة تتوالى فى الصدور ، والمطابع لا تتوقف وتلقى بثمارها وفلذات أكبادها على الأرصفة وفى المكتبات مع بزوغ كل فجر ، ومئات الفضائيات تملأ السماوات ، والأقمار الصناعية تجول فى الآفاق ، وتتزاحم فوق السحاب وتقض مضاجع الكواكب والأفلاك ، وتزعج سكون المجرات!

لم يصدق ناجى شرف الدين أنه أتم رسالته ، وأكمل مهمته ، وعاد من القاهرة بشهادته التى طالما سمع أمه تدعو له باقتناصها فى كل صلواتها ، وانضم لطابور العاطلين المكتئبين ، ولم يصدق أيضًا أن تكون تلك نهاية رحلته بين الكتب والفصول والمحاضرات والمدرجات ، فهو لم يقصر ذات يوم فى أى شئ ، لم يتكاسل عن آداء واجب ، ولم يتخاذل عن الدرس والبحث والفحص والمحص ، وانفاق نور عينيه بين الكتب حتى نجح بتفوق فى كل مراحل دراسته ، ولم يخطر له يومًا على بال فى أسوأ حال أن تفعل الحكومة فعلتها ، وترفع يدها التى كانت بيضاء عن الخريجيين ، وتنفض

books4all.net

ولايتها عن تعيينهم، فجأة وبلا مقدمات وجد نفسه كما لو كان عاريًا فى ميدان عام، والدنيا كلها تتفرج عليه.. لقد تخرج فى واحدة من أعظم الكليات.. فلماذا إذن تركوه هكذا؟!

لماذا إذن كرمه محافظ الغربية بعد حصوله على ٩٠٪ فى الثانوية العامة؟! ولماذا ألقوا به فى النهاية لوحش البطالة كى يفترسه بضراوة؟! أليس هو ذات الشخص الذى تفوق، وحصد الدرجات العلا فى كل المراحل التعليمية؟!

لم يستطع أن يتفهم هذا التناقض المريب فى هذا البلد الغريب، وذات مرة طرح هذا التناقض على واحد من أبناء قريته كان قد هاجر إلى فرنسا قبل عشرين عامًا ثم عاد فى إجازة قصيرة لزيارة الأهل والأحباب، وقراءة الفاتحة على روح ذكريات الصبا والطفولة، ومطلع الشباب.. فقال الرجل:

ـ يا ناجى لا تنسى أنك تعيش فى مصر وما أدراك ما مصر.. إنها بلد المتناقضات.. المضحكات المبكيات.. ولو اطلعت على دستور مصر يا عزيزى سترى العجب العجاب!

انبرى ناجى دهشًا متسائلاً: الدستور.. ماذا فى الدستور؟!

قال الرجل العائد توًا من بلاد الجن والملائكة:

ـ المادة الثانية من دستور مصر تنص على أن الاسلام دين الدولة ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع.. أما المادة الخامسة من الدستور المصرى أيضًا تقول: " لا تجوز مباشرة أى نشاط سياسى أو قيام أحزاب سياسية على أيه مرجعية دينية أو أساس دينى ".. هل هناك تناقض، وتضاد أكثر من ذلك يا صديقى؟! الحمد لله أننى فضلت الهجرة عن هذا البلد منذ سنوات وعقب تخرجى من الجامعة وسافرت إلى فرنسا، وحصلت على جواز سفر وجنسية فرنسية، ولو بقيت فى مصر حتى اليوم لمت كمدًا وهمًا وغيظًا أو أصابنى مس من الجنون!

تساءل ناجى شرف الدين باعجاب:

obeikandl.com

ـ وكيف تحفظ نصوص الدستور المصرى، وأنت تعيش فى باريس منذ أكثر من عشرين عامًا؟!

الدستور يا ناجى لم يتغير منذ كنت تلميذًا فى الابتدائية , وأظن أنه لن يتغير فى حياتنا ، قد يتغير القرن القادم أو بعد القادم الله وحده يعلم ولا تنسى أن بعض مواد الدستور كان مقررًا علينا حفظها ، ونحن فى المرحلة الابتدائية ضمن مادة التربية الوطنية ، التى كنا ندرسها فى ذلك الزمن. وأعرف هذا التناقض منذ كنت طفلاً غرًا!

كما أن هذا الأمر ليس هو أول ولا آخر المتناقضات فى مصر المحروسة.. بل هناك فى الوقت الحالى حوالى ١٨٠٠ مستشار فوق الستين من العمر يتقاضون أكثر من مليار و٢٠٠ ألف جنيه سنويًا ، وأنه لا توجد معايير محددة لإختيارهم بالإضافة إلى عدم وجود نص قانونى لتحديد مهامهم أو رواتبهم.. هل يعقل ذلك فى دولة تئن من البطالة ويصل عدد العاطلين بين شبابها أكثر من أربعة ملايين عاطل؟!

لاذ ناجى بالصمت الرهيب شاردًا يفكر فى لاشئ ويحدق فى الفراغ وهمس لنفسه دون أن يسمعه أحد :

لا حول ولا قوة إلا بالله.. الهجرة صارت الآن من رابع المستحيلات ، ومن لم يمت اليوم فى بلده كمدًا من أحوالها وتناقضاتها ، مات غرقًا فى محاولات السفر أو ألقوا القبض عليه بتهمة الشروع فى الهجرة السرية غير الشرعية إلى جنة أوروبا الموعودة!

***

obeikandi.com

(٣)

" الأنثى كالديناميت.. أخطر الألعاب! "

انتفض هاتف الجيران من شدة الرنين، وإلحاحه المتواصل، استدعوه ليرد.. كانت على الناحية الأخرى من الخط زميلته إيناس مندور.. بمجرد أن سرت نبرة صوته عبر الأثير وسمعتها قالت:

ـ ألف مليون مبروك يا ناجى.

ـ الله يبارك فيك يا إيناس.. أخيرًا تحقق الحلم.. لكن يا ترى ما التقدير؟!

ـ جيد جدًا يا حبيبى.. قالتها بعفوية، وتلقائية وبراءة الأطفال الذين أكل السوس أسنانهم من كثرة إلتهام الحلوى.

سألها ناجى شرف الدين بطريقة ميكانيكية دون تفكير:

ـ وأنت يا إيناس؟!

ضاحكة مستبشرة قالت:

ـ وهل تشك فى كفاءتى.. نجحت طبعًا.. صحيح تقديرى أقل منك لكنى أسعد منك بالتخرج!

ـ لابد أن تقديرك يا إيناس جيد؟!

ـ صحيح.. هو كذلك.

ـ مبروك.. مبروك.

ـ لكن ماذا ستفعل يا ناجى فى الأيام القادمة.. أقصد بعد التخرج والحصول على البكالوريوس؟!

سادت بينهما لحظة صمت عبر الهاتف كأنها الدهر كله ثم قال بعد تنهيدة حارة ذات مغزى:

obeikandl.com

ـ والله يا إيناس لا أدرى ماذا سأفعل، ولا ماذا تخبئ لى الأيام على كل الأحوال المستقبل بيد الله سبحانة وتعالى وحتى الآن لم أفكر فى الغد ولا ماذا أفعل.

هتفت إيناس بحماس:

ـ أحسن شئ تفعله أن تعود إلى القاهرة، وتبدأ حياتك العملية فى الصحافة فهى حلم حياتك ومجال دراستك وتخصصك.

ـ معك حق يا إيناس لكن يبدو أنك تغافلت عن شئ مهم جدًا

ـ ما هو؟!

ـ الخدمة العسكرية.

ـ يا سلام عليك يا ناجى.. قد تحصل على تأجيل أو اعفاء لا تعقد الأمور.. المهم أريدك فى القاهرة، ولا تنسى عندما تقرر أن تبلغنى فورًا.

ـ طبعًا.. طبعًا.. وأنت يا إيناس ماذا ستفعلين؟!

قالت ضاحكة بثقة وزهو:

ـ سوف أعمل فى أكبر مؤسسة صحفية قومية فى البلد.. فى مؤسسة الأيام طبعًا.

ـ الأيام مرة واحدة يا إيناس؟!

هل نسيت يا ناجى أننا تخرجنا فى كلية الاعلام قسم الصحافة والنشر.. أفضل الكليات المرموقة فى البلد.. أم تريدنى أن أعمل فى مؤسسة الأيام على صفحة وأترك صفحة؟!

ـ ربنا يوفقك يا عزيزتى.

قالها بصوت نحاسى بارد منزوع الحرارة وهو يتمتم فى نفسه دون أن تسمعه: والله أبناء القاهرة أكثر حظًا منا نحن أبناء الأقاليم.. فلا تصل إلينا مثل هذه الفرص الذهبية للعمل فى المؤسسات الصحفية الكبرى التى تعد حلمًا عزيزًا بعيد المنال على الريفيين أمثالى!

شـرد قليلاً وهى لا تزال معه على الجهـة الأخرى من الهاتف، وصار صوتها أشبه بالصدى البعيد الشاحب أو السراب الخافت الواهن وهى تردد:

ـ سـأنتظر منك مكالمة تليفونية.. يحب أن نلتقى فى أول مرة تعود فيها للقاهرة.. سأنتظرك لا تتأخر.. هيا أيها الريفى إرجع..

أفاق من شروده على مداعبتها بوصفه بالريفى فتبسم قائلاً:

ـ إن شاء الله.. إن شاء الله فى القريب العاجل.. مع السلامه ألف سلامة.

كانت علاقته مع إيناس مندور تلك الفتاة الغامضة تتأرجح بين الإعجاب والحـذر ويعتبرهـا نوعًـا من مواكبة حيـاة المدينة، والإختـلاط بين الفتى والفتـاة داخـل أسـوار الحرم الجامعـى، وكانت تصرفاتها تثيـر حيرته فى كثير من الأحيان لدرجة أنه وصفها ذات مرة بالمجنونة، فقد كانت تزوره بيـن الحيـن والحين فـى المدينة الجامعية حيث يسـكن علـى بعد خطوات معـدودات من بوابة الجامعة، عندمـا يتغيب عن حضور المحاضرات تباغته بزيـاره دون ترتيبات مسـبقة، واللقاء دائمًا ما يكون فى اسـتراحة المدينة الجامعيـة، وذات يـوم فوجئ بهـا تطرق باب غرفته، هذه المرة دسـت مبلغًا مغريًـا مـن المـال فى يـد الحـارس، وأوحت إلـه بأنها تـود زيارة شـقيقها فـى غرفتـه لأنه مريض وهـى تحمل له بعـض الأطعمة، والفواكه وسـوف تعـود بسـرعة دون أن يشـعر بها أى مخلـوق.. أدرك الحـارس كذبها لكنه تركها ودفن المبلغ فى جيب سـرواله الميرى الأسـود، وهو يتلفت فى كل الإتجاهات كأنه يرتكب أكبر الكبائر.. يومها فوجئ ناجى شرف الدين بطرقات خفيفة هامسة ناعمة على باب غرفته، نهض من فراشه مرتديًا تى شـيرت أبيـض عليه صـورة كاريكاتيرية لتوم وجيرى وفى نصفه الأسـفل يرتـدى شـورتا أزرق اللون، فتح البـاب ظنًا منه أن زميله عـزت النجار جاءه كعادته يطلب السخان الذى يستعيره أكثر من مرة فى اليوم الواحد كلما أراد اعداد الشـاى.. ألجمته المفاجأة، وبجرأة تحسد عليها اقتحمت غرفته ودخلت دون أن ينطق بكلمة ألقت عليه كلمات ترحيب قصيرة وحميمة لم

يرد من شدة الصدمة، ثم جلست على السرير، وتركت كرسى المكتب خاويًا، أغلق الباب والنافذة بسرعة خوفًا من أن يراهما أحد معًا بين أربعة جدران وثالثها الشيطان..

لم تتعجب هى أو تنزعج من فعلته تلك، وانما تساءلت بهدوء وثقة فجاءها رده فزعًا مرتبكًا:

_ يا إيناس.. ممنوع.. ممنوع.. كيف دخلت إلى هنا؟! كيف تخطيت الأسوار والبوابات والحواجز والحرس؟! هذه المدينة فيها الحراسة مشددة أكثر من سجن عسقلان الإسرائيلى!

قالت مطمئنة اياه:

_ لا تخف يا ناجى أنا أتحمل المسئولية.. إهدأ وافتح النافذة حتى لا تتحول غرفتك إلى زنزانة بالفعل.

_ يا إيناس حرام عليك.. لا أريد فضائح هنا.. لا مأوى لى فى القاهرة سوى هذه الغرفة.. هل تريدين أن يطردونى من هنا شر طردة؟! بالله عليك المفروض أن المقابلات والزيارات تتم خارج الغرف، سواءفى الاستراحة المخصصة للزوار أو حتى فى حديقة المدينة الجامعية، لكن يبدو أنك بجنونك سوف تجعليننى من سكان الرصيف!

ضحكت بملء فمها ضحكة هيستيريه مجلجلة من صميم قلبها خشى أن يصل صوتها المدوى إلى جيرانه من الطلاب فى الغرف المجاورة فتكون الطامة الكبرى، وهى المرة الأولى التى تزوره فيها أنثى..

وضع يده على فمها فأحس بسخونة شفتيها النافرتين المكتنزتين، وكأنهما خلقتا للقبلات ليس إلا وقال محذرًا متوسلاً:

_ أرجوك يا إيناس.. اصمتى يرحمك الله.

قالت بنبرة رجاء وتوسل:

_ الله يا ناجى.. لماذا تحرمنى من الضحك يا قاسى القلب؟! ألا تعرف

أن علماء النفس يؤكدون من واقع دراساتهم العلمية أن الضحكة الواحدة تعادل ٤٥ دقيقة من الإسترخاء اللذيذ.. ألا تعرف؟!

بدا فى قمة غيظه:

ـ أى استرخاء هذا؟! ولذيذ أيضًا؟! ومن أين يأتى الإسترخاء وتأتى اللذة؟! والله يا إيناس يا مندور لن تأتى المصائب إلا من وراء جنونك!

وبالفعل ما هى إلا لحظات معدودات، وسمع طرقات عنيفة غليظة تدق الباب وتضربه.. ظن أن القيامة قد قامت، وأنه هالك لا محالة، والجريمة ثابتة عليه ولا تقبل النكران أو التشكيك.. ها هى الأنثى بشحمها ولحمها فى غرفته والباب مغلق عليهما.. الجريمة كاملة متكاملة الأركان، والفضيحة واضحة.

همس لها:

ـ ألم أقل لك.. ها هم قد جاءوا ليقبضوا علينا حتى تستريحى يا إيناس.

تساءلت دهشة:

ـ ومن هم هؤلاء يا ناجى؟!

ـ سؤال غريب.. ماذا تظنين.. جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر!

قالها ساخرًا متحسرًا قبل أن يسمع من يتكلم أمام باب الغرفة:

ـ افتح يا ندل يا جبان.. افتح يا مفجوع.. أين الطعام هل ستأكله وحدك؟!

عرفه من صوته الأجش المتحشرج الغليظ كصوت قطار الدرجة الثالثة، كان زميله سامح إدريس الطالب فى كليه دار العلوم ابن المنصورة الذى يلعب ضمن فريق الجامعة للمصارعة الحرة، ويتدرب يوميًا على رفع الأثقال ,ولا هم له إلا التدريب، والتهام دجاجتين على الأقل يوميًا عن طريق الحصول على وجبات زملائه الذين يسافرون إلى محافظاتهم، ودائما ما

كان يستعين بصديقه ناجى شرف الدين ليساعده فى الحصول على بونات يصرف بها وجبات غذائية إضافية، وفى هذا اليوم أكله الجوع، فهجم على غرفة ناجى كالوحش الضارى، وبسرعة أدرك ناجى مراده ومقصده!

فتح له الباب ربع فتحه، وناوله أربعة بونات للطعام، ولم يسمح له بدخول غرفته بحجة أنه مرهق، ويريد أن ينام، وذلك بعد أن وارى إيناس فى أحد الأركان بعيدًا عن مرمى بصر سامح إدريس، ونظراته الجريئة المقتحمة.

_ نام يا جبان.. نام.. لو عشت ستين عامًا ستنام منها أربعين.. ستقضى أكثر من نصف عمرك نائمًا يا مغفل!

قالها مازحًا ساخرًا وهو يقبض على البونات كما يقبض الأسد الجائع على فريسته الشهية، وتبسم بخبث وهو يدرك أنه الآن أصبح يمتلك دجاجتين، وسوف يأكل حتى الثمالة.

أغلق ناجى شرف الدين باب غرفته، وتلفت ناحية إيناس مندور وقال لها لائمًا معاتبًا:

_ هذا المجنون صديقى، لكنه على أتم استعداد لأن يفضحنى، ويشهر بى بلا رحمة فى أيه لحظة.. أرايت يا حلوة نتيجة طيشك وهوسك ها أنذا أعطيته بونات طعامى حتى يتلهى بعيدًا عنى.. لكننى لن أتركه يجهز عليها وحده, لسوف أباغته وأقتنص نصيبى منها.

_ عمومًا لا تغضب يا ناجى سوف أعزمك.. هيا ارتدى ملابسك ودعك من صديقك وهذه الغرفة التى تشبه زنزانة الحبس الإنفرادى وتعالى نخرج سويًا لنقضى يومًا جميلاً، ونرى الدنيا وما فيها.

وبالفعل خرجا معًا، وبالقرب من بوابة المدينة الجامعية استقلا سيارتها الصغيرة الجديدة، وانطلقت بهما حيث لا يعرف إلى أين تقوده، وما وجهتهما.. كان مازال شارد الذهن يفكر فى حراس بوابة المدينة الجامعية وهم يبتسمون لها وهى سعيدة وواثقة من نفسها كأنها تخرج من قصرها.. أدارت الراديو على أغنية.. هذه ليلتى.. لأم كلثوم، وعاد هو

لشروده مجددًا..

سأل نفسه: لماذا تفعل معه كل ذلك؟! هل هى تعطف عليه أم متعاطفة مع ظروفه البائسة؟! هل هى تحبه أم مجرد إعجاب؟!

بينما هو يميل إليها فحسب، واهتمامها به يرضى غروره، ويجعله يشعر بذاته، وأنه شاب له فتاة معجبة به، كانت جميلة، طويلة رشيقة بيضاء هيفاء، سوداء الشعر، عيونها عسلية وبشرتها خمرية، تهوى ارتداء الجينز، ولها جسد ممشوق يغرى الأبصار، ويدير العقول ويحرك ما نام من الغرائز الذكورية، دائما تخفى سحر عينيها بنظارة سوداء مثل بطلة رواية إحسان عبد القدوس " النظارة السوداء " وتتحدث بدلال وغواية، ولها ضحكة مثيرة مجنونة فاتنة تشعل نارالشهوة، وتفزعها من سباتها العميق فى مكمنها العظيم، وحصنها الحصين، وقرارها المكين!

استرجع ناجى شرف الدين من صندوق ذكرياته أحداثًا كثيرة، هبت عليه عواصف فترة تجنيده بالجيش الثالث الميدانى فى سيناء، وصحراء الاسماعيلية القاحلة، وتذكر كيف كانت حقبة زمنية عصيبة من حياته، ويعتبرها الأسوأ والأسود على الإطلاق، قضاها صابرًا مثابرًا، ناقمًا متذمرًا، لا يعى مغزى ما يدور حوله من أوامر ونواهى ما أنزل الله بها من سلطان!

كره الحياة العسكرية، وبغض لون الرمال الأصفر الكالح، ومقت الميرى والتدريبات والرماية الليلية والنهارية، كما كره بروفات الموت فى الحروب الإفتراضية، والصراعات الوهمية عن مواجهة لا تأتى أبدًا مع العدو على خط النار هناك فى الجبهة الشرقية، حتى مرت الشهور وانتهت مدة تجنيده الإجبارية القسرية، وخرج عاجزًا نفسيًا وعقليًا عن إستيعاب أبجديات الحياة الصحراوية الجافة دفاعًا عن حبات الرمال التى لا تطاق، وتحت وطأة المعاملة الغبية الصارمة التى تلغى فريضة الفكر وتمجد مبدأ الأمر، وتعلى من شعار الطاعة العمياء هى قمة الولاء

عاد من جديد يتنسم عبير الحرية ، ويتنفس رائحة الحياة المدنية ، ويمحو من أعماق ذاكرته الحبر الأسود لتلك الأيام الجهمة!

***

obeikandl.com

(٤)

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾

حكاية إيناس مندور أغرب من الخيال، ولا تخطر لعاقل على بال، وهى لم تبح بها لأحد فى حياتها قط إلا عندما ذهبت للطبيب النفسى، بعد أن تسلحت بالشجاعة وتعاملت مع مصيبتها بعقل مفتوح، وأن ما تعانى منه مجرد داء لا وباء.. كانت قد ضاقت من نفسها ولم تعد قادرة على الإحتمال، وصارت تكن لجسدها كل احتقار.. كان الطبيب هادئًا رزينًا وسيمًا قسيمًا أصلع قليلاً فى بداية العقد الخامس من عمره، يتدلى من بطنه مشروع كرش صغير فى أوله.

يبدو الرجل من ذلك الصنف من البشر الذى يبعث على الراحة والطمأنينة فى نفس من يتعامل معه، وبصفة خاصة مرضاه.. أجلسها أمامه بود كصديقة قديمة، وطلب لها مشروبًا باردًا، وأعطاها حبة مهدئة للأعصاب، فشعرت بعد دقائق معدودات بحالة من الخدر، والإسترخاء وبدأت تهمس له بحكاياتها الغريبة المثيرة العجيبة التى تفوق أغرب ما فى حكايات شهر زاد، أدار السيمفونية الرابعة لبيتهوفن، فإنسابت الموسيقى صافية عذبة تسرى فى نفسها كما يسرى الماء الفرات فى الجداول والأنهار، وتقمص هو شخصية شهريار على صفحات ملحمة ألف ليلة وليلة.. قالت وقد توردت وجنتاها خجلاً ووجلاً:

بصراحة يا دكتور لا أعرف كيف أبوح لك بأزمتى، ولا أدرى من أين أبدأ سرد مأساتى التى تفوق مستوى الفضيحة، خجلى الشديد يمنعنى.. وأفكرفى رد فعلك.. وماذا ستقول عنى أو تذهب بك شياطين الظنون؟!

حاول طمأنتها قائلاً:

ـ كل كلمة تقولينها هنا لن يسمع بها أى مخلوق فى الدنيا.. تأكدى أن الحفاظ على أسرار مرضاى شئ مقدس أقسمت عليه، وهو عهد ووعد الأطباء منذ عهد أبقراط.. أنا هنا فى خدمتك لمساعدتك، وحل مشكلتك فلا تخافى ولا تفزعى على الإطلاق، وارمى الخجل جانبًا، واعتبرينى أخا وصديقًا وحدثينى بصدق وثقة وقلب مفتوح.

تبسمت قائلة:

ـ لقد ترددت كثيرًا قبل أن آتى إليك، وأبوح لك بسرى العظيم، وهمى الكبير، وأقر وأعترف بين يديك يا دكتور للمرة الأولى فى حياتى أن ما قمت أنا به لا يعقل أن تقوم به فتاة مسلمة، ولا تقدم على مثل هذه الفعلة النكراء سوى مريضة عقليًا ونفسيًا أو مجنونة رسميًا!

ولكنى أرجو أن يتسع صدرك لمصيبتى، ولا تنظر لى نظرة دونية، ولا تتعامل معى كمومس منحرفة، لأن مشكلتى تؤرقنى ليل نهار، تزلزل كيانى وتمزق ضميرى، وتعذبنى عذاب جهنم الحمراء، وأرجو أن أجد عندك الدواء..

أنا يا سيدى الآن شابة فى مقتبل حياتى، أبلغ من العمر ٢٢ عامًا بالتمام والكمال، ومن عائلة محافظة وميسورة، والحمد لله..

مشكلتى المستعصية، وسر أسرارى، بدأت منذ ما يزيد عن الخمس سنوات حينما كنت طالبة فى المرحلة الثانوية.. فى ذلك الوقت كانت لدى زميلة كنت أعتبرها صديقتى الصدوقة، ورفيقتى الحميمة، بل أعتبرها أختى التى لم تلدها أمى، وكنت فى قمة سعادتى عندما عثرت على هذه الصديقة الجميلة الرقيقة، رقة الأفاعى فى الصحارى والبرارى، وبالرغم من وجود زميلات أخريات لى إلا أن علاقتى بهن لم تصل إلى مسمى الصداقة الحقيقية، ولا إلى هذه الدرجة من التآلف والحب، فقد كانت تغلب عليها المجاملات، وكانت هذه هى أول صديقة ظننتها مخلصة لى وقد كنا

جيران سكن أيضًا مما سهل علينا كثيرًا لقاءاتنا المتعددة فى كل وقت وحين.. كنا نتقاسم الهوايات المشتركة، ونتفق فى الإهتمامات، وربما قضائى معها الكثير من الوقت، وزوال جميع الحواجز بيننا، وارتباطنا بمشاعر قوية وعاطفية جياشة متأججة جعلنا نخطئ فى حق أنفسنا، وفى حق ديننا، فقد بدأت هى تتحرش بى بنعومة ورفق، كمن يطارد فريسة، ويخشى أن يفزعها صوت طلقات بندقيته، أخذتنا العزة بالإثم، وتمادينا فى السباحة بين أمواج بحر الرذيلة، فلمساتها الدافئة الحانية لى، وقبلاتها الساخنة المشبوبة بنار الرغبة فى بعض الأماكن الحساسة للغاية من جسدى، وحتى عناقها لى أصبح غريبًا مريبًا، وقد بدأت أحس فعلاً بالخطر يداهمنى، وصارحتها بضيقى وقلقى من تصرفاتها فى الفترة الأخيرة، وهى اعترفت لى بما لا يقبل مجالاً للشك بأنها لم تعد تحبنى حب صداقة عادية، بل وصل حبها لى إلى أخطر مراحل الحب المتقدمة، صار حالة من العشق والغرام والوله، وهى تريد منى أن أرفع لها الراية البيضاء، وأستسلم لهذا الأمر الحتمى المكتوب علينا أنا وهى، وأبادلها المشاعر بالمشاعر، والشوق بالشوق، وما يترتب على ذلك من نار ودمار!

كنت مازلت قوية وصلبة إلى حد ما فى البداية، كنت مثل جبل الجليد المتماسك الذى سرعان ما يذوب مع أول لفحة من حرارة الشمس الدافئة.. رفضت جنونها وعهرها رفضًا قاطعًا فى البداية، فلا دينى ولا أخلاقى، ولا جسدى يسمح لى بذلك الفعل الآثم، وكانت نتيجة رفضى المستمر لجميع محاولات تقربها منى بهذه الطريقة أن تسبب ذلك لعلاقتنا بالفتور، والبرود الذى قارب على القطيعة.. لقد تألمت جدًا، وتأثرت نفسيتى كثيرًا، بل حتى درجاتى الدراسية بدأت تتراجع وتتقهقر، وأنا المتفوقة طول عمرى، وانتاب القلق أهلى أيضًا فى تلك الفترة خوفًا على مستقبلى، وأصررت بعدها ألا أثير قلقهم وحيرتهم على الإطلاق حتى لا يكتشفون أمرى المخجل، وفى نهاية المطاف ضعفت، نعم ضعفت وانهارت قوتى، وسقطت أسوار صمودى، كما سقط بارليف الحصين أمام خراطيم المياه

فى أكتوبر المجيد.. حدث هذا، وأنا أخجل من قول ذلك، لكنى يجب ألا أكون فى غباء النعامة أدفن رأسى فى الرمال، وجسدى فى العراء يواجه الأنواء، فأنا لم أتحمل بعدها عنى، وهجرها لى وحاولت اعادة صداقتنا مرة أخرى، وحدث ما كنت أتوقعه، وأخشى وقوعه، وأخاف من عدم وقوعه، تحرشت بى صديقتى من جديد، ووافقت لها هذه المرة، كنت راضية تمامًا مستسلمة بين يديها كما لو أننى قطعة من الصلصال تفعل بى ما تشاء، وتشكلنى كما يحلو لها، بعد ذلك شعرت بوخز الضمير، وبهزة نفسية عنيفة لدرجة أننى عندما رجعت إلى البيت بكيت كثيرًا، واستغفرت الله طويلاً، ولا أظنه قد غفر لى وشعرت بالعار والمهانة والهوان، وعاهدت نفسى ألا أعود إلى تلك الفعلة الشنيعة مرة أخرى حتى لو كلفنى ذلك صداقتها، وقلت لنفسى:

إذا كانت تريد صداقتى فقط لتفرغ بى نزواتها فلسوف أتخلى عنها نهائيًا، ولكن ذلك للأسف الشديد لم يحدث، وكررت هذا الفعل الآثم المشين معها مرتين وثلاث وعشر مرات أو يزيد، وكنت فى كل مرة أقول لنفسى إنها المرة الأخيرة، وبعدها أعلن التوبة، لكن هذا لم يحدث، وصار مستحيلاً..

حتى استمرأت هذا الفعل وأحببته بل أصبحت أنا من يقدم عليه، ويقبل عليها، وعادت حياتى لتوازنها بالرغم من هذا السلوك الأعوج غير المتزن، لكن ماذا أقول.. كل امرئ مسير لما خلق له.. عدت متفوقة من جديد، ولم أعد أثير الشكوك والمخاوف فى نفوس أهلى وأحبائى، ولكن فى كل مرة أجلس فيها وحدى أحس بالذنب والخزى والعار، وأبكى ندمًا ولوعة وأدعو الله أن يتوب على، وينتشلنى من الوحل، فلقد أصبحت مثلية الرغبة الجسدية، ولا مجال للإنكار أو الفكاك من مصيرى.. ها أنذا من الجنس الثالث الذى لا هو ذكر تمامًا ولا أنثى تمامًا، بل هو خليط من هذا وذاك.. وظللت معها على هذا الحال حوالى عام كامل!

أنهيت الثانوية العامة بتفوق والحمد لله، وإلتحقت بالجامعة، وانخرطت فى كلية الاعلام وقسم الصحافة الذى أردته، وحلمت به كثيرًا.. ولم تنقطع طوال هذه الفترة الحرجة من مراهقتى علاقتى بصديقتى الحميمة، واستمرت كلتانا فى هذه الممارسات المجنونة، ولكن مع فارق أنه أصبح لدى صديقات أخريات وهى أيضًا، بل وصار لدينا الكثير من الصديقات المشتركات، فهى ذات شخصية اجتماعية ومحبوبة جدًا، وأغلب من عرفتنى صديقتى عليهن كن مثلنا إلا أننى لم يكن لدى أيه علاقة شاذة أو مريبة بإحداهن، فصديقتى كانت توفر لى إشباعًا عاطفيا ًوجسديًا مما جعلنى لا أفكر فى غيرها!

وبعد عام قضيناه سويا فى علاقتنا غير السوية، أصبت بصدمة عنيفة عندما علمت بالصدفة البحتة أن صديقتى التى ظننتها لى وحدى تقوم بنفس هذه الممارسات مع فتيات كثيرات غيرى.. شعرت بغيرة قاتلة، تملكتنى حالة جنونية وكأنى فقدت أعز ما أملك وثرت، وغضبت وفكرت جديًا فى قتلها حتى أستريح وتستريح البشرية كلها من شرها وإثمها، ثم هدأت ثورتى، وخمدت فورتى لكنى عاتبتها فلم تهتم بعتابى، وحاولت إقناعى بأن وجود شريكات أخريات فى حياتها لا يقلل أبدًا من حبها لى ورغبتها فى!

رفضت منها هذا المنطق، وأنا التى رضخت لها فى البداية بدافع الحب , والصداقة الحميمة، وللأسف الشديد كل الجرائم الشيطانية، والأفعال الجنونية ترتكب بإسم الحب.. الآن فقط عرفت لماذا كانت تصفنى بالقطة العمياء، وتعتبرنى ساذجة وطيبة.. مجرد أنثى تسكن جسدًا جميلاً مثيرًا ليس إلا، الآن فقط إكتشفت الحقيقة المرة وهى أننى مجرد جسد من بين أجساد أخرى متعددة فى حياتها، وأننى مجرد محطة واحدة من محطات العبث المتنوعة فى رحلتها الشائكة المشوقة مع السحاق!

إكتشفت أننى دمية تعبث بها وقتما تشاء، وتلقى بها فى سلة المهملات وقتما تمل وتزهق، ويصيبها الضجر والسأم.. شعرت بالتقزز والألم والرغبة

فـى الموت، فالحب الذى كنت أحاول أن أجعله يقوم بتشـريع هذه الأفعال لى، ويمنحها صك الحلال لم يعد موجودًا، لقد أصبحت مجرد رذيلة وعادة مذمومة!

ابتعـدت عـن هذه الصديقـة تمامًا وفـى البعد طوق النجاة فـى كثير من الأحيـان ورفضتهـا وصددتها حتى عندمـا حاولت العودة إلـى، وقد أقنعتها بأننى تغيرت، ولن أفعل ذلك مرة أخرى، لن أسبح فى بحر الخطيئة مجددًا ولكن الواقع أننى لم أستطع نسيان الأمر والفكاك منه، فالعادة أقوى من الحب، والإنسـان أسـير مجموعة عادات تكبله مثل قيد حديدى حتى وإن تظاهر بعكس ذلك، وكنت كلما مر على الوقت، وأنا بعيدة عنها أفكر فيها وكأن جسـدى يسـتغيث بها ويسـتجديها، ويناديها ومـن ناحية أخرى أشـعر بالراحة التامة لأننى بهجرى لها، وبعدى عنها سـوف أتخلص من هذه التصرفات الحمقاء التى تشعرنى بالعار ووخز الضمير!

لكن المفجع فى الأمر أن هناك من بين زميلاتى من كانت تعرف قصة علاقتـى السـابقة بصديقتى تلـك، وبدأت بالفعل تتقرب منـى، ولم أقاومها هـى الأخرى، بـل أعطيتها الضوء الأخضر، فقد كنـت فى حالة صراع مع نفسـى وجسـدى، فتعلقت بها بجنون، وأذهلتنى بآدائها فى الفراش، حيث وجدتهـا محترفة جـدًا فى هذه العلاقة، وشـرهة جدًا وتمـارس الحب معى بإخـلاص وصـدق، وتعلمت علـى يديها آخر فنـون هذه الرذيلـة، وبعد فترة زمنيـة ليسـت طويلة أدخلتنـى تلك الداعرة الملعونة فـى مجموعة خاصة من البنات الحسـناوات عاشقات الجسد ولغته، هوايتهن ممارسة هذا النوع من الفجور والفسق الأنثوى الناعم اللذيذ!

فـى تلـك الفترة عادت علاقتـى بصديقتى القديمة.. سـمحت لهـا بالعودة إلى أحضانى بعد أن أذللتها عامدة متعمدة مع سـبق الإصرار جراء ما فعلت بى سـابقًا، وعادت معها أيضا ممارسـة الحب علـى طريقتها الخاصة جدًا.. السـرية جـدًا.. الجنونيـة جدًاجـدًا مع فارق بسـيط للغاية، وهـو أننا لم نعد

نكتفى ببعضنا أنا وهى.. فكلانا لديها الآن من العشيقات الكثير، وما بينى وبينها على وجه الخصوص صار أقرب ما يكون آنذاك إلى علاقة الود القديم، ولم يعد للإخلاص أى مكان بيننا.. سافر إلى المجهول ولم يرجع!

وكان من آثار هذه العلاقة الجنونية أن تغيرت مفاهيم كثيرة فى مفردات تعاملى مع الصديقات والزميلات والرفيقات.. أصبحت كل نظرة أو لمسة أو همسة أو بسمة بالنسبة لى هى عبارة عن دعوة صريحة لممارسة هذا النوع من الحب الأسطورى بين بنات حواء، وقد أخطأت ذات مرة فى تقدير مشاعر ود بريئة من إحدى الزميلات، وفسرتها على أنها دعوة خجولة منها للفراش، وتصرفت بحماقة معها على أساس هذه المشاعر الخاطئة وهى لم تكن من هذا النوع من الفتيات مما جعلها تهرب منى، وتتهرب من صداقتى، وتقصر علاقتى بها على زمالة فى أضيق حدود الزمالة، ولا أتذكر أننى تمكنت من النظر إلى عينيها بعد ذلك بسبب خجلى منها .. ماذا أفعل وقد أصبحت مشاعر الود، والصداقة والحب الصافى مرتبطة فى عقلى بالعبث فى جسدى؟!

مرت على أربع سنوات وأنا فى الجامعة، وبرغم أننى كنت قد شعرت بميل عاطفى نحو زميل لى يدعى ناجى شرف الدين، إلا أننى كنت أنتقل من فتاة لأخرى، وأعاشر هذه وتلك تعاشرنى، وأطارد هذه الفتاة , وتلك الأنثى تلاحقنى.. أشعر بالملل من هذه وأعشق تلك، وأغار من أخرى.. لم تكن الفتاة التى تعجب بى تبذل جهدًا يذكر لجذبى إليها، واستمالتى لحبائلها وشبكة حبها الخطرة، وبرغم كل هذه المغامرات الشائكة، والسير حافية فى حقل من الألغام ظللت محافظة على غشاء بكارتى، أغلى ما تملك الفتاة فى مجتمعنا الغبى، فلم أكن أسمح لأى منهن بالاقتراب من كهف متعتى أو تهديد سور عذريتى.. هذا هو مبدئى الذى لا أحيد عنه مهما كانت درجة اللذة التى أصيبها، ومع كل هذا الحذر والخوف على شئ ما

يتعلق بالعفة كنت أعلم تمامًا فى قرارة نفسى أننى ساقطة حتى ولو كان غشاء بكارتى ورمز عفتى ما يزال فى حصنه الحصين بمأمن من عبث العابثات!

كانت هذه الحياة قد تمكنت من قلبى وعقلى وجسدى، بالرغم من شعورى المؤلم بالذنب الفظيع الذى كان يظهر من حين لآخر كلما كنت وحيدة فأرجع للبكاء والندم والاستغفار، فأنا أخشى الموت وأنا مصرة على هذ الإثم الذى يعد من أكبر الكبائر إن لم يكن أكبرها بالفعل، خصوصًا حينما توفيت فى حادث سيارة إحدى الفتيات اللواتى كانت لى علاقة سرية بهن.. بكيت كثيرًا فى هذه الأثناء، ودائمًا أدعو لهذه الفتاة بالمغفرة والرحمة وأتصور نفسى مكانها الآن.. فماذا أنا فاعلة؟! وكيف كنت أقابل ربى وبأى وجه، وماذا أقول له سبحانه؟!

لكن وا أسفاه بعد فترة قصيرة عدت بلا أسف إلى علاقاتى السابقة، وقد تملكنى شعور قمئ بأننى سأظل رهينة هذا الانحراف طوال حياتى.

المهم أننى تخرجت من الجامعة، وأنهيت دراستى بكلية الإعلام، قسم الصحافة ولم أعد أمتلك سببا منطقيًا أقنع به أهلى برفضى لفكرة الزواج حتى الآن وإن كان قلبى يميل إلى زميلى ناجى من بين كل شباب الجنس الآخر، وأشعر فى ذات الوقت بالخوف والارتباك، وبأننى لا يمكن أن أكون زوجة وأمًا بحال من الأحوال!

لا أدرى يا دكتور ماذا أفعل؟!

ما زال عندى تفاصيل وأحداث كثيرة لكننى أريد أن أسمع منك تشخيصًا لحالتى.. أشار لها الطبيب أن تهدأ وتلزم الصمت وتسترخى قليلاً بعد أن أحس بأنها قد تعبت وبدا الإجهاد ينال منها، وبدأ يتكلم هو بإستفاضة وثقة كأنه واعظ حكيم أو أستاذ مخضرم فى قاعة المحاضرات بالجامعة.. قال ولا فض فوه:

ـ يا إيناس.. يؤسفنى أن أقول لك إن ما أنت عليه الآن هو ما يعرف علميًا

باسم السحاق، وهو بطبيعة الحال يتمثل فى ملامسة وإلتقاء مباشر للأعضاء الأنثوية الحساسة لطرفين من بنات حواء، ومعلوم أن هناك كثيرًا من الأمراض التناسلية كالهربس، والسيلان، والزهرى، والإيدز نتيجة لهذه الممارسات، وكذلك الأمراض الجلدية المتعددة والخطيرة مثل التقرحات، والطفيليات التى تنتقل من أنثى إلى أخرى عن طريق ملامسة الأعضاء التناسلية والعبث فيها لإثنتين مع بعضهما، والغريب أنه حصلت حالات حمل لفتيات لم يكن متزوجات بسبب ممارسة الحب مع أخريات متزوجات أو من البغايا، وهو مرده أن تكون إحداهن قد ضاجعت زوجها أو عشيقها ثم إرتكبت عملية السحاق مع الضحية!

والطريف فى الأمر أن هذه الظاهرة تنتشر فى المجتمعات المغلقة على الإناث فقط، خاصة فى المدن الجامعية للبنات، وسكن الطالبات، حيث تلبس الفتاة ملابس النوم، الضيقة القصيرة المثيرة وتبدأ حالة الإعجاب عندما تسترجل إحدى الفتيات ويمارسان معًا الحب فى تلك الحالة، تقوم المسترجلة بدور الذكر، وتقوم الفتاة ذات الملابس المثيرة بدور الأنثى وكأنهما رجل وأنثاه فى فراش الزوجية، وفى نفس الغرفة أحيانًا يحدث ذلك على مرأى ومسمع من الفتيات الأخريات فى نفس السكن، وهذة الظاهرة للأسف الشديد فى تزايد مستمر فى ظل وجود العوامل المثيرة للرغبات الجسدية مثل القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية المعروفة بإسم الإنترنت، والهاتف الجوال الذى أصبح الآن للعلاقات غير المشروعة!

وإن أغلب الفتيات اللاتى وقعن فى هذه الممارسات السيئة ضحايا أكثر من كونهن سحاقيات، وهناك حوالى ٧٠٪ من الفتيات الشاذات لا يرغبن فى تعديل وعلاج سلوكهن خاصة اللاتى مارسن هذه الظاهرة وحصلن منها على المتعة، ولا يجدن فى أنفسهن ميلاً أو اثارة فى الرجل

وفى دراسة عن مركز البحوث الاجتماعية والجنائية كشف أن هذه

الظاهرة تنتشر بين ٩٪ من بنات ونساء مصر، فى حين تبلغ نسبتها ٢٨٪ بين بنات ونساء دول الخليج العربى! وثمة انحرافات عديدة بينها تلك الظاهرة جاءت إلينا من الحضارة الغربية.. صدرتها لمجتمعاتنا العربية عبر وسائل الاعلام وأدوات الثقافة، والأفلام، وعشرات الجسور الأخرى.

والدليل على ذلك ما تناقلته وسائل الاعلام العالمية عن السحاقيات الأكثر شهرة فى العالم، فقد كشفت صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية النقاب عن ممارسة وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة تسيبى ليفنى وزعيمة حزب كاديما الحب المحرم مع نظيرتها الأمريكية كونداليزا رايس، برغم أن الوزيرة الاسرائيلية جميلة للغاية، ولا تقل أنوثة وأناقة عن نجمات السينما بينما الوزيرة الأمريكية، سوداء عجفاء، غليظة النبرة دميمة الملامح تجاوزت الخمسين من عمرها ولم تتزوج لذلك فهى تقوم بدور الرجل، بينما الفاتنة الاسرائيلية تلعب دور الأنثى ببراعة واقتدار!

هذه حقيقة راسخة يعرفها الجميع فى معظم دول العالم وليست محض خيال جامح، أو تشويه صورة بنات أمريكا وتل أبيب حاشا لله.. لكن واقع الأمر أن وزيرة التعليم الاسرائيلية "ليمون لفنات" وهى صديقة مشتركة للوزيرة ليفنى والوزيرة رايس هى التى كشفت العلاقة السرية بينهما لأنها كانت شاهدة على لقاءاتهما الملتهبة والحميمية فى الغرفة رقم ٥٠٣ بفندق داوود فى تل أبيب!

توقف الطبيب لحظات، يلتقط أنفاسه بعد أن دخلت سكرتيرته وقدمت كوبين من عصير البرتقال ثم خرجت وقبل أن يعود للثرثرة من جديد، فاجأته إيناس بسؤال مباغت وساذج.. قائلة:

ـ ماذا تعنى كلمة سحاق يا دكتور؟!

تبسم الرجل وقال مجاملاً إياها بلطف:

ـ هذا سؤال فى غاية الأهمية.. كنت أنتظره منك.

ـ أصل كلمة السحاق يعود إلى جزيرة "ليسبوس" فى بحر إيجه

باليونان، حيث كانت مسقط رأس الشاعرة اليونانية الجميلة " صافو " التى عشقت السحاق وحرصت على ممارسته مع النسوة اليونانيات فى القرن السادس قبل الميلاد، وكان حُسنها يفتح لها الأبواب والقلوب والأحضان والسيقان أيضًا، تميزت بجاذبية مبهرة، وذكاء غير عادى وقد عاشت فى الفترة ما بين عامى ٦٣٠ وحتى ٥٦٠ قبل الميلاد.. ومعنى " صافو " هو الصوت النقى العذب الشفاف وكانت اسمًا على مسمى.. ولدت صافو فى قرية صغيرة تدعى " أربسوس " على الجزيرة اليونانية، ومات أبوها وهى فى التاسعة من عمرها، وتولت أمها الجميلة المبهرة الفاتنة رعايتها، وعندما بلغت صافو الخامسة عشرة من عمرها، تزوجت وأنجبت طفلة، وبعد شهور معدودة فشلت فى حياتها الزوجية الجديدة، وشعرت بإحباط عظيم عندما خذلها زوجها، وأصيب بالعنة والعجز الرجولى الكامل، فلم يعد قادرًا على إشباع غريزتها الأنثوية وأصبح جمالها سر لعنتها، فلم تقدر هى الأخرى على كبت ثورة جسدها فكرهت الرجال جميعًا، واتجهت نحو بنات جنسها من العذارى الحسان اللاتى يرددن معها الشعر، ويغنين ويعزفن أحلى الألحان، ويمارسن معها الشهوة، حتى عشقت السحاق، واستغنت به وبهن عن كل الرجال فى هذا العالم!

وفى آخر حياتها تورطت فى مشاكل جزيرة " ليسبوس " السياسية، واضطرت للفرار إلى صقلية، وماتت هناك، وأحرقوا جثمانها حسب الطقوس الدينية السائدة آنذاك، ونقلوا رمادها إلى بلدها، كما خلدوا اسمها برسم صورتها على الأوانى والنقود!

وتركت صافو وراءها مجموعة قصائد شعرية بديعة فى تسعة دواوين تحوى بين دفتيها ١٢٠ ألف بيت من الشعر، ويتركز شعرها فى عشق البنات، ووصفه ومدحه والإشتياق إليه، وكيف كانت تمارسه مع أنثاها المفضلة " آتيس "، ولذلك سميت المساحقة فى بعض البلدان " صافوية "

نسبة إلى صافو، وكان هذا الشعر أفضل دعاية سيئة لإنتشار الظاهرة الأسوأ بين بنات ونساء صقلية واليونان وفرنسا، ولم يكن هذا الفعل البشع مقتصرًا فى بدايته التاريخية على اليونان فقط، بل إمتد إلى بلاد أوروبا ,وروما، فقد كانت فى روما حمامات كثيرة للنساء، أعدت خصيصًا لممارسة السحاق بينهن بكل أشكاله وأنواعه وفنونه، ومازال هناك فى فرنسا حتى اليوم جمعية سرية تسمى " بنات صافو " تمارس السحاق فى معبد " فسنا "، وللجمعية فروع أخرى فى جميع أنحاء فرنسا، وتضم الكثير من الحسناوات ونجمات المجتمع والفن بين عضواتها، وكل إمرأة أو فتاة رغبت فى الإلتحاق بالجمعية لممارسة السحاق مع عضواتها لا يتم قبولها بسهولة، فلابد من اختبارها واجتيازها لشروط صعبة من أهم هذه الشروط أن تتعرى أمام عضوات الجمعية للتدقيق فى محاسن جسدها، والتأكد من مدى صلاحيتها، وقدرتها على إثارة الشهوة فى نفوس وأجساد عضوات الجمعية الأخريات!

وفى مدن الشرق الأقصى، وخاصة الصين والهند هناك الكثير من بنات صافو يمارسن مع بعضهن البعض الحب الشاذ المحرم.

المدهش أن السحاقيات لا يختلفن كثيرًا عن غيرهن من النساء الطبيعيات السويات من حيث اللجوء للإستثارة الحسية للحصول على النشوة، وبلوغ الرعشة بالقبلات، والمداعبات باليد واللسان والشفاه واستثارة المناطق الحساسة المثيرة، وبعضهن يعترفن بأنهن يفضلن العناق والإلتصاق الجسدى بغيرهن من النساء أكثر من إهتمامهن بإستثارة أعضائهن الجسدية بأنفسهم أو عن طريق الرجال، وهذا بحد ذاته يشير إلى أنه حتى المرأة المثلية تهتم كثيرًا بالناحية العاطفية، وتشعر الفتاة التى تمارس علاقات حميمية مع غيرها من بنات جنسها، كما يشعر الرجل وتتصرف كما يتصرف، فهى في كثير من الأحيان تقص شعرها وتخوض ألعاب الرجال، وتغشى مجتمعاتهم، وتكون فى الغالب ذات عاطفة حادة!

وإذا خطـر لسـحاقية أن تغرى فتاة بلا تجربة فإنها تبـدأ بالتحايل عليها ، ومحاولة إسـتمالتها ، واكتسـاب عطفها وودها بأن تظهر نحوها شـيئًا من الحـب والحنـان العاديـين ثم تتبـع ذلك بالقبـلات والعناق ، والنـوم معها فى فـراش واحد وبعد ذلك تسـعى جاهدة بكل خبرة أناملها الشـريرة المدربة علـى ايقـاظ حواسـها النائمة ، واسـتنفار مشـاعر اللـذة والشـهوة فى نفس فتاتهـا التـى دائمًا ما تجهل أن وراء هذه الأحاسـيس العاطفية تتخفى علاقة غيـر طبيعيـة ، فتقع بدورها فى حب صاحبتها ، وتنتهـى هذه العلاقة النهاية المخطط لها سلفًا ، وقد تدوم تلك العلاقة سنوات عديدة!

فى الحقيقة هذه الظاهرة الخطيرة أكثر انتشـارًا فى الغرب وإن كانت موجودة فى مجتمعاتنا العربية فإنها سرية ودائمًا تنطلق من وراء ستار ، بينما هى فى الغرب علنية ، ويتباهون بها ولها جمعيات ومنظمات وهيئات تطالبن بحقوق عضواتها وتحمى سـلوكهن المشـين ، والسحاق مثل غيره من أوجه الشـذوذ الأخـرى بحاجة إلى علاج نفسـى دؤوب وصبر طويـل حتى يمكن مساعدة المريضة أو الضحية على نبذ هذه العادة الجهنمية ، والعودة بها إلى صوابها النفسى والجسدى!

صمت الدكتور لحظات بينما ايناس مندور فى حالة اسـترخاء تام أمامه كـأنهـا تتابـع فيلمًا بوليسـيًا أو تنصت لحدوتـه قبل النوم ثم أنهى الجلسـة العلاجية على وعد بجلسة أخرى فى الأسبوع القادم.

***

(٥)

" فـى الصفحـة الأولـى مـن كتاب الحـرب.. لا هجـوم على روسيا بالدبابات، ولا زحف على الصين بالمشاه، ولا استهانة بالضعفاء! "

فكر ناجى شرف الدين طويلاً فى طريقة للفكاك من بين أنياب البطالة بعـد فتـرة قضاها خامـلاً نائمًا فى العسـل، يئن مـن الفراغ، ينهشـه الملل والكسـل والإكتئاب حتى ذهب ذات يـوم إلى مكتب جريدة الأيام بمدينة المحلة الكبرى وهى المدينة الأقرب لقريته ومسـقط رأسـه، اختار جريدة الأيام باعتبارها المؤسسـة الصحفية القومية الأكبر، والأكثر توزيعًا، لم يكن يرغب فى أن يترك أمه ويخوض غمار الحياة، وصراعاتها فى القاهرة، طـرأت عليـه فكـرة وأعجبته.. لمـاذا لا يعمل مراسـلاً لصحيفـة الأيام من المحلـة، وعندما إلتقى مدير المكتب وعـرض عليه الأمر، دهش الرجل، وكان ودودًا معـه للغاية، وبعد أن سـمع قصته نصحه بضرورة الإنتقال إلى العاصمـة رغـم كل الظروف والصعاب.. هناك فى القاهرة المسـتقبل يفتح ذراعيـه، وأكـد له الرجل أنه سـيتحمل وزرًا كبيرًا لوسـمح له بالعمل فى مكتب اقليمى، بينما مكانه الطبيعى فى المؤسسات الصحفية الكبرى وأوضـح له أنه برغم وصوله لمنصب مدير المكتب إلا أن مؤهله الدراسـى مجرد " دبلوم صنايع " واحترف التصوير الفوتوغرافى، وهذا ما ساعده على الإسـتمرار فى العمـل الصحفى، وأنهـى الرجل المقابلة بحنـان أبوى، وهو يشد على يد ناجى شرف الدين قائلاً:

يا بنى حرام عليك.. إذهب إلى القاهرة هناك سوف تنجح ولن يضيعك الله أبدًا، ما دمت تقصد وجهه الكريم.

انصـرف ناجى حزينًا مهمومًا يـرى الدنيا من ثقب ضيق، وكأنها ارتدت عباءة سوداء وهمس لنفسه:

يااربى.. لقد رضيت بالهم.. والهم لم يرض بى!

وأحس الفتى وقتها أنه لامناص أمامه من العودة للقاهرة، وليكن ما يكون.. ولكن كيف؟!

هل يهبط أرض قاهرة المعز، ويقف فى شوارعها، وعلى نواصيها ليقول للناس.. أنا خريج كلية الاعلام، قسم الصحافة والنشر.. افتحوا لى الأبواب المغلقة فى صحف المحروسة، ومؤسساتها الاعلامية المرموقة؟!

نصحوه بأن يكتب طلبًا لعضو مجلس الشعب عن الدائرة التى تقع فيها قريته الصغيرة، وبالفعل لم يتوان النائب البرلمانى عن خدمته، فالمحافظة كلها ليس فيها من خريجى كلية الإعلام سوى عدد محدود يعد على أصابع اليد الواحدة ولذلك يعد ناجى بمؤهله الدراسى عملة نادرة فى محافظة الغربية واستطاع النائب البرلمانى الذى كان صديقًا شخصيًا لرئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة "المصرية"، وكثيرًا ما نزل الصحفى الكبير ضيفًا على النائب البرلمانى مع احدى محظياته يقضى أحلى الأوقات فى مزرعة سيادة النائب يأكل ويشرب، ويتنزه فى حدائقها الغناء بحرية وبحبوحة وعبث، وكأنه فى جنته الموعودة، وجيش من الخدم يلبون طلباته، ويحققون رغباته..

كانت فرحة ناجى شرف الدين كبيرة بالتأشيرة الواضحة الصريحة على طلبه حيث وقع الكاتب الكبير عنتر رجب رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة "المصرية" بخط يده الجميل، وبقلمه الحبر الأسود..

" إلى السيد مدير عام شئون العاملين..

يعين فورًا فى مجلة الحرية، وأفاد بما تم "

أمسك ناجى بالطلب كمن يمسك بطوق النجاة لينجو من الغرق فى بحر الظلمات، وهتف لنفسه، وهو يتأمل تأشيرة عنتر رجب رئيس التحرير بإنبهار:

ـ أحمدك يا رب.. الآن أستطيع أن أسافر إلى القاهرة، وأنا مطمئن القلب أننى لن أضيع فى زحامها، ولن أذوب فى طوفان ضجيجها!

عقد العزم على أن يستقل أول قطار يتحرك فجر اليوم التالى متجهًا من محطة المحلة الكبرى إلى القاهرة لتكون جريدة " المصرية " العريقة التى رأس تحريرها فى يوم من الأيام الرئيس الراحل أنور السادات قبلته الصحفية الأولى، وكعبته التى آن الأوان ليزورها وقد يبقى فيها إلى ما شاء الله له أن يبقى..

وصل القطار فى السادسة صباحًا تأخر كعادته تهادى قليلاً، وكأنه أرجوحة تهدهد الركاب قبل أن تتوقف لتلفظهم من أحشائها على الرصيف، لينتشروا فى مواكب العاصمة التى تسير فى كل الاتجاهات، كل مسير لما خلق له، ثم أتجه ناجى شرف الدين سيرًا على الأقدام إلى حيث مبنى مؤسسة " المصرية " للصحافة التى تبعد عن محطة السكة الحديد فى ميدان رمسيس مئات الأمتار، وجد الوقت مبكرًا فجلس على مقهى قريب من مقر الجريدة.. إشترى نصف دستة ساندوتشات من الفول والطعمية، وإلتهم منها ما يكفى معدته، وأتبعها بكوب من الشاى الساخن بالنعناع الأخضر، ثم أتبعه بكوب آخر حتى أحس بالامتلاء، وبثقل فى بطنه، كما لو كان ألقى بحجر فى جوفه، استرخى فى مقعده مضجعًا يراقب حركة المارة، وهم يهرولون إلى أعمالهم، وعلى وجوههم ترتسم الجدية، مرت عليه أكثر من ساعة وهو قابع فى مكانه ينتظر.. شعر بأن عقاربها لا تسعى، وهو فى مكانه يزدرد مشروبه المفضل ويتلذذ بدفئه مع وهج الشمس الحانى الحالم، وعندما تجاوزت الساعة التاسعة والنصف، نهض متجهًا إلى هدفه داخل المؤسسة الصحفية، وفى صالة التحرير إلتقى ناجى مع حسن فودة رئيس تحرير مجلة " الحرية " التى اختارها له عنتر رجب رئيس مجلس الإدارة ورئيس تحرير الجريدة اليومية الأولى التى تصدر عن دار المصرية لكى يتم تعيينه فيها، تناول رئيس تحرير المجلة الطلب من

ناجى شرف الدين وابتعد به عن زحام وضجيج صالة التحرير، ودلف به إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة مستفسرًا عن التأشيرة التى يعرفها جيدًا لكنه يعرف أيضًا أن تعليمات رئيس مجلس الإدارة صريحة وواضحة، وتقضى بعدم التعيين، والمؤسسة فيها عشرات المحررين الذين عملوا تحت التمرين لأكثر من خمس سنوات دون بارقة أمل فى التعيين.. انتظر ناجى بشغف، وقلق حتى عاد حسن فودة وبدا جادًا متجهمًا على غير عادته، حاول قدر جهده أن يبدو طبيعيًا دون جدوى حتى إنبرى يشرح لناجى ويفسر له أن المؤسسة مزدحمة وبها طابور طويل يحلم بالتعيين، والأفضل له ألا يقف فى هذا الطابور، وعليه أن يبحث له عن فرصة أخرى فى مكان آخر.. كادت الدموع تفر من عينى ناجى الذى قطع هذا الطريق على الرجل قائلاً:

ـ أرجوك أعطنى فرصة، فلا مجال أمامى للعمل فى مكان آخر، ودراستى لا تؤهلنى للعمل فى أى مجال آخر سوى فى الصحافة.. أم أنكم لا تريدون وجودى هنا؟!

بدا التأثير واضحًا على رئيس تحرير مجلة " الحرية " الذى تغطى جبهته علامة الصلاة الجميلة، والتى تشبه حبه الفول السودانى، ثم قطع الشك باليقين قائلاً:

يا ولدى بصراحة رئيس مجلس الادارة أعطاك الموافقة على طلب التعيين فى ظروف خاصة.

ظروف خاصة.. ماذا تقصد يا أفندم؟!

رئيس مجلس الادارة الأستاذ عنتر رجب كان قد شرب الكحوليات أكثر من اللازم فى ذاك اليوم حتى ثمل.. هذا ما قاله لى بنفسه.

انتابت ناجى شرف الدين خيبة أمل كبيرة، وأدرك حسن فوده ما يعتمل فى نفس الفتى، فحاول أن يخفف وقع الصدمة عليه، ضغط بعصبية على زر أمامه مثبت بإحكام فى مكتبه، وعلى الفور دخل الساعى بملابسه الزرقاء الرسمية التى تشبه زى السجن، أعطاه الرجل تعليمات سريعة

وقصيرة وموجزة، لم يتبين ناجى معناها فى ظل شروده، واحساسه بعظيم الإحباط، وبعد لحظات جاءه الساعى بخمسة محررين من الذين قضوا أكثر من خمس سنوات تحت التمرين على أمل قد يأتى، وقد لا يأتى، وأمرهم بالكلام، فبدأ كل محرر يروى قصته وكفاحه ومعاناته فى العمل داخل دهاليز بلاط صاحبة الجلالة، فى مهنة البحث عن المتاعب، مقابل أجر رمزى، ومع الأيام يتلاشى الأمل فى تحقيق حلم التعيين، والحصول على كارنية نقابة الصحفيين والذى يعادل تأشيرة هجرة إلى أمريكا!

طلب ناجى أن يأخذوه لمقابلة رئيس مجلس الادارة عنتر رجب صاحب التوقيع بالموافقة على تعيينه، فقالوا له: هذا مستحيل فمن السهل عليك أن تقابل ربك، بينما من الصعب جدًا أن تقابل الرجل الأهم فى الصحافة والسياسة، فهو الأقرب إلى قلب وعقل الرئيس، وهو الذى يكتب له خطبه السياسية، ويسبح بحمده ليل نهار فى مقالاته التى تعد دستورًا لا مثيل له فى النفاق والتزلف والتملق!

خرج حزينًا مكفهر الوجه لا يدرى ماذا يفعل؟!

سأل نفسه: لماذا يعيش الناس الأكابر فى عزلة عن الناس الذين منحوهم الشهرة والنجومية، والنفوذ والفلوس؟!

وجاءه الجواب على الفور عندما تذكر كلمات عن الغرور والتعالى لا يدرى بالضبط أين قرأها.. تقول تلك الكلمات:

" منذ نحت الشاعر الفرنسى الأشهر سانت بيف مصطلح " البرج العاجى " فى قصيدته الرائعة " أفكار أغسطس " عام ١٨٣٧ راج المعنى فى الثقافات المختلفة تعبيرًا عن العزلة والتعالى، وهناك فى كل مؤسسة صحفية أو مطبوعة يومية أو أسبوعية أو شهرية جورنالجى يسكن البرج العاجى، ويتعالى على المشاكل اليومية للناس البسطاء والمهمشين والتى يعتبرها تأكل الروح أكلاً! "

***

(٦)

" من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر! "

بعد مساء يوم الخميس بدت القاهرة ممطرة ساحرة، فى إحدى أمسيات الشتاء الدافئة اللذيذة التى تبعث على الأمل، ارتدت إيناس مندور جاكيت جلد طبيعى أسود، ومن تحته بلوفر صوف أبيض، وبنطلون جينز أزرق، ودست قدميها فى حذاء رياضى أبيض خفيف، واتجهت إلى طبيبها النفسى فى حى المهندسين فاليوم هو موعد جلستها العلاجية الثانية، كانت العيادة هادئة يخيم عليها صمت القبور، استقبلها الطبيب بترحاب معتاد، وابتسامة صافية حانية رقيقة كأنه حبيبها، وبعد تبادل كلمات قصيرة سريعة عن الصحة والأحوال، عقب هذه التحيات التقليدية استرخت إيناس على كرسى الإعتراف، وبدأت مجددًا تحكى عن خطاياها وهو يتأملها كراهب يمنح مؤمنًا فرصة البوح حتى يتطهر من الذنب، اضطجع على مقعده فى غاية الهدوء، والسكينة، وفى يده قلم حبر أسود، وبين يديه أجنده حمراء يدون فيها من حين لآخر بعض الملاحظات..

قالت بثقة هذه المرة:

ـ بعد انتهاء دراستى الجامعية، وإلتحاقى بالعمل كمحررة صحفية تحت التمرين بمؤسسة صحفية قومية عريقة ترضى طموحى، أعلنت رغبتى للأهل والأقرباء بالذهاب للأراضى الحجازية المقدسة لآداء شعائر العمرة وفعلاً حدث ما كنت أتمناه، ورافقنى أبى، وهناك بكيت بحرقة ومرارة واشتياق للتوبة، وشعرت أن دموعى طهرتنى، وأزالت تل ذنوبى وعندما عدت أصبحت إنسانة أخرى كأننى خلقت من جديد..

عدت وأنا كارهة للحياة التى عشتها فى مستنقع اللذة الحرام لأكثر من ست سنوات.. عدت تائبة نادمة على كل ما فعلته من قبل، وقطعت علاقتى

بكل صديقة كنت أمارس معها هذا الفعل المشين، وأولهن بالطبع تلك الشيطانة العاهرة التى قادتنى إلى هذا الطريق الملعون، وقد قاومت كل الإغراءات التى يمكن أن تذكرنى بعلاقاتى ومشاعرى السابقة، ولم يكن ذلك سهلاً على الإطلاق، ولست واثقة فى أعماقى إذا كنت قد نجحت أم لا؟!.. مع أن الدلائل الخارجية تشى بذلك، وبعد حوالى أربعة أشهر من خصامى لهذا النوع من العلاقات قابلت مهندس كمبيوتر، وقد تعرفت عليه فوجدته، ودودًا مهذبًا، خلوقًا، مثقفًا، وسيمًا متيمًا، لم أكن أتصور أننى فى يوم من الأيام سوف أعجب برجل لأسباب متعددة، من أهمها ميولى المثلية، وكنت أعرف أن علاقتى مع زميل دراستى ناجى شرف الدين محكوم عليها بالإعدام لا محالة، برغم ميلى إليه وتعاطفى وجدانيًا معه لأسباب كثيرة منها أنه ريفى طيب من أبناء الأقاليم، وليس له مأوى فى القاهرة وظروفه الاجتماعية بائسة، هى مبررات تبدو ساذجة وغير منطقية، لكن أحكام القلوب والمشاعر لا تسير وفق قواعد المنطق إتخذت قرارى وارتبطت بمهندس الكمبيوتر هذا، وصارت الخطوبة تجمعنا، وبدأت أحس أن الأمور تتطور بسرعة دون أن أقدر على السيطرة عليها أو التحكم فيها، ولا فى نفسى.. هو أصبح يحبنى بجنون، ولا يترك مناسبة إلا ويثنى على جمالى، وثقافتى وتهذيبى، وأخلاقى السامية، وأنا أمام كل ذلك أشعر بالذنب.. فأنا أخشى الفشل فى علاقتى مع أى رجل، وأخشى ألا أتعلم أبجديات اسعاده، وارضائه أخشى أن أعود إلى تلك الميول الجهنمية مرة أخرى مع أننى لم أفكر فيها منذ فترة، فمنذ عدت من العمرة، وأنا أحس بروحى طاهرة نقية شفافة ولو كانت مجرد إحساس إلا أننى لا أريد أن أغامر بفقدان هذا الشعور بإقترابى مرة أخرى من أى أنثى لدوافع شاذة!

كنت أتحدى نفسى، وأرغب فى انهاء مأساتى تلك.. لكن دائمًا تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فقد زارتنى صديقتى الحميمة السابقة، وطلبت منى أن أقطع علاقتى بخطيبى، لأننى أخدع نفسى، فأنا لا أصلح أن أكون زوجة لرجل لأن الله خلقنى لأشارك أنثى مثلى فراشها.. وأعيش معها

كشـريكتين حياتها السـرية، وهددتنى بأننى لو تزوجت من جنس الرجال فسـيكون الطـلاق مصيرى المحتوم فى الأسـابيع الأولى مـن الزواج، وقد يحدث فى شـهر العسـل وتكون فضيحة للسـماء، يلوكها بلسانه القاصى والدانى، وقالت لى أيضًا بنبرة تهديد، ووعيد حادة بأنها لن تتركنى أعقد قرانى على أى رجل لأنها رجلى وشريكة فراشى.. وجسدى لها وحدها!

أعلـم أنهـا قد تكـون قالت ذلـك من باب الحقـد والغيرة لأننـى هجرتها وأهملتها.

أبديت لها اصرارى وعنادى وتمسـكى بطوق النجاة، وبعد أسـبوع واحد اتصل بى خطيبى الذى كان مهووسًا بى ومتيمًا بحبى مبديًا أسفه واعتذاره على أننا لن نسـتطيع الزواج، حاولت بإلحاح أن أعرف منه السر فى تراجعه المفاجـئ، لكنه رفض بكبرياء وهو يكاد يبكى بصوت مختنق مبحوح قائلاً:

ـ أرجـوك يـا إيناس إعفينى من ذكر الأسـباب والمبـررات، وإن كنت أتمنى لك حياة سعيدة موفقة، حسبما تختارينها، وبالطريقة التى تحلو لك!

هنا فهمت أنه قد عرف السر المخبوء فى صدرى.. بكيت.. حزنت اجتاح الغضب قلبى أيامًا طويلة، وسـهرت ليالى مؤرقة معذبة لكن قلت لنفسـى.. إن الزمن كفيل بتضميد كل الجراح.. حاولت أن أنسى أو أتناسـى، وأنهمك فـى عملى الصحفى حتى عرفت بالصدفة السـر الـذى حيرنى، فقد وصلت لخطيبى مشـاهد من علاقتى مع صديقتى عبر موبايله الشـخصى مع رسالة تقول.. بأننى مثلية الجنس فهل يقبل أن يضيع عمره معى؟!

كان هـذا سـبب فراره منى.. المهـم أننى ألقيت بهـذا الموضوع فى خانة النسـيان بذاكرتـى، ولـم أعـد إليـه لأنـه يجـرح كرامتى ويجعلنى أشـعر بالمهانة.

وذات يـوم كنـت مرهقة للغايـة، وفضلت الراحة والمكـوث فى البيت،

وفى هذا اليوم اتصلت بى إحدى زميلاتى الصحفيات، وقالت لى أنها قادمة لزيارتى، فلم يكن أمامى سوى الترحيب بها، ولم أكن أعرف سبب رغبتها فى زيارتى هذه المرة، وعلى كل الأحوال فقد كانت تزورنى على فترات متباعدة ولا ضير فى هذا، وكانت والدتى تسعد بلقائها مثلما كانت تسعد بلقاء أية فتاة أخرى تأتى إلى بيتنا، بينما تمانع بشدة، وبغباء منقطع النظير حضور أى زميل لى لزيارتى، ومازلت أذكر كيف كدت أنفجر غيظًا عندما جاء فنى الصيانة لإصلاح عطل فى جهاز الكمبيوتر الموجود بغرفتى، وبمجرد أن دخل الفتى غرفتى ظلت أمى تتابعه بحرص شديد كأنه جاء لإختطافى ودخلت وخرجت عشرين ألف مرة بالقهوة والعصير والشاى، ومرات عديدة بدوافع القلق والتوتر، وفى كل مرة كانت تختلق حجة لترى ماذا يفعل فنى الكمبيوتر كل ذلك برغم أن باب الغرفة مفتوح على مصراعيه، والرجل منهمك فى إصلاح الكمبيوتر ليس إلا.. كانت أمى حريصة أشد الحرص من جنس أى رجل يقترب منى، فى الوقت الذى جهلت فيه كيفية مراقبة صديقاتى البنات.. وهن أخطر على من كل الرجال.. تلك هى الحقيقة المرة التى لم تدركها!

علاقتى بأمى لم تكن على ما يرام على الدوام.. كانت فى معظم الأحيان علاقة متوترة، فيها جفاء وخشونة، لا تزيد عن إملاء الأوامر والنواهى وكنت أقضى الساعات فى غرفتى بمعزل عن البيت كله.. أعتكف عن الجميع، كما يفعل المؤمنون الأتقياء فى العشر الأواخر من شهر رمضان، وليس لى من رفيق فى محبسى الإختيارى سوى التليفزيون الصغير الملون تقابله منضدة صغيرة عليها جهاز كمبيوتر حديث جدًا، وكرسى من الجلد المريح للغاية، وكذلك السرير المملوء بالوسائد والدباديب!

جاءت زميلتى فى الجريدة كى تزورنى وتطمئن على أحوالى كما ظننت وليس كل الظن إثم وفجأة ودون سابق إنذار قالت إنها ستطلعنى على شئ خطير ومثير، وأمام دهشتى، واستغرابى طلبت أن يكون هذا الأمر سرًا

obeikandl.com

بيننا للأبد ، أقسمت لها أننى سأفعل ولن أبوح بما تقوله لى لأى كائن كان، وإذا بها تطمئن لموقفى، وتخرج أسطوانة لامعة وتدسها بسرعة داخل أحشاء الكمبيوتر، حاولت أن أمنعها خاصة أننى سمعت صوت أقدام والدتى، تجئ وتروح أمام باب غرفتى إلا أن زميلتى كانت أسرع منى فى تشغيل الكمبيوتر ثم قالت هامسة:

ـ لا تخافى يا إيناس لا تخافى.. انتظرى.. لحظات يا حبيبتى وتشاهدى المفاجأة الممتعة!

استسلمت لرغبتها ، ودون مقاومة أخذت أحدق فى شاشة الكمبيوتر بعد أن سمعت التنهدات المحمومة، وبدأت اللقطات المثيرة الساخنة تروق لى، وتشعرنى فى الوقت نفسه بالنشوة والإشمئزاز معًا ، وفيما أنا على هذا الحال، إقتربت منى زميلتى كثيرًا لامست جسدى، وبدأت أنفاسها الحارة تلفح عنقى وهى تقبلنى وتلعق رقبتى، وأنفاسها الملتهبة النارية تحرقنى رغبة وشوقًا ، ولهفة للعودة إلى الماضى الحلو المخجل، وأخذت تداعب شعرى وتمص لسانى ونهدى وتقول لى:

ـ فلنجرب يا إيناس.. الحياة حلوة.. لماذا لا نستمتع بها وأحلى ما فى الحياة الجسد الجميل.. هو نعمة من الله هيا بنا نتمتع بنعمته!

لا أدرى كيف حدث ما حدث؟! ولا أعرف لماذا بصقت على نفسى أمام المرآة إثر مغادرة زميلتى الصحفية الملعونة عائدة إلى مقر الجريدة مرة أخرى، وهى تهمس فى أذنى وتقبلنى من شفتاى مع حضن دافئ ببراءة ذئب لئيم قائلة:

ـ لا تنسى يا حلوتى.. كل ما حدث بيننا سيظل سرًا للأبد اتفقنا يا إيناس.. أليس كذلك؟!

لم أستطيع النطق من شدة خجلى وارتباكى وندمى وخوفى واضطرابى، ولا أدرى كيف عدت إلى هذه الدائرة الشيطانية الجهنمية مع زميلة أخرى من عائلة مرموقة والدها سفير شهير ووزير سابق، ومنذ تلك اللحظة أصبحت

أخضع لمضاجعة زميلتى، وأنا ذليلة، وأطيعها طاعة عمياء، ودائما أكون لها كلما أرادتنى، وكيفما أرادتنى.

سادت برهة صمت رهيبة، لم ينبس الطبيب ببنت شفة.. كان كمن على رأسه طير جارح، دوَّن بخط يده بعض الملاحظات، ثم سألها بنبرة العالم المحنك الواثق من علمه وحكمته، ونفاذ بصيرته:

ـ هل فى أسرتك حالات مشابهة لحالتك؟!

ردت دون تفكير وكأنها تنفى وصمة عار عن عائلتها:

ـ لا.. لا يا دكتور.. ليس بين بنات العائلة من هن فى مثل ظروفى.

هز الطبيب رأسه، وعاود الكتابة فى أجندته، وباغتها بسؤال لم يكن أبدًا فى الحسبان:

ـ وماذا عن مشاعرك تجاه ناجى شرف الدين؟!

تبسمت قليلاً فظهرت أسنانها الناصعة البياض المتناسقة بإتقان وقالت:

لا أدرى.. أحيانا أحس أن مشاعرى نحوه تتأرجح بين الحب والكراهية، وبين الإحترام والإحتقار.. أكن له مشاعر تبدو متناقضة، لكننى فى كثير من الأحيان أشفق عليه، وأنجذب نحوه.. لا أدرى إن كان هذا عطفًا أم حبًا؟!

حواسى كلها مشوشة، ما عدت قادرة على التمييز.. ما عدت أستطيع التفرقة بين المشاعر البيضاء، والأحاسيس السوداء!

أنهى الجلسة العلاجية، وكتب لها روشتة وطالبها بأن تلتزم بها لمدة أسبوع وهى تتضمن مجموعة من المهدئات، ثم شكرها على وعد بلقاء جديد الأسبوع القادم

انصرفت وقد شعرت بإرتياح واطمئنان بعد فاصل طويل من الثرثرة والفضفضة.

***

(٧)

" النسر هو قيصر الطيور، ومع ذلك يحترس من الذباب!"

ذات يوم كان ناجى شرف الدين يتمشى على النهر المار أمام قريته الصغيرة النائية بإحدى محافظات وسط الدلتا.. تلك القرية التى يعيش فيها خمسة آلاف نسمة، ولم يرد ذكرها على خريطة مصر المحروسة.. فى هذه الأثناء رتب له القدر صدفة خير من ألف موعد، فقد لقيه حمدان الشتشاوى جاره فى نفس الشارع، سأله الرجل عن أحواله كالعادة فبدا ناجى متذمرًا من سوء حظه، وتعثره حتى الآن فى الحصول على فرصة عمل مناسبة فى بلاط صاحبة الجلالة تليق بشخص يحمل درجة البكالوريوس فى الاعلام والصحافة بتفوق وجدارة.. لاذ حمدان الشتشاوى بالصمت المطبق ثم قال له:

ـ إسمع يا ناجى.. بإذن الله مشكلتك لها حل.. غدًا فى العاشرة صباحًا سأنتظرك.. لا تتأخر لعل القدر يخبئ لك خيرًا كثيرًا.

ـ إلى أين سنذهب؟!

ـ إلى مقر الحزب الوطنى فى سمنود.. بمشيئة الرحمن لن يردنا رب العباد مخذولين.. لا تتأخر يا ناجى.

ـ أمرك يا سيدى أمرك.

وهمس فى نفسه دون أن يسمعه أحد.. عسى الله يضع سره فى أضعف خلقه من عباده البسطاء.

ولم يكذب ناجى شرف الدين خبرًا، ولم يخلف وعدًا، وبالفعل فى صباح اليوم التالى نهض مبكرًا، وصلى ركعتين ثم تناول افطاره، وطرق باب جاره.. سر حمدان الشتشاوى لرؤياه، وأسعده حرصه على مستقبله وكان حمدان طيب القلب يتسم بالشهامة، وحب الخير للناس، ومعروف عنه فى

القرية كلها بالمروءة، ونجدة الملهوف..

انطلقا سويًا بحماس صوب مدينة سمنود الأقرب إلى قريته والتى تتبعها القرية إداريًا وجغرافيًا، وهناك فى مقر الحزب الوطنى سأل حمدان الشتاوى بثقة عن الحاج عوض الدميرى أمين عام الحزب فقالوا له.. انتظر فالرجل على وصول.. جلسا سويًا فى حديقة صغيرة متناسقة أمام الحزب، واحتسيا الشاى بالنعناع، وتحدثا فى أمور شتى حتى وصل الحاج عوض الدميرى، فرآه ناجى لأول مرة، تأمله برفق، كان يتخيله عكس ما رآه، وجده ضئيل الحجم، نحيل الجسد، صغير الرأس مستديره، قصير القامة، يرتدى جلبابًا أبيض اللون ناصع البياض يبدو نظيفًا ومكويًا بعناية فائقة، وتفوح منه رائحة عطر رخيص الثمن، الرجل أصلع من مقدمة رأسه، لكنه يصفف ما تبقى فى حواف رأسه من شعر غير متناسق، مثل الدنيا.. غزارة فى الإنتاج، وسوء فى التوزيع وهو حريص للغاية على العناية بالقلة الباقية عساها تستر أكبر مساحة فارغة فوق جمجمته.. حركاته سريعة متوترة، منضبطة آلية ميكانيكية كما لو كان عقرب الثوانى فى ساعة الحائط، يتكلم بتلعثم واضطراب.

طال بهم الحديث عن الحزب، وكوادره، وقياداته وتربيطاته، والإنتخابات القادمة التى أصبحت على الأبواب.. واستعرضوا الأسماء المرشحة لنيل ثقة الحزب.. وقبل أن يختتم حمدان الشتاوى حديثه الودى مع عوض الدميرى عن دهاليز الحزب وألاعيب السياسة وخباياها قال له حمدان بود:

_ يا حاج عوض.. لنا عندك خدمة، ونعرف أنك لن تخذلنا أبدًا.. فأنت أهل كرم ومروءة وشهامة.

انفرجت أسارير الحاج عوض الدميرى، وأرضت كلمات الإطراء غروره ونزلت على نفسه بردًا وسلامًا، وبدت السعادة على وجهه وكان فى قمة الإصغاء والتركيز.. فالإنسان دائمًا يحب من يمدحه ويهوى سماعه.. قال الرجل:

obeikandi.com

ـ أنـا تحـت الأمر يا حمدان.. أنا فى الخدمة.. اطلب ياصديقى، وأنا أنفذ فورًا.

أشار حمدان إلى ناجى شرف الدين قائلاً:

ـ هذا الشاب يهمنى أمره للغاية، وهو خريج إعلام قسم الصحافة والنشر ونريـد منك توصية بشـأنه للأسـتاذ جلال عمار زوج أختـك، وأظن أن الكاتب الكبير رئيس تحرير جريدة " الأحداث " لن يرفض لك طلبًا، وسـوف يشـمله برعايته، وعنايته وعطفه، والفتى بلدياتى وجارى ومن المقربيـن لقلبـى، وليس له فـى القاهـرة أى مخلوق يسـاعده.. والأمل معقود عليك.. دبت الحماسـة فى أوصال الرجل، وبسـرعة البرق أخرج من جيب جلبابه " كـارت شـخصى " أبيض اللون مطرز باللون الذهبى باسـم الرجـل ورقـم هاتفه، وسـحب قلمـه الفضى وكتـب على ظهر الكارت كلمات معدودات أثلجت صدر ناجى شـرف الدين وكذلك حمدان الشتاوى الذى قرأ الكلمات بصوت مسموع:

" أخى جلال بك عمار رئيس تحرير جريدة الأحداث.. حامل هـذا الكارت يهمنى أمـره للغاية، فأرجو أن تشـمله بعطفك وعنايتك "

مع خالص الود.. عوض الدميرى.

تبسـم ناجى شـرف الدين ابتسـامة الناجى من غرق محقق وسـط طوفان الحيـاة، لم يصدق أن السـماء قـد أهدته أخيرًا طوق النجـاة، وصار الطوق بين يديه الأن، ها هى تأشـيرة المرور إلى مدينة الألف مئذنة فى جيبه، ها هـو سـيعود إلى عاصمة المعـز ليعمل فى واحدة من أهم وأعرق مؤسسـاتها الصحفيـة المرموقـة.. فـى تلك الليلـة جافاه النوم طويلاً من شـدة السـعادة واقتراب حلمه من أرض الواقع.. وعندما غلبه النعاس جاءه التوأم الأشهر فى تاريخ الصحافة المصرية على ومصطفى أمين يأخذان بيده ويعبران به بحر

هائج عاصف حتى وصلا به إلى شاطئ الأمان والسلامة.. استيقظ من غفوته مبتهجًا منشرح الصدر، وقد أدرك أن هذه لابد وأنها البشرى الطيبة التى لا تقبل الشك.. وبعد صلاة الفجر مباشرة شد الرحال فى عز البرد إلى محطة القطار، ودس جسده بين ركاب الدرجة الثالثة فى قطار الساعة السادسة المزدحم دائمًا بالعمال والطلاب والموظفين، وحينما وصل القطار وهو يئن من ثقل ما يحمل فى حشاه عند محطة بركة السبع هبط من هبط، وصعد من صعد، بينما ناجى شرف الدين يتسلق الشبكة الحديدية المخصصة للحقائب فوق رؤوس الجالسين على المقاعد، استرخى فى الأعلى مع عشرات آخرين، راح فى غيبوبة، وغط فى نوم عميق وهو قابض على الحديد بيديه، وإذا به يرى مصطفى أمين يهل عليه بجسده الضخم ووجهه الطفولى البشوش باسمًا حاملاً قلمه الذهبى، وأهداه إياه وقال:

يا ناجى.. ينتظرك مستقبل واعد فى عالم الصحافة وعليك أن تراعى الله، وتعمل ضميرك، ولا تغمس قلمك فى مداد الظلم والعدوان والانحراف.. لأن الكلمة كالطلقة قد تقتل بريئًا، وقد تقتص من مجرم.. هيا يا ولدى.. هيا إلى جريدة الأحداث.. فالمجد ينتظرك!

فجأة إهتز القطار هزة عنيفة، وكادت القضبان تفر من تحت عجلاته ولم يشعر ناجى شرف الدين سوى بصدمة قوية فى رأسه، وجسده كله مسجى فوق فخذى إمرأة، ورأسه ارتطم بأحد الكراسى الخشبية فى القطار.. سقط ناجى فوقها.. صرخت المرأة بعصبية، وهمهم الرجال الجالسون بإستهجان، وانزعاج.. فقد سقط من غفوته.. آلمهم الارتطام المفاجئ، وقض مضجعه.. بادر بالإعتذار، وتوسل إليهم طالبًا العفو والصفح، والغفران، ولولا تدخل بعض الركاب من الطيبين الواقفين بين الكراسى شهود الواقعة لصارت مشاجرة، وفتك المتضررون بالفتى الذى سقط فوق رؤوسهم فى غفلة منهم، وغفوة منه.. كما سقطت التفاحة على أم رأس إسحاق نيوتن فألهمته قانون الجاذبية الذى الذى غير حياة البشرية.. حكاية هذا الرجل أغرب من الخيال فقد ولد فى ٤ يناير

obeikandi.com

عـام ١٦٤٣ فـى إحدى مقاطعات بريطانيا ، مات أبوه وهو مايزال فى بطن أمه قبل ولادته بثلاثة أشهر ، وبعد ذلك تركته والدته لتعيش مع زوجها الجديد بعد عامين فقط من مجيئة إلى الدنيا ، وترعرع فى طفولته فى كنف جدته حتى صار شـابًا يافعًـا .. وفـى عام ١٦٦٥ بدأ نيوتـن بتطوير معادلات رياضيـة وكان آنذاك يدرس فى جامعة كمبردج الشـهيرة ، وعقب حصوله على شـهادته الجامعية عام ١٦٦٥ أغلقـت الجامعـة أبوابها كإجراء وقائـى ضد وباء الطاعون الـذى اجتاح أوروبا ، ولـزم نيوتن البيت لمـدة عامين تفرغ خلالها للتأمـل والتفكير ، وتدوين أفكاره مثـل راهب مخلص فى محراب العلم.. وكان منزل نيوتن له حديقة واسـعة عامرة بأشـجار الفاكهـة يحـب أن يتمشـى فيها بين الحين والآخر سـرعان مـا تقطعها فكرة جديدة فيهرول إلى مكتبه ليسجلها ، كان قليل الجلوس ، كثير المشى حتى لتخاله واحدًا من جماعة أرسطو المشائين وكان مقلاً فى الطعام ، وكثيرًا ما نسـى تنـاول وجباته الغذائيـة ، وكان ضنينًـا فى الاهتمام بصحتـه ومظهره ، ودائمًـا تـراه فى هيئة مزرية ، حـذاءه بالـى الكعبين وجواربه بلا رباط ، ورأسـه غير ممشـط إلا فيما ندر وقد رويت القصص الكثيرة عن شـرود ذهنه ، ويؤكد المقربـون منه أنه كان يجلس بالسـاعات عقب اسـتيقاظه من النـوم ، ويظل فى فراشـه دون أن يرتـدى ثيابه ، وقد اسـتغرقه التفكير العميـق وكأنه يعيش فى كوكـب آخـر ، وكان أحيانـًا إذا جاءه زائرون يختفى فـى غرفة أخرى ، ويخط أفـكارًا على عجل ، وينسـى أصحابه تمامًـا .. وذات يوم من أيام عام ١٦٦٦ وبينما نيوتـن معتكفًـا فـى حديقة بيتـه رأى ثمرة تفاح تسـقط من شـجرة ، وهو رابض تحتها فأمسـك بالتفاحة ، واستغرق فى تفكير طويل وعميق ، لم يخطر على باله أن يلتهمها ويسـتريح من التفكير فى سـر سـقوطها للأرض.. سـأل نفسه والحيرة تكاد تهزمه:

ما الذى يجذب الأجسام إلى أسفل؟!

ومـن خـلال هـذه الواقعة هـداه تفكيـره إلى قانـون الجاذبيـة الذى غير الكثير من مفاهيم العلم التى كانت سـائدة آنذاك.. وذات مرة سـأل غريبًا

نيوتن: كيف اكتشفت قانون الجاذبية؟!

فأجاب قائلاً: بإدمان التفكير فيه!

لقد ذاق الرجل الفذ طعم الشهرة والنجاح، وفى عام ١٦٦٧ أصبح عضوًا فى هيئة التدريس بالكلية التى تخرج فيها، وألتف حوله المعجبون لدرجة أن أستاذه فى الرياضيات إسحاق بارو وصفة بأنه " عبقرى لا نظير له " وأوصى بتعيينه خلفًا له فى الجامعة، وفى عام ١٦٨٩ تمكن من أن يكون عضوًا فى البرلمان لكنه لم يتكلم قط طوال الجلسات سوى مرة واحدة فقط طلب فيها إغلاق الشباك لأن قاعة الجلسات كانت باردة جدًا وهو يريدها دافئة..

الغريب والطريف فى حياة هذا العبقرى أنه برغم نجاحاته المدوية وشهرته التى بلغت الآفاق لم يتزوج، وبالطبع لم يكن له أطفال يحملون اسمه فى هذا العالم.. وظل هكذا يعيش وحيدًا حتى رحل عن الدنيا فى ٣١ مارس عام ١٧٢٧ وهو يبلغ من العمر ٨٤ عامًا ودفن فى إحدى مقابر العاصمة البريطانية لندن إثر اصابته بمرض غامض.

لا يدرى ناجى شرف الدين لماذا تذكر قصة هذا العالم الإنجليزى التى قرأها منذ فترة بعيدة؟!

ولا يدرى لماذا مر كل شريط حياة وممات نيوتن أمام عينيه وهو فى عز محنته يعانى أثر الإرتطام بين الدهماء فى قطار الدرجة الثالثة المتجه من المحلة الكبرى إلى القاهرة..

بعد دقائق معدودات هدأت روعته، وتلاشت رجفته، وتناثرت صدمته على رصيف الذكريات المؤلمة، وعاد ليتذكر حلمه الذى رآه منذ قليل.. سره أن يزوره مصطفى أمين عملاق الصحافة الحديثة فى القرن العشرين ومؤسس دار " أخبار اليوم " مع توأمه على أمين فى صيف عام ١٩٤٤ استبشر خيرًا برؤياه، وتفاءل هذه المرة، وأدرك أن نحسه سوف يفارقه للأبد، والحظ سوف يبتسم له، وقد يقهقه فى وجهه.. كان القطار يكاد يلفظ

أنفاسه على الرصيف فى محطته الأخيرة، وهو يترنح بما يحمله فى حشاه، كما تترجرج الحامل فى أربعة توائم خلال شهرها التاسع.. تراقص قلبه بين أضلعه من شدة فرحته، وهو بين السماء والأرض فى المصعد بمبنى جريدة " الأحداث " حيث الموعد المأمول، والأمل المرتقب والحلم الذى يواعده ولم يبلغه بعد.. كان مكتب جلال عمار رئيس التحرير المزمن الذى قبع فوق كرسيه حوالى ٢٥ عامًا يعج بحركة دؤوبة.. ضيوف كالنمل من كثرتهم.. محررون يدخلون، وآخرون يخرجون، وفى أيديهم أوراق لموضوعات صحفية، وصور فوتوغرافية، وبروفات لصفحات من الجريدة قبل الطبع، ومخرجون صحفيون يتناقشون فى ملاحظات رئيس التحرير بشأن توضيب الصفحات.. وأحاديث تدور هنا وهناك، جلس ناجى شرف الدين أمام السكرتيرة البيضاء الهيفاء الحسناء ذات الشعر الأسود الطويل، والعيون العسلية اللامعة، وسأل نفسه خلسة:

لماذا كلما ذهب إلى مكتب أحد كبار المسئولين الكبار وجده يقتنى سكرتيرة حسناء؟! فهل الحكومة تختارها له بعناية حتى تساعده على العمل بمزاج عالٍ وعطاء منقطع النظير؟! هل الحكومة تفعل ذلك لكى توفر لأكابر القوم السلطة والمال وبجوارهما الجمال الأنثوى الفتان؟!

بدا ناجى مبهورًا، فخورًا بأنه هنا فى هذا المكان المعطر برائحة الحبر والذى عاش فيه من قبل عظماء وأساطين ونجوم الصحافة وفرسان القلم وجنرالات الكلمات فى سنوات مضت.. تأمل لوحاتهم الزيتية بدهشة.. كان الدم ينبض فى وجوههم كأنهم أحياء يرزقون يبتسمون له، ويهمسون إليه وحده دون غيره.. أفاق من شروده وتأمله واستغراقه فى تفحص الوجوه الشهيرة على صوت ملائكى شفاف رقراق مثل تغريدة كروان.. سألته السكرتيرة برقة عما يريده من رئيس التحرير، فحكى لها القصة باختصار خجل، وأعطاها الكارت الذى يظن أنه سيجعل قارب مستقبله يسير على الإسفلت بسرعة الصاروخ، التقطته منه بثغر باسم، وشفاه مكتزة لم تخلق

Obeikandi.com

إلا للقبلات لا للثرثرات فى توافه الأمور، وهو يمنى النفس بألا تحرمه الأقدار مـن رؤيـة هذه الأنثى الجميلة مرات عديدة فى الأيـام القادمة، بدا واثقًا من أنه سيكون واحدًا من محررى الأحداث المحظوظين الذين يكتبون تاريخ مصر، وحياتها اليومية لحظة بلحظة وكلمة بكلمة!

تأمـل مؤخرتهـا المحبوكة فى بنطلـون جينز أزرق وسـاقيها الملفوفتين وضيـق البنطلـون يحـدد معالـم الطريق إلـى كهـف متعتها، وبلوزة أشـبه بقميـص رجالـى مفتـوح الصـدر قليلاً، فيطـل جزء مثيـر من نهـر ثدييها، وحلمتيهـا تبـرزان بجرأة من تحت البلوزة التركـواز كأنهما فى حالة تمرد على ثيابها!

همس لنفسه: سبحان المبدع الخلاق..

عـاد مـن جديد يتأمـل وجوه كبـار الصحفيين على الحائـط بدقة كان بعضهم باسـمًا، والبعض الآخر متجهمًا، لا يدرى سـر الابتسـام لدى هؤلاء ولا يفهم سـبب التجهم عند أولئك كاد يسـألهم عن سـر خلودهم وتفوقهم وتفردهم.. ومن أين استمدوا جينات عبقريتهم؟!

بعد لحظات لمح السـكرتيرة تخرج من مكتب جلال عمار رئيس التحرير وابتسامتها السـاحرة التى لا تفارق شفتيها قد اختفت وانتحرت فوق ثغرها، وحل محلها بالقوة الجبرية الحزم والجدية.. بدت عابسـة غاضبة.. كاد قلبه ينخلـع من القلـق.. يحلق فـى صفحة وجهها محاولاً سـبر أغوارهـا، وقراءة طالعهـا، وفك شـفرة تجهمها المفاجئ سـألها.. تلعثمت قليـلاً فى الكلام ثم قالت:

_ الأستاذ يقول لك اترك لنا بياناتك وعندما نحتاج محررين سوف نتصل بك بإذن الله.

نزلـت كلماتهـا القليلة المقتضبة عليه نارًا ودمـارًا، وكان يتمناها بردًا وسـلامًا.. انقبضت أسـاريره، وانصرف حزينًا صامتًا بعد أن سـجل بياناته أمامها بيد مرتعشة، ودمعة حائرة تكاد تفر من عينيه أمامها لكنه تماسك

ومضى لحال سبيله مكلومًا دون أن ينطق سوى بكلمة وحيدة قالها لها : شكرًا.

وأثناء خروجه من مبنى مؤسسة " الأحداث " قال لنفسه:

حسبى الله ونعم الوكيل.. لماذا غلقوا كل الأبواب فى وجهى؟! ولماذا فتحوا كل المتاريس أمام أبناء الأكابر من زملائى بمجرد تخرجهم من الجامعة وأحيانًا قبل أن يتخرجوا؟!

لماذا يتحدثون ليل نهار عن العدالة الاجتماعية والمساواة ، وتكافؤ الفرص والشفافية وهم أبعد ما يكونوا عن هذه الشعارات الجوفاء الرنانة الفارغة؟!

لماذا الفقراء وأبناء الفقراء دائمًا ضحايا هذا المجتمع مهما فعلوا ومهما حصلوا على شهادات عليا ألم يقل الله.. فطوبى للفقراء؟!

من يدرى ماذا تخبئ لى الأيام؟!

الحمد لله على كل الأحوال.. قدر الله وما شاء فعل.

***

obeikandl.com

(٨)

" السـمـاء لا تفتــح أبوابهــا إلا لمن يجيد فــن الإلحاح عليها لاستجداء عطاياها! "

عـاد إلى أمــه التى تعلق عليــه كل آمالهــا.. حزينًا مهمومًا لا يغـادر الدار كأنه فى حالة حداد، دعت له أمه بالفرج، وتوسـلت للسماوات أن تستجب للدعـوات وما هــى إلا أيام معدودات، وحدثـت الانفراجة الكبرى، وكأن آذان السـماء كانت مصغيـة، وأبوابها كانت مفتوحة، فسـمعت الدعاء، واسـتقبلت الرجـاء.. بـدأت وفود المرشـحين للبرلمان تتهافـت على قريته، والقـرى المجاورة وأفئدة المناصرين لهم تأوى إلى سـكان تلك القرى طلبًا للمـؤازرة والتأييد وبحثًا عن الأصوات الانتخابية.. وفى مثل هذه المناسـبات دائمًـا مـا يعـرض النـواب المتنافسـون علـى الكراسـى البرلمانيـة تقديم خدماتهم المجانية للناخبين كعربون محبة عساهم يفوزون بالأصوات التى تجعلهم يحصلون على الحصانة ويمثلون الناس تحت القبة!

عاود ناجى شـرف الديـن المحاولة من جديد، وبرغم إحساسـه بالمرارة والإحبـاط لم يكن اليأس قد تمكن منه بعد، فما زالت الأمانى ممكنة، والأحلام قيد التحقيق على أرض الواقع.. حكـى مسـألته المستعصية لأحد المرشحين الذى ضحك بثقة قائلاً:

ـ يا ناجى.. مشـكلتك لها عندى ألف حل فلا تقلق يا بنى.. هناك فى القاهرة ابن عمى عباس مبروك رئيس القسم العلمى فى مؤسسة " الأيام " للصحافة، وبإذن الله سـوف أوصيه عليك لكـى يسـاعدك على أن تنضم لأسرة تحرير المؤسسة الصحفية الأعرق والأقدم، والأعظم فى الشرق الأوسط كله..

لم يكـن ناجى قانطًا من رحمة الله، ولم ييأس ولم يكـن متفائلاً كثيرًا هذه المرة مثل المرات السـابقة، ولا مانع لديه من أن ينال شـرف المغامرة،

ولو نجحت فيكون قد حقق أعظم أمنية فى حياته، ولو أخفق فلا بأس، ولا جديد تحت الشمس فقد اعتاد على الإخفاق، والانكسار.. فلا ضير.. تلك مشيئة السماء طالما أنه ليس من أبناء الأكابر المسنودين، أهل الحظوة ذوى النفوذ، ولا يملك الكارت الذى يجعل القارب الخشبى يسبح فوق الإسفلت!

فى صباح اليوم التالى، وقبل أن تطلع الشمس على الدنيا بوجهها المشرق الذهبى بدأ غزوة جديدة من غزواته المتكررة إلى قاهرة المعز.. تلك المدينة المتوحشة.. الكافرة بالغرباء.. الكارهة لوجودهم والتى لا تقبلهم بين ضلوعها حتى لو طلبوا حق اللجوء الإنسانى، تلفظهم بإصرار، وتطردهم بإنكار مثلما يأبى الجسد غرس المسامير بين أوصاله حتى ولو كانت لإصلاحه وعلاج أوجاعه..

هذه المرة كانت جريدة " الأيام " قبلته ومبتغاه.. فى طريقه لأهم صحيفة ناطقة بلغة الضاد كانت أحلام الشهرة تراوده، وكوابيس الإخفاقات فى المحاولات السابقة تطارده.. صار ممزقًا بين النقيضين، خائفًا من الفشل وهواجسه.. يحدوه الأمل.. دعا ربه فى سره وهو ساجد يصلى ذات مرة أن يجبر بخاطره هذه المرة، لأنه أصبح مسخرة، وموضع سخرية أبناء قريته من الجهلاء، وأشباه المتعلمين لدرجة أن بعضهم وصف شهادته العليا بالمزورة، واتهمه آخرون بأنه عاش فى القاهرة أربع سنوات لتحصيل العلم فى أكبر جامعاتها، وعاد منكس الرأس بلا شهادة من الأصل!

أمام هذه الظنون الخبيثة، والشكوك الظالمة، والاتهامات المسمومة ماذا يفعل؟!

هل يطوف فى دروب ومسالك البلد كلها مثل المسحراتى فى ليالى رمضان يطرق الأبواب ليبلغ القاصى والدانى وفى يده شهادته العليا فى الإعلام بأنه فعلاً من حملة البكالوريوس لكى يتوقف الحمقى منهم عن تصويب اتهاماتهم الأكثر غباء وحماقة إلى ضميره العلمى؟!

كان ناجى شرف الدين من كثرة محاولاته، وتكرار غزواته وفشلها جمعاء، واهتمامه بمظهره المبالغ فيه كل مرة يشد فيها الرحال إلى القاهرة قد أصيب بغصة فى الحلق، وفكر هذه المرة أن يكون مختلفًا عسى أن يتركه شيطان النحس ويفارقه، فلم يقصر شعره، تركه طويلاً متناثرًا منسدلاً على جبهته وأذنيه ومؤخرة رأسه، ولم يحلق لحيته ولم تمس المكواة ملابسه، فور وصوله محطة مصر، وهبوطه من قطار الدرجة الثالثة اللعين بدا كالمتشرد الذى خرج توًا من مشاجرة غير متكافئة.. فى هذه الأثناء كانت الحرب على الإرهاب فى أنحاء مصر لم تضع أوزارها بعد.. تفجيرات هنا.. وإراقة دماء هناك.. والضحايا دائمًا من السائحين الأجانب، وأحيانًا من الساسة المصريين ورجال الحكومة.. وكان جهاز أمن الدولة بكل عناصره، وإمكانياته وآلياته فى حالة طوارئ واستنفار، ووسائل الإعلام لاتكف عن ترديد نغمة واحدة وتعزف ذات السيمفونية كأنها ببغاوات حمقى.. الصحف القومية والحزبية والخاصة التى يسمونها مستقلة، والإذاعات والقنوات الفضائية والأرضية تطنطن ليل نهار:

مصر مستهدفة.. هناك مؤامرة ضدها!

من كثرة تردده على شارع الصحافة ذلك الشارع الذى اغتال حلمه بالعمل فى بلاط صاحبة الجلالة صار يحفظ ملامحه، ويعرف عدد الحفر والمطبات والنتوءات فى رصيفه وما أكثرها.. بعد أن هبط من القطار مشى عدة أمتار على قدميه حتى دلف إلى مطعم فول رخيص بجوار مسجد الفتح العتيق الذى يتصدر ناصية الميدان من ناحية الفجالة، والتهم طبق فول بالزيت الحار، والتوابل الحريفة، ثم خرج وقد شعر أن فى معدته حجر صوان.. سار ببطء وعلى أقرب مقهى استرخى كالمخدر يحتسى الشاى ساخنا، وبرغم قسماته الهادئة، ووسامته الطاغية، وقوامه الممشوق، وشعره الناعم المسترسل على جبهته إلا أن هيئته توحى لمن يراه بأنه أحد المشاغبين المتمردين على كل شئ..

دخل مؤسسة " الأيام " للصحافة يقدم ساقًا ويؤخر الأخرى، قلبه ينتفض بين أضلعه.. لا يدرى ماذا يشعر بالتحديد؟!

إمتزج خوفه بوجله.. واختلطت مشاعر الإجلال للمكان معنى ومبنى بأحاسيس قد تصيبه لو جاءت النتائج بما لا يشتهى، لا يريد تذوق مرارة الإخفاق من جديد، وما أقساها مرارة، وما أصعبها مذاقًا كالعلقم.. كان يرتدى البنطلون الجينز الباهت اللون الكالح الصبغة، والقميص الواسع الفضفاض المشجر، وفى يده حقيبة صغيرة أشبه بدوسيه البلاستيك الرخيص ليس فيها سوى أوراقه الرسمية.. شهادة تخرجه من كليه الإعلام قسم الصحافة والنشر، وشهادة الخدمة العسكرية والتى قضى فى سبيلها ١٣ شهرًا بالتمام والكمال فى سلاح المشاة، وفيش وتشبيه، وشهادة ميلاد و٦ صور شخصية ٤ × ٦.. كل هذه المستندات لا تفارقه عسى الحظ يحالفه، والتوفيق لا يخالفه فتطلبها منه مؤسسة صحفية ما فيكون جاهزًا على الفور.. دخل مؤسسة الأيام بحذر مشوب بالأمل.. وبينما هو يتلمس طريقة سمع مجموعة من رجال أمن المؤسسة يتحدثون فى أجهزة اللاسلكى، ويهرولون بملابسهم الرسمية فى اتجاهات مختلفة، وهم على أهبة الاستعداد وكأن حادثًا مروعًا سيقع خلال دقائق معدودات!

إنتابت ناجى شرف الدين حالة من الدهشة، وانتحى جانبًا يراقب ما يحدث بعد أن صرخ فيه رجال الأمن الأشداء بنبرة حادة نحاسية أن يبتعد عن المكان.. تراجع خطوات للوراء ليرى المشهد كاملاً.. هاله ما رأى.. مجموعة من السيارات الجيب السوداء من طراز هامر التى يفضلها الرئيس الأمريكى ورجال الحرس الرئاسى.. السيارات مسبوقة ومتبوعة بمجموعة دراجات بخارية، فى البداية ظن ناجى بسذاجته المعهودة، وبراءة الريفى الطيب أن أحد الوزراء جاء لزيارة مؤسسة الأيام، ولو قالوا له إن الرئيس هو الذى يزور المؤسسة الصحفية الكبيرة لصدق دون أدنى شك لكنه سرعان ما اكتشف الحقيقة.. لا هو أحد الوزراء ولا هو فخامة الرئيس

فقد رأى بعينيه عبد العليم طايع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير وهو ينزل من سيارته التى تشبه دبابة فاخرة كملك متوج بصولجانه ومن حوله حاشيته وحرسه، ورجاله.. سار الرجل على مهل بثقة واقتدار.. تحسس رباط عنقه، وصوب نظراته الحادة يمينًا ويسارًا بكبرياء، وعلى وجهه إرتسمت ملامح الملل والتأفف من الجميع، وكأنه جاء من كوكب آخر لإصلاح ما أفسده هؤلاء الشرذمة من البشر فى الصحافة والسياسة، والثقافة، وكلمات الإطراء والحفاوة والنفاق والرياء الممجوج تنزل عليه بردًا وسلامًا، وهو لا يرد سوى بإيماءات قليلة متعالية من رأسه.. أفسحوا له الطريق واصطف الجميع على جانبيه فى خشوع وخضوع، والمصعد ينتظره على أهبه الاستعداد حتى وصل آمنًا مطمئنًا إلى مكتبه الفخم الفاخر، وجلس على كرسيه المريح فى الطابق الرابع بالمبنى العتيق.

بعد ذلك عادت الأمور إلى طبيعتها، وهدأت الحركة.. لأول مرة يراه ناجى وجهًا لوجه، فكثيرًا ما رأى صورته بطلعته البهية، وصلعته الإستوائية تتصدر الصفحة الأولى بجوار مقاله الإفتتاحى واضعًا يده تحت ذقنه، والقلم فى يده ليبدو لقرائه، وهو يفكر ويتأمل ويعانى الأمرين فى كتابة ملحمته الصحفية التى لا تزيد عن خطبة عصماء فى تمجيد الرئيس الواحد الأوحد بطل الحرب والقائد المنتصر المظفر فى السلم، وزعيم الأمة المغوار الذى لا يشق له غبار، وواضع أسس السلام، وصاحب القرار الذى أنقذ هذا الجيل وكل الأجيال القادمة من الموت فى الحرب الخاسرة ضد عدونا اللدود المتربص بالوطن على الحدود المتاخمة من ناحية الشرق.

لا يكل ولا يمل الكاتب الكبير من المديح والتزلف الرخيص للرئيس، وقد حصد أيضًا عبد العليم طايع مع صديقيه عنتر رجب رئيس مجلس إدارة وتحرير " المصرية "وجلال عمار رئيس تحرير وإدارة مؤسسة " الأحداث لقب "" رئيس التحرير المزمن " والطريف أن الرجل الذى أطلق على الثالوث الأشهر فى تاريخ الصحافة المصرية هو الدكتور فوزى السيد نقيب الأطباء

وعضو مجلس الشعب المزمن أيضا.. وقد أثار هذا اللقب ثائرة جلال عمار فكتب مقالاً ناريًا استفزازيًا تحت عنوان.. " النقيب المزمن ".. شن فيه هجومًا ضاريًا واتهمه فيه بأنه شريك لوزير الصحة فى مشروعات مشبوهة وظلت المعركة دائرة فى الصحف، وتحت قبة البرلمان حتى انتهت المعركة بالإطاحة بوزير الصحة، وظل نقيب الأطباء يطلق صواريخه، ويصوب قذائفه من تحت القبة، ويطالب بضرورة إقرار قانون يحد من بقاء رؤساء تحرير الصحف القومية مدى الحياة فوق كراسيهم، حتى ولو بلغوا من الكبر عتيًا، وماتوا إكلينيكيا على عروشهم فى المؤسسات الصحفية داخل بلاط صاحبة الجلالة!

نهشه القلق والتوتر وهو يسأل موظف الاستقبال فى مؤسسة الأيام عن رئيس التحرير..

قال الموظف:

إنه موجود وقد دخل المؤسسة منذ دقائق وأظنك رأيته..ماذا تريد بالضبط؟!

ـ أريد مقابلته..

ـ هل لديك موعدًا معه؟!

ـ لا.. للأسف.

ـ هل معك له كارت توصية من أحد معارفه أو أصدقائه أو زملائه؟!

ـ لا.. والله.

ـ هل هناك مكالمة هاتفية جاءته بشأنك؟!

صمت ناجى برهة يفكر ما الذى يقوله ثم تكلم قائلا: لا.. لا

ـ كله.. لا.. لا.. وما الذى جاء بك إلى هنا إذًا؟!

رفع الملف البلاستيكى الذى يضم أوراقه أمام وجه موظف الاستقبال وقال له بضيق: هذا هو الذى أتى بى إلى هنا.

ـ وماذا تحمل فى هذا الملف؟!

ضرب ناجى بيده على الملف قائلاً:

ـ فيه أوراقى الرسمية.. مسوغات تعييني.

تعجب الموظف وقال لناجى بعد أن تفرس ملامحه وتأمل مظهره بريبة وشك: أرجوك.. انتظر لحظة.

ثم دخل إلى غرفة صغيرة مجاورة، وأجرى مكالمة هاتفية سريعة ثم عاد إلى مكانة قبالة ناجى مرة أخرى، وبعد عدة لحظات جاء رجلان يافعان يرتديان ملابسهما الرسمية، واصطحبا الفتى إلى الداخل ليجد مفاجأة مذهلة فى انتظاره لم تكن لتخطر أبدًا على باله أو ترد فى خياله!

***

obeikandl.com

(٩)

" إن الله خلقك بدونك.. ولن يساعدك بدونك! "

فوجئ ناجى شرف الدين بصدمة جديدة، وتأكد أن تميمة النحس مازالت تلازمه وتسير فى ركابه، حيث عرف وهو داخل القطار فى طريقه إلى القاهرة أن عباس مبروك قد مات، كلمات النعى والرثاء ومقالات الوداع والتأبين تملأ مساحات كبيرة من صفحات جريدة الأيام.. زملاء الرجل ورفاق رحلته فى بلاط صاحبة الجلالة دبجوا فى مديحه الكثير، وتحدثوا عن صفاته الحميدة، وذكرياته اللطيفة معهم بحرارة إيمانًا منهم بمبدأ " اذكروا محاسن موتاكم ".. وهنا أيقن الفتى أن الكارت الذى فى جيبه والذى كان يعتبره صك الغفران، ومفتاح دخوله إلى جنة صاحبة الجلالة أصبح بلا قيمة، أخرجه من مكمنه حيث ينام فى جيب سرواله الخلفى تأمله بحسرة ومرارة وقال فى نفسه:

اللعنة على الحظ.. قاتله الله.. لا أدرى لماذا يعاندنى؟! وإلى متى سيظل يحاربنى، ويقف حجر عثرة فى طريقى؟! تبًا للفقراء والضعفاء والبؤساء فى هذا البلد التعس الذى لا يحترم سوى الأقوياء الأغنياء حتى ولو كانوا أغبياء وأصحاب نفوذ! ماذا يفعل الفقراء المستضعفون فى الأرض؟! لمن يلجأون إذا ضاع الحق، وتلاشى العدل فى هذا العالم؟! ولماذا أصبحت صاحبة الجلالة عصية عليه، والمؤسسات الصحفية القومية الكبرى تحديدًا؟! لم يكن هناك مثل هذا الطوفان من المطبوعات الموجودة الآن، والذى يملأ الأرصفة مع كل بزوغ شمس يوم جديد.. لم يكن هناك فى ذاك الوقت سوى صحيفة أو صحيفتين للمعارضة ذرًا للرماد فى العيون بجانب الصحف القومية، ويرى ناجى أنهما بلا مستقبل.. ولكن ظل السؤال الصعب يحيره.. لماذا تمتنع عليه صاحبة الجلالة؟! لماذا لم تهبه نفسها من أول محاولة؟! لا يدرى ما السر! كان يشعر أنها مثل زوجة ناشز تتمنع على زوجها وتأبى أن تشاركه

فراشه برغم أنه حلالها شرعًا ومؤهل لمواقعتها وتلقيحها من ليلة الدخلة!

وقعت المفاجـأة صادمة علـى رأسـه كالصاعقة، فقد وجد نفسـه بين ليلـة وضحاهـا ضحيـة تهمة خطيـرة للغايـة يمكـن أن تزج به فـى غياهب السـجن بقية سـنوات عمره، وجد ضابطان من جهاز أمن الدولة فى الطابق الأرضـى من مبنى مؤسسـة الأيـام يسـتجوبانه بطريقة مريبـة، ويوجهان له تهمة التخطيط لتنفيذ عمل إرهابى خطير، واغتيال قيادة صحفية كبيرة، وشـخصية مرموقة وتحديدًا اسـتهداف عبد العليم طايع رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير " الأيام "والرجل يحظى بحماية خاصة وحراسة سرية ليل نهار باعتباره الأقرب إلى الرئيس ومستشـاره الصحفى، وكاتب خطبه، ومدبج كلماته فى المؤتمرات والاجتماعات واللقاءات الجماهيرية المختلفة، وهو الأقـرب إلـى قلب الرجل الكبير وأذنه دون كل أقرانه من رؤسـاء التحرير وكبار الصحفيين!

ظل ناجى شرف الدين على مدى ما يقرب من ساعتين فى خندق المدافع عن نفسه لا يكل ولا يمل من نفى تهمة هو منها براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.. لم يستسـلم قط ولم ييأس.. ألقى أمامهما بأوراقه الرسـمية وشهادة تخرجـه الجامعيـة، وأطلعهمـا علـى الـكارت اللعيـن الـذى يثبـت أنه جاء بتوصيه من أحد المرشـحين لمجلس الشـعب، وكـان هدفـه مقابلة عباس مبروك رئيس القسـم العلمى بجريدة الأيام، لكن يد القدر كانت سباقة، وصعـدت روح الرجل إلى بارئها قبل أن يحظى ناجى بلقائه وإعطائه كـارت التوصية!

قدم لهما أدلة براءته، وأخيرًا قالا له بلهجة حادة آمرة ساخرة:

إذهـب إلى حال سـبيلك.. وعليك أن تحلق لحيتـك، وتهذب مظهرك الرث هذا حتى لا تضع نفسـك موضع الشـبهات، وأفضل لك أن ترجع إلى بلدتك فى أقرب وقت.. ومن المؤكد أن تذكـرة العودة بالقطار مازالت معك.. هيا هيا عد إلى أمك يا عبقرى!

استفزته كلماتهما القاسية، ولهجتهما الخشنة، وأقسم فى قرارة نفسه بغباء غريب ألا يغادر هذه المدينة القاهرة الكافرة بالغرباء التى تطحن أحلامهم بلا رحمة ولا هوادة حتى ولو مات من الجوع، فهذا أفضل وأكرم له ألف مرة من أن يعود لقريته خائب الرجاء، محطم الآمال مجهض الأحلام!

ماذا يفعل إزاء كل هذا؟! سار على غير هدى لا يدرى إلى أى سبيل يمضى.. وقبل أن يغادر شارع الجلاء أو شارع الصحافة كما يسمونه، توقف أمام جريدة " الأيام " قليلاً يتأمل مبناها العتيق العريق، وكأنه أمام محراب مقدس، لم يكن يدرى أن الحظ الذى لعنه منذ لحظات، وسبه كثيرًا فى يقظته وفى أحلامه سوف يبتسم له أيضًا بعد لحظات.. فقد لمح سيارة مرسيدس رمادية اللون تحوم حول المبنى بحثًا عن مكان إنتظار، وفجأة رأى وجهها، عرفها برغم النظارة السوداء العريضة التى تتخفى وراءها، لم يصدق أنه يراها الآن، وأنها شاخصة على بعد خطوات منه بلحمها ودمها.. نادته.. كررت النداء بصوت أنثوى عذب صافى مثل ماء زمزم.. تسمر فى مكانه كتمثال من فولاذ أملس صلد..

هتفت من قلبها:

_ يا ناجى.. يا ناجى.. أنا إيناس مندور.. أنسيتنى.. أم أن النظارة السوداء غيرت ملامحى؟!

تبسم بخجل ومد يده بتردد ليصافحها، وقلبه يكاد يقفز من بين أضلعه.. أخيرًا ألقى بها القدر مجددًا فى طريقه لحكمة فى تدبيره وضميره!

سألته بمكر عن سر زيارته لمؤسسة الأيام، فقال كاذبًا متلعثمًا:

_ أبدًا.. مجرد زيارة صديق قديم كان معى فى الكلية.

أدركت كذبته بسهولة ولم تشأ أن تخدش ستره أو تكشف إخفاقه منذ البداية، لكنها أصرت على أن تصطحبه إلى كافيتريا المؤسسة على اعتبار أنه ضيفها.. وهى صحفية تعمل فى هذا المكان.. رفض بشدة دخول المبنى الذى شعر فيه بالإهانة منذ قليل، فأشارت له أن يجلس بجوارها فى

السيارة، وقد أحست بحاستها السادسة أن فى نفسه ما يؤلمه، بعد قليل من التردد جلس بجوارها فانطلقت بسيارتها إلى كازينو قريب وعلى النيل.. وهناك بدا المكان أكثر هدوءًا ويبعث على البوح وحديث الذكريات.. استرجعا من ذاكرة الماضى أحلى ما فيه.. استعادا أيام الجامعة، والرفاق والمحاضرات، والمغامرات وعبث القلوب الخضراء.. تذكر كل شئ.. تحدث بحب وشوق عن رفاق دراسته الذين زاملوه أيضًا فى الجيش، وخففوا عنه وطأة تلك الفترة العصيبة من حياته، وتحدثت هى باستفاضة عن زملائهما الذين التحقوا بالعمل فى الإذاعة والتليفزيون، وفى وزارة الخارجية، وفى الصحف القومية الكبرى.. بدت إيناس مبتهجة ثرثارة تفضفض بلا حساب، وتطلق صيحات مرح فيها خلاعة ومجون بينما هو قليل الكلام يرسم ابتسامه مستعارة على وجهه عساها تخفى نبرة الحزن والكآبة التى تغلف صوته حتى أعترف لها أخيرًا بأنه مازال عاطلاً عن العمل ولا يعرف له طريقًا ينقذه من شبح البطالة الرهيب.. قالت له:

ـ وماذا تفعل لمن تحل مشكلتك، وتضمن لك مكانًا مناسبًا فى صحيفة جديدة وواعدة.. صحيفة مستقلة ولها جمهورها رغم أنها لم تكمل عامها الأول فى دنيا الصحافة.

تساءل مستنكرًا: صحيفة مستقلة.

ـ نعم يا ناجى.. ستكون خطوة تنقلك بعد ذلك إلى "الأيام" أو "الأحداث" أو "المصرية".. وهى المؤسسات القومية التى تطمح للعمل بها.. ضع قدمك فقط على أول الطريق، والأحلام تتحقق على التوالى.

هز رأسه قائلاً: لابأس.. أكون ممتنًا لك يا إيناس على كل الأحوال.. شئ أفضل من لا شئ.

تبسمت فأشرق وجهها، ومدت يدها الصغيرة وأخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها.. وقالت له قبل أن تطلب الرقم:

ـ رئيس التحرير صديقى، ولن يرفض لى طلبًا خاصة وأنهم فى حاجة

إلـى محررين خريجى إعـلام، ومن حين إلى آخر أتعـاون معه وأكتب عنده بعض الموضوعات التى تناسب سياسته التحريرية.

وما إسم هذه الجريدة، ومن يكون رئيس تحريرها؟!

جريـدة " مصـر اليوم " ورئيـس تحريرها عمر الشـهابى.. حالاً أكلمه من أجلك..

ومسـت بأناملها الرقيقـة وجه الهاتف وأرقامه، وبـدأت تتكلم وتحكى عـن زميـل دراسـتها الموهـوب، كثير الكفـاءة قليل الحظ الـذى لم يجد فرصته المناسبة حتى الآن.

ولم يسمع ناجى بالطبع ما يدور من حديث على الطرف الآخر من الحظ، لكنـه فهم مـن ردودها أن هناك موعدًا جرى تحديده ليقابل رئيس التحرير فى مقر الجريدة بوسـط البلد غدًا فى السـابعة مساء.. أحس أن الدنيا بدأت تضحك له.. مد يده وأمسـك يدها، وأطل فى عينيها دون أن ينطق بكلمة.. سحبت يدها كأن النار قد مستها وامتعض وجهها دون أن تعلق بكلمة!

***

obeikandi.com

(١٠)

" المرأة لها قلب واحد وعقلان.. الرجل له قلبان وعقل واحد! "

تستطيع الأنثى أن تغفر للقدر كل شئ إذا كانت جميلة، أما لو كان حظها من الجمال ضئيلاً، ونصيبها من القبح وفيرًا فتلك كارثة كبرى تنغص عليها أيامها، وتحول ربيع عمرها الوردى إلى خريف غضب.. هذا هو عكس حال إيناس مندور، فتضاريسها وهضابها ووديانها هى سر عذابها، وهى مثل كل أنثى تدرك مواطن جمالها وقوتها، ونقاط قبحها وضعفها، وهى تعلم أنها تملك من أسلحة الإغراء الكثير وتحتكم على ما يكفيها ويزيد من ذخيرة الغواية التى تجعلها قادرة على اقتناص الرجل المناسب لو أرادت أو معاشرة الأنثى التى تبغى.. وبرغم أن أحوالها المادية ميسورة للغاية نظرًا لأن والدها قضى ما يزيد عن عشرة سنوات فى الخليج إلا أنها لم تكن تشعر بالسعادة، فلم يراودها عن نفسها فى يوم من الأيام منذ بلغت مبلغ الإناث أى شاب، صحيح أنها كانت تلمح نظراتهم المتوحشة، ورغبتهم فى افتراسها تطل فى عيونهم إلا أن الصحيح أيضًا أن الفتى الريفى الرقيق الحال هو الذى لفت انتباهها لكن مشاعرها كانت تتجه نحو ناجى شرف الدين.. لا تدرى لماذا ولم تفهم سببًا لذلك؟!

هو فتاها وفارس أحلامها، وصاحب التأشيرة الرسمية لاقتحام قلبها والولوج إلى قلعة أنوثتها الحصينة التى لم يقترب منها أى رجل حتى الآن، برغم أن هذه القلعة فتحت أبوابها على مصراعيها لبنات جنسها.

فى كثير من الأحيان كانت تصيبها نوبة إكتئاب غير مفهومة الأسباب لدرجة أنها كانت تغلق عليها غرفتها لمدة يومين أو ثلاثة وتنقطع للبكاء.

أما عن حظها فى التعليم فقد كان عظيمًا حيث تخرجت فى مدارس اللغات والتحقت بكلية الأعلام قسم الصحافة، وهى تجيد الفرنسية

والإنجليزية بطلاقة قراءة وكتابة ونطقًا، كما تتقن العربية تمامًا، وكذلك كان حظها فى العمل، فلم يكن تعيينها محررة صحفية فى مؤسسة الأيام صدفة، بل لعبت الوساطة الدور الأكبر بجانب مؤهلاتها وثقافتها الأوروبية، وقد كانت تتمنى أن يكون حظها وفيرًا فى عالم الرجال لا الإناث.. لكن الأقدار لا تعطى للإنسان كل شئ فى وقت واحد!

ومنذ ما يقرب من ست سنوات، وتحديدًا عندما تعرفت على ناجى شرف الدين لأول مرة، ومنذ أول لقاء لهما فى السنة الأولى بالكلية أحست أنه بوسامته، وقسماته الحلوة، ورجولته، ونبرة صوته الشجى الرخيم هو الأقرب إلى سويداء قلبها دون كل الغزاة الواهمين المفترضين، كان جمالها آسرًا، لكن خشونتها تضعها فى كثير من الأحيان فى خانة الرجال ولشراستها لم يجرؤ أحد من الجنس الخشن أن يغازلها أو يلقى بوردة فى طريقها أو يقذفها بكلمة إطراء!

وذات يوم بدت أكثر جرأة وغلظة وتمردًا على كل شئ، تلبستها حالة من النزق والتهور لدرجة التحرش بناجى.. قالت له بصراحة أقرب إلى الوقاحة:

_ لماذا لا تتحرك.. أنا أريدك.. ألا تفهم؟!

لزم الصمت وكان يعرف أنها أكثر من شخص فى شخص واحد سريعة التقلب من النقيض إلى النقيض لدرجة تثير حيرته.. أعادت عليه السؤال الذى تجاهله فى المرة الأولى فرد عليها:

_ كيف لإنسان مثلى أن يفكر فى مثلك، وأنت أعلم الناس بظروفى.. فلا وظيفة أتكسب منها، ولا مسكن يأوينى.. بصراحة أنا لا أملك من حطام الدنيا شيئًا يا إيناس.. أين أنا.. وأين أنت؟! هل الأرض والسماء يلتقيان؟! بالطبع لا.

_ لابأس يا ناجى.. فكل ما تحتاج إليه ستجده عندى.

_ تلك هى المشكلة.. أنا ريفى وفلاح ابن فلاح، ولا أقبل أن أكون عالة على أنثى.

obeikandl.com

إمتقع وجهها، وبدت غاضبة فتركت يده المقبوض عليها فى راحة يدها بضراوة، كما لو كانت هى الرجل.. وفى السيارة ظلت صامتة للحظات فقال لها مخففًا عنها وقع كلماته الصادمة:

ـ يا إيناس لا تغضبى منى فلا يعقل أن أدفن رأسى فى الرمال مثل النعام وأترك جسدى للعراء عرضة للمخاطر، والمهالك على طريقة هذا المخلوق الجبان الأحمق.

فاجأته بجرأة قائلة بهمس:

ـ اقترب منى يا ناجى.. قبلّنى.. إحضنى ولو مرة واحدة فى حياتك.. ألا تشعر بما أنا فيه أيها المغفل؟!

ـ لكن.. لكن.. يا إيناس الناس..

قاطعت تلعثمه وترددة وخوفه بنبرة حاسمة مغلفة بالتهديد قائلة:

ـ هيا.. هيا.. قبلّنى أو أنزل من سيارتى.

ـ أمرك يا ست هانم..

قالها باستسلام وخضوع العبد المطيع لسيدته الأميرة الأمرة الناهية ثم إقترب منها على استحياء، وضربات قلبه المضطرب تتزايد مثل دقات طبول الحرب فى زمن الأوس والخزرج، وبهدوء طبع قبلة باردة منزوعة الإحساس على خدها الأيمن واحتضنها، فأحس بانتفاضة جسدها الساخن بين ذراعيه كالمحمومة ثم ابتعد عنها ببطء فتشبثت به قليلاً، وأغمضت عينيها وبعد ذلك أفاقت من نشوتها على تملصه منها برفق، وصوت صرخات آلات التنبيه لعشرات السيارات يصك الآذان فى إشارة المرور، ومئات العيون كانت تتلصص عليهما فى عرض الطريق، أحس هو بالحرج كما لو كان قد إرتكب فعلاً فاضحًا على مرأى ومسمع من كل الدنيا، وأحست هى بالضيق والغضب منه وحده، وليس من العيون المتلصصة المتطفلة!

***

(١١)

" إذا أردت أن تعرف قيمة مسقط رأسك إرحل عنه بعيدًا! "

فى الشقة الصغيرة الحقيرة التى شاء القدر أن يأوى إليها ناجى شرف الدين مع أربعة آخرين، لكل واحد منهم حدوته لا تقل إثارة، ودراماتيكية عن حدوته ناجى.. فى إحدى الليالى المقمرة ظل مسهدًا متوترًا.. حاول أن يقتل وقته ويئد سهاده بالقراءة التى وقع فى غرامها منذ سنوات طويلة، كان هناك بائع صحف ومجلات، وبقايا كتب قديمة تستقر على رصيف محطة مترو الأنفاق.. فى طريق عودته للشقة التى كانوا يطلقون عليها " شقة الحرية " انتقى رواية أعجبه عنوانها " متحف البراءة " وهى الرواية الأولى التى أصدرها الروائى التركى الأشهر أورهان باموق بعد فوزه مباشرة بجائزة نوبل للأدب، وهذا الأديب التركى رسخ نجوميته الأدبية بنشره عدة روايات منها " الثلج "، " القلعة البيضاء "، " اسمى هو الأحمر " ويتمتع باموق بموهبة أصيلة ومتوهجة فى الحكى أصقلها بالقراءة الجادة والمنهجية وعمقها بالمعرفة التاريخية والحضارية منذ كان صبيًا صغيرًا، فهو ينتمى لأسرة موسرة وفرت له إمكانيات التعليم المتميز وفتحت أمامه أفاقًا رحبة للثقافة، وكان جده قد تمكن من جمع ثروة طائلة من عمله فى التجارة، غير أن والده وعمه بددا جانبًا كبيرًا من تلك الثروة عقب موت الجد ورحيله إلى العالم الآخر، لكن ما تبقى للأسرة من بقايا الثروة وفتاتها يسر لأورهان باموق وأفراد عائلته أسباب الحياة الكريمة المستورة! وقد أفاض أورهان فى كشف تفاصيل موحية من حياته، وتشابكها الوثيق المتداخل بتاريخ مدينة اسطنبول العريقة والتى هى مسقط رأسه حيث ولد فيها عام ١٩٥٢، ويطيب له ألا يغادرها ليعيش فى ربوع

مدينة أخرى، ويبدو هذا على نحو رائع وجلى فى كتابه " اسطنبول.. ذكريات مدينة ".

أما فى روايته التى تعد تحفة أدبية " متحف البراءة " والتى عكف ناجى شرف الدين على قراءتها، وأحبها من أول سطر.. فيبدو أورهان باموق مهمومًا من خلال شخصيات الرواية بالتأرجح بين الأصالة والهوية التركية، وبين الحداثة والتغريب أى محاولة وطنه تركيا تقليد الغرب، والانتساب لحضارته والانطواء تحت لواء الإتحاد الأوروبى منذ شق الزعيم التركى الفذ كمال أتاتورك عصا الطاعة على الخلافة الإسلامية، ومزق عباءتها المزركشة برسوم عمرها يزيد على ١٤٠٠ سنة بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى التى اندلعت شرارتها الآثمة فى عام ١٩١٤ ووضعت أوزارها عام ١٩١٨، وحينذاك أفصح أتاتورك عن رغبته العارمة فى تغيير الوجه الحضارى، والوجهة التاريخية لتركيا الوطن والتاريخ والجغرافيا.. الحجر والبشر.

وبرغم أن كمال أتاتورك كان حاسمًا، وصارمًا فى التوجه نحو الغرب، وقطع عرى علاقات تركيا التاريخية والحضارية بالشرق، إلا أن " كمال " بطل رواية " متحف البراءة " لم يحسم خياره، فقد كان مسئولاً عن إدارة ثروة عائلته، وعندما بلغ الثلاثين من عمره نشأت بينه وبين إحدى قريباته علاقة عاطفية ناعمة وساخنة والفتاة تدعى " موسون " وتتطلع لأن تصبح ممثلة شهيرة غير أن مشاعر كمال سرعان ما اعتراها الفتور عندما وقع فى هوى فتاة تركية تلقت تعليمها فى باريس فقد كان أبوها قنصلاً لبلاده فى فرنسا، وحاول كمال إقناعها بقطع علاقتها مع مخرج سينمائى حتى يمكنه الاقتران بها مدى الحياة!

برغم أن الرواية لا تمنح نفسها لقارئها من أول مرة إلا أنها خطفت انتباه وتركيز ناجى شرف الدين بشكل كبير.. الرواية تجرى أحداثها على خلفية سنوات العنف السياسى الدموى الذى شهدته تركيا خلال السبعينيات

والثمانينيات من القرن العشرين، وهو عنف كانت تؤجج نيرانه الصراعات الجامحة بين قوى اليمين واليسار.. وفى غصون التأرجح العاطفى لكمال، راقت له فكرة إقامة متحف للبراءة يجمع فيه أشياء وتذكارات فتاته الأولى " موسون ".. ومن هنا يأتى اسم الرواية، لكن الطريف أن فكرة كمال بهرت أيضًا الروائى باموق، ولذلك إنخرط فى تأسيس متحفه الخاص بالبراءة، ومن المنتظر أن يفتتحه قريبا بالحى القديم فى أسطنبول.

ويبدى الروائى أورهان باموق سعادة غامرة بمتحفه المدهش.. ويقول:

إن الروائى الروسى العظيم تولسوى أنشأ مدرسة، وأصدر كاتب آخر مجلة، وروائى ثالث راودته الأحلام السينمائية، وإهتم أديب رابع بقضايا وطنية وأسس حزبًا سياسيًا.. وبالنسبة لى فهذا المتحف هو مدرستى ومجلتى وأفلامى وأحلامى السياسية.. متحف البراءة جزء منى!

إن باموق بدأ رحلته الأدبية فى السبعينيات من القرن العشرين، وكان قد درس الصحافة بالجامعة، كما أمضى نحو عامين فى الدراسة بجامعة كولومبيا بأمريكا أواخر الثمانينيات.. وصار باموق مثيرًا للجدل فى وطنه تركيا لدرجة أن كبار المسئولين الأتراك عرضوا عليه أن يكون " فنان الدولة " غير أنه إعتذر عن قبول هذا اللقب، وهو مثل غيره كأى كاتب أصيل وموهوب يهوى أن يغرد فى فضاءات الحرية، وألا يحد من حريته وانطلاقه وسام أو لقب!

تجاوزت عقارب الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وتسللت غفوة النوم على جفون ناجى شرف الدين، وبسط سلطانه عليه، ولم يعد يسمع فى سكون الليل وعتمته سوى الهسيس الناعم الذى يسرى فى أوصال الهدوء بلا ضجيج مثلما يسرى الدم فى الشريان لا يراه أحد، ولا يشعر به حتى صاحبه.. أغلق ناجى الرواية الممتعة وأغلق معها جفونه المرهقة من طول التحديق فى الحروف والكلمات، واضجع بكامل جسده، وطوى الوسادة التى كانت خلف ظهره، وأصبحت تحت رأسه،

ونـام بعـد أن أزاح الرواية قليلاً بجواره لتشـاركه فراشـه حتى الصباح.. فى تلك اللحظة الحاسـمة بـدأ الضجيج يدب فى المكان.. هاهم زملاؤه شـركاء السـكن قد عادوا من سـهرة جهنمية لا يعلم مـا حدث فيها إلا الله سبحانه وتعالى!

***

obeikandl.com

(١٢)

" ليس مهما أن تزور روما.. المهم أن تقابل البابا! "

فى الموعد المحدد كان ناجى شـرف الديـن قريبًا من المبنى المقصود تدثر قليلاً بغطاء رأس أسـود ، وانكمش فى ملابسـه الصيفية البيضاء فى يـوم ممطـر معتم.. ودليـل فقر الفتى لبسـه الأبيـض فى الشـتاء.. كما قال الشاعر العربى القديم.. لوقع قطرات المطر خدر ساحر على جسده ورأسه.. الشـمس تختفى وراء تباشـير الضباب والسـحب القاتمة تبدو رهينة الموجة البـاردة التـى هبت على القاهرة فى ديسـمبر ، وكأنها تتحدى ثقب الأوزون والاحتباس الحرارى!

فى بناية مشـيدة من أربعة طوابق فى وسـط البلد وعلى الطراز الفرنسى.. هنـاك إلتقاه فى مكتبـه الوثير المريح الذى تفوح مـن جوانبه روائح عطور فرنسـية معتقة تشـى بأن إمرأة ما كانت هنا فى هذا المكان منذ لحظات أو أنها مازالت موجودة.. لا يدرى لماذا ألحت عليه هذه الفكرة الشيطانية.. المكان معتق بعطر إمرأة.. آثارها تبدو جلية.. بقايا سيجارة حريمى ما تزال تلفـظ أنفاسـها الأخيرة، وكأس فيها بقايا شـراب راقدة علـى المنضدة ، وكأس عمـر الشـهابى رئيـس تحريـر جريدة " مصـر اليوم " فى يـده، بدا الرجـل خمسـينى العمر أصلع قليلاً ، مجعد الشـعر علـى جانبى الرأس، له بشـرة سـمراء مثل الآباء فى جنوب مصر ، ويتميز برنـة صوت هادئة رصينة واثقة كأنه مذيع فى صوت العرب!

صافحـه الرجـل بحفاوة ، وقابله بترحاب وبشاشـة كمـا لو كان يعرفه منذ سـنوات طويلة خلت، أشـار إلىه الرجل بالجلوس أمامه.. استرخى ناجى شـاكرًا وبعيـون ذئب ماكـر تفحص مسـرح المقابلة الـذى يبدو مثل وكر لاصطيـاد الفريسـات أكثـر منـه مكتبًا تدار منـه صحيفة فيها عشـرات

المحررين و المحررات.. ظنون السوء دارت فى رأس ناجى، وطاردته الشكوك لما لاحظه فى المكتب من ٣ أبواب منها باب سرى يتخفى فى صورة مكتبة، فوجئ وهو جالس والرجل يتكلم بدخول فتاة ثلاثينية العمر ترتدى جيب قصير أسود اللون وبلوزة زرقاء مفتوحة الصدر.. الفتاة فارعة رشيقة مكتملة الأنوثة خمرية اللون شعرها ذهبى اللون من أثر الصبغة، تحمل شفاه أنجيلينا جولى، وقوام كاترين زيتا جونز وصدر مارلين مونرو، وسيقان ناعومى كامبل، صدمها وجوده فى المكان بصفته غريب فى مملكتها ووكر متعتها ونزوات رئيس التحرير.. تملكها ارتباك مفاجئ، وبسرعة بديهة، وذكاء مفرط وبخبرة العمر، وحنكة السنين إستطاع عمر الشهابى أن يتدارك الأمر ويتفهم مشاعرها فقدمها لناجى قائلاً:

ـ ميرفت العطيفى مديرة مكتبى.

ثم قدم ناجى لها قائلاً:

ـ ناجى شرف الدين محرر صحفى جديد سينضم لأسرة جريدتنا

تبادلا التحيات بحذر وفتور وابتسامة مصطنعة..

بدا الرجل ودودًا عطوفًا أليفًا مثل قط سيامى إلتهم وجبة دسمة، ويرغب فى النوم لعدة ساعات.. وبعد عدة تساؤلات عن ناجى ودراسته وحياته واقامته وأحواله فى القاهرة كلفه عمر الشهابى بأن يتولى مهمة " محرر الجمهور " هكذا أطلق عليه، وعندما بدت الدهشة أقرب إلى الاستفهام على وجه الفتى..

قال عمر الشهابى رئيس التحرير:

ـ هذا المسمى استحدثته بنفسى فى أعقاب العاصفة التى أثيرت مؤخرًا بعد اكتشاف فضيحة إختلاق أحد المحررين السابقين للعديد من القصص الكاذبة!

وعلى فكرة وظيفة " محرر الجمهور " هو أنه يتعامل فقط مع شكاوى

القراء وينقلها إلى رئيس التحرير جاهزة للنشـر، وأنا اخترتك تحديدًا لأننى أتوسـم فيك المواصفـات المطلوبة لهذا العمل الصحفـى، وهذه هى فرصة عمرك لتثبت ذاتك وتنطلق إلى مجالات أخرى فى العمل الصحفى.

تساءل ناجى بخجل:

ـ وما تلك المواصفات؟!

اعتدل عمر الشهابى فوق كرسيه واحتسى ما تبقى فى كأسه ثم قال:

ـ اسـمع يا ناجى أنا أثـق فى اختيار إيناس مندور وهى التى رشـحتك لى وحدثتنى عنك بشكل رائع، وتنبأت لك بمستقبل باهر فى بلاط صاحبة الجلالـة.. على كل الأحوال دعنا نـرى.. وعمومًا المواصفات المطلوبة لوظيفـة " محـرر الجمهـور " هو أن يكون شـخصًا ذكيًـا وفضوليًا، ومتفتـح العقـل ومسـتقل التفكيـر، ويقـوم بنقـل التقارير إلـى إدارة الصحيفـة لكـى تعمل علـى اتخاذ القرار المناسـب، ولمعلوماتك هذه الوظيفـة يتولاها فـى كبريات الصحف الأمريكيـة أكثر المحررين حنكـة وخبرة، لكننى اخترتك رغم حداثـة عهدك بالصحافة لكى أمنحك فرصة العمر.

تمتم ناجى بكلمات شـكر هامسـة، وهـو يفرك يديه قلقًـا وتوترًا حيث كانـت عيون ميرفت العطيفى تراقبه كأفعى متنمرة، والسـيجارة مشـتعلة بين أصابعها، وهى أيضًا مشتعلة كسيجارتها ماركـة " ميريت ".

قال عمر الشهابى بثقة واعتزاز:

ـ لـو نجحـت فى هذه المهمة سـوف أضعك فى وظيفة جديـدة جدًا على الصحافـة المصرية كلها.. سـوف أجعلك تدخل التاريـخ لأننى أنوى تطوير الهيكل الصحفى للجريدة مع إضافة وظيفة " المراقب الصحفى"

تساءل ناجى:

ـ وما وظيفة " المراقب الصحفى " هذا؟!

تكلم عمر الشهابى وكأنه يلقى محاضرة على طلاب قسم الصحافة فى كلية الإعلام ولم يقطع استرساله وثرثرته عن فكرته الأفلاطونية سوى رنين الهاتف المزعج.. قال:

المراقب الصحفى هو محامى القراء وضابط للمحررين.. وبرغم أن عدد المراقبين الصحفيين فى الولايات المتحدة الأمريكية يفوق عددهم فى أى دولة أخرى فى العالم حتى ألمانيا واليابان، إلا أن الفضل يعود إلى السويد لأنها فى سنة ١٨٠٩ فتحت أول مكتب فى الصحف لمراقبة الحكومة، واستلام شكاوى المواطنين والتحقيق فيها، بينما يعود الفضل إلى اليابان لأنها فى عام ١٩٢٢ شهدت ميلاد أول مكتب مراقبة صحفية، وكان ذلك فى جريدة " أساهى شمبيون " التى أنشأت لجنة لإستلام شكاوى القراء.. ولم ينتقل " المراقب الصحفى " إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلا فى سنة ١٩٦٧ عندما عينوا أول مراقب صحفى فى جريدة " لويفيل تايمز " وتم تعيين أول مراقب حكومى فى السويد عام ١٨٠٩.. وتبقى صحيفة " الشرق الأوسط " هى الصحيفة العربية الأولى التى عينت مراقبًا صحفيًا على مستوى العرب من المحيط إلى الخليج، والمراقب الصحفى ليس مسئولا عن آراء القراء وتعليقاتهم أو ما يسمى.. " خطابات إلى رئيس التحرير " ولكنه مسئول عن شكاوى القراء فى الجريدة، ونزاهتها وحيادها، والعاملين فيها وعلى رأسهم رئيس التحرير، وبقية المسئولين ثم ينشر ردودهم فى نفس الجريدة.

توقف عمر الشهابى قليلاً يلتقط أنفاسه، ويتأمل رد الفعل على وجه ناجى الذى بادره بالسؤال:

_ وكم عدد المراقبين الصحفيين فى الولايات المتحدة الأمريكية؟!

هذا سؤال فى محله يا عزيزى.. وأؤكد لك أن أمريكا وحدها فيها ٤٠ مراقبًا صحفيًا، ويختلف أسلوب كل واحد عن الآخر.

تساءل ناجى: وما أوجه الاتفاق والاختلاف فيما بينهم؟!

تبسم الرجل قائلاً:

ـ يتفقون على العديد من الأمور.. أقولها لك:

أولاً: رفع مستوى الجريدة بمراقبة الأخطاء والعمل على تلافيها.

ثانيًا: إشراك القراء فى هذه العملية ضرورى للغاية لكسب ثقتهم، ولو نجحت يا ناجى فى القيام بدور "محرر جمهورى" ستكون أول شخص فى مصر يؤدى مهمة "المراقب الصحفى" وبذلك تدخل التاريخ!

ـ أتمنى أن أكون عند حسن ظنك يا أستاذ عمر، وأدعو الله أن أحوز ثقتك.

ثم ضغط الرجل على زر أمامه فدخلت سكرتيرته، وهى نحيلة سمراء ضامرة مثل عود القصب الممصوص.. قال لها بإشارة من يده:

ـ اصطحبى ناجى إلى صالة التحرير ليتعرف على نواب رئيس التحرير ويتسلم منهم المواد الصحفية الخاصة بالصفحة التى سيتولى تحريرها ابتداء من الغد بمشيئة الله.. شكره الفتى وانصرف وهو يرمق ميرفت العطيفى بنظرة لا تخلو من الريبة والتساؤل الصامت الغامض!

***

obeikandl.com

(١٣)

" يجلس على قمة العالم من لا يشتهى شيئًا ولا يخشى شيئًا! "

بدأ ناجى شرف الدين عمله الصحفى الجديد كمحرر جمهور فى مكتب صغيـر حقير خصصوه لـه بجوار عطا الهلالى مديـر التحرير، وكان عطا الهلالى هو المشـرف على تحرير صفحة بريد القراء أو مشاكل الجمهور، وقد استدعاه الأستاذ عطا ، وبعد التعارف والترحيب أعطاه الأستاذ عشرات الخطابات المغلقة، وبكلمات طيبة شجعه على العمل والإبداع قائلاً :

ـ يـا نجـم صاحبـة الجلالـة الواعـد أؤكـد لـك أن الجمهـور ينتظـرك بشغف، ويترقب منك العمل على حل مشاكله عبر قلمك.. هيا اكتب وأبدع وانشـر ما تراه صالحًا من هذه الرسـائل، وما يسـتدعى السؤال والاستفسـار فـلا تتردد فـى اللجوء لـى، ويمكن لـك أن تعتبرنى أخًا أكبـر لـك، أو صديقًـا جديـدًا قديمًا.. ولا تنسـى أننى بـدأت حياتى المهنية كمحرر لبريد القراء.

شـكره ناجى على مشـاعره الطيبة، وهز رأسـه بامتنـان وإعجاب، وحمل خطاباتـه وخـرج متوجهًا إلى مكتبه المجاور، وهناك اسـتوى فوق كرسـيه الهزاز الجلدى الأسـود , وانهمك فى فض بـكارة خطابات القراء وتصفحها، كانت تلك الخطابات مثل عالم خفى مملوء بالأسرار والحكايات، فيها الألم والأمـل.. الأنيـن والحنين، هـى صـوت المحكوم عليهم بالصمـت، وعبر هذه الرسـائل يتنفسون ويطلقون صرخة المظلومين.. بعد أن استغرق فى القراءة ما يقرب من سـاعتين أحس برجفة وثقل المهمة وأن المسئولية كبيرة قد لا يقدر على حملها، لكنه عقد العزم والله المستعان!

فـى لحظة إسـترخاء رشـف كوبًا مـن الشـاى بالنعنـاع الأخضر الذى يهـواه، وعـاد للقـراءة مـن جديـد اسـتوقفه خطاب فضـه، وقرأ مـا فيه

بتركيز وتمعن شديدين:

" أنـا إسـمى عبد البـارى عطوة صعيدى مـن محافظة أسـيوط وتحديدًا من بلـدة القوصيـة.. حكايتـى غريبـة وحزينة ومؤلمـة، فقد تزوجـت منذ حوالى عشرة أعوام تقريبًا، وشاء حظى العثر أن أسافر لدولة الكويت الشقيقة بحثًا عـن الرزق مثـل آلاف من الصعايـدة الآخرين وحتى أتمكن مـن تدبير نفقات أسـرتى، فأنا العائل الوحيد لأمى وخمسـة أخوة قصر لا عائل لهم سـواى بعد رحيل أبى عن الدنيا، وعندما تزوجت وأنجبت زادت أعبائى فسعيت للسفر إلى الخليـج، وكانت لؤلؤة الخليج العربى كما يطلقون عليها هى قبلتى ووجهتى وياليتها ما كانت.. هناك طلب منى الكفيل الكويتى أن أشـاركه فى محل تجارى، ووجدتها فرصة طيبة لكى أوسـع رزقى، وأحصل على دخل مناسـب ومسـتقر أدخر منه جزءًا للزمن، وأرسـل لزوجتى وأمـى ما يفيض عن حاجتى بعـد ذلك، فوافقت ورحبت بعـرض الكفيل الذى ألقى على عاتقى عبء كل شـئ يتعلق بـالإدارة والجهد والعمـل لدرجة أننى لم أكن أحصـل على الراحة أو النوم إلا سـاعات قليلة جدًا، وأحيانًـا كنت أواصل الليل بالنهار حتى أثبت كفاءتى وجدارتى بهذه الشـراكة وينجح المشـروع.. وبعد فترة تحقق النجاح المنشود، وقبل أن أجنى ثمرة كفاحى، وعنائى فوجئت بكفيلى يقدم إقرار دين للشرطة ضدى، وكنت قد وقعت على هذا الإقرار مقابل الشراكة معه، وبـدلاً من أن يمنحنى الكفيل الكويتى حقى المشـروع وثمن نجاحى وعرقى طمع فيه، وقرر إبعادى عن الشـراكة ليحظى وحده بالأرباح دون اعطائى أى مقابل، وللأسـف الشـديد صدر ضدى حكمًا بالحبس لمدة أربع سنوات فى قضيـة إقرار الديـن، وكانت تهمتى النصب والاحتيـال وخيانة الأمانة والذمة الماليـة، وضعونى فى سـجن رهيب يشـبه الحصن وفى الكويت يطلقون عليه معتقل " جوانتانامو الخليج " مرت علىّ حتى اليوم ثلاثة أعوام لم أر فيها النور، ولـم أتمكـن حتى من إبلاغ أهلى بما حدث لى إلا منذ شـهر واحد فقط حيث استطعت بمعجزة الاتصال بهم فى أسيوط وإخبارهم بمحنتى، وكانت صدمة كبيرة لهم جميعا حينما علموا بما حدث لى!

ويضيف عبد البارى فى رسالته المأساوية:

" أما هنا فى هذا السجن المرعب فنحن نتعرض لأبشع معاملة يمكن أن يتعرض لها إنسان، فهم يعاقبوننا لأننا مصريون، وكأنها تهمة وسبة يلعنوننا بها ليل نهار.

أرجو أن تصل صرختى إلى الرئيس المصرى ووزير الخارجية وإلى كل المسئولين الشرفاء فى بلدى الغالى مصر.. أقول للجميع.. أنقذونا فأنا لست وحدى فى هذا الجحيم، بل مئات من المصريين الأبرياء يقبعون خلف أسوار معتقل جوانتانامو المرعب.. فهل تتحرك مصر لإنقاذ فلذة أكبادها؟! "

فرغ ناجى من قراءة الرسالة، وقد تجهمت ملامحه، طوى الرسالة بعصبية وظل شاردًا صامتًا يفكر ماذا بوسعه أن يفعل إزاء هذه المصيبة التى تطل برأسها من فوق السطور.. ويكاد يسمع أنين وآهات صاحبها.. ماذا يفعل فى أول اختبار له.. اختبار صعب؟!

نحى ناجى الرسالة جانبًا، ومد يده ليسحب رسالة أخرى عساها تكون أقل وطأة وأكثر رحمة وإنسانية عن سابقتها.. مزق مظروفها وبدأ يقرأ كلماتها.. كانت الرسالة بتوقيع فؤاد عبد العليم من مدينة بورسعيد يقول فيها:

" يا سيدى أغلقت مدينتى الحرة أبواب الرزق فى وجهى، وضاقت بى السبل فوليت وجهى شطر دولة البحرين سعيًا وراء حياة أفضل عابرًا حدود بلدى تاركًا أهلى، وبالفعل سافرت بعقد عمل، عملت سائقًا لتاكسى بعد أن أجبرنى كفيلى لعنه الله فى كل كتاب على التوقيع على شيك على بياض لكى يمنحنى سيارة أعمل عليها، وبعد عام من الجهد المضنى والشقاء المؤلم لم أحصل ألا على القليل من المال.. فتات لا يكفى حاجتى وحاجة أسرتى فما كان منى سوى أن طلبت من كفيلى أن ينقل كفالتى إلى غيره.. هنا وقعت الواقعة، وكأننى ارتكبت أكبر الكبائر فهاج وماج، ورفض بشدة، ولم يكن أمامى سوى اللجوء إلى إدارة شئون المغتربين، ولكننى

فوجئت بنتيجة عكسية تمامًا فقد صدر قرارًا بضبطى وإحضارى، وألقوا القبض على بلا ذنب اقترفته، ووجدت نفسى فى السجن غريبًا بين أربعة جدران منذ أكثر من شهرين دون محاكمة ولا اتهام ولا تحقيق عادل، ولا أدرى متى يرفع الله عنى هذه الغمة، والأيام والليالى تمر بطيئة ثقيلة كئيبة، وأنا أموت ببطء، ورأيت وسمعت وعرفت هنا حكايات لمظاليم أبرياء يندى لها جبين البشرية.. وتحيا الأمة العربية.. وأمجاد يا عرب أمجاد!"

بمجرد أن انتهى ناجى من قراءة الرسالة الثانية، وكانت أكثر درامية من الرسالة الأولى.. عكف على قراءة الرسالة الثالثة، وكانت أكثر غرائبية وفضائحية:

يقول صاحبها ويدعى حامد اللبودى من الجيزة:

" ماذا تفعل يا سيدى لو وجدت زوجتك عارية تمامًا فى أحضان رجل غريب؟! هذا هو ما حدث معى حيث وجدت زوجتى كما ولدتها أمها تعاشر أكثر من رجل فى وقت واحد على شبكة الانترنت!

الصدفة وحدها جعلتنى أكتشف الفضيحة المخجلة.. لم أصدق عيونى فى البداية برغم أنها كانت هى زوجتى بكل تفاصيلها.. الوجه والجسد وكل شئ.. واجهتها أنكرت فى البداية.. ثم بكت واعترفت بأنها لجأت لممارسة الجنس الجماعى مع الغرباء بدافع الملل من الحياة الزوجية!

هل هناك زوج عاقل فى الدنيا يصدق هذا.. ولو كنت مكانى يا سيدى ماذا تفعل؟! هل تقتلها؟! هى تستحق الشنق، لكنى طلقتها ولم أسترح..

إننى أحذر الأزواج والزوجات من دخول " بوابة الشيطان " التى اسمها غرفة الشات حتى لا تنزلق الأقدام إلى هاوية الفسق، والفجور وعظائم الأمور.. أمور تشيب لها الولدان.. علاقات محرمة..كلمات معسولة خادعة كاذبة، والوعود البراقة بين عشاق الشات.. لقد اتضح أن حوالى ٨٠٪ من الشباب يدخل الشات لإقامة علاقات مشبوهة مع الجنس الآخر.. ونحو ٢٠٪ يدخلون إلى الشبكة العنكبوتية الانترنت من أجل العلم والمعرفة لا أكثر!

ولكن لم تتوقف المحاولات المشبوهة لتحويل شبكة النت من خدمة العلم والعلماء والباحثين.. إلى شبكة لتجارة الرقيق الأبيض، والترويج للعلاقات المشبوهة حتى أن ٦٠٪ من المواقع على شبكة النت تحولت من رسالتها السامية إلى رسالة سوقية حقيرة تروج صراحة للخلاعة والرذيلة، والمجون والتخلى عن برقع الحياء، والدعارة المباشرة.. لدرجة أن عدد المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت وصل إلى ٧ملايين موقع.. وتلقى هذه المواقع رواجًا وانتشارًا فى مصر والدول العربية على حد سواء لدرجة أن حجم انفاق هواة الشات بلغ ٥٠٠ مليون دولار كل سنة بمتوسط ٣٠ دولارا شهريًا مقابل التعرف على شريك يمارس معه علاقة محرمة حتى لو كانت رذيلة إلكترونية.. الغريب فى الأمر يا سيدى أن دراسة عربية حديثة كشفت أن ٩٥٪ يدخلون على الإنترنت للتسلية وإقامة علاقات سريعة أو غير مشروعة والاستمتاع بعلاقات حرة متحررة وبلا مسئوليات أما الـ ٥٪ الباقية فيدخلون للترفيه، وقتل وقت الفراغ.. وأشارت الدراسة إلى أن ٧٠٪ من البنات والنساء يدخلن للنت للبحث عن عريس و٢٠٪ للتسلية، وإقامة صداقة مع الجنس الآخر و١٠٪ لإضاعة الوقت، وسماع الكلمات المعسولة!

ولأننى أعمل باحثًا فى مركز الدراسات والبحوث الجنائية والاجتماعية أحدثك يا سيدى بالأرقام والإحصائيات ولأننى رجل من أصول ريفية.. ولأننى فلاح ابن فلاح طلقتها.. هزمت شيطانى ولم أقتلها وأقضى ما تبقى من عمرى فى السجن على العموم فهناك حالة طلاق كل ٦ دقائق.. كل ٦ دقائق يلقى رجل بيمين الطلاق على زوجته أو يرسل لها ورقة الطلاق عبر البريد الإلكترونى، أو يطلقها أمام مأذون شرعى!

لن تكون زوجتى آخر المطلقات.. من يتصور أنه مع كل طلعة نهار تدخل نحو ٢٤٠ إمرأة فى قائمة المطلقات، وأن حصيلتنا من طابور المطلقات فى السنة الواحدة نحو ٩٠ ألف إمرأة مطلقة يضفن كل سنة إلى حصيلة مصر الرسمية من المطلقات وهو ٦ ملايين مطلقة!"

obeikandl.com

أفاق ناجى شرف الدين من دوامة الأرقام المزعجة، والمؤلمة بجيش المطلقات وظن أن كل نساء مصر، وكل رجالها فى طريقهم إلى أبغض الحلال عند الله، وسأل نفسه:

لماذا تخون المرأة؟!

لم يجد جوابًا حاضرًا.. لكن سالت من مقلتيه دمعة ساخنة، فرت رغمًا عنه، وبدا مشلولاً عاجزًا عن فعل أى شئ، فهو لا يملك سوى حبر قلمه، وإن كان يشك فى أن مداد حبر قلمه مهما كان دفاقًا جاريًا يستطيع أن يحرر الأبرياء من سجنهم، ويفك قيود غربتهم ويضع حدًا للانحرافات الزوجية، ويوقف قطار المطلقين والمطلقات!

أخذ ناجى شرف الدين الرسائل، ودلف إلى مكتب مدير التحرير عطا الهلالى يسأله المشورة.. تبسم مدير التحرير قائلاً:

- يمكن أن تنشر الرسالتان الأولى والثانية تحت عنوان.. " إلى وزير خارجية مصر! "..أما الرسالة الثالثة فيمكن أن تنشرها تحت عنوان.. " الشيطان فى بيتى! " لكن دعنى أحكى لك يا ناجى ما حدث معى أنا شخصيًا فى الكويت.. عسى أن تعرف لماذا أهل الكويت يكرهوننا؟! ليس كلهم طبعًا.

اضجع عطا الهلالى فى كرسيه المريح، وقال بنبرة ساخرة هادئة:

- " منذ عدة سنوات ذهبت للعمل فى الكويت حيث تعاقدت معى إحدى المؤسسات الصحفية الكبرى هناك بأجر مغرى، وبالفعل سافرت، وكان أول ما فعلته أن قمت باستئجار شقة مفروشة من أجل الإقامة، وتسلمت المفتاح من الشركة المالكة للعقار، وسارت الأمور فى الأيام الأولى على ما يرام.. لاشئ ينغص على حياتى ولا يزعجنى، ولكن بعد أسابيع قليلة بدأ جرس التليفون فى الشقة لا يتوقف عن الرنين، وكانت كل الإتصالات تسأل عن شخص واحد اسمه رؤوف ذهنى، وعرفت من المتصلين أن رؤوف هذا كان الساكن السابق بنفس الشقة التى

أوقعنى حظى السئ فيها كما عرفت أيضًا أن رحيله عن الشقة، وعن الكويت كلها كان أمرًا مفاجئًا لهم جميعًا، والحقيقة أن الذهول كان هو رد الفعل للجميع بمجرد علمهم بأننى الساكن الجديد، ولست رؤوف ذهنى!

وجدت نفسى غاضبًا مستاء من فكرة أن أكون أنا من يبلغهم الخبر الصادم المفاجئ، خاصة أن بعضهم كان يستحلفنى بألا أبخل أو أضن عليهم بأى معلومة أعرفها عن مكانه.. حفلت المكالمات الهاتفية من المتصلين ومعظمهم من الكويتيين بقصص متضاربة عن المدعو رؤوف ذهنى هذا.. فبعضهم وصفه بالشهامة والمروءة والرجولة، ونبل الأخلاق، والبعض الآخر تحدث عن خسته ونذالته وحقارته، وسفالة أخلاقه غير أنه جمع بين أصحاب المكالمات جميعًا أن رؤوف ذهنى خدعهم، وأخذ فلوسهم وطار إلى غير رجعة وبلا مقار!

رثيت لحالهم بعد أن قصوا على حكايات غريبة، وعجيبة عن الأموال التى لهفها على سبيل الاقتراض أو المساهمة فى شراكة تجارية، والطريف أنه كان من بين ضحاياه بعض النساء، والفتيات بعضهم من الكويتيات، وغير الكويتيات مثل الهنديات والفلبينيات والسيرلانكيات اللاتى وعد كلاً منهن بالحب والزواج والغرام وانجاب البنين والبنات، والسعادة الدائمة والنعيم المقيم فى القفص الذهبى إلى يوم الدين، وعلى الفور قمن بمنحه المال والمصاغ وتحويشة العمر كلها ليؤسس شركته الخاصة، ويبنى عش الزوجية، ويشيد مؤسسة الأحلام ليستقر مع من اختارها قلبه على شاطئ الأمان على حد قولهن لكن المفاجأة المفجعة أن رؤوف ذهنى اختفى فى ظروف غامضة بعد أن اختطف الفلوس وأشياء أخرى!

بدا ناجى شرف الدين ذاهلاً مشدوهًا مستغربًا لحكاية مدير التحرير عطا الهلالى الذى أكمل الحدوتة قائلاً:

ـ لقد أكدت لكل هؤلاء المتصلين أنه رغم تعاطفى الإنسانى الشديد

معهم، إلا أننى لا أعلم شيئًا عن صديقهم الهارب، وبعد ذلك رجوتهم أن يترفقوا بى، ويكفوا عن إزعاجى بإتصالاتهم الليلية التى تفزعنى من أحلامى الوردية، وتحولها إلى كوابيس جهنمية، وسألتهم أن يبحثوا عن أخباره بعيدًا عنى لكن هذا الرجاء لم يشفع لى عندهم، ولم تتوقف الاتصالات المزعجة فقمت بنزع القابس من الحائط، وقررت أن أستغنى عن خدمات التليفون طوال فترة وجودى فى الكويت أو أغير الرقم، وأمرى إلى الله.. ظننت أننى بهذه الفكرة الذكية أستطيع النوم ملء جفونى بهدوء، وأنعم بالطمأنينة والسكينة بعد أن أصبح التليفون جثة هامدة بلا حرارة، ولا رنين لكن هيهات.. بدأ اليائسون من العثور على ضالتهم يفدون إلى شقتى، ويطرقون بابى للتأكد من أن الأمر برمته ليس حيلة جديدة مبتكرة من حيل رؤوف ذهنى، وقد ذكرنى أمرهم بضحايا توظيف الأموال الذين توافدوا على مقار الشركات فى مصر بعد أن قامت الحكومة بتضليلهم، وتولى أصحاب اللحى الطويلة سرقة فلوسهم بإسم الدين، وقد اضطررت لإستقبال عدد منهم، واستمعت إلى حكاياتهم.. كانت هناك الممرضة الرومانية التى بكت، وهى تروى لى كيف منحته عن طيب خاطر عشرة آلاف دولار هى كل ما إدخرته من العمل فى الكويت كمساعدة منها لإتمام زواجه بها!

وكان هناك التاجر الكويتى الذى سحب منه رؤوف ذهنى أجهزة كهربائية بعدة آلاف من الدولارات، وصاحب مكتب السياحة الذى أعطاه تذاكر سفر على الحساب ومدير البنك الوطنى الكويتى الذى أقرضه مبلغًا من المال بضمان صداقتهما الشخصية.. ناهيك عن ضحاياه من المهن، والفئات الأخرى..فهناك البقال والجزار والفاكهى والحلوانى.. الرجل فى الحقيقة بارع للغاية فلم يترك أحدًا يعرفه لم يقترض منه، أو يسحب أمواله بالحيلة والمكر والدهاء!

كنت مذهولاً مدهوشًا من براعة رجل واحد، وقدرته على خداع كل هؤلاء ومنهم المتعلم المثقف، والتاجر المحنك ابن السوق، والعربى والأجنبى لم يسلم من براثنه أحد على الاطلاق!

وإن كان أحد الضحايا قد قدم لى تفسيرًا لوقوع كل هؤلاء فى فخ هذا الرجل المحتال بدرجة امتياز.. قال لى بعد أن سمحت له بالدخول، ودعوته إلى فنجان شاى:

ـ لقد كان هذا الرجل المدعو رؤوف ذهنى شخصًا استثنائيًا فى كل شئ، ويندر أن تقابل مثله.. كان باسمًا بشوشًا دائمًا، حلو الحديث يأسرك من أول لقاء، بل كان كالساحر يجعلك تخرج الفلوس من جيوبك، وتتوسل إليه راضيًا مرضيًا أن يأخذها!

وأردف الرجل قائلاً لى ونحن نشرب الشاى فى صالون شقتى:

ـ سأحكى لك حكايتى الشخصية مع رؤوف ذهنى.. كنت قد دفعت له خمسة آلاف دولار كجزء من ثمن سيارته التى عرضها للبيع ثم عرفت بعد ذلك أنه باعها لشخص آخر، ظللت أطارده عدة أيام عبر الهاتف، وهو يروغ منى ويزوغ مثل الثعلب الجبلى الماكر اللئيم حتى أطبقت عليه أخيرًا بزيارة مفاجئة فى صباح يوم جمعة جميل مشمس، وكنت فى هذا اليوم الطيب على أتم استعداد لإرتكاب جريمة أو قتله لأشفى غليلى، وأحصل على فلوسى السليبة.. فتح الباب لى وعلى غير ما توقعت منه رأيت وجهه هاشًا باشًا متهللاً بمجرد رؤيتى، وقال لى بكل ترحاب وود وألفة كأنه كان ينتظرنى:

ـ أنت والله ابن حلال.. لقد كنت أجهز الإفطار لنفسى، وقد أرسلتك العناية الإلهية لى فى الوقت المناسب حتى لا أفطر وحدى.. الوحدة قاتلة والغربة مؤلمة..

فقلت له بغضب شديد فى نبرة حادة وحازمة:

ـ لا أريد إفطارك.. أنا هنا من أجل استرداد فلوسى فقط..

ضحك طويلاً ضحكة صافية ملائكية، وهو يخرج الفلوس من جيبه، ويناولني إياها بكل بساطة، وبإبتسامة عريضة على وجهه مثل الساحر البارع قائلاً:

ـ لم أكن أعلم أنك بهذه القسوة، وكنت أحسب أننا أصدقاء، ولن تفرقنا أبدًا حفنة دولارات.. هل ظننتني لصًا أو نصابًا؟! لقد كنت ياصديقي في أزمة مالية، والحمد لله فرجت من أوسع الأبواب.. لا تغضب يا عزيزي وهيا نفطر ثم نذهب إلى بيت الله نصلي الجمعة، ونكيد الشيطان اللعين..

وأضاف الرجل يواصل سرد الحكاية المثيرة قائلاً:

ـ في الواقع لقد أعد رؤوف ذهني إفطارًا شهيًا لذيذًا، وتعامل معي بود بالغ، وحميمية مفرطة، وسأل عن أفراد أسرتي فردًا فردًا بالأسماء، وأشهد أن جلستي معه ملأتني بالسعادة و غمرتني بالسرور، وانشراح الصدر لكرمه، ودماثة خلقه، وحديثه الودي المتسامح حتى أنني لعنت نفسي التي جعلتني أسئ الظن بصديق كريم مثله، وبغضت شيطاني الذي وسوس في ضميري، وبعد ذلك ذهبنا للصلاة، وفي الطريق إلى المسجد إستأذنني لدقائق في الوقوف أمام إحدى ماكينات الصرف الآلي، وأدخل بطاقته في الآله، وفجأة تغير وجهه إلى الحزن والكآبة، والماكينة تخبره أن رصيده لا يسمح بسحب المبلغ المطلوب.. لاحظت أنه يجاهد دموعه ثم سار بجواري صامتًا منكس الرأس.. سألته من باب حب الاستطلاع الغريزي:

ـ ما بك يا رؤوف؟!

قال بصوت واهن مخنوق والحروف تتلعثم في حلقه:

أبدًا.. الحسابات اختلطت علي، وكنت أعتقد أن رصيدي يكفي لشراء علاج أمي لهذا الشهر لكن لا بأس سأتصرف!

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أخرج الفلوس التي أخذتها منه منذ قليل، ورجوته

وتوسلت إليه أن يأخذها منى.. رفض فى إباء، وسار مبتعدًا عنى فى كبرياء.. لحقت به، ووضعتها فى جيبه رغمًا عنه وهو يقاوم يدى!

سكت محدثى عن الكلام فقلت له: وماذا بعد؟!

قال: لا شئ.. الملعون جعلنى أعيد إليه الفلوس التى لم أهنأ بها سوى دقائق..وبعدها بساعات كنت أنت الذى يرد على التليفون فى شقته!

***

obeikandl.com

(١٤)

" فى كل بقعة من العالم توجد شعلة مضيئة هى المعلم.. ويوجد من يطفئهاوهو رجل الدين!"

سرت حالة من الألفة والود بين عطا الهلالى، وتلميذه فى الجريدة ناجى شرف الدين، ودائما ما كان عطا الهلالى يعرض على ناجى أن يخرج معه فى أيام العطلات، أوحتى فى الأيام العادية بعد انتهاء ساعات العمل.. جمع بينهما حب كبير وشعر كل منهما رغم فارق العمر أنه يعرف الآخر منذ سنوات بعيدة.. حالة روحانية وحدت بينهما.. فالأرواح جنود مجندة ما تآلف منها إتفق، وما تنافر منها اختلف، وكل شئ بأمر خالق الأرواح، وصانع الأجساد، ولأن حياتهما تكاد تكون متشابهة تمامًا إقتربا، وصارت بينهما علاقة إنسانية ودية ترقى إلى درجة الصداقة الحقيقية، أو الأخوة المخلصة إن لم تكن تزيد.. كان عطا الهلالى كريمًا لأقصى حد مع ناجى.. كان الرجل أكرم معه من الريح المرسلة فى موسم الشتاء فقد كان يتكفل بالإنفاق عليه لأسابيع طويلة!

تعلق ناجى به كثيرًا واعتبره أستاذه ومعلمه فى الصحافة، وشقيقه الأكبر الطيب فى الحياة.. لم يكن يفارقه سوى للنوم فقط، وكثيرًا ما سهرا معًا حتى منتصف الليل، وذات يوم أصر عطا الهلالى أن يوصله بسيارته حيث يسكن، وصعد معه للمكان الذى يأويه فوجد فى الشقة حوالى ٢٠ شابًا من مختلف محافظات مصر المحروسة، يمرحون ويلعبون " الكوتشينة " ويتسامرون بصوت عابث وضحكات عالية مجلجلة، وكأن الدنيا نهار والفجر لم يقترب بعد!

سأله باستنكار:

يا ناجى.. مَن هؤلاء؟!

ـ هـؤلاء أقارب، وأصدقاء، وزملاء مـن يقيمون معى هنا.. إنهم أصحاب أصحابى!

ـ وكيـف تهنـأ بنـوم هـادئ؟! وكيـف تعيـش فـى ظـل هـذا الصخب والضجيج؟!

أطلق آهة مكتومة ذات مغزى وقال:

ـ لقـد اعتدت على ذلك.. وماذا عسـاى أن أفعل وليـس لى مأوى فى هذه المدينة العظيمة سوى هذه الشقة الحقيرة مع هؤلاء الأوباش.

ـ اسـمع يا ناجـى هذا المكان لا يليق بك علـى الإطلاق، فأنت صحفى موهوب وسيكون لك شأن كبير فى المستقبل، سوف تصبح كاتبًا مرموقًـا ذات يـوم وأنـا لا أرضى لـك أن تبقى فى هذا الجـو برغم أننى بـدأت حياتـى فى غرفة ضيقة، وقحة فوق السـطوح مع عدد من زملاء الكفاح ورفاق الطريق، لكن الآن الظروف تغيرت تمامًا!

مـن الغـد يا عزيـزى تأتى لتعيش معـى، فأنا أقيم وحدى فى شـقة لا تقل عن ٣٠٠ متر.. أى أن مسـاحتها تسـاعدنا على أن ننظم فيها مسـابقة لجرى الخيول.. إجمع أغراضك فى الصباح ولا تتأخر سوف أنتظرك.

تلعثم ناجى شرف الدين ثم قال بخجل وانكسار: لكن.. لكن..

ـ يا ناجى هذا أمر وعليك أن تنفذه فورًا.. فى الجريدة أنا وأنت نتشاور ونتناقش ونتبادل الرأى حول أمور شتى فى الصحافة والحياة، لكن هذه المرة سوف أطبق عليك مبدأ.. ديمقراطية الحوار وديكتاتورية القرار.. باعتبارى رئيسك المباشر فى العمل أعطيك أمرًا وعليك السمع والطاعة والتنفيذ.

تبسم ناجى قائلاً:

ـ لكـن هـذا كثير وكرمـك أخجل تواضعـى، وإن كنت أخشـى أن أكون عبئًا عليك فى الجريدة، وأيضا مصدر إزعاجك فى البيت.

ـ يـا ناجى.. لا عـبء ولا يحزنون.. أنا وحيد , والوحـدة رفقتى وحالك من

حالى فليؤنس كل منا الآخر.

هز الفتى رأسه بارتياح وبنبرة ود ورضا:

ـ أمرك مطاع يا أستاذى، فأنا لا أستطيع أن أشق عليك عصا الطاعة مهما حدث.. من الغد بمشيئة الله ستجدنى عندك، وأرجو أن أكون ضيفًا خفيفًا.

ـ لن تكون ضيفًا، بل ستكون صاحب بيت!

قالها وقد ارتسمت على وجه عطا الهلالى معالم البشاشة والسرور ثم ربت على كتف ناجى، وانصرف.. فى تلك الليلة لم ينم ناجى شرف الدين فقد ظل مسهدًا ساهرًا، عيونه شاخصة إلى سقف الغرفة، وجسده مسجى فى الفراش، يحدق فى المجهول، ولا يدرى كيف ستكون أيامه القادمة، وإلى أين تقوده عربة الزمن التى لا ترحم، خاصة وأن عطا الهلالى برغم أنه الأقرب إليه فى الوقت الحالى، وبرغم عشرات الساعات، والأيام التى قضياها سويًا فى أحضان صاحبة الجلالة إلا أنه لم يعرف عنه سوى القليل، لا يعرف عنه سوى معارضته لأى شئ وكل شئ وتمرده على التابوهات الدينية، والجنسية والسياسية، فهو صعب المراس عنيد صلب الإرادة لا يعبأ بأى شئ، كتاباته فيها جرأة وشراسة غير عادية، يظن نفسه هو المسئول عن إصلاح الكون وتغيير ما أفسده الناس فى كل المواقع، وعلى كل المستويات.. يبدو الهلالى غامضًا فى كل الأحوال، فهو لا يحكى أبدًا عن حياته الخاصة بل دائم الحديث عن كتبه، ومشروعاته الصحفية والأدبية التى ينوى إصدارها، ودائم الحديث باستفاضة عن قراءاته المتعددة فى شتى أنواع المعرفة، ويتباهى باستمرار بأن كل ثمار المطابع سواء فى مصر أو العالم تسقط بين يديه مثلما سقطت التفاحة على إسحق نيوتن، وفجرت بركان عبقريته فكان قانون الجاذبية الأرضية الذى غير وجه الدنيا والإنسانية، وجعلها تحلق فى فضاءات أرحب!

وكان من شده حب عطا الهلالى للكتب أنه أصبح يعيش فى مكتبة

أقرب ما تكون إلى البيت، وفى كل أركان الشقة تتناثر الكتب كحبات المطر فى ليلة شاتية ممطرة بغزارة، وتضم مكتبته ما يزيد عن ستة ملايين كتاب فى مختلف فنون الثقافة، بعض هذه الكتب بلغتها الأم سواء كانت الفرنسية أو الإنجليزية، وكان نجمًا دائمًا، وضيفًا لا يشق له غبار فى برامج " التوك شو " التليفزيونية ذائعة الصيت نظرًا لرجاحة عقله وصلابة رأيه، وثقافته الموسوعية، وبراعته فى الحديث بالحجة والبرهان، وكانت كتبه ومؤلفاته تثير الجدل وتحرك المياة الراكدة فى المجتمع لدرجة أن بعض كتبه تسببت فى أزمات دولية، حيث أثار كتابه

" انهيار أمريكا.. ليلة سقوط الإمبراطورية العظمى " أزمة دبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، ولجأت الإدارة الأمريكية إلى وضعه على قائمة الممنوعين من دخول أراضيها، وفى هذا الكتاب قام بتشريح أمريكا من الداخل، ووضع يده على مواطن ضعفها وذللها، وأكد بالأدلة على انهيار قيمها الأخلاقية، ومبادئها فى العدالة والإنسانية والحرية وحقوق الإنسان.. عراها تمامًا من ورقة التوت، ونزع عن وجهها أقنعة الزيف، والتضليل، وأعلن صراحة أن وطن الأحلام سوف يسقط ويتراجع على يد المتشددين من الجماعات الإسلامية التى تتحاور مع الآخرين بلغة السلاح على أصوات البارود والانفجارات.. وبعد صدوره بأسابيع قليلة جاء الحادث المروع الذى أذل الإمبراطورية العظمى، ومرغ كرامتها وكبريائها فى التراب يوم الحادى عشر من سبتمبر، بتدمير برجى مركز التجارة العالمى، ونال من البنتاجون ووزارة الخارجية الأمريكية، ودفع الرئيس الأمريكى إلى أن يفر كجرو مذعور ليختبئ فى قاعدة عسكرية حتى تنتهى الطائرات الملغومة التى جاءت من السماء بلا موعد ولا عنوان.. كل هذا جعل الأمريكيين يعتبرون عطا الهلالى خطرًا على الأمن القومى الأمريكى نظرًا لتخصصه فى تاريخ الجماعات الدينية المتطرفة، وتاريخها الملطخ بالدم بجانب دراسته للتاريخ والحضارة كما كان له أنواع أكثر جرأة من المؤلفات منها كتاب

obeikandi.com

" عاهـرات فـى فراش الحـكام العرب " وله كتاب آخـر أصدره مؤخرًا بعنـوان " أميرات منحرفات " تعرض فيه لتمـرد أميرات الخليج العربى على تقاليد أسرهن الحاكمة، وهروب معظمهن مع شباب أجانب ومصريين بعد قصص حب سـاخنة، ومثيرة.. وكانـت إحدى الأميرات قد حملت سـفاحًا من شـاب مصرى، وهربت من بلدها، وجـاءت لتتزوجه وتعيش معه فى حى شـعبى بالقاهرة فى شقة من غرفتين وصالة بعد أن كانت تسكن القصور الفخمـة، وتنام على ريش النعام، وتتغطى بالحرير كما لو كانت تقيم فى حى من الجنة!

ذات مسـاء كان الجـو هادئًا، والموسـيقى الكلاسـيكية التى يهواها عطا الهلالى تصدح فى أرجاء الشقة الواسعة، ومع الوقت أحس عطا بالملل مـن القـراءة والكتابة حيث كان يعكف على إعـداد كتاب جديد اختار له عنوان " نهاية إسرائيل " ولم يجد أمامه سوى أن يجلس على البار يحتسى مشـروبًا كحوليًـا من نـوع فاخر معتق، ويتحـدث مع ناجى شـرف الدين، كانـت بداخلـه رغبـة ملحة فى أن يحكى بنفسـه عن نفسـه، وهى إحدى المرات النادرة التى يسعى فيها إلى الفضفضة..

سـأله ناجى:

ـ لماذا إخترت الوحدة، وأنت كاتب شهير وفى منصب مرموق؟!

قـال عطـا الهلالـى بعد لحظـة صمـت ثقيلة أنهاهـا بجرعة من مشـروبه المثلج:

ـ الوحـدة قدرى، وليسـت إختيارى، وقد سـبق لى خـوض تجربة الزواج لكنها للأسف الشديد كانت تجربة مؤلمة للغاية، وكما يقول المثل الإنجليزى..

" إذا خانتـك زوجتـك، وذهبـت لتضاجـع رجلاً غيـرك فاتركها له فهى عقوبة يستحقها! "

هذا هو ما حدث معى بكل صراحة.

بدا ناجى مستغربًا مدهوشًا مستنكرًا:

ــ خيانة.. زوجتك خانتك مع غيرك.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله من غضب الله.

ــ يا صديقى لا تندهش، فأنت مازلت صغير السن، وفى مطلع حياتك والأيام حبلى بالأهوال، والعجائب والغرائب التى لا يستوعبها عقل ولا يصدقها عاقل!

ــ ما الذى حدث بالتحديد؟!

استرخى عطا الهلالى فى مقعده قائلاً:

ــ أنا أؤمن بأنه لم يعرف المرأة بعد مَن عرف ألف إمرأة وإمرأة.. بمعنى أن الرجل مهما كانت خبرته بجنس النساء فهو أمى جاهل لم ولن يفهمهن أبدًا!

واسترسل قائلاً:

ــ أحيانًا يعتبرنى البعض مثل الصندوق الأسود للطائرة أبدو غامضًا لا يعرف أحد ماذا أخبئ بداخلى، وأنا بطبعى أميل للكتمان، ولا أحب الشهرة، ولا تهزمنى شهوة الكلام إلا فى لحظات نادرة.

وبرغم أننى محاط ببريق الأضواء سواء فى الصحافة أو عبر الشاشات التليفزيونية إلا أن قلة قليلة فقط تعرف أننى عشت قصة حب عظيمة مع النجمة السينمائية اللامعة ريهام شاهين استمرت على مدى عام كامل ثم توجناها بحفل زفاف أسطورى تحدثت عنه مصر كلها، وقضينا شهر العسل على شواطئ أسبانيا الساحرة، وبعد ذلك استمرت حياتنا الزوجية لمدة عامين على خير ما يرام، لم يعكر صفوى خلالهما سوى رفضها أن تنجب أطفالاً خوفًا على نجوميتها، وابتعاد الأضواء عنها، وكذلك رغبة منها فى الحفاظ على رشاقتها وجمالها الذى تعتبره رأس مالها و ضمان استمرار أفلامها، ومسيرتها الفنية الناجحة.. وبرغم غضبى وحزنى إلا أننى كظمت غيظى وقلت لنفسى.. كل إمرأة فى حاجة إلى الأمومة، ولا

يوجد فى الدنيا ما يغنيها عن إنجاب طفل.. وهذه الغريزة هى الأقوى على الإطلاق، وما على سوى الصبر، ومع مرور الزمن سوف تحن حتمًا نجمتى إلى طفل يروى عطشها لإحساس كل أنثى فى حاجة ملحة إليه، وتتألم بدون أن تصل إليه مهما كانت إنجازاتها الأخرى فى الحياة.

ترك هذا الأمر غصة فى حلقى، ومرارة فى وجدانى لكنى تحاملت على نفسى، وفى الوقت الذى كنت أحاول مجددًا أن أقنعها بأن تحمل منى، وتهبنى طفلاً من صلبى يحمل اسمى، فوجئت بها وكانت تصور فيلمها الجديد "عودة الغائب" فى الساحل الشمالى مع النجم الشاب عادل عز تتصل بى وتقول لى: لقد انتهى تصوير الفيلم اليوم.

قلت لها: عرفت بالأمر من المخرج أثناء تصويرك لآخر مشهد، وكنت أحاول الاتصال بك لكن هاتفك كان مغلقًا.. هيا عودى لقد اشتقت إليك كثيرًا

قالت: لكننى لن أستطيع العودة اليوم.

_ عودى غدًا يا حبيبتى.

_ لا.. لا سأبقى عشرة أيام مع زميلى الممثل الشاب عادل عز.

_ وأين ستبقيان؟!

_ فى الشاليه الخاص به هنا.. اشتراه حديثًا ويريد الإقامة فيه لبعض الوقت، وسوف أبقى معه.. أرجوك يا عطا طلقنى لأننى مللت الحياة معك، وأنا الآن أحب عادل عز، طلقنى وسوف نبقى أصدقاء!

هكذا بكل بساطة يا ناجى خانتنى وطلبت الطلاق وقالت نبقى أصدقاء.. هل هناك عاقل يتصور ذلك؟!

_ وماذا فعلت؟!

_ أعطيتها ما أرادت طبعًا.. لقد قالت مللت حياتى معك وأحببت غيرك.. فماذا بوسعى أن أفعل بعد ذلك؟! إما أن أقتلها أو أطلقها، وأتركها

تكمل بقية فصول خيانتها وفى النهاية آثرت السلامة، وطلقتها غير آسف عليها كان جرحى غائرًا عميقًا مؤلمًا.. لم أبح به لمخلوق، وبقدر ما كان حبى لها عظيمًا بقدر ما عدت قادرًا على الاقتراب من إمرأة أخرى من بنات حواء.. أصبحت فاقدًا للثقة فى رجولتى، عاجزًا عن التواصل مع الجنس الآخر!

كنت قد أشرعت قاربى معها ليمضى بنا إلى بر الأمان لكنه غرق بين الأمواج فى مرفأ مجهول!

فى اليوم التالى مباشرة سافر عطا الهلالى فى مهمة عمل صحفية إلى اليونان بتكليف من الجريدة لحضور أعمال المؤتمر الأورومتوسطى، وتغطيته صحفيًا، وترك ناجى شرف الدين يغط فى نوم عميق حتى الظهيرة، تسللت الشمس الذهبية عبر النافذة، ووجدها ترقد فى فراشه، وتداعب جفونه.. كان اليوم هو الجمعه، وفرصة لكى ينفض عن جسده ونفسه غبار الإرهاق، والتوتر العصبى والذهنى من عمل شاق طوال الأسبوع.. وبينما هو بين النوم واليقظة شعر بحركة غريبة داخل الشقة الفسيحة، سمع وقع أقدام تتحرك، وتدب على الأرض بخفة ورشاقة، وصوت ارتطام أطباق ببعضها يصطك بأذنيه قادمًا عبر الردهة المؤدية إلى المطبخ القريب من غرفة نومه، نهض ناجى متثاقلاً متثائبًا، وتسلل بملابس النوم الخفيفة الشفافة التى أعطاه إياها عطا الهلالى.. فرك عينيه، ولم يصدق ما يرى.. ألجمته المفاجأة تصور أنه مازال نائمًا يحلم.. لم يخبره عطا فى أحاديثهما الطويلة بأمرها.. كانت - هناك _ إمرأة يافعة بيضاء طويلة ممشوقة القوام أربعينية العمر، جسدها ملفوف بعناية مثل راقصة فى فرقة فنون شعبية، مؤخرتها مستديرة ومحبوكة فى ملابس نصف عارية، ترتدى جلبابًا شفافًا هفهافًا بربع كم يكشف عن ذراع بض مثل المرمر الأبيض، والثوب مفتوح الصدر على اتساعه فيظهر النهدين والسرداب الفارق بينهما.. كان النهدان نافران فى حالة انتصاب لا إرادية، وهى منهمكة فى غسيل

الأطباق بانسجام تام، وتغنى بشجن وتهز مؤخرتها فى رقصة أفريقية لذيذة ومثيرة.. أصابته حالة من الدهشة..

فمن تكون تلك المرأة؟! وكيف دخلت إلى هنا؟!

همس فيها بصوت رخيم نائم:

ـ من أنت يا حلوة..؟! ومَن سمح لك أصلاً بالولوج إلى هنا؟!

كان يتفرس ملامحها وثيابها، ويحدق فى مكامن أنوثتها ويدقق فى هضابها وسهولها ووديانها بشهوة ذئب مفترس!

أخرسها صوته عن الغناء، وألزمها الصمت والسكون والتوقف عن الرقص الخليع تلفتت حيث الصوت، وشهقت وضربت صدرها بيدها وتجعدت خطوط وجهها وتمتمت قائلة برجفة:

ـ بسم الله الحفيظ.. يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف..

ـ أنت إنس أم جن.. من تكون؟!

ضحك فجأة بهسترية كالمجنون وقال بنبرة ناعمة:

ـ أنا إنس والحمد لله.. واسمى ناجى شرف الدين زميل الأستاذ عطا فى الصحافة وشريكة فى البيت.

ـ زميلة فى الصحافة وشريكه فى البيت دون أن يخبرنى.. سبحان الله على طبع الأستاذ وتصرفاته.. وأين الأستاذ طالما أنك هنا وحدك؟!

ـ الأستاذ سافر اليوم خارج مصر.

قالت بحيرة وتلعثم:

ـ سافر.. سافر خارج مصر.. عمومًا يرجع بألف سلامة.. وعلى كل الأحوال أنا معى مفتاح للشقة، وآتى إليها مرة أو مرتين كل أسبوع لترتيب شئون الأستاذ من غسيل وطبيخ وتنظيف وهكذا.

ـ من أنتِ إذن يا ست هانم؟!

قالها بنبرة ساخرة، فردت عليه قائلة:

ـ أنا الخادمة.. وكيف سافر الأستاذ دون أن يخبرك بأمرى؟!

ـ لا أدرى، لكنه لم يقل لي شيئًا بشأنك.

ـ المهم ما إسمك يا ست هانم؟!

ـ فوزية.. خادمتك فوزية..

ـ الله يخرب عقلك يا فوزية.. أنتِ أكيد ملكة جمال متنكرة فى صورة خادمة.. تابعى عملك.. الله يساعدك يا سيدتى!

دلف ناجى شرف الدين إلى الحمام أفرغ مثانته التى أزعجته، وقضت مضجعه ثم خرج من الحمام بسرعة، وارتمى على فراشه مجددًا.. وبعد دقائق معدودات، دخلت عليه بجلباب أكثر احتشاما، وهمست له بدلال قائلة:

ـ يا أستاذ ناجى.. هل تحب أن أعد لك طعام الإفطار؟!

فتح عينيه بصعوبة فرآها قد عدلت من هندامها، وبدت أكثر أنوثة..قال بصوت ناعس متحشرج:

ـ نعم.. نعم.. جهزى الإفطار يا ست فوزية.

ـ حالاً.. حالاً يا أستاذ.

بعد لحظات عادت إليه حاملة كوب من اللبن الساخن، وقطعة جبن دانماركى ورغيف أبيض ناصع الوجه..جلست بجوار جسده المسجى فى الفراش.. جلست على حافة الفراش، ووضعت ما تحمله على طاولة صغيرة بجوار السرير.. أحس ناجى بلحمها الطرى ودفء جسدها.. كان ملمسها ناعمًا غامضًا مبهما سرياليًا يحرك الحجر الصوان!

مد يده يتحسسها، ضحكت بمجون، وجنون وخلاعة وهما على فراش واحد.. قالت بنبرة ذات مغزى، وهو يعبث بيده وتلهو أصابعه فوق فخذيها ونحو مؤخرتها:

openkandi.com

ـ يا سـلام عليك يا أستاذ ناجى.. يبدو أن الشقاوة فى طبعك مثل الأستاذ عطا الهلالى.. لا.. لا.. ليس هذا وقته.. وهربت بعيدًا عنه وكأنها تدعوه ليطاردها!

فهـم ناجى شـرف الدين من مغزى كلماتها أن عطـا الهلالى يواقعها بين الحيـن والحين، وعرف بذكائه ومن نبرة صوتها أنها سـتكون فريسـته، وطريدته فى هذا اليوم.

نهض من فراشـة الدافئ، إلتهـم افطاره بشـهية، وجلس علـى الإنترنت لحظـات يتابـع خلالها آخـر أخبار الدنيا علـى بعض المواقـع الإخبارية، ثم عاد إلى الحمام واغتسـل ورجع إلى غرفته.. اسـتبدل ملابسه، وتعطر بعطر فرنسـى فاخـر كان قد اشـتراه له عطـا الهلالى من باريس بعـد عودته من إحـدى رحلاته إلى فرنسـا.. تلصـص ناجى بأذنيه وعينيه على فوزية.. سـمع صوتهـا فى دندنة هادئة لذيذة، وصوت الغسـالة يتهادى مثل لحن موسـيقى شجى لدندنتها الرخيمة الخليعة.. كانت تغسل ملابس الأستاذ عطا بحماس وحـب، وكأنهـا زوجته المخلصة الوفيـة.. ذهب ناجى إليهـا واحتضنها من الخلف، فأحس بحرارة جسـدها المكتنز.. تسـللت أصابعه بخفة سـاحر، ورشـاقة حـاوى تعبث فى صدرهـا، وقضيبه المنتصب الممشـوق صار مثل السـيف المشـهر متجهًا نحـو دبرها، وثار دم الشـهوة فى عروقـه بينما هى تحـاول أن تتملص من قبضته بخفة ودلال وإثـارة متعمدة.. وبنبرة فيها غواية لإمـرأة مجربـة خبيرة بنزق الرجـال، وغواياتهم الجنونيـة. وطيش غرائزهم التى لا تعـرف الطبقية، والفوارق الاجتماعية والتصنيفات البشـرية الغبية.. قالت:

ـ ليس هذا وقته يا ناجى.. ألا ترانى مشـغولة فى غسـيل ملابس الأسـتاذ عطـا.. اصبـر يا رجل.. آه.. أنت متعجل تمامًا مثل الأسـتاذ.. يبدو أنكم جميعًا هكذا معشر الرجال.. معشر الجورنالجية!

سـحبها مـن يدها ببطء وهـو يقبلهـا ويحتضنها ثم حملها وسـار بها حتى

السرير ثم ألقاها فوقه بلا مبالاة.. استسلمت بين أحضانه كالنائمة أو المخدرة، وفى فراشه نزع عنها ملابسها وهو يلهث مثل الكلب الشبق الذى يلعق عورة أنثاه بهستيرية ونهم.. فوجئ ناجى بأنها لا ترتدى ملابس داخلية، فأدرك بأنها أعدت نفسها لهذا اللقاء!

هذه المرة لن يتواصل فيها سرًا مع جسده كماكان يفعل تلك العادة كثيرًا كلما هاجمته الرغبة المتوحشة.. هذه المرة سيتواصل لأول مرة مع جسد آخر غير جسده ألا وهو جسد فوزية.. بدا عصبيًا عنيفًا.. كل شئ فيه منتصب منتفض صلب قوى، وأحس أن شخصًا آخر خرج من بين أضلعه، وبدأ يضاجعها بعنفوان وشهوانية لدرجة أنها كانت تتلوى تحته كالمحمومة ثم ارتفعت حدة تأوهاتها لتصبح صرخات مكتومة مكبوتة مشبوبة باللذة والنشوة حتى وصلت إلى ذروتها وارتعشت كأن زلزالاً ضربها وهز كيانها، كان كل جسده ملتصق بكل جسدها، وقد قبضت تمامًا بيديها على ظهره، وبين لحظة وأخرى تجذبه إليها بقوة وشراهة، بدا وجهها ساخنًا متوردًا وابتسامة البهجة والمتعة ترتسم على وجهها، وفمها مفتوح وعيونها مغمضة كأنها فى حلم تحلق فى كوكب آخر غير كوكب الأرض!

وبمجرد أن فرغ منها وفرغت منه، ارتمى بجوارها على السرير، وبنبرة هامسة طلبت منه أن يقبلها ويحتضنها.. استجاب لها على الفور، وعاد مجددًا يواصل سبر أغوار جسدها، ويقتحم كهف متعتها، ويفك شفرتها فى جولة جديدة من اللذة، وبعد أن إنتهيا سويًا من هذه الغزوة ارتاحا بعض الوقت، وذهبت هى إلى المطبخ وعادت بطبق عامر بالتفاح والموز، وبدأت تطعمه فى فمه بقطع من التفاح الذى قطعته شرائح صغيرة يسهل إلتهامها بينما هو يضع الموز فى فمها، ويضحكان سويًا، وهما يتأملان شكل الموز الذى يوحى لهما بأفكار ورموز مثيرة!

سألها فى فترة الاستراحة بعد زوال التوتر والإحساس بالانسجام النفسى،

وراحة الأعصاب عن حياتها الخاصة.. وهل هى الآن على ذمة رجل آخر أم لا؟!

سادت لحظة صمت ثم قالت:

- تزوجت ثلاثة رجال.. الأول كان سعودى الجنسية عاشرنى على سنة الله ورسوله لمدة عام ثم تركنى عائدًا إلى زوجاته فى الرياض، وبرغم أنه كان يحبنى كثيرًا ويغدق علىّ بالهدايا والعطايا إلا أنه طلقنى رغمًا عنه استجابة لضغوط زوجاته هناك!

سالت دمعة حزن على خدها فمد ناجى يده يمسحها، ويربت عليها ثم احتضنها مواسيًا دون أن ينطق بكلمة.. وقالت من بين صوت متهدج ونهنهات بكاء مكتوم:

- أما زوجى الثانى فقد مات فى حادث سيارة مفجع بعد زواج دام خمس سنوات.. الله يرحمه كان طيب القلب لكنه كان سريع الغضب، ويحبنى كثيرًا ويغار على من كل الرجال.. آه.. هذا هو حال الدنيا.. أرحام تقذف، وأرض تبلع!

تلك هى الحياة.. لعبة غريبة كلنا فيها خاسرون مهما ظن الكثيرون أنهم رابحون.

توقفت عن الكلام برهة كأنها تفتح صندوق ذكرياتها مع أزواجها، وتنبش فى دهاليز وأسرار الماضى، واستجمعت شجاعة البوح وقالت:

- أما زوجى الثالث فوا أسفاه عليه إنه يقضى الآن عقوبة السجن المؤبد لاتهامه بقتل رئيسه فى العمل.. على كل حال فقد نجا من الإعدام بأعجوبة.. ويا ليتهم أعدموه فأراحوه وأراحونى حتى لا تكون لقصتى معه بقيه.. كان المسكين المأسوف على شبابه يعمل حارسًا فى أحد المصانع، وحدثت مشاجرة بينه، وبين رئيسه على ترتيب ورديات العمل ونوبات الحراسة، فثارزوجى وهو بطبعه عصبى ساخن الدم ملتهب الأعصاب، مهتاج المشاعر، وأطلق عليه الرصاص من السلاح

الميرى، فأرداه قتيلاً فى الحال.. الحمد لله أن خلقنى الله عاقرًا، ولم يرزقنى الذرية من أزواجى الثلاثة، وإلا كنت اليوم فى أزمة لا يعرف مداها سوى رب السموات والأرض..

له فى كل شئ حكمة لا ندركها.. وها أنذا أمامك أعيش أيامى.. صحيح أننى لست سعيدة بما يكفى لكن يكفينى أننى أعيش حرة!

تبسم ناجى ابتسامة ذات مغزى دون أن ينبس بكلمة، وهو ينظر إلى لحمها العارى فى فراشه و يقبض براحه يده على ثديها الأيمن، وبشفتيه يلعق الأيسر وقال هامسا لنفسه فى سره دون أن تسمعه:

_ فعلاً حرة.. تعيش الحرة.. ولا تأكل بثديها!

***

obeikandl.com

(١٥)

" لا يوجد فى هذا العالم أصدقاء وأعداء، ولكن أعداء بدرجات متفاوتة! "

لم تثمر جلسات العلاج النفسى فى شفاء إيناس مندور من مرضها العضال.. لم تبرأ من إدمان المثلية ، وممارسة العادة السرية مع أجساد الحسناوات من بين صديقاتها البنات.. لم تحصل على صك الخلاص من الإثم ، ولم تفلح زيارة الأراضى المقدسة ، والبكاء بحرقة وندم أمام الكعبة ، ولم تصفو روحها من العويل عند قبر سيد الأنام محمد بن عبد الله ، وفى مسجده ، لم تنقذها كل محاولاتها للتطهر من خطيئة نفسها وجسدها ، كانت تشعر بالذنب العظيم ، ولا تقدر على الفكاك من درن الرذيلة ، وسرطان السحاق!

فكرت فى حل مثالى ينتشلها من كل ما هى فيه.. ويحميها من عذابها واحتقار المجتمع لها ولأمثالها ، أرسلت لها العناية الإلهية بفرصة على طبق من ذهب عيار ٢٤.. فبعد أن برعت فى عملها كمحررة رياضية فى مؤسسة " الأيام " ، تم تعيينها فى إتحاد كرة القدم المصرى لتصبح أصغر عضو ضمن أعضاء المجلس.. سعدوا بها لعدة أسباب:

أولاً : لبراعتها الصحفية ، وكتاباتها المتميزة فى مجال كرة القدم ، وتحليلاتها العقلانية البعيدة عن الأهواء لما يجرى على الساحة الرياضية.

ثانيا : لاتساع دائرة علاقاتها الرياضية فى مصر والعالم.

ثالثًا : لإجادتها عدة لغات حية فى مقدمتها الإنجليزية والفرنسية.

رابعًا : لقدرتها على التواصل مع الإتحاد الدولى لكرة القدم المعروف باسم "الفيفا" للاستفسار عن كثير من القضايا ، والمشاكل التى تواجه كرة القدم فى مصر وتتصدى لها فى كتاباتها الصحفية ، وفى تلك الأثناء

نجحت القاهرة فى استضافة بطولة كأس العالم للشباب، وخلال إقامة هذا المونديال وقع اختيار الإتحاد الدولى على إيناس مندور لتكون المنسق الإعلامى للفيفا فى مصر بهدف معاونة الإعلاميين الأجانب المكلفين بتغطية أحداث تلك البطولة التى أقيمت على أرض مصر للمرة الأولى فى تاريخها، وبعد أربعة أشهر من انتهاء فعاليات هذه البطولة الكبيرة فوجئت إيناس مندور بمكالمة هاتفية على تليفونها المحمول من مدير الإعلام بالفيفا يخطرها فيها بترشيحها لتكون المستشار الاعلامى للإتحاد الدولى بمنطقة الشرق الأوسط..وعليها أن تبدى رأيها فى خلال أسبوع واحد، وفى حال موافقتها سوف تنتقل للعمل بمقر الإتحاد الدولى فى زيوريخ بسويسرا حيث أن مكتبها ينتظرها، وكذلك مسئوليات، وملفات كثيرة تتعلق بكرة القدم فى أفريقيا والشرق الأوسط بصفة عامة.

لم تستغرق إيناس مندور سوى لحظات لتبدى فرحتها بهذا الترشيح، وسعادة غامرة لإختيار أكبر منظمة رياضية فى العالم لها دون آلاف الصحفيين غيرها لتكون المسئول الاعلامى للفيفا لشئون كرة القدم فى أفريقيا وآسيا، ومهمتها التحدث باسم الإتحاد الدولى لوسائل الاعلام فى دول القارتين.

جاءها الحل من السماء، وعليها أن تحزم حقائبها، وترحل إلى أجمل دولة فى الكون، وهناك لن تعدم الرفيقة، وسوف تعثر على ألف رفيقة ورفيقة تمارس معها الحب والهيام، والسحاق ليل نهار فى أى مكان كان.. فى المكتب أو المنزل أو الشارع أو حتى فى الحدائق العامة.. هناك فوق مرتفعات جبال الألب لن يراها أحد من أهل مصر، ولن يعاتبها أحد من المتزمتين الذين يرون أن الجسد ليس ملكًا لصاحبه، بل هو ملك لخالقه، لذلك لا يجب أن يدنس إنسان جسده بعلاقة سرية مع مخلوق مثله، أو يدنسه بعلاقة سرية مع نفسه.. تلك هى القضية.. وقد خسرتها إيناس فى وطنها وبين أهلها بكل المقاييس!

تأهبت للرحيل إلى سويسرا ، وقد لا تعود أبدًا إلى وطنها لو أعجبها الحال فوق جبال الألب، وشعرت بالسعادة والإرتياح بلا ضغوط، ولا تابوهات!

فـى بـلاد تؤمـن بالحريـة ، وتتخذهـا دسـتورًا لهـا ، ولا تعتـرف بالحلال والحرام.

حريـة الانسـان وكرامته فـوق كل اعتبار إلا فيما ندر.. شـدت الرحال وسـافرت وهى تعرف أنها لن تواجه مشكلة ، فاللغة الرسمية فى هذا البلد الأوروبى المتقدم جدًا هى الألمانية والفرنسـية والإيطالية ، فلا أزمة عندها فـى التعامـل مع السويسـريين بالفرنسـية ، وهذا البلد لا تعـرف مدنه زحام القاهـرة علـى الإطلاق، فعدد سـكان سويسـرا بـكل مدنهـا لا يزيد عن عشرة ملايين نسمة وأكبر مدنها زيوريخ وبرن، ونظام الحكم فيها اتحاد برلمانى.

وأكثـر ما كان يطمئن إيناس مندور هو موقع سويسـرا ، فهى جمهورية فيدرالية فى وسط أوروبا ، وتتكون من ٢٦ كنتونًا ، وتعد مدينة برن مركز سـلطاتها الإدارية ، وعاصمة الاتحاد الفيدرالى السويسرى، وتحد سويسرا من ناحية الغرب فرنسا ، ومن الجنوب إيطاليا ، ومن الشرق النمسا.

وكانـت إيناس تشـعر بالاطمئنان والأمـان بعيدًا عن مناطـق الصراعات الدوليـة ، والحروب الأهلية ، والمناطق الملتهبة من العالم لأن سويسـرا تتبع سياسـة خارجية محايـدة يعود تاريخها إلى عـام ١٥١٥ ، وتعد من أغنى دول العالـم، ويعتبرهـا الكثيرون وإيناس منهم طبعًـا بأنها أجمل دولة على وجه البسـيطة.. والطريف أن مدينة زيوريخ أكبر المدن السويسرية حصلت على لقـب أفضـل مدينـة يمكـن أن يعيـش فيها الإنسـان معززًا مكرمًا سـعيدًا لثمانية أعوام متتالية.

وبعـد أن غـادرت إينـاس منـدور القاهـرة شـعرت براحـة نفسـية ، فقـد كانت فى قرارة نفسـها تعرف سـمات أبناء بلدها من المصريين.. معظمهم يتظاهـرون بالتديـن، ويحترمـون مـن يفعل ذلـك ، ومعظمهـم عكس ذلك

تمامًا، معظمهم أفاقين، ويتمسحون فى عباءة الدين، ومعظمهم من عشاق الكذب الاجتماعى والنفاق الإنسانى، يدمنون ارتداء الأقنعة، والتزلف لأصحاب السلطة حتى ولو كان صاحب السلطة شيخ حارة أو شيخ خفراء، تحمل الشخصية المصرية كل المتناقضات.. الخوف والشجاعة.. الشهامة والنذالة.. المروءة والخيانة.. تعلن الحب، وتضمر الكراهية.. الشخصية المصرية لديها قدرة غريبة على المداراة والخداع.. لكن إلى متى يظل الخداع مستمرًا ومستترًا؟! لابد أن تحين اللحظة لإسقاط الأقنعة، وكشف الحقيقة وتعرية الشخصية من زيفها، ونسف ألوانها، وازالة ماكياجها المضلل للآخرين! كانت إيناس ترى الشخصية المصرية بعيوبها، وتعتبرها الأسوأ على وجه الأرض!

تراها تحمل زيف ٧ آلاف سنة من القهر والرعب والعبودية، وكثيرًا ما بررت ذلك للكثيرين، ولنفسها فى مناسبات عديدة عندما تدهشهم آرائها الجريئة المستفزة.. كانت تقول لهم:

المصرى منذ لحظة ميلاده وحتى لحظة مماته، وهو يعيش تحت سطوة القهر والسلطة والخوف والتسلط من الأب والأم إلى العريف فى الكُتّاب ثم المدرس فى المدرسة، والأستاذ فى الجامعة، والشاويش والضابط فى الجيش، والمدير فى العمل، والحاكم فى الدولة!

كل مراحل حياة الانسان المصرى البسيط ذل وخضوع وركوع لمن هو أقوى منه نفوذا ومالاً وسلطانًا وصولجانًا، ويتحكم فى مصيره.. تلك هى النتيجة المؤسفة! لكل ذلك تبدو الشخصية المصرية فيها العجب العجاب من غرائب المتناقضات.

ومصر.. الإنسان والمكان والزمان فيها عبقرية التاريخ والجغرافيا، والشخصية المصرية فيها كل تشوهات الجغرافياوالتاريخ..تلك هى المأساة التى يعيش فبها المواطن المصرى حتى عاصمته تدعى القاهرة.. من قهرت تلك المدينة يا ترى؟! وهل هى تحمل هذا الإسم العدوانى الإستفزازى لأن

المواطن يعيش فيها أسير الزحام والضجيج، والتلوث وتحت قهر الحكومة والظروف وكل سلطة لا ترحم تلك هى المعضلة الكبرى؟!

فى أول يوم لها فى سويسرا استقبلتها فتاة بارعة الجمال، فائقة الحسن، فاتنة إسمها " جانيت " تعمل فى العلاقات العامة بالإتحاد الدولى لكرة القدم.. اصطحبتها الفتاة السويسرية إلى شقة صغيرة فوق ربوة عالية محاطة بالجبال والأشجار، وتستقر الشقة على أطراف مدينة زيوريخ، وفى أول لقاء وتعارف بينهما تفحصتها إيناس مندور، ودققت فيها النظر بعين خبيرة مدربة على التقاط مواطن الإثارة، النقاط الحصينة الشهية التى يمكن أن تجعلها ترفع الراية البيضاء وتستسلم.. كانت تفكر بعقل ذئب بشرى قناص، يحلم بنهش جسد جانيت والتهام فاكهتها بعين أنثى حسودة غيورة شبقة!

فمن يدرى.. قد يجمعهما فراش واحد فى يوم من الأيام أو ليلة من الليالى.. مَن يدرى؟!

جانيت شقراء بيضاء هيفاء جسدها ناصع البياض مثل الشمع الأبيض، ونتف الثلج الرابضة فوق جبال الألب فى موسم الشتاء الممطر.. شعرها أصفر ذهبى لامع طويل ينسدل على وجهها وظهرها، وعيونها الخضراء البراقة مثل قطة شقية، تنتظر من يروضها، كانت ترتدى بلوزة وردية اللون شفافة، ولا ترتدى تحتها حاملة صدر، وبنطلون جينز أزرق وحذاء رياضى أبيض.. جانيت تشبه مهرة جامحة، تبحث عن فارسها الضال! الابتسامة لا تفارق وجهها البشوش، وهذا أكثر شئ جعل إيناس ترتاح إلىها من أول نظرة.. وفى اليوم التالى اصطحبتها جانيت فى جولة داخل سويسرا لإستكشاف معالمها، وتلمس ملامحها.. كانت جانيت تحكى لإيناس والسيارة الجيب السوداء تطوف بهما الأماكن كما لو كانت مرشدة سياحية خبيرة بدروب سويسرا..

قالت: أرض سويسرا جبلية فى مجملها وحوالى ٧٪ من مساحتها من

مرتفعات جبال الألب، وهذا القطاع يضم ٣٠٪ من السكان، وتنحدر بمقدمات نحو الهضبة السويسرية التى تحتوى على عدة بحيرات.

كانت إيناس مندور مبهورة وهى ترى عبر نافذة السيارة سلاسل الجبال الذهبية الأشهر فى العالم.. بينما جانيت تحكى بطلاقة باللغة الفرنسية ودون توقف مثل مذيعة نشرة إخبارية مخضرمة فى البرنامج الأوروبى:

تنقسم جبال الألب إلى عدة سلاسل، وأعلى قمة فى الألب السويسرية " مونتى روزا " وتشغل سويسرا قسمًا من جبال " جورا " حيث يتبعها القسم الجنوبى الشرقى من هذه الجبال، وتحتوى العديد من الأودية والحافات، وتخترقها بعض الممرات، وتمتد الهضبة السويسرية على شكل دهليز بين جبال الألب وجبال جورا ويختلف ارتفاع الهضبة من مكان إلى آخر، وقد وهبت الطبيعة الجبلية الغنية بالغابات سويسرا قيمة سياحية عظيمة..وتنتشر بسويسرا أيضًا البحيرات العذبة التى تعد بالنسبة لها مصدرًا سياحيًا فى غاية الأهمية.

فى هذه الأثناء همست إيناس قائلة لجانيت:

ـ إغلقى النافذة.. لقد بدأت أشعر بلفحة برد تخترق جسدى..

ضحكت جانيت على طريقة نطق إيناس مندور للفرنسية، وبالفعل أغلقت النافذة بلمسة رقيقة من أناملها على زر بجوارها ثم قالت:

ـ ينتمى المناخ هنا إلى طراز وسط أوروبا، وهو كما يسميه علماء الجغرافيا، والطقس " المناخ الألبى " وهو بارد بصفة عامة حيث تغطى الثلوج معظم أراضى سويسرا فى الشتاء وتتحول إلى ثلاجات نستغلها نحن السويسريون فى السياحة لمزاولة رياضة التزحلق على الجليد، وفى الصيف يسود هنا مناخ دافئ، عمومًا المناخ بصفة عامة مناخ رائع سواء كان باردًا فى الشتاء، أو دافئًا فى الصيف حيث الطبيعة الخلابة، والمناظر الرائعة تداعب عينيك فلا ترين إلا الجمال والسحر، ولا تشعرين بتقلبات الجو.. وسوف تشعرين بصدق ما أقول

عندما تعيشين هنا لفترة ما ، وتتأقلمين على الجو السويسرى.

قاطعتها إيناس مندور قائلة بنبرة ساخرة :

ـ فرق كبيربين هنا وهناك.. القاهرة شوارعها مزدحمة بالبشر والسيارات هناك..بينما هنا الشوارع شبه خاوية.. ما الحكاية؟! هل اليوم عطلة رسمية عندكم؟!

هذه المرة أطلقت جانيت ضحكة عالية أشبه بصرخة قائلة :

ـ لا .. أبدًا .. اليوم الثلاثاء ليس أجازة عندنا ، ولكن عدد السكان فى سويسرا منذ عشر سنوات كان لا يتجاوز سبعة ملايين ، واليوم أصبحنا حوالى عشرة ملايين ، ويعيش معظم السكان فى مناطق الهضبة السويسرية حيث تتركز مدن البلاد الرئيسية من بينها مدينتان عالميتان هما جنيف وزيورخ إضافة إلى مدن أخرى مهمة مثل بازل ولوزان ، وتقل الكثافة السكانية تدريجيًا فوق المرتفعات ، وينتمى السكان هنا إلى الجماعات الألمانية ويشكلون أغلب سكان سويسرا ، ويتحدث ٧٥٪ منهم اللغة الألمانية ومن بين السكان عناصر فرنسية ، فحوالى ٢٠٪ من إجمالى السكان يتحدثون الفرنسية ، كما توجد عناصر إيطالية وحوالى ٤٪ من السكان يتحدثون الإيطالية ويوجد بين السويسريين عدد كبير من الأجانب يصل إلى حوالى مليون نسمة معظمهم قادمون من دول الاتحاد الأوروبى ، وللأسف الشديد فى السنوات الأخيرة ظهرت العنصرية هنا ضد العرب والمسلمين ، وعندما فاز حزب " الشعب " السويسرى بالانتخابات الفيدرالية أصدر قوانين ضد العرب والمسلمين ، وتفضيل الأوروبيين عليهم فى سوق العمل ، وكل الإمتيازات والمميزات الأخرى.

فجأة قالت إيناس مندور معلقة على حديث " جانيت " عن العنصرية :

ـ ألهذا أصدرتم فرمانًا بإلغاء مآذن الجوامع فى كل الأراضى السويسرية حتى لا يرفع اسم الله إلى السماء مع كل آذان لصلاة المسلمين؟!

ـ للأسف الشديد يا إيناس حكومتنا المتعصبة أحرجتنا مع كل الشعوب والحكومات الإسلامية برغم أن عددًا كبيرًا من الشعب السويسرى يعرف قصة القديسة " فيرينا " التى جاءت من مصر، وعلمت سويسرا العبادة، والنظافة، وعلمت بنات سويسرا العفة والطهارة.

تساءلت إيناس مندور بدهشة:

ـ أول مرة أسمع هذه الحكاية.. وهل القديسة " فيرينا " فعلاً مصرية وماذا فعلت بالضبط يا جانيت؟!

ـ قصة الفتاة " فيرينا " القديسة الصعيدية التى جاءت من مصر قبل نحو ١٧٠٠ سنة أذهلت أوروبا كلها، وهذه الفتاة ترجع نشأتها إلى قرية جراجوس بمركز قوص بمحافظة قنا بجنوب مصر حيث كان التعليم الطبى فى ذلك الوقت ينتقل من شخص إلى آخر لديه الرغبة والقدرة على تأدية رسالة الطب، والتطبيب.. كانت فيرينا آنذاك ضمن الوفد الطبى من الأطباء والممرضات المصريات اللاتى صحبن الكتيبة الطبية التى أُرسلت إلى سويسرا بأمر من الإمبراطور " ماكسيمان " إمبراطور الغرب للقيام بالأعمال الطبية، وكان الإمبراطور ماكسيمان قد أباد هذه الكتيبة لرفضهم مشاركته فى التبشير مع كهنة المعبد، وتقديم العبادة للآلهة، ثم قام بتسريح الممرضات، لكن " فيرينا " فضلت أن تبقى ومكثت مع مجموعة من الفتيات العذارى فى كهف صغير، وكانت تقوم بأعمال التمريض، وحياكة الملابس سرًا، وفى عام ٣٠٥م انتهى حكم ماكسيمان، وبدأ حكم الامبراطور قسطنطين الذى اعترف بالمسيحية كواحدة من الديانات المسموح بممارستها فى الإمبراطورية، وهنا انطلقت فيرينا المصرية الصعيدية للتبشير بالمسيحية كدين سماوى.

وتمكنت هذه الفتاة التى نشأت فى محافظة قنا أن تغير عادات وتقاليد جاهلية قديمة وبالية فى مجتمعات أوروبا العصور الوسطى التى كانت

تعيش فى الظلام حتى رسخت بينهم أسمى المبادئ الإنسانية والدينية، وأعظم القيم الأخلاقية ثم اعتكفت فى قلاية صغيرة حقيرة فى زهد وتقشف حتى رحلت عن الدنيا عام ٣٤٤م، وفى مصر تم تكريمها بما يليق بما قدمت للإنسانية حيث شيدت لها كنيسة بالقاهرة، حملت اسمها " القديسة فيرينا " ووضع بها رفاتها التى عاد بها وفد سويسرى إلى مصر عام ١٩٨٦ وتسلمها قداسة البابا شنودة الثالث بعد غياب فيرينا عن تراب الوطن، وحضن الأهل وعطر الأحباب ١٦ قرنا من الزمان..

قالت إيناس بصوت هامس واهن:

ـ يا سبحان الله.. فتاة مصرية فعلت كل هذا بسويسرا؟!

هتفت جانيت:

ـ نعم.. ويا ترى هل تكونين أنتِ فيرينا الجديدة؟!

لم تعجبها المقارنة، وتذكرت إيناس مندور سرها الدفين، وتذكرت ما هى عليه، فشعرت بالخجل من نفسها، ولم تعلق سوى بكلمات قصيرة:

ـ إنها قديسة.. أما أنا فقد أكون غانية.. أين أنا من فيرينا؟!

قالت جانيت بمرح:

ـ على كل الأحوال.. تحية إلى روح فيرينا بنت مصر التى علمت بنات أوروبا عامة، وبنات سويسرا على وجه الخصوص حب الله والصلاة، والطهارة والإيمان والخلق القويم والسير على الطريق المستقيم قبل ١٧ قرنًا من الزمان.. ليجئ أحفادهم ويصدروا فرمانًا غبيًا متخلفًا بمنع اقامة المآذن هنا فى كل أنحاء سويسرا.. إنها مأساة عبثية سوف يسجلها التاريخ بحروف سوداء، وبمداد من الخزى والعار على صفحاته الخالدة!

أرادت إيناس مندور بذكاء أن تغير مجرى الحديث فتساءلت:

ـ حدثينى يا جانيت عن أهم شئ فى بلادكم.. حدثينى عن العملة..

اليـورو.. الفرنـك السويسـرى.. الـدولار.. الإسـترلينى.. أهـم شئ يـا صديقتى.. الفلوس!

تبسمت جانيت كعادتها وقالت بارتياح:

ـ اطمئنى يا عزيزتى.. عقدك مع الفيفا برقم كبير، وأجرك مغرى جدًا ويجـب أن تعلمـى أن سويسـرا دولة متقدمـة، وتعتبر مـن أكثر بلدان العالم ثراء حسب دخل الفرد اليومى.. إذ يصل دخل الفرد فى المتوسط فـى الاجمالـى من الناتج المحلى إلـى ٦٨ دولارًا يوميًا، كما أن زيورخ وجنيـف احتلتـا المركزيـن الثانـى والثالث فـى ترتيب أعلى مسـتوى للحيـاة المرفهة فى مـدن العالم المختلفة.. ويعود إرتفاع دخل الفرد إلى مسـتوى كبير نتيجة لتنوع الأنشـطة الإقتصادية حيث تمارس الزراعة فى الوديان المنخفضة، وفوق الهضبة الوسـطى، وتبلغ نسـبة العاملين بالزراعة حوالى ٤٪ من القوة العاملة، وتنتج سويسـرا ٥٠٪ من حاجتها مـن المحاصيل والحبوب والفواكه.. وهناك حركة رعى فوق سـفوح الجبال فى فصل الصيف، وتشـتهر سويسرا بمنتجات الألبان، وتصدر للخارج كميات كبيرة منها سواء كانت مجففة أو معبأة أو فى صورة منتجات أخرى.. كما تشـتهر سويسـرا أيضًا بالصناعات الإلكترونية الدقيقـة مثـل السـاعات والأدوات الطبيـة والأجهـزة الكهربائيـة، وتشـكل السـياحة عصـب الاقتصاد السويسـرى إلى جانـب بنوكها وتداول الأوراق المالية على مستوى العالم.

توقفت جانيت لحظات، فباغتتها إيناس بالسؤال:

ـ معروف أن سويسـرا بلد العلم والعلماء.. فما سـر حرصكم على هذه الميزة؟!

تنهدت جانيت واسترسلت:

ـ مازلـت أذكر قـول القائد العظيـم نابليون بونابرت لجنـوده فى إحدى معاركـه الكبيـرة.. إذا كـانت جبال الألب الشـاهقة تمنعنى من التقدم

وتحقيق طموحاتى فيجب أن تزول من على وجه الأرض ولو بالقوة!

وسويسرا تحتل المركز الأول فى أوروبا إهتماما بالعلم والعلماء حيث أكبر عدد للطلاب الأجانب فى مدارسها وجامعاتها ومعاهدها ، وثانى دولة فى العالم بالنسبة لإجمالى عدد الطلاب فى البلاد ، والطريف أن بلدنا تضم بين حدودها أكبر عدد من العباقرة والمبدعين الحائزين على جوائز نوبل طبعًا بالنسبة لعدد السكان على مستوى العالم، وتحتل سويسرا المرتبة الأولى فى العالم أيضًا من حيث الأبحاث العلمية المنشورة، وتصنف جامعة زيورخ ثالث أفضل جامعة فى أوروبا كلها ، وجامعة بازل تعد من أقدم جامعات العالم وعمرها اليوم ٥٥٥ سنة.

توقفت السيارة أمام مطعم رابض فوق ربوة صغيرة ساحرة، كأنه قطعة من جسد الجبل حسب رغبة جانيت ثم قالت:

أظن الآن أنك يا إيناس عرفت سويسرا أكثر من أهلها ، ولكن علينا ألا ننسى أنفسنا.. إننى أكاد أموت جوعًا وأظنك فى مثل حالتى.. هيا بنا إلى هذا المطعم الذى يقدم وجبات لذيذة جدًا ، وشهية للغاية.. هيا هيا يا إيناس لا تخافى سوف أدفع أنا فلا تقلقى..

ضحكتا سويا.. ودخلتا المطعم

وإيناس ممسكة بيد جانيت.

***

(١٦)

" حينما خلق الله الروح أعجب بها، ومن شدة إعجابه حبسها بين ثلاثة جدران.. الزمان والمكان والجسد! "

عاد عطا الهلالى من السفر حاملاً معه عدة مفاجآت لناجى شرف الدين أهمها أنه يحمل له عرضًا مغريًا للانتقال للعمل فى مؤسسة " الأيام " أكبر وأعرق مؤسسة صحفية قومية فى مصر، فقد كان عبد العليم طايع رئيس مجلس إدارتها، ورئيس تحرير صحيفتها اليومية التى تصدر بنفس الاسم معه فى رحلة اليونان لمتابعة أعمال المؤتمر الأورومتوسطى الذى جاء لتغطيته ضمن رؤساء التحرير وكبار الصحفيين فى مصر، وذلك نظرًا لمشاركة رئيس الجمهورية فيه.. وخلال أعمال المؤتمر الذى استمر أسبوعًا واحدًا طلب عبد العليم طايع من عطا الهلالى أن يبحث له عن محرر صحفى صغير السن موهوب لكى يساعده فى كتابة مقالاته، ووعده عطا الهلالى أن يقدم له هدية ألا وهى موهبة صحفية سيكون لها شأن كبير مع الأيام، وكان حينها قد عزم أمره، وقرر أن يبعث إليه بناجى شرف الدين، وتلك ستكون فرصة العمر لهذا الفتى الريفى الذى اختار مهنة البحث عن المتاعب.. وبالفعل رحب ناجى شرف الدين بالعرض، وها هى تأتيه الفرصة وتواتيه على طبق من ذهب ليعمل فى المؤسسة التى حلم بها كثيرًا ليس هذا فحسب، بل إنها المؤسسة التى تعمل فيها إيناس مندور!

وهو يعرف أن انتقاله لهذه المؤسسة العظيمة يعد بمثابة حصوله على تأشيرة هجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.. أرض الأحلام.. بلا شك ستكون نقلة كبيرة بالنسبة له على كل الأصعدة، وخاصة الصعيدين المالى والمعنوى.

دهش ناجى شرف الدين وسأل عطا الهلالى قائلاً:

ـ ولماذا اخترتنى أنا بالذات يا أستاذى؟! لماذا وأنا الفقير البائس.. الصغير المبتدئ الذى لا يملك الخبرة فى بلاط صاحبة الجلالة؟! لماذا يا سيدى قررت أن ترسلنى لأعمل مع أكبر، وأهم رئيس تحرير فى البلد كلها وأكثر الكتاب شهرة ونفوذًا؟!

تكلم عطا الهلالى بصوت رخيم رزين وكأنه يلقى محاضرة أو درسًا فى فنون الحياة:

ـ اسمع يا ناجى.. يجب أن تعرف أنك موهوب، وخريج إعلام وتحب الصحافة بجنون وهذه كلها مؤهلات للتألق فى بلاط صاحبة الجلالة.. ولا أريدك أن تنظر لفقرك وعمرك باعتبارهما من العقبات التى تحد من طموحك فى مهنة الصحافة، لأن الإسكندر المقدونى غزا العالم وعمره لا يتجاوز الثلاثين عامًا، والملكة فيكتوريا حكمت بريطانيا العظمى، وعمرها ١٨ عامًا فقط.. هذا بالنسبة لمسألة العمر.. أما بالنسبة للفقر فلا تحزن فكل العظماء كانوا فقراء.. شكسبير أعظم المبدعين كان ابنًا لبائع صوف!

كما أن الإمبراطور "ديوكلشيان" الرومانى كان والده عبدًا بائسًا فقيرًا.. وابراهام لينكولن محرر العبيد هذا الرجل العظيم عمل حمالاً فى بداية رحلة كفاحه مع الحياة!

وفى نهاية المطاف بدا ناجى فى قمة سعادته بالانتقال إلى عالم آخر.. عالم الصحافة القومية.. بعيدًا عن الصحافة المستقلة أو الحزبية.. والفارق بينهما كالفارق بين السماء والأرض.. لكنه قال لأستاذه عطا الهلالى:

ـ برغم فرحتى الكبيرة للإنتقال للعمل فى "الأيام" إلا أننى حزين للغاية لأننى سأفارقك.

رد الرجل ضاحكًا:

ـ لن تفارقنى يا عزيزى.. سنظل معًا أخوة وأصدقاء.. بيتى مفتوح لك وكذلك مكتبى.. ولا تنسى أننى أكتب مقالاً أسبوعيًا فى "الأيام

" وعبد العليم طايع صديقى ورفيقى فى دروب الصحافة، وزميل دفعتى فى الجامعة، ولا يهمنى سوى مستقبلك.. أنا حققت ذاتى فى الصحافة، وأتمنى لك ألا تواجه الصعوبات التى واجهتها فى مطلع حياتى الصحفية، ويجب أن تعرف يا ناجى أن الكتابة بالنسبة لى لذة وعذاب أيضًا.. وأحب أن أقول لك أن المكان المثالى عندى للكتابة والإبداع هو جزيرة مهجورة فى الصباح، ومدينة صاخبة بالليل ففى الصباح أحتاج إلى الهدوء، وفى الليل أحتاج إلى قليل من الأصدقاء المقربين لتجاذب أطراف الحديث.

أما المفاجأة الثانية التى أعدها لناجى فكانت مجموعة أعمال ماركيز الذى يعشقه منذ قرأ روايته الأشهر " الحب فى زمن الكوليرا ".. كان ناجى مغرمًا بالكولومبى ماركيز مثلما هو مغرم بالتركى أورهان باموق، وقد ازداد حبه لجابريل جارسيا ماركيز المولود فى بلدة أركاتاكا بشمال كولومبيا عام ١٩٢٨ والذى درس الحقوق وعمل بالصحافة، حيث بدأ حياته محررًا صغيرا فى بعض الصحف الإقليمية ثم تفرغ للكتابة الروائية والقصصية التى خاض غمارها صدفة فى محاولة منه لكى يثبت لأحد أصدقائه أن بإمكان جيله أن يخرج أدباء.. وبعد ذلك وقع فى فخ عشق الكتابة، والاستمرار فيها عن حب وإيمان لدرجة أنه لم يعد هناك شئ أحب إليه فى الدنيا كلها من الكتابة والإبداع.

ناجى يرى مثله الأعلى فى ماركيز، ويتمنى أن يسير على دربه خاصة أنه كتب مجموعة من القصص القصيرة التى لم يقرأها أحد غيره.. وكتب إرهاصات رواية، ويعرف ناجى أن ماركيز عانى كثيرًا فى حياته حتى حقق النجاح والشهرة، ووصل إلى القمة بكده وعرقه وموهبته حيث تنقل بين المكسيك وأسبانيا وفرنسا وألمانيا وكولومبيا.. وظهرت أولى مجموعاته القصصية عام ١٩٥٥، ولكن شهرته لم تبدأ إلا مع صدور روايته التى تعد تحفة فنية فى مجال الكتابة الأدبية " مائة عام من العزلة " عام

opelkandil.com

١٩٦٧ وهى من أعظم الروايات الإنسانية والتى تمنى ناجى قراءتها، وأهداه إياها مؤخرًا أستاذه عطا الهلالى بالإضافة إلى أعماله الأخرى " جنازة الأم العظيمة "، " خريف البطريرك "، " قصة موت معلن "، " الخطاب المنتظر "، " فى ساعة نحس " وكان سعيدًا جدًا بذلك لأنه لا يعرف قدر ماركيز الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٢ إلا من قرأ رواياته، واستمتع بكتاباته الساحرة.

فى هذه الأثناء كانت الهواجس المخيفة تطارد ناجى شرف الدين.. لا يخاف الفتى على نفسه.. بل يخاف على أستاذه، وصاحب الفضل عليه بعد الله.. الرجل الذى احتضنه، وأواه فى بيته وعلمه أصول الكتابة الصحفية.. كان يدرك بالحاسة السادسة أن عطا الهلالى فى خطر.. أسر لأستاذه بذلك الأمر.. ضحك عطا كثيرًا وعلق بجملة واحدة:

العمر واحد والرب واحد، والحذر لن يمنع أبدًا الخطر.. كان خوف ناجى مصدره المقالات الجنونية الجريئة التى يكتبها عطا الهلالى فى الفترة الأخيرة.. فقد نشر تقريرًا سريًا حصل عليه بطريقته الخاصة.. وكان عنوان ما كتبه:

" تقرير خطير يكشف قضية فساد كل دقيقتين فى مصر! "

وجاء فيه:

أثار التقرير الخطير الذى أعدته هيئة الرقابة الإدارية سرًا حول جرائم الفساد المالى والإدارى داخل الأجهزة الحكومية فى مصر الكثير من القلق داخل الأجهزة الرقابية التى تخوض حربًا ضد الفساد بكل أشكاله وألوانه وصوره دون النظر إلى المناصب التى يشغلها الأفاسد والمفسدون، أو مراكزهم الاجتماعية المرموقة أو حتى قوة وسطوة وبطش من يساندونهم فى غيهم!

وأكد التقرير أن هناك ٣٠ قضية فساد وإهدار مال عام فى الساعة.. وهذا يعنى أن هناك قضية فساد كل دقيقتين تقريبًا، وهو ما يكشف عن

obeikandi.com

صور مخيفة للانحراف والفساد تثير الخوف والقلق على مصير المال العام بين أيدى العاملين عليه، والمسئولين عن إدارته والتصرف فيه باسم الشعب وللصالح العام والمعنيين بحراسته والسهر على حمايته!

وأشار عطا الهلالى فيما كتبه معلقًا على البيانات، والأرقام الواردة فى هذا التقرير قائلاً:

من أبرز نماذج وصور الانحراف المالى والإدارى داخل الأجهزة الحكومية والتى أدت إلى إهدار المال العام، والسطو عليه ونهبه.. تلك القضية المعروفة بقضية الجمارك الكبرى، والمتهم فيها ٢٩ موظفًا من قيادات مصلحة الجمارك من بينهم رئيس المصلحة، وهؤلاء حرموا خزانة الدولة من ٣٥ مليون جنيه من خلال مساعدتهم لرجال الأعمال على التربح دون وجه حق على حساب المال العام.

وكذلك قضية " القمح الفاسد " الذى تم استيراده من الولايات المتحدة الأمريكية بقيمة ٢٢ مليون جنيه تكبدتها خزانة الدولة بسبب فساد ضمائر المسئولين عن توريد غذاء آمن وصحى للمواطنين!

كان ناجى شرف الدين يشعر بأن الكبار لن يتركوا عطا الهلالى فى حاله، وقد يغتالونه لو استدعى الأمر ذلك.. لأن اللعب مع الكبار دائمًا محفوف بالأشواك والمخاطر.

تابع الفتى الريفى كتابات أستاذه فى الصحف العربية المعارضة التى تصدر فى عواصم أوروبية، وتكشف المستور، وتخوض فى المحظور، وتفضح أمراء وأميرات ورؤساء ووزراء ومشاهير فى الدول العربية.

فقد كتب فى صحيفة " عرب تايمز " سلسلة من الموضوعات الصحفية عن الأميرات الخليجيات.. بدأها بحلقة تحت عنوان:

" أميرة خليجية تطلب اللجوء السرى لبريطانيا خوفًا من عقوبة الموت فى بلدها لارتكابها جريمة الزنا! "

وتحت هذا العنوان كتب القصة المثيرة واللافتة للانتباه يقول فيها:

حملت الأميرة الخليجية الشابة سفاحًا بطفل غير شرعى من رجل بريطانى، ومنحت سرًا حق اللجوء إلى بريطانيا بعد أن أخبرتهم بأنها ستواجه عقوبة الموت إن هى أُجبرت على العودة إلى بلادها حيث تقطع الرؤوس من غير حساب، ولا محاكمة ولا عدالة.. ربحت الأميرة العربية التى مُنحت أيضًا حق السرية فى البوح بقضيتها للقاضى وأخبرته بأن ممارسة الحب دون زواج يعتبره الأوربيون حرية بينما بلادها تعتبره زنا، وهى الآن فى نظر أهلها وأبناء وطنها زانية والموت ينتظرها بفارغ الصبر على شاطئ الخليج!

ويروى عطا الهلالى قصتها كاملة بقلمه الفصيح قائلاً:

إن الأميرة سليلة عائلة ملكية ثرية جدًا، وقابلت الشاب الإنجليزى وهو غير مسلم أثناء زيارة لها إلى لندن، وعاشت معه قصة حب عنيفة تورطت خلالها بالحمل من الفتى الإنجليزى، وبرغم أنها زوجة لملياردير عجوز مسن عقيم عضو العائلة الملكية الحاكمة إلا أنها أصبحت حاملاً وفى أحشائها تتحرك نطف الأجنبى، وسرعان ما صارت النطفة علقة ثم أصبحت ثمرة حبها جنينًا يتحرك بداخلها، حاولت بشتى الطرق إقناع زوجها المزواج بأن يتركها تسافر إلى لندن لكى تلد سرًا بعيدًا عن عيون البصاصين والمتلصصين والمتربصين، وبعد جهد جهيد وافق زوجها على مضض خوفًا من أن يلحقه العار، وتلوثه الفضيحة، وعلى أمل أن تعود فارغة البطن، نظيفة الرحم لينتقم منها لشرفه الجريح على طريقته الخاصة فيشفى غليله، وبدهاء الأنثى نجحت فى الهروب من الفخ الذى نصبه لها، واستطاعت اقناع المحكمة بأنها إذا عادت إلى مملكتها هى وطفلها ستكون خاضعة للرجم حتى الموت!

وبالفعل مُنحت الأميرة الجميلة الشابة إقامة دائمة فى عاصمة الضباب بعد أن تعاطف القاضى الانجليزى مع قصة غرامها، وأعطتها المحكمة حق اللجوء الإنسانى، ومن وقتها توقفت عائلتها وعائلة زوجها عن الاتصال

بها ، ومحاولة استرجاعها حتى ولو كانت جثة هامدة بعد أن عرفوا بتفاصيل الفضيحة.

شعر ناجى شرف الدين بأن مجرد نشر كواليس وأسرار هذه القصة التى يعتبرونها فى المملكة تمس قدس الأقداس كفيل بأن يجعل أصحابها ، وهم يملكون المال والسلطان والصولجان والجاه والنفوذ يسعون للثأر من الشخص الذى تجرأ وأتاح فضيحتهم للجميع وجعلها على كل لسان، وهو بالطبع الكاتب الصحفى عطا الهلالى، ولكن ها هى الأيام تمر، ولا يحدث أى شئ، وعطا الهلالى يضحك بثقة، ويقهقه بسخرية من كل شئ، ويأكل ويحيا ويكتب ويعتبر الحروف التى يكتبها هى الرئة التى يتنفس بها ، لا يهاب المجهول ولا يخاف أحدًا على الإطلاق، يبدو كما لو كان محصنًا من الخوف والإيذاء.. ومازال يواصل كتابة سلسلة فضائح المشاهير فى العالم، والتى أعلن أنه سوف ينشرها فيما بعد كلها فى كتاب.. وكتب فى الحلقة الثانية فى صحيفة " عرب تايمز " قضية أكثر خطورة.. كتب يقول تحت عنوان مثير من كلمتين فقط.. " فسوق الأميرات! "

لاشئ على الإطلاق يأتى من فراغ حتى الأساطير، وحواديت السحر و الجان والخيال العلمى، لابد أن يكون لها أساس واقعى لينطق منه العقلاء، ويواصلوا بناء الأسطورة التى نتوه فى خباياها ، ونندهش من أسرارها.. الناس لا تخلق الحواديت من العدم، قد تبالغ فى سردها وتهول من أحداثها وتفاصيلها ، وقد تعيد ترتيب الأحداث والكلمات والروايات لتأخذ وقعًا أفضل على الأذن وتترك بصمات على الوجدان، وقد تضع واقعة هنا ، وتسحب أخرى من هناك لتصبح الحكاية أكثر سحرًا واثارة وابهارًا ، ولكن الناس لا تأتى أبدا بالحكايات من باطن الأرض.. الناس ببساطة شديدة قادرة على نسج الملابس، ولم تكن يومًا ما مصدر الخيوط.. وحينما تتكون صورة جماعية لدى المصريين، فلابد أن تعرف أن هناك تراكمًا ، ولابد للدخان الذى يتطاير فى الهواء، وتذروه الرياح من نار.. كل ذلك أجبر المصريين

على صناعة تلك الصورة، والإيمان بها.. فهناك أسماء ومصطلحات يكفى ذكرها حتى تطبع أذهانهم صورة واحدة وكأنها كربون تمامًا مثلما تكون نسخ الصحف متشابهة، بغض النظر عن كل الفوارق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.. انزل إلى الشارع، واسأل أحدهم.. ماذا تعنى لك كلمة أميرة خليجية؟! مع العلم بأن عدد الأميرات الخليجيات يصل إلى ٨ آلاف أميرة جميعهن يحملن اللقب السامى.. دعنا نتفق أولاً قبل أى شئ على أن الكثير من الأميرات خارج كادر تلك الصورة المخجلة تمامًا بعلمهن وتعليمهن وأخلاقهن وثقافتهم واندماجهن مع العالم الخارجى!

على كل الأحوال سوف تأتيك الإجابة واحدة أينما طرحت السؤال.. فى شوارع الزمالك مثل حوارى بولاق الدكرور وإمبابة، وفى قرى الصعيد مثل قرى الساحل الشمالى، وفى العمارات الشاهقة الفاخرة مثل عشش الصفيح والبؤر العشوائية.. صورة كربونية واحدة رسمتها أفعال جامحة، وتصرفات جنونية لأميرات خليجيات داخل العقل المصرى، وقد حولها مؤشر البذخ والسفه والجبروت المادى إلى صورة أسطورية يكرهها المصريون جميعًا مثل كراهية الأطفال للنداهة، وأبو رجل مسلوخة وأمنا الغولة والبعبع الأزرق فى الليل الأسود، ويرفضونها مثلما رفضت أيات الذكر الحكيم فى القرآن الكريم أفعال وأقوال قارون.. سوف تسمع كلمات متشابهات إذا فتحت مع أى مواطن مصرى حوارًا حول الأميرات الخليجيات وقصصهن المثيرة، ومغامراتهن المشينة على ضفاف نيل القاهرة وداخل أفخم فنادقها العامرة بكل ما لذ وطاب وتشتهيه الأنفس والأجساد.. قد تختلف الحكايات، وتدور رحاها، وتتنوع بين ما هو جنسى فاضح ومادى سافر وقهرى نادر، ولكنها فى النهاية سوف تستقر على تلك الصورة: أولئك النسوة اللاتى كن مقلبظات بدينات قبل أن تنقذهن عمليات التجميل وشفط الدهون.. تلك الكتل السمراء اللاتى حرمهن حكامهن من الخروج للنور وقيادة السيارات، وتحجبهن الجلاليب السوداء والنقاب القاتم الذى يشبه الخيمة المتحركة عن أجواء الحرية والشهرة التى تبحر فيها

السيدات الأول ووريثات العرش فى بقية البلدان العربية والأجنبية، هؤلاء المتناقضات اللاتى يخلعن ملابسهن، وينزعن عن وجوههن وأجسادهن برقع الحياء، ويغصن فى بحار أوروبا، ويسبحن بين شواطئ مصر المترامية الأطراف بالبكينى، ويرمحن بسياراتهن الفارهة بأقصى سرعة فى الشوارع والطرقات كالخيول الجامحة، وكأنهن ينتقمن من حكامهن، وأولياء أمورهن وبلادهن التى ترفض منحهن حق الحياة الطبيعية العادية وقيادة السيارات، والسير فى الشوارع والطرقات.. هؤلاء اللاتى يعوضن حرمان الظهور والخروج لشمس النهار، وقمر الليل، والتجول فى الشوارع بوجوه تلامس الهواء بالحفلات الصاخبة والمجون والبذخ، والتبجح والتبذير فى الانفاق مثلما يبذر الشياطين.. هن أصحاب الحفلات الساهرة حتى الصباح التى يأتيها زمرة من الفنانين والمطربين صاغرين أذلاء طمعًا فى الهدايا والملايين وعطايا الأميرات من السيارات والمجوهرات، تلك الحفلات التى تأتيها الوجبات ساخنة دسمة شهية من العواصم الأوروبية، بينما الغلابة يموتون جوعًا فى شوارع العرب، ودروب فلسطين المحتلة، وتحت أنقاض الصومال والعراق ودارفور وفى طوابير الخبز أمام الأفران بحثًا عن رغيف يسد رمق المساكين من فقراء وبؤساء العروبة.

الأميرات الخليجيات يتفاخرن فى شوارع القاهرة، وفنادقها الخمس نجوم بأموالهن ومجوهراتهن ودولارات آبار وبراميل النفط التى لا تنضب أبداُ.. هن اللاتى لا تملك ألسنتهن أدنى فكرة عن الذوق، واللباقة حينما يخاطبن الباعة والعمال والخدم.. هن اللاتى تظهر أسماءهن المفخمة وصورهن المبجلة فى الصحف الأوروبية عارية من كل احترام مقترنة بفضائح أخلاقية، ودهشة من اسرافهن وعبثهن الجنونى.. هن اللاتى أصبحن مؤخرًا طرفًا أصيلاً فى قضايا نصب وبلطجة، وابتزاز ورشوة سواء فى مصر أو فى عواصم أوروبا!

تلك هى الصورة الرائجة فى خيال المصريين عن الأميرات الخليجيات

أو فكـرة الثـرى العربى القادم من بلاد البترول والصحراء والجلباب سـواء كان رجـلاً أو إمـرأة، هـى صورة لـم يتم تحميضها بعد فـى أذهان الناس، بـل الأحداث والوقائـع وعدد الحـوادث والمحاضر والقضايـا المتداولة فى المحاكم المصرية والتى دائما ما يكون أحد أطرافها أميرة عربية واسعة الثراء تقيم فى فندق فاخر على النيل، وترفل فى النعيم، وتحجز لنفسـها، ولذويها أكثر من جناح تعربد فيه معهم كما تشـاء وحسـبما يحلو لها بلا حسيب ولا رقيب ولا ضمير!

وأخطـر هـذه القضايـا قضية خلـود العبسـى مع رجـل الأعمال الشـهير المليونيـر حمـدى الكومى وهناك حكايات أخرى، وفضائح سـاخنة على النيل، وأكثرها سخونة واثارة حكاية الأميرة هند العباسى وزوجها الأمير طايل وابنتها جواهر.. عن هذه العائلة الملكية الكريمة حدث ولا حرج!

ويجب ألا ننسى أن القاهرة بالنسبة لأصحاب الدماء الملكية من الأمراء والأميـرات مـن أبنـاء الخليـج العربى ليسـت هـى العاصمـة الأثريـة أو البلد ذوالأجواء الدافئة الذى يأتيه الأوروبيون للإسـتمتاع بشمسه، والإطلاع على جـزء مهـم من حضارة العالم.. هى بالنسـبة لهم ولهن قِبلة السـهر، والعربدة وكعبـة الحرية والعبث والهروب من قسـوة تقاليد الباديـة وجفاء الصحراء فى بلاد الخليج.. هى بالنسبة لهم ولهن تلك العاصمة التى يمكنهم أن يفعلوا فيها ما شـاءوا، وقتما شـاءوا بأموالهم التى لا تنفذ، وسـلطانهم الممتد من الخليج إلى النيل.. القاهرة بالنسبة لهم ولهن شارع الهرم وليست الأهرامات.. القاهـرة بالنسـبة لهم ولهن كباريهـات وبارات، وليسـت مقتنيات حضارية ومعالـم تاريخيـة.. القاهـرة بالنسـبة لهـم ولهـن.. مواطنون غلابـة يخضعون لجبـروت الجنيـه وذل الدولار والدينار والريال.. ليسـوا أشـقاء فـى العروبة بـل أولاد حرام، وبؤسـاء فقراء تعسـاء لا يأكلون اللحم إلا مـرة واحدة فى الشهر.

الأميـرات القادمات إلـى عاصمة الأزهر والحسـين.. مدينـة الألف مئذنة

حلوا عليها ليس طلبًا للبركة، ولا بحثًا عن نفحات أولياء الله الصالحين وآل البيت، بل جاءوها من أجل الحفلات والسهرات، والتفاخر أمام خلق الله والإنفاق ببذخ على أشباه المطربين أمثال تامر شوقى وسيد الصغير، وأبو شعيشع الذى عمل كمكوجى قبل أن يحترف الغناء ويحرص على ارتداء ثياب الأنتريه فى حفلاته الغنائية الشعبية، وغيرهم الكثير من رواد الأغنية الشبابية الذين هبطوا على الساحة الفنية بالباراشوت حيث الغناء للحمير والفاكهة، وهز الأرداف ورجرجة المؤخرات والعبث بالنهود!

وإذا ذكر اسم الأميرة جواهر فى مصر ذكرت الحفلات الليلية الأسطورية والدولارات التى تلقى تحت أقدام المطربين والسيارات الهامر، والكثير من الشائعات، وأحاديث النميمة الجنسية وغير الجنسية!

وإذا ذكرت أمها الأميرة هند العباسى ذكر الكثير من القضايا والحوادث والجرائم البشعة التى يندى لها الجبين.. فتلك الأسرة سليلة الملوك سيئة السمعة، وسجلها فى القاهرة حافل بالشغب والأفعال المشينة والفضائح والجرائم التى لا تمت لأخلاق الأمراء والملوك بصلة.. هل تذكرون حادثة فندق مدينة الإنتاج الاعلامى حينما اصطحبت الأميرة هند العباسى وابنتها جواهر ١٣ كلب حراسة فى غاية الشراسة، والوحشية للإقامة داخل الفندق بشكل نشر الذعر والهلع بين رواد الفندق بأكمله، وجعل النزلاء يفرون منه فرار السليم من الأجرب؟!

وهل تذكرون ما حدث منذ عامين فقط عندما كان الطبيب المصرى مسعود حسان يقضى أجازته الأسبوعية مع زوجته وأطفاله الثلاثة نورهان وحبيبه وأحمد وذهبت حبيبة الصغرى تلهو، وتلعب ببراءة فى حديقة الفندق فهاجمتها ثلاثة كلاب مفترسة أشبه بالأسود الجائعة، ونهشوا وجهها الطفولى الطازج وجسدها النحيل الصغير بلا رحمة حتى فقدت الوعى؟!

وقتها لم يرتجف رمش، ولم تهتز شعرة واحدة فى رأس الأمير طايل وزوجته الأميرة هند العباسى، وابنته جواهر وتم اجبار الطبيب المسكين

على الصلح مقابل ١٠٠ألف جنيه ثمن علاج ابنته سيئة الحظ

وماذا كان يستطيع أن يفعل طبيب صغير بسيط الحال لاحول له ولاقوة أمام نفوذ، وجبروت فرع رئيسى من فروع العائلة المالكة؟!

وهل تذكرون عندما احتجزت الأميرة هند العباسى وأفراد حراستها الغلاظ القساة عمالاً مصريين وفلبينين، وعذبوهم داخل فندق الهيلتون بسبب شكاوى عادية تقدم بها العمال الغلابة، اتهموا فيها الأميرة بعدم سداد رواتبهم واساءة معاملتهم؟!

أما الأميرة المدللة جواهر ربة الصون والعفاف، وملكة حفلات منتصف الليل وصاحبة الهامرات التى تملأ سوق المطربين، فلم ينج مغنى مصرى ركب سيارة هامر من ثرثرة عن وجود علاقة غرامية سرية تربطه بالأميرة الصغيرة التى يتمنى المطربون جميعًا بلا استثناء الحصول على دعوتها لإحياء حفلة أو تقبيل اليد هناك!

هذه هى أميرة الليل والسهر، وشباب المطربين، والمراهقين من نجوم برامج "ستار أكاديمى" وهى ذاتها الأميرة التى لا تجد مانعًا فى عدم سداد ٥٠٠ ألف جنيه بعد الدعوى القضائية التى رفعها ضدها مورد اللحوم لها ولأسرتها وحاشيتها وكلابها المفترسة!

التهموا اللحم مثل الأسود الجائعة فى البرارى، ورفضوا دفع الفاتورة هل هناك عاقل يفعل ذلك؟! هل هذه أخلاق الأمراء والأميرات والنبلاء والنبيلات؟!

كما أن الأميرة جواهر سبقت الأميرة خلود فى مسألة النصب والإحتيال واغتصاب مجوهرات ليست ملكًا لها، وذلك مثبت فى أوراق رسمية، وفى حيثيات حكم صادر عن محكمة "جنايات أبو العلا" غيابيًا بسجن الأميرة هند العباسى ٤ سنوات مع الأشغال الشاقة بتهمة سرقة مجوهرات قيمتها ٦ ملايين جنيه، ولم تجد الأميرة مفرًا من حكم المحكمة إلا بالتصالح مع الجواهرجى، واعادة المجوهرات اليه، ويبدو أن الأميرة خلود قررت

استكمال مسيرة الأميرة هند وابنتها جواهر فى القاهرة عبر حدوتة نصب كشفتها قضية غريبة مع رجل الأعمال حمدى الكومى والتى اتهمها فيها بأنها أبدًا لم تسرقه، وأنه تزوجها عرفيًا ١٩ يومًا فقط، وأعطاها كل شئ عن طيب خاطر، والعصمة كانت فى يدها وعندما دبت الخلافات بينهما طلقته، فاستشاط غضبًا واتهمها بالسرقة!

وبينما حمدى الكومى ينكر زواجه منها كانت هى تؤكد للجميع وفى تحقيقات النيابة أنها مزقت بيدها ورقة زواجهما العرفى فى لحظة غضب أثناء شجارها معه، وقالت اسألوا الشهود على زواجى منه ومعاشرتى إياه وأكدت أنها نامت فى فراشه عشرة أيام فقط ذاقت خلالها عسيلته، وذاق عسيلتها!

وسواء كانت خلود العبسى أميرة حقًا وزوجة سابقة لابن جلالة الملك أو كانت مجرد متمسحة ثرية فى الأسرة الملكية بعد انفصالها عن ابن الملك تبقى فى نهاية الأمر هى نموذج جديد لثراء الأنثى الخليجية التى تستغل الخيال المصرى عن الأسرة الحاكمة، ولعاب رجال الأعمال الذى يسيل على مغامرة نسائية مشبوبة قد تقربه من كرسى العرش الخليجى الذى يفيض بالمال والذهب، والنفوذ والوجاهة، وهنا تنصب الأميرة شباكها وتضرب ضربتها، وتنهب فريستها حتى ولو كان فى الأمر فضيحة أخلاقية أو ورقة عرفية تتنافى تمامًا مع الأجواء السائدة فى بلدها الخليجى.

الناس فى بلادى يتساءلون:

أين الحجاب.. أين النقاب؟!

أين ذهبت هيئة الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر؟!

أين ذهب تطبيق الشريعة الاسلامية التى تعمل بمبدأ الثواب والعقاب؟!

لماذا تركت الأسرة المالكة سمعتها تتلطخ فى الوحل على أيدى أميرات الهامر؟!

هذا السؤال سيبقى مطروحًا فى مصر مادامت حفلات الأميرة جواهر الجهنمية مجلجلة فى سماء القاهرة مهد الأزهر وحصن الاسلام.. وسيبقى السؤال مطروحًا مادامت الأميرات الخليجيات مثل هند وخلود وغيرهما مقتنعات بأن أموالهن تمنحهن حق استعباد البشر، واستغلالهم للمتعة الشخصية، وتعذيبهم وقتلهم إذا لزم الأمر!

اختتم عطا الهلالى مقاله النارى قائلاً:

لم أتحدث عن حوريات من عالم ألف ليلة وليلة، بل أتحدث عن أميرات من لحم ودم وأحاسيس وخطايا.. ولست أنا أول من يخوض فى هذا العالم الشائك بالألغام الحافل بالأسرار والخفايا، وما لايصدقه عاقل أو مجنون.. ولست أنا صاحب الفضل الأوحد فى الجرأة والشجاعة، وكشف المستور من عظائم الأمور فهناك الكاتب المشهور "روبرت ليسى" الذى وضع كتابه الأشهر "المملكة" عن فضائح الأميرات الخليجيات، ونزقهن وعربدتهن بصورة تفوق الخيال الجامح!

لكل هذا كان ناجى شرف الدين خائفًا على أستاذه، متوجسًا من أن يصيبه مكروه لا يعلم من أين يأتيه لكنه قادم لا محاله برغم عدم وجود دلائل تؤكد هواجسه اللهم إلا حاسته السادسة التى تنذره بأن عطا الهلالى على شفا حفرة من الهلاك!

***

(١٧)

" القلوب تحيا بالحب وتموت بالحقد! "

مضت الأيام الأولى لإيناس مندور فى سويسرا هادئة لذيذة، وبسرعة بدأت تتكيف على الأجواء، والناس والبنات.. أحبت الهدوء، وبعين خبيرة كانت تبحث لها عن رفيقة، أو أنثى تواصل معها علاقتها الحميمية الأثيرة، وجاءت جانيت بالطبع فى المرتبة الأولى، ولكن الصدفة جاءتها سريعة عندما عرفت أن جانيت تركت منزل عائلتها منذ أكثر من عام، وتعيش بصحبة صديق لها فى شقة صغيرة بشمال مدينة زيورخ اختارت أن تنتقل للحياة مع صديقها بعد قصة حب عابرة سريعة وقصيرة، وبرغم عدم رغبتها فى الإنجاب منه إلا أنها تحبه، وتفضل أن تؤجل الحمل منه حتى تحقق طموحاتها أولاً حيث تعد دراسة فى الجامعة لنيل درجة الماجستير فى " علم المصريات ".. حزنت إيناس مندور كثيرًا بعد أن عرفت تفاصيل حياة جانيت، فقد خيبت أمالها فيها، حيث كانت تراها رفيقة نموذجية لها بامتياز تشاركها خصوصياتها وعملها، وفى آخر الليل وأيام الأجازات تشاركها أحضانها وفراشها!

أول شئ فعلته بعد أن استقرت بها الأحوال فى سويسرا بعثت برسالة قصيرة إلى ناجى شرف الدين على بريده الاليكتروني تقول فيها:

" ناجى.. كيف حالك يا جورنالجى.. هيا يا فلاح صاحبة الجلالة أخبرنى عن عملك وحياتك وأحوالك.. أريد أن أطمئن عليك يا صديقى العزيز! "

مع تمنياتى لك بالتوفيق.

إيناس مندور / سويسرا.

تلقى رسالتها بسعادة غامرة برغم ما فيها من روح دعابة ساخرة لكنها

لطيفة ومقبولة ، وهو يتقبل من إيناس أى شئ وكل شئ ، فهو معجب بشهامتها ، وشجاعتها ، وخروجها على المألوف فى كثير من الأحيان ، ولا يعجبه فيها أشياء كثيرة أيضًا يفضل ألا يتحدث عنها لأنه يؤمن بالحكمة القائلة :

" لا تتحدث إلا عن الخير الذى تعرفه فى كل الناس، وتغاضى عن عيوبهم وصغائرهم ".

وهو فى نفس الوقت لا ينسى ما فعلته من أجله ، فهى التى فتحت أمامه أبواب صاحبة الجلالة الصحافة بعد أن غُلقت كل الأبواب فى وجهه ولم تشفع له شهادته العليا فى الإعلام والصحافة من جامعة القاهرة أعرق الجامعات العربية والأفريقية برغم التصنيف العالمى الذى استبعدها من بين أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم.

رد ناجى شرف الدين على رسالة إيناس الموجزة برسالة أبدى فيها سعادته لإحساسها بالراحة والسعادة فى سويسرا ، وتسلمها لعملها الجديد فى أجمل بلاد الدنيا وجنة الله على الأرض ، وتمنى لها التوفيق فى حياتها الجديدة ، ثم حكى لها عن المفاجأة التى لم تتوقعها ألا وهى انتقاله للعمل فى مؤسسة " الأيام " للصحافة والنشر.

لقد أصبح الآن زميلاً لها فى ذات المؤسسة العريقة وقال لها :

يبدو يا عزيزتى أن القدر يأبى ألا يفرقنا وألا يجمعنا أبدًا .. ها أنذا أنتقل بمعجزة لم أكن أتوقعها على الإطلاق إلى نفس المكان الذى تعملين فيه، لكن واأسفاه حدث ذلك بعد مغادرتك للمؤسسة ومصر كلها .. على كل الأحوال نحن متفقان فى أشياء كثيرة.. واليوم أنت يا إيناس حققت حلمك الجميل بالعمل فى إمبراطورية كرة القدم العظمى المسماه بالفيفا، وأنا يا صديقتى حققت حلمى

أيضًا بالعمل فى مؤسسة " الأيام " العظمى للصحافة.

نحن متعادلان فى كل شئ.. تمنياتى لك بالتوفيق والنجاح فى مهمتك الجديدة، وفى انتظار رسائلك يا إيناس.

ناجى شرف الدين

القـــــاهرة

لم تفرح إيناس بانتقاله للعمل فى مؤسسة " الأيام " التى تعتبر حكرًا على أبناء الكبار من المسئولين والكتاب، وقدامى الصحفيين والوزراء، بل أحست فى صدرها بشئ من الغيرة والحنق، وبرغم أنها تعرف أنه غير لائق لهذا المكان إجتماعيًا!

ولم تتوقف كثيرًا أمام رسالته وهمست لنفسها:

الحياة فى مصر مثل الأرجوحة.. يوم فى السماء ويوم فى الأرض.. هى فوضى.. والنجاح فيها حين ميسرة.. الصدفة والمحسوبية هما الأساس وهناك هامش ضئيل للنظام.. وقد يأتى الصعود للقمة بطريقة عشوائية، وقد لا يأتى لمن يستحقونه..

ومضت لحال سبيلها تواصل عملها بين زملائها فى " الفيفا " وكان لها زميلاً فرنسياً فى الأصل لكنه سويسرى الجنسية يدعى " إيمانويل " بدا الفتى معجبًا بها، ويحاول قدر طاقته أن يستدرجها إلى علاقة عاطفية.. صداقة حميمة أو لقاءات غرامية ملتهبة، فلا وقت هناك للعواطف والرومانسية، والحب العذرى، فالحب لديهم هو طريقة مهذبة للجنس.. الحب لديهم أسرع طريقة لمواقعة الجميلات!

أحست من نظراته وإيماءاته بما يدور فى ذهنه، أغلقت فى وجهه كل الأبواب، أعادت شيطان نزواته إلى القمقم، وعاملته بغلظة وبطريقة جافة فظة، فأدرك على الفور أنه غير مرغوب فيه وأنه أبدًا لن يكون فارسها.

وقال لجانيت:

ـ ما بال صديقتك المصرية عنيدة مشاكسة ومتخلفة مثل الكثير من الذين يفدون علينا من الشرق الأوسط.. ماذا تظن نفسها؟! هل تعتبر نفسها نفرتيتى أو كليوباترا؟!

لكن أود أن أسألك يا جانيت.. لماذا تتمنع على؟! هل لديها صديق فى سويسرا أو زوج فى مصر؟!

ضحكت وقالت متسائلة:

ـ ماذا أصابك يا إيمانويل؟! هل سحرتك الفتاة المصرية؟! أم أصابتك لعنة فرعونية من بنت قادمة من أرض الهرم وأبو الهول ومسلات الأقصر؟!

قال بغيظ:

ـ نعم.. أريدها.. أريدها يا جانيت.

ـ ولكنها لا تريدك يا عزيزى..وهذا يكفى لكى تكون رجلاً متحضرًا ، وتتعامل معها بلباقة فى ضوء ذلك وعليك أن تحترم مشاعرها ، وهذا هو الشئ الوحيد الذى لا يمكن أن يحدث بالقوة ، بل بالتفاهم والود ، وانسجام القلوب والعقول والأرواح قبل اندماج الأجساد وتلاقيها.. هز رأسه مستنكرًا وتركها وانصرف غاضبًا ناقمًا!

***

obeikandl.com

(١٨)

" لا تصدق هؤلاء: التاجر عندما يحلف.. والسكير عندما يصلى.. واللعوب عندما تبكى! "

" عندما تعجز المخابرات الأمريكية عن فهم ما يدور حولها فى أنحاء العالم وبالتبعية المخابرات الإسرائيلية ، فإنها تسعى إلى اختراقه وتغييره بكل الوسائل.

" كانت هذه العبارة التى استخدمها الصحفى الأمريكى " تيم فينز " الحائز على جائزة بوليتزر أهم وأعظم الجوائز فى الصحافة العالمية ، وهو الرجل الذى قرأ ٥٠ ألف وثيقة سرية من قلب أرشيف المخابرات الأمريكية ، وهو ذاته صاحب كتاب " التاريخ السرى للمخابرات الأمريكية " والذى يجسد فيه فشل المخابرات الأمريكية فى معاركها منذ الحرب الباردة مع السوفيت وحتى أحداث أيلول الأسود فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى مثلت قمة الفشل والإخفاق فى حماية أمريكا والحفاظ على سمعة المخابرات الأقوى والأعظم فى العالم.

كان عطا الهلالى من أشد المعجبين بهذا الصحفى المغامر المغوار ، وكتاباته الجريئة ، لذلك لم يتوقف عن كتابة مقالاته وموضوعاته الصحفية الهجومية ـ اقتداء بالصحفى الأمريكى التى تخترق المناطق المحظورة ، وتتجاوز الخطوط الحمراء ، وتنسف المحرمات وتنتهك التابوهات المقدسة بالنسبة للمجتمعات العربية ، وتقاليدها البالية ، وتناقضاتها المضحكة!

كان حريصًا كل الحرص على أن يمزق بقلمه المسموم كل القيم الشائكة ، وكأنه يكتب بحبر إلهى قادر على تطهير جسد أمته العربية من المحيط إلى الخليج من كل الخطايا والآثام ، لا يخاف من لومة لائم ، ولا يخشى فى الحق من بطش حاكم ظالم.. يكتب ما يقتنع به ، ورزقه

obeikandl.com

على الله.. والكثيرون يطنون أنه مسنود من مسئول كبير، بينما الحكاية تتلخص فى أنه ليس لديه ما يخشاه أو يخشى عليه، فلا زوجة، ولا مال، ولا عيال.. والحديث الشريف يؤكد أن العيال مخافة مجبنة.. بمعنى أن الأب دائما يخاف على نفسه حرصًا على أولاده الصغار.

وهذه المرة كتب عطا الهلالى يقول تحت عنوان:

" طبيب اسرائيلى يعالج العجز الجنسى لملك العرب! "

كشف الطبيب الاسرائيلى " موشيه مانى " المختص فى علاج العجز الجنسى والمسالك البولية فى مقابلة صحفية أجرتها معه صحيفة " يديعوت أحرونوت " الإسرائيلية عن أسرار العجز الجنسى لدى ملك أكبر دولة خليجية، وعدد من الأمراء فى الأسرة الحاكمة الذين خضعوا للعلاج سرًا تحت يد الخبير الإسرائيلى فى قصورهم الفخمة على شاطئ الخليج العربى.. لكن الأمر لم يتوقف عند العلاج فقط، ومعرفة الأسرار الجنسية لدى هؤلاء القادة، بل تعداه إلى قضايا أخرى أهم من ذلك بكثير لدرجة أن رئيس المخابرات الاسرائيلى " الموساد " ديب كيمحى " قال فى هذا الخصوص:

" إن ما قام به الطبيب الإسرائيلى " موشيه مانى " لصالح وطنه إسرائيل يعد عملاً رائعًا وخدمة جليلة لإسرائيل فى صراعها مع العرب.. لقد عانى كثيرًا وعرض حياته للخطر من أجل بلده، وهو يستحق التكريم. "

هكذا إذًا لم تكن المهمة طبية فقط، بل كانت مهمة مخابراتية من الدرجة الأولى!

البداية كانت من ضابط المخابرات فى " الموساد " يومها المدعو يعقوب نمرودى، وشريكه العربى رجل الأعمال المعروف الملياردير حسان خاشوقجى فى ربيع العام الماضى حيث عقدا لقاءًا مشتركًا فى جنيف عرف خلاله خاشوقجى تخصص البروفيسير موشيه مانى، وعرف أيضا أنه على درجة عالية من المهارة والكفاءة بحيث يستطيع تحسين النشاط

obeikandi.com

الجنسى لمن يعانى من العجز بواسطة أدوية خاصة، وتركيبات كيميائية يحضرها فى معمله الخاص، وذلك بالإضافة إلى إجراء عملية زرع جهاز طبى إذا لزم الأمر..

خاشوقجي على حد تعبير موشيه مانى فى المقابلة المذكورة طار فرحًا، وقال: إن لديه مهمة خاصة، وسيعود ويتصل به بعد فترة وجيزة.. من هنا بدأ مشوار موشيه مانى إلى رحاب القصور العربية لزعماء العالم العربى من العجزة فى التعامل مع تضاريس النساء! وعندما وصل موشيه إلى المملكة بجواز سفر بريطانى تم استصداره أو تزييفه، ونقل فى سيارة فارهة إلى القصر الملكى الكبير برفقه خاشوقجى وحاشيته.. ومن ثم قام بالإنفراد بالملك الذى يعانى من العجز الجنسى برغم أن عدد حريمه، والقائمات منهن على متعته لا يحصى!

وبعد ساعات حدثت المعجزة حيث قدم الطبيب الإسرائيلى العلاج اللازم بعد أن كشف الملك أسراره الجنسية، وباح بها للطبيب، وخرج بعدها الملك المفدى منفرج الأسارير، منبعج الأوداج لأن عقدة حياته انتهت، وشعر بتحسن فورى فى قدرته الذكوريه على حد وصف موشيه مانى، ومرافقه حسان خاشوقجى مما أدى إلى فتح أبواب القصور الملكية الأخرى أمامه سواء كانت تلك القصور على شاطئ الخليج أو فى عواصم عربية أخرى.

وأحس الملك إحساس الزوج الذى تعاطى حبة فياجرا قوية جدًا وصار جاهزًا لمصارعة أنثاه فى معركة الفراش الحاسمة ليلة الجمعة، وهو الموعد المحبب لدى الأزواج العرب للتوقيع بالحضور والانصراف فى كهف المتعة!

وأكد البروفيسور موشيه مانى أنه شعر بالارتياح التام عقب نجاحه فى هذا الامتحان العسير لدرجة أن مكتب رئيس الحكومة الإسرائيلية أصدر أمرًا لإدارة مستشفى "تل هشومير" فى العاصمة تل أبيب بعدم توجيه أى سؤال له بشأن اختفائه عن عمله بالمستشفى الحكومى، وأن تدفع الإدارة

راتبه كاملاً مع كل المكافآت، والحوافز والبدلات، وأطلق عليه لقب " طبيب بلا حدود " لأنه تمكن من التجول فى عدد من العواصم العربية وزرع أجهزة تنصت فى قصور الملوك والرؤساء والأمراء العرب لتنقل المعلومات والمحادثات والأسرار مباشرة لحظة بلحظة إلى من يهمه الأمر فى تل أبيب.

هذا ما كان بالفعل.. وعندما وجه أحد زملائه الأطباء سؤالا له قائلاً:

ـ أين كنت يا موشيه طيلة مدة غيابك عن المستشفى؟! كان جوابه.. فى مشوار علاجى لمرضى إيرانيين فى العاصمة طهران!

وهكذا تطورت العلاقات مع حسان خاشوقجى على حد تعبير موشيه مانى لدرجة أنه أصبح المسئول عن الاستقبال والضيافة للوفود العربية التى تصل إلى قصوره ومكاتبه، وتم منحه حق الإنفاق غير المحدود على ضيوفه، وعلاجهم جنسيًا، بما فى ذلك توفير فتيات لهم لمعرفة حقيقة تحسن وضعهم الجنسى.. والسؤال:

من كان يدفع هذه الأموال الباهظة يا ترى؟!

هل هو حسان خاشوقجى أم شركاؤه مثل نمرودى، وغيره من ضباط الموساد الاسرائيلى؟!

وتواصلت العلاقات مع الملك، وامتدت تلك العلاقات إلى بقية الأمراء فى القصر الملكى، وعندما تعذر على البروفيسور " موشيه مانى " الوصول إلى المملكة لسبب ما قام الملك، وغيره من الأمراء بالسفر إلى أسبانيا، وتحديدًا إلى منطقة ماربيا السياحية حيث يملكون القصور هناك أو إلى الريڤييرا الفرنسية، ويكون بانتظارهم هناك " موشيه مانى " وغيره من الأطباء لتقديم العلاج الجنسى، وتحسين مستواهم فى الفراش.. وأكد موشيه فى المقابلة مع صحيفة " يديعوت أحرونوت " أن حسان خاشوقجى كان ينفق الأموال لهذا العلاج.. وانتشر صيت الخبير الإسرائيلى بين الزعماء العرب، واستدعاه ملوك ورؤساء آخرون فى العديد من العواصم العربية لنفس الغرض.

وممن يذكرهم موشيه مانى هو الزعيم السودانى السابق حيث تم استغلال هذه العلاقة لضمان هجرة اليهود الفلاشا من إثيوبيا إلى إسرائيل عبر الأراضى السودانية.

ويقول موشيه مانى: أنه نجح فى اقناع الزعيم السودانى السابق بتقديم المساعدة وفتح الحدود لإقامة المخيمات، ودخول الطائرات أيضًا لنقل المهاجرين إلى إسرائيل أثناء جلسات العمل، بالإضافة إلى الثمن الذى قبضه الزعيم السودانى السابق ٦٠مليون دولار ودخل حسابه السرى فى بنوك سويسرا.

***

obeikandi.com

(١٩)

" كلمـة الحب عند الفنانين مثل كلمة الديمقراطية عند السياسيين لا معنى لها ! "

قبـل أن ينتقل ناجى شـرف الدين للعمل فى مؤسسـة " الأيـام " للصحافة حدثـت حكايـة غريبة فى جريدة " مصر اليوم " كانت بطلة هذه الحكاية نهير السياجى المحررة فى قسم الفن بالجريدة.. تلك الفتاة السمراء مكتنزة الشـفاه ذات الشعر الأسود الناعم والجسـد الفائر، والعيون العسلية.. كان جمالها فيه مزيج من الشرق والغرب من أوروبا وأفريقيا، وبين الحين والآخر كان ناجى شـرف الدين يشـعر بأن قلبه ينبض لها و من أجلها، وأنه معجب بها، وأن نظراتها له تبادله الإعجاب، وبين الحين والآخر كان يفتعل الأسباب ليجلس معها فى صالة التحرير، ويحكى معها عن شـئون الحياة و شـجون الصحافة، ورسـائل القراء وأخبار الفن والفنانين فى مصر والعالم.. كانت بوادر الحب فى أولها، وبذرة الشوق تنمو فى قلبيهما، ولأنهما يلتقيان دائمًا بحكـم العـادة والعمل اليومى، ولأن العادة أقوى مـن الحب.. كان لا يطيق أن يمـر يـوم دون أن يراها ويحادثها، وذات يوم وقعـت الواقعة، فقد كلفها عمر الشهابى رئيس التحرير بإجراء حوار صحفى مع المطرب الشهير عمرو الدقـاق فى فنـدق الميريديان الـذى يفضل الإقامة فيه معظم شـهور العام، وخاصـة حينمـا يكون فى فترة راحة واسـترخاء بعيدًا عن الوسـط الغنائى والحفـلات والمهرجانـات، ولـم تتأخر نهير السـياجى.. وعلـى الفور أجرت اتصالاً هاتفيا بالمطرب الشهير، ولم يرد عليها كعادته، وأرسلت له رسالة على هاتفه المحمول، وبعد يومين جاءها الرد، وبالفعل عاودت الاتصال به، وحـدد معهـا موعدًا لإجراء الحـوار، وعندما ذهبت إليه فـى الفندق حاولت انتظاره فى قاعة الاسـتقبال على أن ينزل إليها لإجراء الحوار لكنه رفض، وطلـب منها أن تصعد إليه فى غرفته، فكرت فى التراجع، وتذكرت أنها

على وشك التعيين وتريد ألا تفقد ثقة رئيس التحرير فيها، لو أخفقت فى إجراء هذا الحوار مع المطرب الشهير المغرور، والأهم بين مطربى جيله فى مصر والوطن العربى.

تحاملت على نفسها، وصعدت إلى غرفته مضطرة مكرهة، وفجأة وجدت أنها بين أنياب الأسد، فلم يكن أبدًا المطرب الرومانسى الناعم الهامس الذى تتهافت عليه الفتيات المعجبات فى الحفلات، وتلقى عليه الدباديب والورود وتقابله بالقبلات والأحضان فى كل مكان يذهب إليه..

هاجمها مطرب الرومانسية كوحش كاسر جائع شره، مزق ملابسها، شرع فى اغتصابها لكنها كانت أكثر منه شراسة فى صمودها ومقاومتها، دافعت عن شرفها ببسالة بكل ما أوتيت من قوة، وصرخاتها تدوى فى جناحه الخاص بالفندق الكبير المطل على النيل، ولم ينقذها سوى عاملة خدمة الغرف التى طرقت الباب عندما سمعت الصرخات!

لعنها المطرب عمرو الدقاق، واتهمها بالغباء والجنون والحماقة، وأن هناك بنات أجمل منها مليون مرة يحلمن بأن يقضى معهن ليلة واحدة لنيل شرف النوم فى فراشه والتقلب بين أحضانه!

خرجت باكية حزينة مذهولة مفزوعة، مهوشة الشعر، دموعها تبلل وجهها وثيابها مهلهلة كأنها كانت فى معركة، وعلى شريط التسجيل الذى أدارته لإجراء الحوار قبل أن يفكر المطرب فى افتراسها سجل كل ما دار بينها وبين ملك الأغانى العاطفية، ومطرب الحب والرومانسية.

لم تكن تعلم أن الشريط دار ليرصد تفاصيل تلك المهزلة، وذهبت إلى رئيس التحرير، وأبدت أسفها وندمها وحسرتها على عدم قدرتها على اجراء الحوار الصحفى لأنها تعرضت لفعل فاضح، وتحرش جنسى سافر من ذئب بشرى يتنكر فى رداء فنان، وعندليب الأغانى لعصرنا الحالى.

وعندما شكت لرئيس التحرير كل ما حدث من المطرب المجرم الذى يظنه ملايين من عشاق أغانيه أنه ملاك هبط من السماء!

بعد لحظات من الصمت والتفكير العميق قال عمر الشهابى:

اسمعى يا نهير.. أكتبى الواقعة كاملة فى موضوع صحفى، وأعطينى هذا الموضوع، وسوف أنشره إذا لزم الأمر..

فعلت نهير ذلك بأسى ومرارة، وكأنها كانت تكتب شهادة وفاتها، لكنها كتبت الموضوع التى اعتبرته أفضل ثأر لكرامتها الجريحة، وأحسن رد اعتبار لكبريائها المهزوم، وبمجرد أن حصل رئيس التحرير على الموضوع بخط يدها، والشريط المسجل عليه كل الحوار والصراخ والآهات، والشد والجذب بين نهير السياجى وعمرو الدقاق، وهو يساومها ويغازلها فى البداية ثم يحاول افتراسها فى النهاية بعد يأسه من استباحة جسدها بالحسنى.

اتصل رئيس التحرير بالمطرب الأشهر، وأخبره بما بين يديه من أوراق ومعلومات وأدله تدينه وتشوه صورته فى عيون جمهوره، وأنه بامكانه نشر الموضوع فى الجريدة، وتكون فضيحة مدوية، أو يأمر نهير السياجى بتقديم بلاغ رسمى للنائب العام، وتكون الفضيحة أكثر دويًا.. كانت نبرة صوته فيها ابتزازًا صريحًا لا مواربًا، وفهم المطرب الرسالة، وفى نهاية الأمر أعطى رئيس التحرير مليون جنيه، وحصل منه على الموضوع الصحفى الذى كتبته نهير بيدها، واسترد الشريط الدليل المادى على محاولة الاغتصاب المخجلة، وطلب المطرب من رئيس التحرير أن يطرد تلك الصحفية من الجريدة خاصة وأنها مازالت تحت التمرين.. لكن عمر الشهابى استنكر هذه الفكرة، وأقنعه بأن وجودها فى الجريدة أمام عينه وتحت رقابته يضمن له ألا تفتح فمها، وألا تثير الموضوع مجددًا.. أما لو طردها فمن يدرى فقد تتهور وتنشر ما حدث فى جريدة أخرى..

اقتنع المطرب عمرو الدقاق بهذه الحيثيات، ورضى بالصفقة الوقحة.. وانتهى الأمر عند هذا الحد!

لاحظت نهير صمت رئيس التحرير المريب وتخاذله المعيب، وأحست

بشبهة تواطؤ بينه وبين المطرب إياه، فكرهت كل المطربين ونقمت على الفن والفنانين الأخيار منهم والأشرار، وطلبت نقلها من قسم الفن إلى قسم التحقيقات عساها تهدأ نفسًا، وتتخلص رويدًا رويدًا من ذكرياتها المؤلمة وكان لها ما أرادت!

***

obeikandl.com

(٢٠)

" منذ متى كانت الذئاب معنية بحراسة الحملان بدلاً من التهامها ؟!"

أحس عمر الشهابى بما يدور فى نفس نهير السياجى، واستشعر خيبة أملها فيه، لذلك طلبها لمقابلته فى مكتبه، وكان لطيفًا ودودًا معها إلى أقصى درجة، وإن كان يتحاشى النظر مباشرة إلى عينيها لأنه لمح فيهما الغضب المكتوم، واللوم المكنون وقال لها :

ـ لقد وافقت على انتقالك إلى قسم التحقيقات مراعاة لظروفك النفسية، وأتمنى أن تكونى أكثر جدارة بالعمل فى هذا القسم خاصة وأن قسم الفن يحتاج لمحررين لا محررات حيث السهر لما بعد منتصف الليل، ومتابعة أخبار الفنانين والفنانات فى البلاتوهات والكباريهات والسهرات فى الفنادق والكازينوهات والحفلات.

قالت نهير بتحد وعناد :

ـ أرجو أن توافق على أن يكون أول تحقيق صحفى أجريه عن التحرش.. وسوف يكون عنوانه.. " كلاب الشوارع "

ـ فكرة عبقرية ورائعة يا نهير.. وأنا موافق من حيث المبدأ على تنفيذها لكن بشرط.

ـ شرط.. ما هذا الشرط؟!

ـ أن يكون هذا التحقيق مدعمًا بالدراسات والأرقام والإحصائيات، ولا تتحدثين فيه عن أسماء أو حالات فردية طبعًا مفهوم يا نهير وأفضل أن يكون عن التحرش فى الوطن العربى بصفة عامة، ومصر بصفة خاصة.

أريد أن يكون هذا التحقيق على مكتبى على وجه السرعة يا نهير.

ـ أمرك يا أفندم.

انصرفت من مكتبه، وحالة الإحباط التى تسيطر عليها قد خفت حدتها وخفتت وتيرتها، وإن كانت ترى أن تعرية المتحرشين وفضحهم أمام المجتمع هو الحل، والمطالبة بتشديد العقوبات على هذه الفئة الضالة لتصل إلى الإعدام.. هذه هى قضيتها التى ستدافع عنها وسوف تكسبها من خلال عملها فى قسم التحقيقات، ولحسن حظها كانت القاهرة فى تلك الأثناء تشهد أعمال مؤتمر " التحرشى الجنسى والعنف الاجتماعى ضد النساء " الذى تشارك فيه ٢٢ دولة عربية بالتعاون مع المركز المصرى لحقوق المرأة العربية، وبرنامج الأمم المتحدة للسكان والأسرة لحماية حقوق النساء..

وبعد أيام معدودات عادت نهير السياجى لرئيس التحرير، وفى يدها التحقيق الجرئ المثير الذى كتبت فيه:

" المرأة العربية مهانة فى بلادها، جسدها مستباح، وكرامتها مهدرة، وأنوثتها سر عذابها.. الرجال اعتبروها مثل لوحة نيشان يفرغون فيها طلقات غرائزهم وكبتهم وضعفهم.. الذكور يعتبرونها لعبتهم المفضلة، ومن خلال التحرش بها يحاولون إثبات رجولتهم وفحولتهم المهدرة تحت أقدام حكامهم.. إختلف العرب فى كل شئ، واتفقوا على التحرش بنسائهم من المحيط إلى الخليج وبنفس الأساليب الوقحة".

وطالب المؤتمر بقانون موحد لتجريم التحرش، وتغليظ العقوبة لتصل للإعدام شنقًا على اعتبار أنه جريمة العصر فى بلاد العرب، والتى أعلنت أكثر من ٨٠٪ من نساء العرب من معاناتهن من هذه الظاهرة المخجلة!

ورغم انتشار التحرش فى معظم الدول العربية فإن بلادًا قليلة فقط هى التى تنبهت لخطورته، وسنت القوانين لحماية نسائها من الذئاب البشرية الجائعة بشراهة للحم أبيض,

وكان على رأس تلك الدول الجزائر التى أكد وفدها فى دراسة علمية قدمها للمؤتمر أن ٢٧٪ من بنات الجزائر فى الجامعات والمعاهد والمدارس تعرضن لمضايقات من الأساتذة والمدرسين وزملاء الدراسة، كما شكا ٤٤٫٦٪ منهن من المضايقات اللفظية والإشارات الإباحية الصريحة.. بينما أفصحت ١٣٫٨٪ عن تعرضهن للمضايقات الجسدية.

وفى قطر نجد أن ٢١٫١٪ من الفتيات قد أفصحن عن تعرضهن لذات الأزمة، وكذلك هناك ٣٠٪ من النساء العاملات قد تعرضن للتحرش فى مكان عملهن من جانب الزملاء والرؤساء..

وفى السعودية يتعرض ٢٢٪ من الأطفال للتحرش من الكبار.. وتلك جريمة أخلاقية بشعة يجب بترها من جسد المجتمع العربى، وأشارت الدراسات والإحصاءات الرسمية فى المملكة أنه فى عام واحد وقعت ٩٨٠٠ جريمة أخلاقية كان منها ١٥٠٠جريمة تحرش!.

أما فى اليمن فنجد أن ٩٠٪ من نساء هذا البلد الأفقر فى العالم العربى والذى يطلقون عليه اليمن السعيد قد اشتكين من تعرضهن للتحرش سواء فى أماكن العمل ودواوين الحكومة أو فى الأماكن العامة..

وفى دراسة مهمة وخطيرة أجراها المركز المصرى لحقوق النساء كشفت أن ٨٣٪ من النساء المصريات تعرضن بالفعل للتحرش بأنواعه المختلفة سواء التحرش الجسدى أو اللفظى أو بالإشارات والإيماءات والحركات والنظرات.

ومن خلال دراسة أجراها المركز المصرى لحقوق النساء تحت عنوان: " غيوم فى سماء مصر " أثبتت الدراسة أن ٥٩٫٤٪ من ضحايا التحرش شعرن بالغضب الشديد، كما أكدت أن ١٩٫٥٪ من النساء شعرن بالخوف والألم، وأنهن مهددات بالتحرش مجددًا فى أى وقت بينما ١٢٫٩٪ شعرن بالإحراج والخجل، بينما أشارت الدراسة أن ٩٫٢٪ شعرن بالإكتئاب، فى حين أن ٥٫٦٪ شعرن بالاضطراب والصداع والأرق والكوابيس المفزعة، كما نجد

أن ٣٪ عاتبن أنفسهن على تعرضهن للتحرش، لأنهن يتحملن جزءًا كبيرًا من المسئولية كما أكدت الدراسة أن ٤١٪ من الأجنبيات شعرن بأنهن تحت تهديد المتحرشين فى كل مكان يذهبن إليه فى مصر، وأشارت الدراسة إلى أن ٣٥٪ من الأجنبيات قد شعرن بالارتباك، وعدم القدرة على التصرف ومواجهة المتحرشين!

وكشفت نتائج دراسة " غيوم فى سماء مصر " أن ٤٣٫٧٪ من النساء أكدن أن تعرضهن للتحرش أثر بالفعل على حياتهن بشكل سلبى، وترى ٥٠٪ أن التحرش أثر بالسلب على ثقتهن فى الآخرين، كما أكدت ٤٢٪ من عينة الدراسة أن التحرش انعكس على طريقة التعامل مع الآخرين..

وحول مدى إحساس النساء بصفة عامة بالأمان فى الأماكن العامة، والخاصة كشفت الدراسة أن ٨٣٫٩٪ من النساء لا يشعرن بالأمان فى الشارع، ووسائل المواصلات العامة، بينما ٢٧٪ من العاملات إعترفن بأنهن لا يشعرن بالأمان على أنفسهن فى أماكن عملهن، ومازالت مصر كلها تتذكر الوزير الشهير الذى كان يتعاطى الفياجرا يومياُ كما يأكل ويتنفس، وبداخل مكتبه غرفة نوم كاملة مجهزة لممارسة الحب فيها مع موظفات وزارته، وقد ضاجعهن بالدور وعلى مدى خدمته فى الوزارة التى تصل إلى ربع قرن فى تلك الوزارة السيادية المهمة المطلة على النيل واقع هذا الوزير الذئب عشرة آلاف موظفة، ولم يفرق بين محجبة أو متبرجة.. مسلمة أو مسيحية، ولم يكن ينقصه سوى أن ينضم إلى موسوعة جينس للأرقام القياسية، وهو يستحق دخولها بجدارة!

وعندما تطايرت تقارير إلى الرئاسة تفيد إصابته بمرض الإيدز صدرت إليه الأوامر بالبقاء فى بيته تحت الحراسة المشددة.

ومن مصر إلى سلطنة عمان التى أكد وفدها النسائى المشارك فى المؤتمر بدراسة علمية أن التحرش منتشر فى معظم المجتمعات الخليجية بصورة رهيبة ومن بينها السلطنة، وقسمت الدراسة هذه

obeikandi.com

الظاهرة إلى نوعين:

الأول: تحرش داخل الأسرة، وينتشر عن طريق زنا المحارم، كذلك التحرش من الخدم والسائقين والعمال داخل المنزل.

الثانى: التحرش خارج الأسرة وهو ينتشر أكثر فى أماكن العمل والأسواق والمحلات التجارية والنوادى الترفيهية.

أما فى اليمن وبالرغم من عدم وجود إحصائية دقيقة بعدد المتعرضات للتحرش فإنه لا يمكن تجاهل أو إنكار انتشار هذه الظاهرة المخجلة فى مجتمعات كانت مشهورة فى غابر الأزمان بالشهامة والمروءة والشرف وحماية النساء.. وترصد بعض الباحثات هذه الظاهرة فى البلد الأفقر المكتظ بالسكان، والمنتشرة فيه الأمية بصورة تفوق الوصف أنها تحدث فى الأماكن العامة حيث يقوم الذكور فى وسائل النقل العامة، وفى الطرقات المزدحمة بالتعرى، وكشف العورة لخدش حياء الإناث، وملامسة أجسادهن بالأيدى، والتصريح لهن بالصوت بألفاظ خادشة للحياء، والدعوة لممارسة الحب معهن جهارًا نهارًا، وبصورة علنية فجة جارحة، وكذلك ملاحقة النساء والفتيات، وتتبعهن فى السيارات والشوارع والمحلات والنوادى ومحاولة النيل من أجسادهن، وهناك أيضًا تحرش رؤساء العمل وأصحابه بالموظفات والعاملات، واستغلال حاجتهن للمال وابتزازهن نفسيًا وجسديا!

ولا تتوقف هذه الظاهرة البشعة فى اليمن السعيد عند هذا الحد، بل تنتشر أيضًا فى الحرم الجامعى بين الطلاب والطالبات، وكذلك ممارسة أعضاء هيئة التدريس فى بعض الكليات ضغوطًا ضد الطالبات لإجبارهن على الرضوخ لهم، والانتقال من القاعات والمدرجات إلى غرف النوم، وتقديم أجسادهن رشوة كشرط لحصولهن على درجات كافية للنجاح فى المواد والمناهج الدراسية.

بينما فى المغرب، وحسب ما جاء فى تقرير الوفد المغربى المشارك فى

مؤتمـر مناهضة التحرش بالقاهـرة.. أن المغرب أصبح من البلدان المتورطة بالإتجار فى النسـاء لحساب متعة السائحين الأجانب، وقد تنبهت السلطات المغربية للدعارة واستغلال الأجانب للأجساد الوطنية، وأدركت السلطات أن هـذا عـار علـى البـلاد يجب مكافحته بشـتى الوسـائل ورفعوا شـعار (فلتسقط ظاهرة السياحة الجسدية) وبالفعل فككت الحكومة المغربية ٢٨٠٠ شـبكة دعارة أجنبية تسـتهدف الفتيات والنساء المغربيات، وبصفة خاصة القادمات من الساحل الصحراوى "

كان هـذا هـو الجـزء الأول والأساسـى مـن تحقيـق نهير السـياجى عن التحـرش، أمـا الجزء الثانـى، والمهـم أيضًا فـكان عبارة عـن اعترافات مجموعـة مـن الفتيـات والسـيدات تعرضـن بالفعـل لحـالات متنوعـة مـن التحـرش، وسـجلت اعترافاتهـن بكل صراحـة ووقاحة حيـث كتبت فى تحقيقها الصحفى:

" خرجـت إيمـان طالبة كليـة الآثار فـى جامعة القاهرة مـن محاضراتها بمـدرج الكلية لتفاجـأ بما لم تتوقعه ولا يخطر لها على بال أبدًا.. إذا بزميل لها يعرى نصفه الأسـفل مع سـبق الإجـرام والتربص، وبـدا عضوه منتفضًا منتصبًـا كمسـمار صلـب طويـل مسـتقيم، وهـو يضحـك أمامهـا بجنون وهسـتيرية، فأصابها الذهول، ولم تنطق أو تحرك سـاكنا، وبعد لحظات مـن الصدمة المروعة أخفت وجهها بيديهـا، وجرت فى الاتجاه الآخر حيث أطلقت سـاقيها للريح.. وروت حكايتها تلك على اسـتحياء رغم مرور بعض الوقت على ما حدث لها قائلة:

"تعرضـت لمعاكسـات ومضايقات كثيرة لكننى لـم أتوقع أن يحدث ذلك، وفى حرم الجامعة.. فقد شعرت بالامتعاض المر والذهول المذل!"

أما منى فتروى حكايتها المثيرة للاشمئزاز والشفقة قائلة:

" كنت أسير فى أحد الشوارع المزدحمة بوسط البلد وفجأة اقترب منى شـاب أصغر منى بكثير، وهو تقريبًا فى الخامسـة عشرة من عمره، وأخذ

يتلفظ بكلمات إباحية بذيئة، وعندما لم أجبه ولم أعره إهتمامًا هجم على فى لحظة خاطفة ثم احتضنى وقبلنى بعنفوان وحرارة ثم جرى فى الاتجاه المعاكس بسرعة رهيبة وهو يصيح كالمجذوب.. قبلتها.. قبلتها.. قبلتها!"

وتعترف سماح وهى طالبة جامعية بإحدى كليات جامعة عين شمس بما حدث لها قائلة:

" كنت أسير فى شارع جامعة الدول العربية قبل غروب الشمس بقليل وإذا بولد يركب دراجة يضربنى بكف يده من الخلف على مؤخرتى بمنتهى الوقاحة والبجاحة، وقلة الأدب، ويفر من الشارع مسرعًا عائدًا فى الاتجاه الآخر وشعرت وقتها بلسعة الألم على مؤخرتى، وأحسست أيضًا بالإهانة والاشمئزاز خاصة وأن بعض المارة شاهدوا ما حدث لى.. والحقيقة أن بعضهم تعاطف معى، والبعض الآخر ضحك من الموقف الغريب الذى تعرضت له أو بالأحرى الذى تعرضت له مؤخرتى على مرأى من الناس فى الشارع! "

وتقول صفاء بغيظ ونقمة على جنس الرجال:

" كنت قد صعدت الميكروباص ذات يوم صيفى حار، وفى المكان الخالى جئت أجلس فإذا بالرجل الجالس بجوارى يضع يده تحتى لأجلس فوق أصابعه، وبمجرد أن لمست مقعدتى يده انتفضت واقفة وصرخت فى وجهه! "

أما غادة وهى موظفة بوزارة الزراعة فتتذكر تجربتها المريرة قائلة:

" فى أحد الأيام من خريف العام الماضى ركبت الأتوبيس المكيف من مقر سكنى حتى مقر عملى، وبعد فترة قصيرة من تحرك الأتوبيس وجدت يدًا تمتد من الكرسى الخلفى لتتحسس منطقة حساسة من جسدى، فتحركت بسرعة من مكانى، وتلفت خلفى مصوبة نظراتى القاسية لصاحب اليد الآثمة فوجدته رجلاً فى السبعين من عمره أشيب الرأس، لم تردعه شيخوخته ولا نهار رمضان فى ذلك اليوم المبارك من

الشهر الكريم، وأنا من المحتشمات فى ملابسى ومظهرى! "

فرغ عمر الشهابى رئيس التحرير من قراءة التحقيق المدهش، وبدا مسرورًا مبهورًا لما يحتويه من تفاصيل مثيرة موثقة بالمعلومات والأرقام والإحصائيات وأشر عليه بقلمه الحبر الأسود بكلمات موجزة حاسمة:

ينشر فورًا على صفحة كاملة.

وأثنى الرجل على نهير السياجى بحرارة قائلا:

ـ التحقيقات هى الأنسب لك يا نهير.. وعلى فكرة سوف أصرف لك مكافأة كبيرة عن هذا الموضوع.. فرب ضارة نافعة.. أنتِ الآن المحررة المناسبة فى القسم المناسب.

شكرته بابتسامة باهتة وانصرفت راضية.

***

obeikandl.com

(٢١)

" عش فى الدنيا.. ولا تجعل الدنيا تعيش فيك! "

كان آخر ما كتب عطا الهلالى فى الصحافة قبل اختفائه الغريب المريب ـ والذى لم يستطع الكثيرون أن يفسروه سوى بأنه حادث اختطاف مع سبق الإصرار والترصد!ـ هذا المقال وكتبه تحت عنوان:مصر المفروسة! كتب يقول:

" الفقير والمريض فى بلدنا أفضل له ألف مرة أن يموت، ويلقى بنفسه فى أقرب مقبرة أو حتى خرابة ".. مقولة سمعتها كثيرًا وتؤكد صحتها المبالغ الضخمة التى تتقاضاها وتطالب بها المستشفيات الخاصة فى مصر المحروسة من أجل العلاج أو اجراء عملية جراحية، وتؤكدها أيضًا مستشفى مثل المستشفى الميرى الحكومية فى القاهرة، والتى لا يكاد يمر يوم إلا ويدفعك حظك العثر أن تمر أمام بوابتها، وتسمع الصرخات والولولات من أهالى المرضى الذين يدخلونها أحياء ويخرجون منها فى صناديق وعلى نقالات.. طبعًا أموات.. أموات طبعًا.. فكلما مررت من أمام بوابة هذه المستشفى انقبض قلبى من هول ما أسمع ومن بشاعة ما أرى، ولمن لا يعرف المستشفى الميرى هى تلك التى تقع داخل مجمع الكليات الطبية وهى الطب والصيدلية وطب الأسنان والعلاج الطبيعى التابعة لجامعة القاهرة.. تلك مستشفيات الناس الغلابة التى تعج بهم مصرنا المحروسة، ويتدرب فى هذه المستشفى طلاب الامتياز بكلية الطب.. والآن عندى ثلاث حكايات واقعية حدثت داخل هذه المستشفى الحكومى..

الحكاية الأولى:

قالت لى صديقة عزيزة أنها كانت طبيبة امتياز منذ ما يقرب من عامين رأت بعينيها ولو سمعت من أحد ما صدقت.. رأت كيف كانت الممرضات

يقمـن بعملية التوليد للنسـاء الحوامـل، وفى البداية كانت هـى وزميلاتها وزملاؤهـا من طلبـة الامتياز يقفون مذعورين فى ركـن هادئ داخل حجرة قذرة سـداح مداح تمر بها كل المخلوقات من البشـر وحتى القطط التائهة والـكلاب الضالة، وفيها أكثر من عشـرة أسـرة على كل سـرير سـيدة تسـتغيث مـن الألم حيث تقـوم الممرضـة بعملية توليدهـا بطريقـة بدائية همجية، وكأننا نعيش فى العصر الحجرى ولم نفارق زمن الكهوف بعد، وكانت هناك سيدة تصرخ من أوجاع الطلق.. بينما الممرضة تمطرها بوابل مـن الصفعـات على وجهها واللكمـات فى جسـدها الواهن حتـى تصمت وتكف عن الصراخ، وكأنها فى حلبة مصارعة حريمى.. هل يمكن لعاقل أن يسـمى هـذه عملية ولادة؟! إنها عمليـة إهانة ليـس إلا.. وتخيلوا معى أيها السـادة أن طفلاً يولد فى هذه الظروف وأمه تتألم وتتأوه من جحيم الولادة، وتتلقـى الصفعـات والـركلات واللكمات فى أنحاء متفرقة من جسـدها.. كيف يكون حال الأم مع طفلها بعد ذلك؟!

الحكاية الثانية:

سـمعتها من رجل بسـيط علـى باب الله، فقـد قال لى الرجـل أن صديقًا لـه من الناس ذهب بوالده إلى المستشـفى الميـرى الملعون، وعندما وضعه على السرير أشار له أحد المرضى هامسًا.. فلما ذهب إليه قال له المريض: لا تتركـه هنا سـوف يعطونـه حقنه هواء فى كعب قدمـه لكى يموت فى الحـال، ويتخلصـون منه لأن المكان كما ترى مزدحمًا للغاية فقرر الرجل أن يظل بجوار والده فى المستشفى ليل نهار ليس هذا فحسب، بل طلب من أحـد أصدقائه، وهو ضخم الجثة قـوى البنيان أن يرافقه ليحميه هو ووالده من القتلة ملائكة الرحمة!

يـا سـبحان اللـه لم أكـن أعـرف أن حقنة من الهـواء الذى نتنفسـه، ولا نستطيع الحياة بدونه إذا دخلت جسد الإنسان تقتله على الفور!

الحكاية الثالثة:

هى حكاية قديمة جديدة، وأعتقد أنكم جميعًا تعرفونها، وهى حكاية الممرضة عايدة التى اتهمت بأنها كانت تحقن المرضى بمادة سامة قاتلة فى غرفة الإنعاش، وربما كانت هى أيضًا ضحية، وتنفذ تعليمات الكبار لأسباب مجهولة.. ولكن الغريب فى الأمر أن الممرضة عايدة أثناء استجوابها، والتحقيق معها قالوا إنها قفزت من أحد أدوار قسم الشرطة، وأصيبت بكسور لكن الحقيقة هى أن عايدة لم تقفز بمزاجها ولا بإرادتها واختيارها فقد كان من وسائل استجوابها البشعة إلقائها من أعلى قسم الشرطة حتى تعترف على نفسها فقط، ولا تجرؤ على ذكر أسماء أسيادها الآخرين الذين خططوا بطريقة شيطانية لتلك الجرائم الجهنمية!

الطريف أن هذا المقال نشر بعد عدة أيام من اختفاء عطا الهلالى، وبمجرد أن قرأه ناجى شرف الدين مزق الجريدة بجنون وهيستيرية قائلاً:

ـ حرام عليك.. والله حرام عليك! هل هذا مقالاً تكتبه؟! هل تظن نفسك قادرًا على إصلاح الكون والعباد والبلاد؟!

كل الدنيا تعرف ما يدور فى هذا البلد.. وكل من يخاف على نفسه، وعلى أولاده وأهله يلوذ بالصمت، ولا يتكلم إلا الأغبياء.. فلماذا تكون أنت بالذات بين الأغبياء مع أننى أعرفك جيدًا وأشهد لك أنك فى منتهى الذكاء.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. من المؤكد أنهم لن يتركوك فى حالك.. لابد أن أعداءك الآن أكثر من قرائك.. يارب سترك.. يارب أعده إلينا سالمًا آمنًا.. يارب احفظه من كيدهم ونجه من تدبيرهم.. ثم بكى بحرقة وبصوت مسموع.

***

(٢٢)

" الحياة كوميديا هزلية لمن يفكر.. وتراجيديا محزنة لمن يحس!"

لا يدرى لماذا تذكر هذا القول الحكيم للكاتب الرومانى القديم أوفيديوس؟! صحيح أن لكل مجرم بصمة لكن بصمات المجرم لا تقتصر على الآثار التى تتركها أصابعه فى مكان الجريمة ، وإنما تشمل أيضًا الأسلوب الذى ارتكبت به الجريمة وطريقة التنفيذ ، وسلاح الجريمة وما يحيط بها من تأويلات.. فلا يوجد جريمة تظل غامضة للأبد.. هذا هو العالم المثير المشوق الذى أبدعت فى تجسيده الكاتبة البوليسية العبقرية أجاثا كريستى ، ونجحت باقتدار فى رسم ملامح دنيا الإجرام والمجرمين!

لقد اختفى الكاتب الصحفى عطا الهلالى بالقرب من منزله قبل أسبوعين بشكل مفاجئ ومثير للحيرة ، ولم يترك خلفه أى أثر يمكن تعقبه لحل لغز الاختفاء المريب لكاتب صحفى مرموق يشغل منصب مدير تحرير جريدة " مصر اليوم " واهتمت الحكومة المصرية بكشف لغز الاختفاء لدرجة أن وزير الداخلية ترأس بنفسه مجموعة من أكفأ ضباط الوزارة للبحث عن الصحفى المختفى.. هذا اللغز إن لم تجد له الشرطة تفسيرًا سيتحول إلى كابوس يطارد كل الكتاب والصحفيين المصريين الذين قد يتعرضون للمصير نفسه ، من هنا لم تترك الشرطة احتمالاً إلا ودرسته ، وحققت فيه ومحصت ، وشمل هذا دراسة تفصيلية لحياة عطا الهلالى الخاصة ، وعلاقاته السوية وغير السوية ، السرية والعلنية على كل المستويات ، حتى أن الشرطة بحثت عن إمكانية وجود علاقة سرية بينه وبين سيدة تدعى سامية نجاتى قد تكون هذه العلاقة هى سبب اختفائه المريب..الأمر الذى لا جدال فيه هو أن الشرطة تؤمن بأن الشك يؤدى إلى اليقين.. ولها باع طويل فى كشف الجرائم الغامضة ، وفك ألغازها وحل

طلاسمها، ومن المؤكد سيتم إزاحة الستار إن آجلا أم عاجلاً عن حقيقة غياب عطا الهلالى.

الكثيرون فى الوسط الصحفى، وخاصة رفاق القلم فى بلاط صاحبة الجلالة يخشون أن تنتهى التحقيقات إلى طريق مسدود، وأن يكون مصير عطا الهلالى مثل مصير "منصور الكيخيا" وزير الخارجية الليبى الأسبق الذى اختطف من أحد فنادق القاهرة، وتلاشت آثاره بصورة تدعو للحيرة، أو مثل مصير "موسى الصدر" الذى طار فى زيارة رسمية إلى ليبيا بدعوة من الزعيم الليبى معمر القذافى، ولم يخرج منها ولم يعرف أحد كيف كانت نهايته.. وأين اختفى؟! هل اغتالوه أم ساقوه إلى السجن المؤبد؟! هل غدروا به ثم ألقى به فى البحر.. أم دفنوه حيًا فى الصحراء؟! العلم عند عالم الأسرار والمطلع على السرائر..العلم عند رب العالمين..

الاحتمالات الشخصية واردة، وحاضرة بقوة فى هذه القضية بما فى ذلك احتمال أن يكون الأستاذ قد لقى مصرعه فى جريمة ساذجة من جرائم القتل التى تقع كل يوم.. لكن أين الجثة؟! هذا هو السؤال الصعب.. وإن كانت الاحتمالات الأخرى ذات البعد السياسى مازالت قائمة، وإلا ما معنى أن تطلب الحكومة المصرية رسميًا من "الانتربول" الدولى مساعدتها فى فك لغز اختفاء الكاتب الصحفى عطا الهلالى؟!

إن خبراء البحث الجنائى لا يكتفون فى عملهم بالأدلة المادية لكشف الجرائم، وحل الألغاز، وإنما يلجأون أيضًا إلى الأدلة المعنوية بما فى ذلك دراسة بصمات المجرم التى تركها فى مسرح الجريمة، وأعنى بها طريقة تنفيذه لجريمته، والتوقيت والهدف المحتمل من اختيار هذا الأسلوب ثم البحث عن الدوافع لاختيار الضحية من بين ملايين البشر، وها هم خبراء البحث الجنائى فى مصر يحاولون فى ظل غيبة الأدلة المادية، والشواهد الدامغة فك لغز وغموض الغياب السريالى غير المفهوم لكاتب صحفى كبير يشغل منصبًا مهمًا وحساسًا فى جريدته.

بـدأت الجهات الأمنيـة تراجع كل المقـالات، والموضوعـات الصحفية التى نشـرها عطا الهلالى سـواء داخـل مصر أو خارجها قبـل اختفائه بعدة أسـابيع لعلهـا تصل إلى طرف خيـط يقودها إلى جماعة أو جهـة أو دولة قد يكـون لها مصلحة فـى اختطافه أو قتله، وهذا احتمال وارد خاصة فى ظل مجتمعاتنـا العربية التى لا تحتمل الرأى والرأى الآخر، ولا تطيق الخلاف أو الاختـلاف فى وجهات النظر، وترتفع النسـبة إلـى أقصاها فى بعض الدول التـى تحكـم رعاياهـا بالحديد والنار.. مثـل تونس والمغـرب واليمن وليبيا والأردن وسـوريا.. لكنهـا تقـل وقد تتلاشـى فـى دول تتمتع بخـط أوفر من حريـة التعبيـر مثل مصر التـى تكاد تكون الدولة الوحيـدة بعد لبنان التى تنتشـر فيها مقالات صحفية ضد رئيس الجمهورية شـخصيًا دون أن يعاقب كاتـب المقـال أو تجازى الصحيفـة بالإغلاق أو يتعرض الصحفى للسـجن خلافًا لما هو موجود فى البلدان العربية الأخرى حيث يسـود قانون يسـمى " التطـاول على الذات الملكية " وهو القانـون الذى تم بموجبه الزج بألمع، وأشـهر شـخصيه سياسية فى الأردن إلى السـجن مرتين إنه "ليث شبيلات" لا لشـئ إلا لأنه تطاول على اسـم الملكة نور والملك عبد الله فى محاضرة ألقاها بإحدى الجامعات الأوروبية!

التاريـخ يثبـت أنه حتى فى زمن الملك فؤاد والملك فاروق، وبل وزمن عبد الناصر لم نسـمع أن صحفيًا مصريًا اختفى، أو تلاشى هـكذا بدون سبب.. صحيح إن هناك اعتقالات وقعت فى صفوف الصحفيين والكتاب، لكنها كانـت اعتقالات مبـررة بالنسـبة للنظام حيـث وجهت للمعتقليـن اتهامات بالانتمـاء لأحزاب أو منظمات سياسـية، وتنظيمات محظـورة بعضها كان يسـعى لقلب نظـام الحكم.. لكـن لم يحدث أبـدًا أن اختطـف صحفيًا أو اختفـت آثاره حتـى فى أحلك الأوقـات، وأكثرها حرجًا فـى تاريخ مصر، فكيف يمكن أن يحدث ذلك فى وقتنا الحالى؟!

هـذا يقودنـا إلـى العامـل الخارجـى الـذى حـاول إدخـال هذا الأسـلوب

فى التعاطى مع الخصوم إلى حياة المصريين سواء كانوا صحفيين أو سياسيين.. إن ما حدث للكاتب الصحفى عطا الهلالى يقودنا إلى ما حدث فى رواية بوليسية شهيرة لأجاثا كريستى اسمها " الرسالة الغامضة " تحمل ملامح متشابهة مع عملية اختفاء عطا الهلالى.

وذات الأمر يقودنا أيضًا إلى مثل مصرى شائع يقول:

" اضرب الطويل.. يخاف القصير! "

وعطا الهلالى هو الطويل فى الصحافة المصرية فهو صحفى كبير تملأ كتبه المكتبات، ومقالاته الصحفية تحرك الصخر، وتثير الجدل فى الأوساط السياسية، والإعلامية، وهو نجم مفوه فى القنوات الفضائية لا يخاف فى الحق لومة لائم!

مرت الشهور وأجهزة الأمن تنقب وتفتش، وتبحث وتمحص دون أن تصل إلى شئ.. ولم تعلن أن المخابرات الأجنبية أو العربية هى التى اختطفته، ولم تثبت أنه راح ضحية خصومة شخصية أو نزوة نسائية.. ظل الأمر غامضًا مجهولاً مريبًا، ولا يتعدى مجرد ملف مهم على مكتب وزير الداخلية، ومجموعة صور ومعلومات لا تقدم ولا تؤخر على الإطلاق، وتحول صاحب اللغز إلى رقم فى أرشيف وزارة الداخلية وأجهزتها الأمنية، يحمل الملف العديد من المعلومات من بينها أنه تخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ثم سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك، وخلال دراسته هناك تغيرت قناعته الفكرية من التأثر بالفكر الماركسى لتقترب من الليبرالية ذات التوجه العلمانى، لكن توجهاته الليبرالية لم تمنعه من توجيه سهام النقد لليمين الأمريكى المسيحى، والمحافظين الجدد.. وبرغم انتقاد عطا الهلالى للعلاقة الوثيقة بين واشنطن، وتل أبيب إلا أنه كان من المؤيدين للسلام بين العرب وإسرائيل، وهو الموقف الذى أثار حفيظة معارضى التطبيع ضده، وخاصة من التيارين القومى العروبى والإسلامى، وبعد مرور خمس سنوات على إسدال الستار عن اختفائه وإغلاق أجهزة

الأمن ملفه نهائيًا ، فجر شقيقه مفاجأة مدوية نشرتها كل الصحف آنذاك حيث أعلن أنه تلقى معلومات من أحد ضباط سجن برج العرب بالقرب من مدينة الإسكندرية تفيد بأن عطا الهلالى محتجز بالسجن!

أما المفاجأة الأكبر فهى أن وزارة الداخلية نفت هذا الأمر جملة وتفصيلاً.. وأكد مدير الإعلام بالوزارة أن هذه المعلومات عارية تمامًا عن الصحة!

مرت سنوات على غيابه ، ومازال ناجى شرف الدين ينتظر عودة أستاذه ، ويتوق لرؤيته والسهر معه ، والاستمتاع بحلو حديثه ، والنيل من فيض ثقافته الموسوعية!

***

obeikandl.com

(٢٣)

" حتى الوحوش الضارية فى البرارى تتألم لفراق صغارها! "

فى الوقت الذى كان ينتظر فيه الجميع مفاجأة تفك طلاسم اختفاء الكاتب الصحفى عطا الهلالى، فوجئ أفراد أسرته بوصول خطاب من مجهول يؤكد أن الهلالى لا يزال على قيد الحياة، وأنه بخير وأقسم كاتب الخطاب أنه شاهده فى منطقة " أرض اللواء " قرب حى المهندسين بالقاهرة..

وسلمت الأسرة المكلومة الخطاب إلى أجهزة الأمن التى قامت بفحصه، ومحصه وتتبع مساره للوصول إلى الشخص الذى قام بإرسال الخطاب، وحقيقة ما جاء فى هذا المكتوب من معلومات، وقال مصطفى الهلالى الشقيق الأصغر لعطا والذى يعمل مدرسًا للمواد الاجتماعية بإدارة ميت غمر التعليمية:

الأمل فى عودة عطا إلى أهله ومحبيه وعمله وزملائه لا يزال كبيرًا، وجميع التكهنات مفتوحة، وقائمة.. لكننا كأسرة لنا عتاب على بعض زملائه من الصحفيين الذين راحوا يخوضوا فى سيرته عن جهل، وينهشون لحمه وسمعته دون إلمام بحياته الشخصية وظروفه الإنسانية، وتحدثوا عنه بما يحمل إساءة كبيرة إليه رابطين بشكل عجيب، ومريب غيابه بحياته الخاصة وزواجه الفاشل من نجمة سينمائية شهيرة، وخيانتها له مفضلة عليه ممثل شاب، وأشاعوا أنه شهريار الصحافة وله علاقات غرامية سرية متعددة، وأضاف شقيقه قائلاً:

ما أغضبنا أكثر هو الربط بين اختفاء عطا الهلالى، وبعض قصص الاختفاء الأخرى التى كان أبطالها شخصيات كانت مواقفها تثير عداءات لجهات ودول ومؤسسات مختلفة، وهو ما لا ينطبق أبدًا على شقيقى عطا الذى كان حريصًا على الدعوة للحرية والديمقراطية، وحقوق الإنسان

ومحاربة الفساد بشتى صوره، وأشكاله دون تعمد الإساءة لأحد، ولم يكن يستخدم أى سلاح فى كل معاركه سوى قلمه الشريف وحبره الطاهر النقى.

وأكد مصطفى الهلالى بما لا يقبل مجالاً للشك عدم صحة ما قاله بعض زملاء شقيقه من الصحفيين، والإعلاميين من أن حالته المزاجية كانت على غير ما يرام قبل اختفائه بأيام، وأشار إلى أنه زار شقيقه، وقضى معه يومًا كاملاً قبل يومين فقط من غيابه، ووجد حالته النفسية والمعنوية طيبة، ولم يكن هناك ما يعكر صفوه!عطا الهلالى لم يختف فى صحراء مترامية الأطراف.. عطا الهلالى اختفى فى قلب القاهرة أكثر مدن العالم ازدحامًا، وآخر مكان شوهد فيه هو شارع القصر العينى، فى وسط الزحام وفى عز النهار.. إن مرور كل هذه الشهور دون العثور عليه تعد مؤشرًا خطيرًا.. والسؤال الذى يتردد الآن بين الجميع، وبصفه خاصة فى الأوساط الصحفية والثقافية، وكل التجمعات الإنسانية ومنظمات وجمعيات حقوق الإنسان هو.. أين اختفى عطا الهلالى؟! وهل مازال على قيد الحياة أم أن الأرض فتحت فمها وابتلعته فى بطنها؟! إن اختفاء إنسان فى مصر ظاهرة غريبة وجديدة لأن أم الدنيا ليست قرغيزستان.. إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق فى وسط آسيا، وقد عانى سكانها كثيرًا من الحكم الشمولى القمعى، وتنفسوا الصعداء بعد انهيار الشيوعية، وانفصال بلدهم كدولة مستقلة تسعى للحرية والديمقراطية، وكانت المفاجأة أن الأنظمة التى تولت السلطة فى قرغيزستان عقب الاستقلال لم تكن تختلف كثيرًا فى سياساتها المعادية للحرية، وميلها لقمع المعارضين، والتنكيل بمخالفيها فى الرأى بوحشية ربما تتجاوز حتى ما كانت تفعله المخابرات السوڤيتية السابقة "KGB".. وتتحدث وسائل الإعلام العالمية هذه الأيام عن جريمة بشعة ارتكبتها أجهزة الأمن فى قرغيزستان، وراح ضحيتها الصحفى البارز " جينادى بافليوف " الذى توجه زوار الفجر إلى غرفته بأحد فنادق الماتا العاصمة التجارية لدولة كازاخستان المجاورة حيث كان فى رحلة عمل، ورافقوه إلى الخارج، وبعد ساعتين تم إلقاؤه

من الطابق السادس بأحد المبانى المرتفعة، وعثر على جثته مقيدة اليدين والقدمين.. كان جينادى بافليوف يبلغ من العمر ٤٠ عامًا، وهو أب لطفلين ويعمل رئيس تحرير الطبعة المحلية التى تصدر فى قرغيزستان لصحيفة " براقدا " الروسية، وقد عرف بتأييده لرئيس البرلمان السابق عمر تيكاتيف الذى يقود المعارضة فى بلاده، وكان بافليوف من أشرس المناهضين للفساد والفسدة، ومن أقوى المطالبين بالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ورغم أن حكومة قرغيزستان نفت تمامًا مسئوليتها عن اغتيال الصحفى الشهير إلا أن المعارضين لنظام الرئيس كرمان بكاييف يؤكدون أن هذه الجريمة تأتى فى اطار حملة قمع، وتصفية جسدية شملت الكثير من رموز المعارضة فى البلاد، وخلال الأسابيع الأخيرة تعرض أستاذ جامعى، وصحفى كبير وأحد المسئولين السابقين الذين انضموا إلى المعارضة لإعتداءات بالضرب الوحشى من مجهولين قساه غلاظ يرجح أنهم من أفراد الأمن، وقيدت جرائم الاعتداء هذه ضد مجهول تمامًا مثل اغتيال الصحفى اللامع جينادى أفليوف! وتتهم المعارضة فى قرغيزستان نظام كرمان بكاييف الذى تدعمه الولايات المتحدة الأمريكية بتوجيه ضربات متلاحقة للديمقراطية، وقمع الحريات منذ توليه السلطة قبل عدة سنوات، وهو ما عرضه لإنتقادات مريرة من جانب المنظمات المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان خاصة فى أعقاب اغتيال الصحفى الشهير اليشر سايبوف بإطلاق الرصاص عليه أثناء انتظاره لسيارته أمام مقر جريدته فى وسط النهار، وفى ميدان مزدحم بالمارة والسيارات.. وقد وجهت الولايات المتحدة الأمريكية أصابع الاتهام فى ذلك الوقت إلى حكومة قرغيزستان، ووصمتها بتهمة انتهاك حقوق الإنسان، فما كان من الرئيس كرمان بكاييف إلا أن هدد باغلاق القاعدة العسكرية الأمريكية فى بلاده..

لكن ظل السؤال يتردد صداه المدوى، وألف علامة استفهام واستفهام.. أين اختفى عطا الهلالى؟! هل مات غدرًا واغتيالاً؟! وإذا كان هذا مصيره.. فأين الجثة؟!

(٢٤)

" قـد يبـدو للناس أنهم مسـحوبون من الأمـام، والواقع أنهم مدفوعون من الخلف! "

فى هذا اليوم بالذات أدرك ناجى شـرف الدين بما لا يقبل الشـك أن الألم شرط أساسى من شروط العبقرية ، بمجرد أن وصل صالة التحرير بمؤسسة " الأيـام " شـعر بأن هناك جلبة غير عادية ثم دق جـرس الهاتف فى الصالة ، فإذا بمدير مكتب رئيس التحرير يسـأل عنه ليبلغه بأن الأسـتاذ عبد العليم طايع رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير يطلب منه أن يعد موضوعًا صحفيًا للنشر غدًا فى صفحة الأدب والثقافة عن الكاتب والروائى الإنجليزى الشهير " إيريك سيجال " الذى رحل عن عالمنا اليوم.. وعلى الفور هرول ناجى شرف الدين إلى الأرشيف ، وكانت تديره إمرأة خمسينية العمر هادئة طيبة تدعى " هنيـة " وتعاملـه بود وترحاب غيـر عادى وحنان كأم رؤوم ، سـاعدته قدر اسـتطاعتها وجاءته بملـف فيه بعض قصاصات الصحـف ، والمجلات التى تتحـدث عن الكاتب والأديب العملاق باقتضاب.. خرج من الأرشـيف ، وقد كتب سـطورًا قليلة عن " سـيجال " لكنها لا تكفى على الإطلاق لكتابة موضوع صحفى يرضى تطلع رئيس التحرير, وجاءته فكـرة عبقرية.. فكـرة يضرب من خلالها ثلاثة عصافير شـاردة بحجـر واحد.. وعلى الفور نفذها.. قام بزيارة سـريعة لأستاذه جلال الغيطانى وزوجته شادية فى منزلهما ، وفى غرفة الغيطانى المسـجى بسلام على فراشه بلا حراك سوى رموش عينيه ، بلا كلام ولا سلام.. تبسم بود صامت فى وجه ناجى الذى همس له قائلاً :

يا أسـتاذى أريد عونك ومسـاعدتك.. طلبوا منى فى المؤسسـة أن أكتب موضوعًا على وجه السـرعة عن " إريك سـيجال " الذى وافته المنيه اليوم إثر أزمة قلبيه بعد صراع طويل مع المرض.. انفرجت أسـارير الأسـتاذ ، ولمعت عيناه ، واسـتعاد من ذاكرته كل تاريخ هذا الأديب العالمى ، وأشـار جلال

obeikandl.com

الغيطانى لناجى بأن يعطيه الورقة والقلم، وعلى الفور بدأ الرجل المسجى فى فراشه بين الحياة والموت.. وبيد مرتجفة مرتعشة، وبحروف متنافرة متباعدة مهتزة، وبسطور مائلة متراقصة كتب:

" إيرك سيجال هو الروائى، وكاتب السيناريو الشهير، ومؤلف الرواية الخالدة "قصة حب" التى حققت أعلى نسبة مبيعات فى العالم قبل تحويلها لفيلم سينمائى بطولة رايان أونيل.. الفيلم حقق نجاحًا مذهلاً، وحصل على الأوسكار، وشاهده الملايين فى أرجاء المعمورة، وخرجوا من دور العرض وقد بللت الدموع وجوههم حزنًا على موت البطلة، واعجابًا بقصة الحب التى ربطت بين قلبى البطل والبطلة.. ولد سيجال لأب حاخام يهودى فى ١٦يونيه عام ١٩٣٧ فى مدينة نيويورك، درس الأدب والشعر فى جامعة هارفارد، ونال الدكتوراه عام ١٩٦٥ فى الأدب المقارن.. عمل سيجال أستاذًا للأدب الكلاسيكى فى جامعتى بيل وهارفارد وعمل كأستاذ زائر فى جامعات ميونيخ وبرينستون، وله مقالات عديدة فى الأدب اليونانى القديم، والأدب اللاتينى.

وفى عام ١٩٦٨ شارك سيجال فى كتابة سيناريو فيلم " الغواصة الصفراء " لفريق البيتلز، وفى عام ١٩٧٠ كتب سيجال واحدة من أروع قصص الحب فى العالم ورشح الفيلم المستوحى من الرواية لسبع جوائز أوسكار من ضمنها جائزة أفضل سيناريو... لكنه فاز بجائزة أفضل موسيقى تصويرية والتى ألفها الموسيقار الفرنسى المتألق فرانسيس ليا.

جسد سيجال من خلال تلك الرواية قصة شاب، وفتاة يتصفان بالبساطة وحب الحياة، والبعد عن العقد النفسية، ويملأ قلبيهما أحاسيس الغرام الجياشة.. هاتان الشخصيتان هما أوليفر طالب الحقوق الوسيم الثرى، وجنيفر الفتاة الرقيقة الجميلة الفقيرة، وسرعان ما تتوطد علاقتهما وتتوحد مشاعرهما، ويقرر أوليفر الزواج من حبيبته بغض النظر عن الفارق الإجتماعى، فيذهب بجنيفر إلى قصر أبيه ظنًا منه أن والده سيبارك هذه

الزيجة، لكن يخيب أمله، ويرفض والده الارتباط بعائلة متواضعة، وتدور مشاحنات ومناقشات حامية الوطيس بين الأب والابن، ويصر أوليڤر على المضى فى طريق الحب منصتًا إلى صوت القلب ساعيًا للزواج من جنيڤر، وفى المقابل يبدو الأب صلبًا عنيفًا لا يلين، ولا يتزعزع عن موقفه بل يهدده بحرمانه من ثروته!

استطاع سيجال أن يجسد لنا من خلال رائعته الأدبية " قصة حب " مشاعر إنسانية راقية من الحب والرومانسية بين العاشقين، ولكن ذلك الحب الفياض جاء ما يعكر صفوه حيث فوجئ أوليڤر ذات يوم بأن شريكة عمره، وحبيبته التى ضحى بكل شئ من أجلها مصابة بالسرطان اللعين، فيقرر الذهاب ليستنجد بوالده الذى أعطاه شيكًا بالمبلغ الذى طلبه دون أن يوضح له أن زوجته مريضة بالداء القاتل، وتهرول الأيام وتموت جنيڤر بين أحضان حبيبها الذى تملكه الحزن وكسره الأسى، فيذهب إليه والده معربًا عن ندمه وأسفه وأساه، ويواصل أوليڤر حياته ويصبح محاميًا ناجحًا لكنه لم يعثر على الحب الذى افتقده مع فقد محبوبته، ويظل محطم القلب دامع العين وفيًا لحبه الضائع!

وفى عام ١٩٧٧ كتب سيجال الجزء الثانى من روايته " قصة حب " بعنوان دال ومؤثر " قصة أوليڤر " تابع فيها مسيرة بطله بعد رحيل حبيبته ومعاناته من جراح الوحدة، ووحشة الفراق.. وفى خلال عام واحد سارعت هوليوود إلى تحويل الرواية لفيلم سينمائى..لكنه للأسف الشديد لم يلق النجاح المأمول الذى حصده الجزء الأول.. وفى عام ١٩٨٥ كان على موعد مع الحظ من جديد حيث حققت روايته " الفصل " إيرادات عالية وغير متوقعة، وأحداث هذه الرواية مستقاة من حكايات وقعت بالفعل فى أحد الفصول بجامعة هارفارد، وقد حازت على العديد من الجوائز من فرنسا وإيطاليا، وقد حققت روايته " الأطباء " نسبة مبيعات تفوق الخيال وهذه الرواية تعد بحق تحفة فنية وأدبية.

obeikandl.com

أصيب سيجال على مدى ثلاثين عامًا بمرض الشلل الرعاش الذى جعله يفقد نشاطه وحيويته، وقدرته على الكتابة والإبداع، ولكنه ظل يقوم بالتدريس فى الجامعات المختلفة.

وقالت ابنته فرانشيسكا الصحفية، والناقدة الأدبية أنه ظل يناضل بإصرار شديد وعزم أكيد من أجل أن يتنفس الحياة، ويعيش كل ثانية من عمرة خلال الثلاثين عامًا التى رضخ فيها لمشيئة السماء رهن المرض، وتحت رحمته حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وصعدت روحه الطيبة إلى ربها عن عمر يناهز ٧٣ عامًا.

عاش سيجال ومات فى لندن وسط زوجته كاردينى وابنتيه فرانشيسكا وميراتدا.. تاركًا للعالم قصة حب لا تنسى ولا تتكرر!"

كان ناجى شرف الدين مذهولاً مدهوشًا من قدرة جلال الغيطانى الذهنية، وعقله الذى يعمل كما لو كان "كمبيوتر" بشرى.. الجسد عاجز تمامًا عن الحركة بينما العقل فى قمة النشاط والتألق والتوهج.

طبع ناجى قُبلة دافئة على جبين الأستاذ الغيطانى، وقُبلة أخرى على يده اليمنى التى كتب بها، وطار بالموضوع إلى مؤسسة " الأيام" وهو فى غاية الدهشة الممزوجة بالإعجاب والفخر والامتنان للرجل، والتقدير لذاكرة أستاذه وألمعيته، وعبقريته رغم إرادة الجسد العاجز عن مجاراة العقل الهائج اليقظ المتأجج العاشق للحياة!

***

(٢٥)

" الصحافة الآن لا تقود الشعب، بل تجرى وراءه"!

تسلم ناجى شرف الدين عمله الجديد فى مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر حلمه الكبير الذى استعصى عليه فى البداية.. وبعد محاولات يائسة كثيرة سلم بالقضاء والقدر واستسلم للمكتوب فى صحيفته العليا عند رب الدنيا ، ولكن الفرصة جاءته تسعى هذه المرة على طبق من ذهب، ودون أن يسعى إليها ، جاءته من حيث لا يحتسب على الإطلاق.. هكذا هى الدنيا يظل المرء يجرى وراءها فلا تأتيه بل تتمنع عليه ، وفجأة تقبل عليه بحماس، وتأتيه هرولاً فى الوقت الذى يكون قد نسيها وطلقها طلقة بائنة.. تلك هى الدنيا.. غانية لعوب مثل أنثى متمردة عنيدة تهوى العبث وتحطيم القيم، والتقاليد ومبارزة الأخلاق والمبادئ!

وبمجرد أن علم عبد العليم طايع رئيس مجلس الإدارة ، ورئيس التحرير بأن الفتى تسلم عمله بالمؤسسة أعطى على الفور أوامره للسكرتاريه بمكتبه أن يرسلوه إلى الكاتب الصحفى جلال الغيطانى وزوجته شادية الجندى، وهما المسئولان عن القسم الأدبى بجريدة " الأيام "لكى يكون تحت التمرين، والاختبار قبل أن يستعين به فى كتابه مقالاته الافتتاحية فى الجريدة اليومية ، والاصدارات الأخرى المتعددة التى تقدمها المؤسسة لقرائها من جرائد ، ومجلات متخصصة فى الفن و الرياضة والسياسة والأدب والسينما والانترنت سواء كانت اصدارات أسبوعية أو شهرية أو دورية.

استقبله جلال الغيطانى بحب وترحاب وود وحبور كأنه يعرفه منذ عشرات السنوات.. بدا له الرجل من النوع المألوف الحبوب فهو أسمر الملامح لهجته صعيدية محببه للقلب والأذن.. قصير القامة.. نحيل الجسد.. ضيق العينين، أصلع الرأس يتجاوز العقد الخامس من عمره بقليل، ويرتدى

ملابس بسيطة للغاية عبارة عن قميص أبيض فيه خطوط زرقاء، وبنطلون أسود وحذاء أبيض ناصع، ويدخن طوال الوقت بشراهة كما لو كان ينتقم من نفسه.

وأثناء اللقاء بينهما دخلت إمرأة بيضاء ملفوفة القوام عسلية العينين فى الخمسين من عمرها وعلى وجهها طيبة وبشاشة، وابتسامة عريضة..قدمها الغيطانى لناجى قائلاً:

ـ الأستاذة شادية الجندى الكاتبة الصحفية المرموقة فى مؤسسة الأيام وفى نفس الوقت زوجتى، وأم بناتى فى البيت طبعًا..

ثم أشار ناحية ناجى قائلاً:

ـ ناجى شرف الدين موهبة صحفية واعدة.

لقد كنت دائما تتمنى يا جلال أن يكون لنا ابنًا.. ها هو جاءك ناجى.

تبسم الرجل قائلاً بعد تنهيدة عميقة:

الحمد لله على ما رزقنا.. لقد وهبنا رب العالمين أربع زهرات يانعات جميلات..هن الآن آيات فى التدين والخلق الرفيع والتفوق، وهن الأوائل دائما فى دراستهن.

وبالفعل مضت الأيام والأسابيع مهرولة مثل تسابق الخيول فى صحراء شاسعة وناجى شرف الدين فى غاية الارتياح، تغمره السعادة بعمله الجديد فى القسم الأدبى بجريدة الأيام تحت رعاية جلال الغيطانى وزوجته شادية الجندى، وكثيرًا ما وجها إليه الدعوة لزيارتهما فى البيت لتناول الغداء أو العشاء معهما، وكان جلال الغيطانى يحب أن يقول عنه إنه ابنه الذى لم ينجبه من صلبه.. وصار الغيطانى وزوجته وبناتهما وناجى كأنهم أسرة واحدة.. وكثيرًا ما تمنت شادية أن يكون ناجى من نصيب ابنتها الكبرى رقية التى تدرس فى السنة النهائية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وتحدثت مع زوجها فى هذا الأمر فرحب الرجل بالفكرة قائلاً بعفوية:

ـ أتمنى ذلك.. لكن كل شئ قسمة ونصيب، ولا أحد يدرى ماذا تخبئ الأيام.

قالت:

ـ يا رجل.. اخطب لإبنتك ولا تخطب لابنك! كما يقول المثل القديم.

ـ هل تريدين منى أن أفاتحه فى الموضوع يا شادية؟!

ـ ولم لا يا جلال؟! أنا أشعر أنه يميل نحو البنت، وهى كذلك.. وقد يكون يحبها فعلاً، ولا يجرؤ على البوح بسر قلبه لأنه فى بداية حياته الصحفية، وظروفه المادية ليست على ما يرام.

وبعد هذا الحديث العائلى الحميم عن زواج البنات، وناجى والمستقبل، وقبل أن يشرع جلال فى فتح هذا الموضوع مع ناجى شرف الدين حدثت المفاجأة التى لم تكن أبدًا فى الحسبان.. صدمة كبيرة قلبت حياة هذه العائلة رأسًا على عقب.. كانوا جميعًا قبل حدوث المفاجأة المروعة يعيشون حياة هادئة هانئة مستقرة دافئة يملؤها الإيمان والحب فى الله، ولله والإقتداء بنبيه، والسعى فى خدمة المحتاجين والفقراء والمساكين.. جلال الغيطانى وزوجته شادية الجندى لهما من زينة الحياة الدنيا أربع زهرات رائعات يانعات يافعات.. الزوجة مثالاً يحتذى به فى الإخلاص والوفاء والزهد.. وتحرص على الحضور بانتظام فى أحد المراكز الدينية لتعلم أصول الفقه والتجويد وتفسير وحفظ القرآن الكريم، ومن شدة تدينها وإخلاصها لربها ولزوجها سألها ذات مرة قائلاً:

ماذا تفعلين لو تزوجت عليك يا شادية؟!

تبسمت ببشاشة وقالت ببساطة:

ـ إن من هو خير منك ومن الرجال جميعًا تزوج على من هى أفضل منى ومن النساء جميعًا.. حبيبى رسول الله وهو القدوة للناس أجمعين.

كانت شادية الجندى صوامة قوامة تراعى ربها فى كل شئون حياتها

حتى جاء ابتلاؤها على قدر عزيمتها، فعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم، وكانت تردد دائمًا.. إن أكثر الناس ابتلاء هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل كما قال النبى الحبيب، وما سمعت عن مثله ابتلاء بين البشر فى زماننا هذا.. وقع الزوج ولم يسقط.. غاب جلال الغيطانى الكاتب الصحفى والأديب المرموق ولم يمت!

نامت جوارحه، ولم تغفل نفسه أو روحه.. هدأ الجسد ولم تسترح الروح ولم ينم العقل، كان متوهجًا والجوارح متيقظة وثابة.. بدا الغيطانى الإنسان كما لو كان أيوب هذا الزمان.. عاش جلال الغيطانى على هذا الحال خمس سنوات.. ظل خلالها راقدًا لا يفارق فراشه.. هذا الزوج الطيب والأب الحنون الصحفى والأديب الصادق الوفى لقلمه وأهل بلده يفتح عينيه حينًا ويغمضهما أحيانًا.. لا ينطق ولا يتقلب ولا يحرك ساكنًا، ولا يدرى الأطباء أيشعر بما يدور حوله أم لا بعد أن أتلفت الجلطة مخه، ولم تتلف روحه أو تهلك نفسه فكانوا يرجحون أنه لا يشعر على الإطلاق.

خمس سنوات مرت، وهذه الزوجة الصابرة الصامدة تقلبه فى الفراش كل ساعة تقريبًا حتى لا تصيبه قرحة الفراش فتزداد آلامه.. مما أثار عجب الأطباء فقد كانوا لا يصدقون أن هذه حالة الجسد الساكن خمس سنوات من فرط نظافته وطهارته وسلامته.. خمس سنوات وهى تذهب به للاستحمام والإغتسال.. خمس سنوات وهذه الزوجة تعمل ليل نهار بدأب وتفانى فى البيت، وفى المؤسسة ثم تعود منهكة ومع ذلك تحكى لزوجها بحب كل ليلة قبل أن ينام أحداث اليوم كله، تسرد عليه مشكلات البنات، وأعباء الحياة، وتقسم بأنه يشعر بها برغم أن الطب لا يعترف بذلك، لكنها متأكدة من أنه يسمع ويحس ويفكر.. اعتبرته يؤدى طوال خمس سنوات صلاة التأمل، ودموع عين الزوج العليل تنساب على خده فى كبرياء رجل مهزوم كسره سيف المرض، وتشهد دموعه السخية الساخنة التى تنساب على وجهه، وهى تحكى له مثل شهرزاد، وهو بين يديها أنه

مـازال ينبض بالحياة بكل ما فيها ومـا لها وما بها.. ورغم كل هذا كانت تمارس شادية الجندى مهنتها كصحفية على خير وجه وتؤدى مهامها كأم علـى أفضـل ما يكون، ولم تتوقـف يدهـا البيضاء عن تقديم مسـاعداتها ، ومشـاركاتها للمحتاجيـن والغلابة ، والفقراء الذيـن لا يملكون من حطام الدنيا شـيئًا ، وكانت تجمع أموال الزكاة ، والصدقات لتعيد توزيعها على المساكين.

خمس سـنوات بلا كلل ولا ملل ولا شـكوى.. لم تيأس من شـفائه، وما قصرت أبدًا ولا تهاونت على الإطلاق فى حق الزوج الغائب الحاضر.. الميت الحـى.. ودائمًـا كانـت تقول لـكل زملائهـا وزميلاتها فى مؤسسـة الأيام للصحافة حينما يسألونها عن الزوج والزميل العزيز:

سـيعود يومًا إلى الحياة.. سـيعود يومًا إلى عالمنًا.. أنا واثقة ومتأكدة من ذلك بقدر ثقتى فى وجوده على قيد الحياة بينكم.

خمس سـنوات من الصبر والمثابرة ، والأمل والألم والدموع والابتسـامات حتـى رحل عن الدنيـا .. صعدت روحه إلـى بارئها منذ أيام، وتوقف الجسـد الطيـب الطاهر عن الحركة.. تلك مشـيئة السـماء ، ومصيـر محتوم لكل حى يدب على الأرض.

ذهبـت شـادية إلى أمهـا المريضة لتواسـيها فـى زوج ابنتهـا ، وتصلى لله تدعـوه وتسـتجديه برجاء حار أن يغفر لها ويتغمـد زوجها برحمته ، ويكون مثواه جنة الفردوس ويسامحها إن كانت قد قصرت فى رعايته ، والاهتمام بـه والترويح عنه والسـهر على راحته ، والقيـام على علاجه مما ابتلاه به رب الأرباب سبحانه فى علاه.

وذات يوم كان ناجى شـرف الدين يحكـى عنها مع زملائه فى المؤسسة وتحديدًا فى صالة التحرير.. قال عنها بإعجاب وحب:

لا أعرف إن كانت هذه السـيدة من البشـر.. أم نحن الذين لسنا بشرًا..؟! إنهـا زوجـة مؤمنة محبة مخلصـة إلى أبعـد درجات الاخـلاص، ووفية وفاء

القديسات.. لم تضعف أوهكذا خيل لى، ولم تتنصل فى لحظة من لحظات محنتها الزوجية لشريك حياتها، ووالد بناتها، وما سمعت أنها شكت أو تململت فى لحظة من اللحظات، بل دائمًا رأيتها هادئة مستبشرة حتى وقتنا هذا.. بدت كأنها السيدة ناعسة الصابرة على مرض أيوب، وحتى بعد رحيل الزوج الرحيل الأبدى، ما زالت تتمسك بحبل الصبر وتتعلق بالأمل.

وقال أيضًا والدموع تطل من عينيه:

من منا الذى لا يبكى على نفسه التى تغويها الدنيا الملعونة فتحرضه على الفسق والعصيان والانحراف عن طريق الهداية، والحيد عن الصراط القويم المستقيم؟! وهذه المرأة الفاضلة هى النموذج المثالى الذى لم أر له مثيلاً فى بلاط صاحبة الجلالة، وفى حياتى كلها، فهى القدوة للأنثى التى تراعى ربها فى رجلها، ومن المؤكد أنها غرست ذلك فى بناتها.. ومن منا فى هذه الدنيا الذى لا يتمنى كل هذا الصفاء والعطاء والحب، والايمان بتعاليم السماء وأحكام القضاء والقدر، والصبر على البلاء، والرضا بكل شئ فى السراء والضراء؟!

***

obeikandl.com

(٢٦)

" عندما خلق الله المرأة لم يخلقها من رأس الرجل فتسوده، ولـم يخلقها مـن عظام قدمه حتى لا يدوسـها، وإنما خلقها من ضلوع صدره لتكون قريبة من قلبه! "

صباح كل يوم جمعة من كل أسبوع كان مجلس تحرير صحيفة " الأيام " يعقـد اجتماعًـا مع المحررين مـن مختلف الأقسـام، وكان هذا الاجتماع المقدس أسـبوعيًا بمثابة جامعة حقيقية تربى فيها العديد من نجوم صاحبة الجلالـة الذين تلقوا مبادئ، وأسـس فنون الكتابـة الصحفية بين جدرانها وعلى صفحاتها.

وهـذا الاجتمـاع الـذى يعـد أخطـر، وأهـم اجتماع فـى تاريـخ الصحافة المصرية.. لم يكن أبدًا اجتماعًا عاديًا، بل كان على مدار سنوات شاهدًا علـى طرح، ومناقشـة أهم أحداث مصر السياسـية والاقتصاديـة والثقافية والاجتماعية والإنسانية.

فى اجتماع الجمعة الأول بالنسبة لناجى شرف الدين رأى بعينيه مجموعة من فرسان، ونجوم الكلمة المكتوبة التى كان يطالع صورهم فى جريدة الأيام بانبهار مقرونة بمقالاتهم.. ها هو يراهم شخصيًا، ويقف أمامهم وجهًا لوجه!

تجمهـر الجميـع فـى صالـة التحرير التى تتسـع لأكثر مـن ٥٠٠ محرر، وجلسوا فى صمت وسكون كأن على رؤوسهم الطير حتى جاء عبد العليم طايـع رئيس مجلـس الإدارة، ورئيس التحرير الرجل القوى المهاب الجانب.. هلَّ الرجل بطلعته البرونزية وصلعته الفسيحة المميزة، وسيجارته الكوبية المستوردة، وبعد أن جلس فى مكانه المعروف وبجواره ميرفت العطيفى، والجميع يتحلقون حوله فى شـكل دائرى.. حياهم بثقة فى كلمات موجزة

ثم سحب نفسًا عميقا من سيجارته الغليظة، وبسرعة البرق كان الساعى النحيل الغارق فى زيه الرسمى الواسع عليه قد أحضر له فنجان القهوة السادة التى يفضلها.. التقط الرجل فنجانه واحتسى منه رشفة واحدة ثم إستهل حديثه قائلا:

سوف تلعب المرأة دورًا فى غاية الأهمية لتطوير مهنة الصحافة، وتجديد شبابها بجانب الرجل بالطبع أقصد هنا الشباب من الجنسين فيجب الاعتماد على بصيرة الرجل، وعلى بديهة المرأة فى إلتقاط الخبر الصحفى.. الرجل قادر على تحصيل أخبار كثيرة، وتفاصيل قليلة عكس المرأة التى حباها الله بالقدرة على التقاط تفاصيل أكثر وأخبار أقل.. وكلاهما يكملان بعضهما، ويصنعان الخبر الجذاب، والموضوع الصحفى المتميز.. وفيما يتعلق بكشوف الإنتاج هناك بعض المحررين حاولوا زيادة إنتاجهم فقسموا الخبر إلى خبرين، وهذا لا يليق بهم ولا بإسم المؤسسة، وبعضهم قدم أخبارًا قديمة، وتلك خطيئة لا تغتفر فى عالم الصحافة الحديثة النزيهة، وفى ظل انفجار المعلومات الحالى فى الفضائيات، وعبر الأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت العنكبوتية، وغيرها من وسائل ضخ وتبادل المعلومات.. وأرجو أن يعلم المحررون جميعًا صغارًا وكبارًا مبتدئين أو محترفين مخضرمين أن أول مهمة للمحرر الصحفى هى تحرى الدقة والأمانة والشفافية، والمحرر الذى يزور خبرًا أو يزور كشف إنتاج مثل المحرر الذى يزور كشف حساب.. وأنا أفضل أن يقول المحرر ويعترف بأنه لم يعمل شيئًا على أن يكتب خبرًا غير حقيقى وينسبه لنفسه!

وابتداء من هذا الأسبوع سنخصص صندوقا لكى يضع فيه المحررون أخبارهم لأنه فى بعض الأحيان توضع الأخبار ولا يلتفت إليها أحد، وفى أحيان أخرى يسطو المحرر على أخبار غيره، ويدعى أنها ملكه! وفى كثير من الأحيان يطلع بعض المحررين على الأخبار قبل نشرها، ويحكونها فى جلساتهم خارج المؤسسة فتكون النتيجة أن تتسرب الأخبار إلى أماكن

أخرى، وتنشر فى جهات إعلامية، وصحفية أخرى قبل نشرها فى جريدتنا، وهذا عبث لابد من التصدى له لأننا فى زمن المنافسة، وعصر الصراع الصحفى والاعلامى!

وأرى أن نظام الصندوق هذا وضع لحماية المحررين أنفسهم لأنه من غير المعقول أن يتساوى المحرر المنتج مع المحرر الكسول الخامل الغافل الذى يعتبر نفسه موظفًا فى ديوان الصحافة!

الفرق شاسع يا حضرات بين الموظف والصحفى أى بين المبدع والتقليدى.

وواجبكم أنتم جميعًا حماية هذا النظام لأنكم تحمون أنفسكم، وأحب أقول لكم أيضًا.. إن إنتاج الأسبوع بلغ ٨٢٠ خبرًا صحفيًا، وهو رقم قياسى، ويوجد ٩ محررين قدموا أكثر من ٥٠ خبرًا، ويوجد محررون قدموا أقل من ٥ أخبار لكل محرر، وذكر عبد العليم طايع أسماء المحررين الذى زاد إنتاجهم الصحفى عن ٥٠ خبرا.. واستطرد فى حديثه قائلاً كأنه أستاذ للصحافة فى كليه الإعلام، وأمامه مجموعة من التلاميذ لا كوكبة من الصحفيين:

على كل الأحوال موضوع حديثنا اليوم يا سادة هو.. كيف ينجح المحرر الصحفى؟! وما الذى يصنع الصحفى الموهوب؟! لكى تعرفوا الإجابة على هذا السؤال أنظروا لأنفسكم فى جريدتكم " الأيام " أكثر الصحف انتشارا وأعرقها فى مصر.. بينكم عدد لمع وتوهج، وبينكم أيضا عدد أخفق وتهاوى، وإن كنت أظن أن فرصة النجاح والسطوع والنجومية متاحة أمامكم جميعًا بنفس القدر، صحيح أن الفروق الفردية تؤثر لكن يبقى التفانى فى العمل هو الذى يصنع المجد، وأؤمن أن هذه الصالة سيخرج منها عدد لا بأس به من نجوم الصحافة، وفرسان القلم.

ولعلكم لاحظتم يا حضرات عندما زادت مؤسسة " الأيام " فى عدد محرريها والضجة التى أثيرت فى الوسط الصحفى بزيادة عدد المحررات..

وكيف أن بعض المحررين جاءوا واعترضوا على سياسة الإكثار من المحررات، والبعض الآخر لم يكن لديه الشجاعة ليقول لى، ويعبر عن رأيه، وكان يكتفى بالإعلان عن ثورته المكبوتة على هذا النظام فى صمت.

لقد سبق لى أن قلت إن " الأيام " يجب أن تسبق الجميع بانتصاراتها الصحفية، وريادتها الإعلامية لا أن تجرى وراءهم!

من مبادئ مؤسسة الأيام أيها السادة وتقاليدها العريقة أن تأخذ بزمام المبادرة وتنطلق، وتترك الصحف الأخرى تلهث وراءها.. وأنا أؤمن بأن المرأة ستلعب دورًا كبيرًا وخطيرًا وحاسمًا فى المعارك الصحفية.. دور المرأة فى الصحافة لا يختلف اطلاقًا يا حضرات عن دورها الوطنى فى المخابرات وأعمال الجاسوسية.. وأرجوكم لا تفهمونى خطأ!

ضجت القاعة بالضحك.. بدا له أنه ضحك غير مبرر، لم يهتم وواصل كلامه كأن شيئًا لم يحدث، وناجى شرف الدين يراقبه عن كثب، وينصت إليه بإمعان بالغ، واصغاء فائق..

نحن نرى أن فى هذا وسيلة للتفوق الصحفى فى المستقبل القريب.. فيجب أن نبدأ نحن بهذا الأمر، وليتبعنا الآخرون، أو يسيروا عكس إتجاهنا لا يهم.. لقد كان الدليل على تفوق المرأة فى بلاط صاحبة الجلالة بدون شك هو عدد الجمعة الأسبوعى من الجريدة، وتحديدًا عدد الأسبوع الماضى.. فقد كان من أفضل الأعداد التى أصدرتها "الأيام" فى السنوات العشر الأخيرة، وقد يدهشكم أن ذلك حدث بفضل عدد من المحررات الموهوبات!

إن موضوع الأمير وليام وقصة غرامه بفتاة مصرية فى المرحلة الإعدادية، وتقدمه رسميًا للزواج منها، ورفض والدها هذا العرض وهذا العريس الملكى ساهم فى زيادة توزيع الجريدة، والفضل يرجع إلى ذكاء وفطنة وموهبة المحررة الصحفية سميرة حلمى التى كانت فى حفلة ومعها العشرات

من الصحفيين ولكنها فكرت، واستطاعت أن تحصل على انفراد لنفسها وسبق صحفى لجريدتها ومؤسستها من خلال قصة ممتازة إنسانيًا واجتماعيًا ويكفى أن تعرفوا أن عشر صحف من أكبر صحف العالم نشرت هذا الموضوع فى صفحتها الأولى بعد نشرها فى صحيفتنا.. نشروها فى الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا، وطلب مراسلوا الصحف الأجنبية الكبرى فى القاهرة السماح لهم بالحصول على الصور التى نشرتها الأيام لنشرها مع الموضوع فى صحفهم!

لاذ عبد العليم طايع بالصمت قليلاً ثم عاود الإسترسال قائلاً:

يجب على كل محرر ومحررة فى هذه المؤسسة أن، يدرك تمامًا أن الأخبار هى أسرار مقدسة، لا يجوز أن يعطيها أو يحكيها لأحد.. وحتى أنا عندما أعرف خبرًا مهمًا أو خطيرًا لا أحكيه لأى مخلوق، ولا حتى لزوجتى وقد تفاجأ هى به منشورًا فى الجريدة صباح اليوم التالى.. ومن عادة المرأة أنها ثرثارة كثيرة الكلام لا تكتم السر أبدًا، وتصاب بمغص كلوى إذا احتفظت بسر داخلها، وإن كان هناك عدد من محررات الأيام أثبتن أنهن على مستوى الرجال فى مسألة الكتمان.

شرد ناجى شرف الدين، ودارت فى رأسه عدة تساؤلات.. ما الذى أتى بميرفت العطيفى هنا؟! ولماذا تجلس مثل ملكة متوجة على عرشها بجوار عبد العليم طايع الرجل صاحب السطوة فى أعرق مؤسسة صحفية رئيسًا لتحريرها ولمجلس إدارتها سنوات طويلة حتى وصفه ذات يوم نقيب الأطباء بأنه الصحفى المزمن!

جاء رد رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير على تساؤلاته عاجلاً فوريًا كأنه سمعه، وعرف ما فى نواياه.. قال:

أحب أقول لكم يا حضرات أنكم أصحاب سلطة.. نعم سلطة القلم وقوة الحق.. أنتم أصحاب السلطة الرابعة.. وأود أن أقول لكم أيضًا إن أسرة مؤسسة الأيام تسعد ويسرها انضمام العديد من المواهب والكفاءات سواء

الجديدة، أو الوافدة إلينا من إصدارات صحفية أخرى تبسم فى وجهها وهو يشير ناحيتها وأخص بالذكر هنا الزميلة العزيزة ميرفت العطيفى التى كانت تعمل فى صحيفة " مصر اليوم".

ولا يفوتنى هنا أن أقول لكم إن الطريقة الحديثة فى الصحافة العالمية اليوم هى الاعتماد على نوعين من الفوتوغرافيا.. فوتوغرافيا الرجل الصحفى وهى تستطيع أن تلتقط عددًا كبيرًا من الصور.. فالعدسات فى رأس الرجل الصحفى أكثر منها فى رأس المرأة الصحفية! ويجب الاعتماد أيضًا على الكاميرا العقلية للمرأة الصحفية، لأن العدسات التى فى رأسها تلتقط تفاصيل أكثر بكثير مما تلتقطه عدسة عقل الرجل الصحفى.. بمعنى أنه إذا ذهب صحفى وصحفية إلى حفلة، وحضرا أحداثها ووقائعها ومراسمها، سوف نلاحظ أن الصحفى الذكر يستطيع أن يعرف أسماء جميع من حضروا الحفلة بينما الصحفية الأنثى تستطيع أن تعرف بحاستها وغريزتها تفاصيل أدق، ووقائع صغيرة وكثيرة لعدد قليل منهم!

الصحفى قادر بلا شك على معرفة مائة اسم من المدعويين.. والصحفية قادرة على تقديم معلومات دقيقة ووافية عن عشرة أسماء من الموجودين فى الحفلة مثل لون ملابسهم.. مَن منهم حليق الذقن، ومن منهم كان أنيقًا فى ملبسه.. ومَن منهم تعطر بعطر فرنسى فاخر ومن منهم كان شاردًا أو مهمومًا فى هذه الحفلة!

وأذكر أننى عندما بدأت حياتى الصحفية كنت مندوبًا فى إحدى الوزارات لا داعى لذكر اسمها الآن.. لكن على كل الأحوال كنت ألتقى الوزير يوميًا، ولم أكتشف أن هناك ثقبًا صغيرًا فى أذنه إلا عندما ذهبت إليه إحدى زميلاتى وقابلته! اكتشفت الثقب من أول لقاء بينما لم أكتشفه أنا على مدى سنوات.

وكان لهذا الثقب الصغير قصة طريفة حكاها لى الوزير فيما بعد، وهى أن أمه أنجبت خمسة من الذكور، وكان هو آخرهم، وأشار عليها

البعض أن تثقب أذنه مثل البنات حتى يرزقها الله فى المرة السادسة بطفلة تكون مسك الختام فى رحلة الإنجاب.

وقد تبدو ملاحظة ثقب أذن الوزير تافهة وبلا قيمة، لا تقدم ولا تؤخر.. لكنها فى نهاية الأمر تثبت أن الصحفية الأنثى تستطيع رصد وتحليل، وتسجيل تفصيلات أكثر من الصحفى الرجل.. وهذه حقيقة علمية لا شك فيها، ولا جدال، وأثبتتها نتائج التجارب العلمية، والمعملية والبحوث الميدانية!

سحب عبد العليم طايع نفسًا عميقًا هادئًا من سيجارته الكوبية الفاخرة المتورمة واحتسى معها آخر ما تبقى فى فنجانه من القهوة ثم قال:

يا أعزائى.. سوف أذكر لكم الآن واقعة تاريخية حدثت بالفعل عام ١٩٣٤ عندما كان عبود باشا فى انجلترا يخطب فى حفلات " هايد بارك " الشهيرة فى قلب العاصمة لندن، ويتكلم بكل فخر عن مشروع خزان أسوان وفى ذلك الوقت كان هناك العديد من الصحفيين والصحفيات، واهتموا جميعًا بتفاصيل المشروع العظيم بينما محررة صحفية واحدة فقط اهتمت بشئ آخر مختلف تمامًا عما اهتم به الآخرون من زملائها.. فقد اكتشفت تلك الصحفية أن بنطلون عبود باشا ممزق ومن منطقة حساسة للغاية!

واهتمت بهذه اللقطة وكتبت هذه الحدوته فى مقدمة موضوعها الصحفى تقول إن المليونير، ولو أن بنطلونه ممزق إلا أنه تكلم فى كل شئ عن مشروع خزان أسوان ببراعة يحسد عليها!

سردت التفاصيل والهنات التى سردها زملاؤها.. إنما قصة البنطلون الممزق كانت حديث عاصمة الضباب!

هذا يعنى أن على الصحفى أن يحرص على التقاط التفاصيل، ولا يتجاهل الصغائر بجانب القفشات الذكية، واللقطات الخفية الطريفة التى تعجب القراء مهما كانت جنسياتهم، وثقافاتهم وانتماءاتهم الفكرية والعقائدية.. يوجد فى هذا العالم صحفيون يخطفون الأخبار خطفًا مثل القراصنة

الصوماليين الذين يتربصون على امتداد سواحل المحيط لاختطاف سفينة عابرة للمياة الإقليمية، واقتناص بضاعة متحركة فوق الأمواج!

وفى رأيى.. إن عملية الخطف لا تفيد كثيرًا، بل بجانب التقاطك للخبر يجب أن تحصل على تفاصيل أكثر لكى تستطيع التفوق فى ماراثون السباق، والمنافسة اليومية الشرسة مع الصحف، والإصدارات الأخرى، كما يمكنك بالتفاصيل الصغيرة التى تبدو تافهة أن تلعب فى الخبر، وتحوله من خبر روتينى عادى إلى سبق خبرى متفرد!

ومن شروط الصحفى الناجح أيضًا تفانيه فى عمله، وحبه وإخلاصه لمهنة البحث عن العذاب والمتعة.. يوجد صحفيون يذهبون إلى الجرائد والمجلات المنافسة ليبيعوا الأخبار والموضوعات الصحفية مثل مندوبى المبيعات، وتجار الشنطة هذا يحدث للأسف.. فليس كل الصحفيين ملائكة.. وليس أيضًا كلهم أبالسة! وبعض الصحفيين يعرضون أنفسهم وبضاعتهم للبيع لدى صحف منافسة لصحفهم لأنها تدفع أكثر.. مثل هؤلاء لا نفاتحهم فى هذا الشأن، إنما ننقلهم من قائمة المحررين الدائمين إلى قائمة المحررين المؤقتين أو المحررين الترانزيت!

وإذا كانت هذه قوانين التجارة، فليست الصحافة وكالة أو سوبر ماركت! إنما مهنة قيم ومبادئ وأخلاق، ورسالة سامية قبل أن تكون مصدرًا للتكسب والارتزاق، ونحن نشعر أن الصحفى الذى يبيع ذاته، ويتاجر بقلمه وبضاعته الصحفية مكانه الطبيعى على سلالم المؤسسة، وليس فى داخلها، ولا نستطيع أن نسند له أعمالاً مهمة على الاطلاق لأنه أصبح فى نظرنا مثل الخائن الذى يبيع أسرار وطنه للأعداء مقابل حفنة دولارات، وقد يلجأ هذا الصحفى العميل غير الوفى لمؤسسته إلى الجرائد المنافسة ليبيعهم انفراداته الصحفية مقابل ما يحصل عليه هناك من أجور مجزية ومكافآت سخية!

وهذا أمر طبيعى جدًا بالنسبة للنفس البشرية التى تطمح، وتطمع فى

المزيد دائمًا ولا تمل ولا تكل ولا تشبع من التحصيل حتى ولو امتلكت ثروة قارون!

إننا يا حضرات نترك لهؤلاء المحررين الصحفيين حرية الاختيار والتنقل، وليس مطلوبًا منا أن نعاملهم معاملة المحررين الدائمين على الإطلاق فهم ليسوا أصحاب البيت، بل نعتبرهم من الضيوف!

وأقول لكم بكل صراحة أنه لا يمكن لفريق أن يعتمد على لاعب لن يستمر فى فريقه مهما كانت قدراته، وطالما أنه سينتقل ليلعب مع الفريق المنافس ولصالحه، فلابد من الحرص والحذر، ومثل هؤلاء اللاعبين ولو أننا لا نشجعهم على ترك الفريق، إلا أنه يجب أن نتصورهم خارج الفريق تمامًا ولا نعتمد عليهم، ولا نعول عليهم كثيرًا!

إن الإخلاص والوفاء والولاء يا سادة للجريدة أو المجلة ليس سلعة تباع وتشترى، بل هو قيمة عظيمة، وهو أول شرط للنجاح والتميز..

قد يحدث أن نسمع أن محررًا يلعن صحيفته أو يسب مجلته هذا أمر وارد.. ولكنى لا أثق فى هذا المحرر، ولا أعتمد عليه أبدًا.. أنا شخصيًا أحب الصحفى المخلص لجريدته أو مجلته لآخر لحظة.. أنا أفضل أن يعمل المحررون غير المخلصين فى الجرائد والمجلات الأخرى المنافسة لأنهم فى رأيى المتواضع طابور خامس!

إن أهم صفة فى المحرر الصحفى هى الإخلاص.. فإذا غاب الإخلاص فقل على الصحفى السلام.

وأضرب لكم مثلاً يهمكم جميعًا.. عند تعيين الدكتور سعد أبو المجد مديرًا عامًا بمؤسسة " الأيام " همس فى أذنى عدد من الناس بأن سعد أبو المجد كان يهاجم " الأيام " أثناء وجوده فى صحيفة " مصر اليوم "، وكان يقول أنها سوف تعلن إفلاسها، وتغلق أبوابها، ويصرح بآرائه تلك آناء الليل، وأطراف النهار، ويقولها على الملأ وفى وسائل الأعلام المختلفة.. وقد قلت لهم.. هل أنتم متأكدون من هذا؟! الحقيقة كنت أخشى من أن تكون

وشـايـة خبيثـة.. لـكنهم قالوا نعـم.. نحن واثقـون ومتأكـدون.. وعلى الفور وقعت عقدًا مع الدكتور سعد أبو المجد ليعمل معنا لأن الرجل الذى يخلص لمؤسسته، وعمله سوف يخلص بنفس الطريقة فى أى عمل آخر فى مؤسسة أخـرى، إنمـا لو قالوا لى أنه كان يعطى أخبار جريدته لصحيفة أخرى غير الصحيفـة التـى ينتمى إليهـا حتى لو كان يعطيهـا لصحيفتنا لكنا رفضنا تعيينه عندنا لأنه سيعمل فى هذه الحالة بمبدأ الخيانة المهنية ذاتها!

وأذكـر أنـه أثنـاء عملى فى مؤسسـة " الهلال " خلال مرحلـة من مراحل حياتـى الصحفية، كنت عند مرورى على حجـرة مضاءة أطفئ النور.. هذه كانت عادتى التى أحرص دائمًا عليها، برغم أننى لا أدفع فاتورة الكهرباء من جيبى ولا يعنينى الأمر من قريب أو بعيد!

لم يكن يهمنى أن يخسروا جنيهًا واحدًا أو جنيهين، ولن يؤثر هذا على ما أتقاضاه من راتب، ولكنى كنت أشعر أننى مالك لهذه الجريدة، ومسئول عن كل شئ فيها، وعندما أجد أى خطأ، أذهب لأصححه على الفور حتى ولـو لـم يكن من صميم عملـى، لأن المحرر يجب أن يشـعر أنه مالك كل شـئ فى المؤسسـة الصحفيـة التى ينتمـى إليها، لا أن يسـتخدمها كورقة ضغط، وقوة نفوذ لتحقيق مآرب شـخصية، ومنافع ذاتية.. تلك هى القضية يا حضرات المحررين والمحررات!

توقف لحظات.. التقط فيها أنفاسه، وتجرع شربة ماء ثم قال:

لا يفوتنـى هنا إلا أن أشـيد بدور بنات حواء فى الصحافة وأسـجل فخرى واعجابـى، واعتـزازى بانتصاراتهـن فى بلاط صاحبة الجلالـة، ولا يفوتنى أيضًـا أن أذكر أن إحـدى المحررات حاولت ذات مـرة بمكر ودهاء خداع رئيس قسـم الأخبـار، فقدمت له ٤٠ خبـرًا صحفيًا، وبعد ذلـك إتضح أنها نقلتهـا من النشـرات التى تصدرها الـوزارات، وترسـلها بالفاكس للجميع من خلال إدارة الاعلام والعلاقات العامة بكل وزارة، وهذه النشـرات تصل مكتوبـة، لكن المحـررة المخادعة فكرت أن تقدم شـيئًا جديدًا فقالت

لمسئولى الإعلام والصحافة بالوزارة التى تغطى أخبارها.. لا ترسلوا النشرة لرئيس التحرير وارسلوها لى، واكتشف رئيس التحرير لعبتها الوقحة، ولم تنطل عليه خدعتها الساذجة!

هذه المحررة أخطأت فى حق نفسها، وفى حق جريدتها، وعلى فكرة خط نشرة الوزارة أحسن من خطها!

ضجت القاعة بالضحك.. وانفجر الجميع فى نشوة القهقهات بصوت مرتفع، وتناثرت الهمسات بين الجميع يتساءلون بهمهمات مكتومة عن صاحبة هذه التهمة الطريفة.. اختتم الكاتب الصحفى عبد العليم طايع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير كلامه بالشكر لهم جميعًا متمنيًا التوفيق والنجاح لكل أبناء مؤسسة الأيام واصداراتها المختلفة فى مهنة البحث عن المتاعب..

ابتسم الرجل بهدوء، ونهض من مكانه، وتحرك فى اتجاه الباب لمغادرة صالة التحرير أو قاعة الاجتماعات كما يطلق هو عليها، وإتجه إلى مكتبه، وسارت بجواره ميرفت العطيفى التى لا تفارقه كظله، بل تكاد تمسك بيده، وهو ينظر إليها بابتسامة ماكرة خبيثة مراوغة مثل ابتسامة ثعلب جبلى شرس هى وحدها تفطن مغزاها ومعناها!

بينما وقف ناجى شرف الدين شاخصًا يرقب المشهد فى ذهول ودهشة!

***

obeikandl.com

(٢٧)

" ما من بستان إلا وبه أكثر من أفعى! "

سرى الهمس والغمز واللمز فى المؤسسة مسرى النار فى الهشيم، وتبادل المحررون، والمحررات تفاصيل الخبر المثير الذى يدور كالنحلة فى مكاتب وردهات المبنى العريق.. هو الحدث الأبرز والأهم، والشائعة الجذابة التى تدعو للبحث والفحص فى مدى مصداقيتها، والخبر الذى يجب معرفة عناصره، وخباياه وأصل وفصل مصدره!

تفاصيل الخبر الذى تلوكه الأفواه، ويطوف على الآذان بسرعة البرق والرعد مفاده أن مؤسسة " الأيام " أكبر وأعرق المؤسسات الصحفية فى مصر المحروسة، وبقرار أشبه بالفرمان من رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير الكاتب الصحفى المرموق عبد العليم طايع ستصدر مجلة فنية أسبوعية بعنوان " نجوم الفنون "، وتتولى رئاسة تحريرها ميرفت العطيفى.. دارت مناقشات كثيرة، وجدل لا ينتهى بين المحررين والمحررات، وكل شخص يدلى بدلوه، ويهمس بالسر وراء هذا القرار ويحكى الكواليس غير المعلنه لزميله كما لو كان يذيع سرًا حربيًا خطيرًا ويوصيه ألا يفشى الخبر، ولا يقول لمخلوق أنه سمع منه شيئًا.. بدا الأمر أشبه بمسرحية سخيفة مملة برغم أن فيها الجانب البوليسى المشوق أحيانًا مثل روايات أجاثا كريستى!

تساءلوا جميعًا.. ولماذا ميرفت العطيفى؟! ومن تكون هى أساسًا؟! وما تاريخها فى بلاط صاحبة الجلالة حتى تقتنص لقب " رئيس تحرير " وهو اللقب الأعلى والأغلى لكل من يمتهن ويحترف الكتابة الصحفية؟! وعلى الفور بدأت حفلات النميمة.. وشرع المحررون والمحررات فى جمع المعلومات عنها على طريقة شيرلوك هولمز، وبأسلوب المخبرين

obeikandi.com

المحترفين، وتكشفت أمامهم الحقيقة المروعة عارية كأنثى لعوب ترغب معاشرة زوجها المنشغل عنها، فتباغته ليلة الجمعة، وهو مضجع فى فراشة بعد منتصف الليل يشاهد التليفزيون، لا وقت عندها للمقدمات ولا المشهيات فقد استبدت بها النشوة الحارقة، فنزعت كل ملابسها، وألقت بنفسها بين أحضانه، كل شئ فورى وعاجل.. ضبط وإحضار.. مثلما يفعل رجال المباحث، وعناصر التحريات، حصل المحررون على صحيفة أحوالها التى ترصد سيرتها الذاتية، واكتشفوا العجب.. فهى حاصلة على مؤهل دراسى متوسط، وتم تعيينها سكرتيرة فى جريدة " مصر اليوم " وكانت تعد الشاى والقهوة بنفسها لرئيس تحريرها، وتتقرب إليه بكل الطرق والوسائل حتى تحقق مأربها!

ونظرًا لطموحها الجامح، وقدرتها الهائلة على إثارة الرجال، وتحريك قواهم الكامنة ساعدها عمر الشهابى رئيس التحرير فى الحصول على منحة دراسية بالمعهد العالى للدراسات التعاونية، ومن هذا المعهد حصلت على البكالوريوس بعد أربع سنوات دراسية، كما ساعدها أيضًا فى تغيير تصنيفها الوظيفى من سكرتيرة عادية فى مكتبه إلى صحفية، ومن ثم نالت عضوية نقابة الصحفيين، وكان هذا حلم حياتها الكبير، وبرغم ذلك لم تشبع نهمها ولا طموحها، فقد كانت تفضل بدء حياتها فى مؤسسة صحفية كبيرة مثل مؤسسة " الأيام "، ووجودها لسنوات طويلة فى جريدة " مصر اليوم " جعلها تشعر بالنقمة، وظلت بجوار عمر الشهابى تدلله، وترافقه فى كل رحلاته الصحفية داخل مصر، وخارجها حتى صارت تلعب دور عشيقته فى الظل وزوجته السرية، وامرأته الخصوصية من وراء ستار!

كان لدى الرجل زوجته الشرعية أم أولاده، ولا يفكر فى الزواج للمرة الثانية على الإطلاق.. كما أن ميرفت العطيفى تدرك جيدًا أن عمر الشهابى ليس هو رجلها المناسب الذى يرضى طموحها، وإنما مجرد قارب نجاة ينقلها من نهر الفقر إلى محيط الغنى والثراء، مع أنها كانت تحصل على

obeikandl.com

مكافآت وحوافز، وبدلات تفوق عشرات المرات ما يحصل عليه أى محرر أو محررة فى صحيفة "مصر اليوم".. وحينما حانت اللحظة الحاسمة، ورآها عبد العليم طايع الصحفى العجوز المخضرم الخبير بالنساء المتعدد العلاقات وصاحب النزوات والغزوات فى مملكة حواء.. القريب إلى عقل وقلب القيادة السياسة القابعة فى القصر الجمهورى.. ألقت ميرفت العطيفى بشباكها عليه، اصطادته هى، وظن أنه الصياد الماهر الذى لا يرد له رمح ولا يكسر له سيف، وللوهلة الأولى فهم العجوز مغزى الرسالة، وسأل عنها بدهاء، وعلى الفور كان على مكتبه تقرير مفصل عن حياتها منذ ولدتها أمها بمستشفى الجلاء للولادة بقلب القاهرة وحتى الآن.. هى تعيش مع أمها التى كانت تعمل فى صدر شبابها راقصة فى الفرقة المصرية للفنون الشعبية ثم اعتزلت بفعل الزمن الذى لا يرحم، وعندما انزوى جمالها، وتوارى وراء تجاعيد السنين تقاعدت فى البيت، واعتمدت على المعاش الذى تركه لها زوجها محمود العطيفى والد ابنتها الوحيدة ميرفت والذى كان يكفيهما بالكاد..

وذات يوم شتوى مشرق الشمس كان عبد العليم طايع فى رحلة عمل صحفية إلى إيطاليا مرافقًا لرئيس الجمهورية ضمن الوفد الإعلامى على طائرة الرئاسة وبالطبع كان بين أعضاء الوفد عمر الشهابى، وبصحبته ميرفت العطيفى فى هذا اليوم التاريخى لمحها عبد العليم طايع بعين الخبير الواعر المحنك فى شئون النساء مثل جواهرجى يستطيع فى لمح البصر أن يقدر قيمة أحجاره الكريمة من أول نظرة.. ظل يراقبها بعينيه، ويتفحص ملامحها بشراهة ذئب مفترس يتربص بفريسته الشهية.. فأحست بغريزة الأنثى الماكرة ما يصبو إليه الرجل عاشق المغامرات فى بحور النساء.. تطلعت بطرف عينيها إلى شعره الأبيض القليل المتناثر على حواف صلعته الرحبة.. وقالت لنفسها:

هاهى الفرصة قد حانت وتدلت، وحان وقت قطافها، ويجب أن ألقى

القبض عليها.. راهنت على أنوثتها المتفجرة، ولهفة الرجل المتهالك الضعيف جسديًا القوى النفوذ فى بلاط صاحبة الجلالة، وكذلك فى مملكة السياسة أملاً فى أن تغير وجه حياتها للأفضل، وبالفعل نفذ سهم كيوبيد، وأصاب القلب، وقبل أن تنتهى الرحلة على الطائرة الرئاسية التى تشبه من الداخل الفندق سبع نجوم كان قد طلبها عبد العليم طايع من عمر الشهابى الذى تردد فى البداية، وتلعثم وحاول التملص من هذا الفخ دون جدوى..فقد صدر إليه أمر عبد العليم طايع مغلفًا فى صورة رجاء براق يخفى بين طياته نبرة تهديد ووعيد.. قال له طايع:

ـ أريدها فى مكتبى.. غدًا.

وبمجرد تفرق أعضاء الوفد الصحفى فى مطار القاهرة، تنحى عمر الشهابى بميرفت العطيفى جانبًا وقال لها هامسًا بنبرة قهر:

هناك موضوع مهم أريد أن أقوله لك، سوف أعرضه عليك ولك حرية الاختيار.. يا عزيزتى: أنت حرة فى حياتك ومستقبلك ومصيرك.. أما أنا فلست حرًا على الإطلاق فى الرفض أو القبول..

لأن عبد العليم طايع رجل ذو جبروت، وقادر على أن يطيح بى إلى ما وراء الشمس، ويستطيع أن يزج بى فى غياهب السجن، أو يقذف بى فى ظلمات المجهول، وقد يتمادى فى انتقامه فيغلق الجريدة التى أرأس تحريرها بكلمة واحدة منه كما يغلق مندوب رئاسة الحى أى محل مخالف للقوانين، ولا يدفع الضرائب المستحقة عليه، فهو الآمر الناهى فى شئون الصحافة المصرية، وهو قراقوش الإعلام فى المحروسة، وقد يشى بى فى أذن الرئيس أو وزير الداخلية، فيكون مصيرى السجن مدى الحياة وبئس القرار.. والتهم جاهزة ومعلبة، والقائمة طويلة لا تنتهى.. خيانة الوطن.. التجسس لحساب إسرائيل.. الإساءة للعلاقات العربية العربية.. التطاول على دولة صديقة.. إهانة رئيس دولة أجنبية، كتابة ما من شأنه تكدير الأمن العام والسلم الاجتماعى.. وغيرها من التهم المطاطة التى تستوعب أى

شخص وتكون على مقاسه تمامًا حسب تفصيل مقص ومازورة السلطة!

كانت الفرحة تقفز من عينيها ، والسعادة تكاد تطل من مقلتيها ، ولأنها تدرك مشاعر عمر الشهابى وأنانيته ، ورغبته فى امتلاكها مدى الحياة تملك السيد لجاريته ، تظاهرت بالضيق والحزن لفراقه ، جاهدت قدر طاقتها للمداراة وإخفاء حقيقة ما تشعر به.. وقالت بمكر ساذج:

ــ وماذا يريد منى هذا الرجل؟!

قال بنبرة مكتومة نحاسية:

ــ يريدك أنتِ نفسك يا عزيزتى.. يريد جسدك وروحك وأيامك ولياليك.. تلك هى القضية!

ردت باستهجان:

ــ يريدنى.. ماذا تقصد بهذا الكلام؟!

يريدك فى مكتبه بمؤسسة الأيام.. وأنا لا مانع عندى إذا كانت لديك رغبة فى ذلك.. وعلى كل الأحوال أنا أنصحك بقبول العرض والموافقة على النقل إلى مؤسسة الأيام فهى مؤسسة قومية كبرى ، وستجدين فيها مستقبلك

قالت بنبرة فيها سخرية واستخفاف:

ــ وأنت ماذا ستفعل بدونى؟!

باغته السؤال فتلعثم الرجل وقال:

ــ لن تكونى بعيدة عنى ، ولن أكون بعيدًا عنك.. المهم مستقبلك يا حبيبتى ، وفى الحقيقة أنا لا أريد أن أثير غضب عبد العليم طايع.. فهو رجل جبار ولدغته والقبر.

هزت رأسها بإستنكار ، وهمست لنفسها والسعادة الممتزجة بالحسرة تسرى فى شرايينها :

ــ يا جبان.. يا خسيس.. يهمك مستقبلى.. أم أنك خائف على نفسك

ومنصبك ياسافل وتريدنى أن أمضى أبد الدهر إلى أسفل سافلين وأسقط مع الساقطين والساقطات قلها.. تكلم؟!

ثم قالت بصوت مسموع:

ـ أنا موافقة على الانتقال إلى مؤسسة الأيام.. وليكن مايكون!

لم يتوقف الهمس بين المحررين جميعًا حتى صدر قرار عبد العليم طايع بالفعل بتعيين ميرفت العطيفى رئيسًا لتحرير مجلة " نجوم الفنون " أسبوعية متخصصة فى السينما والمسرح والتليفزيون والفن التشكيلى، وخصص لها ميزانية ضخمة ووفر لها كل الإمكانيات التكنولوچية والبشرية والمادية لتخرج إلى دنيا الصحافة بأبهى صورة، وتكون على غرار المجلات الأجنبية الراسخة والناجحة فى بلاط صاحبة الجلالة على المستوى العالمى مثل " ستوديو "، " بيبول "، " التايمز " وغيرها..

أصبحت ميرفت العطيفى بقدرة قادر الآمرة الناهية فى المؤسسة، والمسيطرة على كل كبيرة وصغيرة فى دروبها ودهاليزها وصالات تحريرها.. والمحررون يتغامزون ويتهامسون بأنها صانعة كل القرارات، وأن رئيس مجلس الإدارة مجرد واجهة أو صورة ليس إلا..

بدأت ميرفت العطيفى فى اختيار فريق عمل المجلة من المحررين، والمحررات من الإصدارات المختلفة بالمؤسسة للعمل معها، كما نشرت إعلانًا فى صحيفة الأيام تطلب فيه مواهب صحفية وخريجى إعلام، وكان من بين من اختارتهم ناجى شرف الدين الذى سمعت عن دماثة خلقه، وموهبته الفذة منذ كان يعمل معها فى جريدة " مصر اليوم ".. وقد نجحت فى انتزاعه من عبد العليم طايع الذى حاول الاستئثار به ليكون مساعداً له، لكنها أصرت على رأيها فرضخ الرجل صاغراُ لرغبتها.. كانت تتعامل مع الجميع من الصحفيين، والصحفيات بالمؤسسة وكأنها ملكة تربعت على عرش الكون، والكل يحسب لها ألف حساب، بعد أن أدركوا عن يقين بأن عبد العليم طايع صار دميه أو عروسة ماريونيت فى يدها تحركها

كيفما تشاء، وضد من تشاء، ولصالح من تشاء.

شرعت فى مهمتها بالإعداد لإصدار المجلة على ورق فاخر مصقول بأربعة ألوان لامعة براقة، كانت تقضى بين المحررين والموضوعات الصحفية والبروفات ساعات طويلة، ولا تنهى عملها الدؤب إلا بعد منتصف الليل يوميًا، ومن حين لآخر يلاحظ ناجى شرف الدين أن هاتفها يرن بلحن مميز ناعم، وتتحدث بهمس خفيف وتبتسم بغرور وخبث، وذات مرة سمعها تقول بصوت خفيض مثير.. يا عبد العليم ثم كررتها بصيغة أخرى أكثر تدللا وعذوبة قائلة: ياعبده.

هكذا نطقتها بدون ألقاب.. أومناصب أو مقدمات..

وبعد أربعة أسابيع فقط من إعداد الماكيتات والبروفات، وتجهيز العدد التجريبى صدرت مجلة " نجوم الفنون " وأقامت ميرفت العطيفى حفلة لطيفة جدًا داخل مقر المجلة، وأضاءت شمعة واحدة فى وسط تورتة كبيرة مكونة من تسع طوابق إشارة إلى طوابق مؤسسة الأيام، وحضر الحفل كل المحررين ومديرى التحرير بالمؤسسة وكذلك رؤساء تحرير الإصدارات الأخرى يتقدمهم عبد العليم طايع الرجل الكبير الوقور المهاب الركن..

بدا مبتهجًا كطفل صغير يلهو، وهو يضع يده فوق يد ميرفت العطيفى، ويقطع التورتة.. والكاميرات بأضوائها المبهرة من حوله تلتقط الصور الفوتوغرافية وفى صباح اليوم التالى كانت الصورتسطع مع خبر صدور العدد الأول من المجلة.

كانت الإعلانات تتوالى يوميًا فى الصفحة الأولى بجريدة الأيام عن مجلة " نجوم الفنون " حتى يترقبها القراء بشغف، وكذلك الإعلانات المتكررة بمعدل مرة كل ساعة تقريبًا على شاشة التليفزيون، وبصفة خاصة على القناة الرئيسية، ونجحت الحملة الإعلانية والدعائية للمولود الجديد فى دنيا الصحافة، وتردد إسم ميرفت العطيفى كرئيس للتحرير مئات المرات

مقرونًا بإسم عبد العليم طايع رئيس مجلس الإدارة، وبالفعل إكتسحت المجلة الأسواق، ونفذت أعدادها الأولى فور توزيعها، وتخاطفها القراء بلهفة وحرص على اقتنائها.

فى تلك الأثناء كانت ميرفت العطيفى قد استعانت بخادمة فلبينية ترعى أمها وتقوم على خدمتها، وتسهر على راحتها بينما استأجرت هى شقة جديدة لنفسها فى منطقة راقية بحى المهندسين بناء على رغبة عبد العليم طايع، وكانت كثيرًا ما تواعده وتلقاه فى تلك الشقة سرًا.. تداعبه ويداعبها.. تطارحه الغرام ويطارحها.. تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها.. كانت تحركاتها تبدو للآخرين من المحيطين بها، والمقربين منها مريبة غامضة، كانت حريصة أشد الحرص على ألا يهتك أحد سترها، ولا يعرف سرها حتى لا يفتضح أمرها، ودائما كان يساورها الشك بأن هناك من يراقبها، وأن عيونًا مجهولة تترصدها وتتربص بها لدرجة أنها كانت تمعن فى التنكر والتخفى بكل الوسائل وهى فى طريقها إلى شقة المتعة، وكانت تطلب دائما من سائق السيارة المخصصة لها من المؤسسة أن يتوقف بها فى ميدان "سفنكس" لتستقل هى سيارة أجرة أخرى حتى لا يعرف السائق وجهتها.. ولأن فئة السائقين فى مصر المحروسة لا تختلف كثيرًا عن فئة الحلاقين الذين يتميزون عن الفئات الأخرى بالثرثرة، وتقصى الأخبار والتنقيب عن الأسرار، والنبش بين طيات النيات والضمائر، كان سائقها يحكى هذه الأمور الصغيرة، والتفاصيل الدقيقة المثيرة لسكرتيرها الخاص حسام التونى، وفى أغلب الأحيان كان يرويها أيضًا لزملائه السائقين أثناء أوقات الفراغ والراحة، وهم جميعًا معًا فى غرفة السائقين يدخنون بلذة، ويحتسون الشاى بمزاج، ويلعبون الطاولة بفوضى وغوغائية.. ومن خلال مجموعة من الخيوط الرفيعة أدرك حسام التونى بحسه البوليسى أن هناك علاقة مشبوهة سرية وخفية تجمعها بالرجل الكبير فى المؤسسة، وأنها تغيب عن المجلة ساعات طويلة، ولا تذهب إلى بيتها وتغلق هاتفها المحمول.. كل أسبوع تلقاه سرًا مرة أو مرتين فى الشقة التى استأجرتها فى البداية ثم قالت

له وهى بين أحضانه ذات مرة:

أنها أحبت هذه الشقة، وأحبت ذكرياتهما فيها، وتريد ألا تغادرها أبدًا!

وعلى الفور اشتراها عبد العليم طايع وكتبها بإسمها.. دفع فيها مليون جنيه نقدا وعدا.. صحيح مليون جنيه بالكمال والتمام.. ولم يكن سكرتيرها حسام التونى يشك لحظة واحدة فى أن عبد العليم طايع هو الذى دفع ثمن هذه الشقة، ومن أموال المؤسسة التى يتربع على عرشها منذ أكثر من عشرين عاما، ويتصرف فى ملايينها كما يحلو له، ومثلما يتصرف السفيه فى الثروة التى هبطت عليه من السماء، وورثها فجأة دون عناء أو جهد يذكر.. وتشير الأرقام السرية فى حسابات المؤسسة أنه يتقاضى ٢٠٠ألف جنيه مع سطوع شمس كل نهار جديد، حصته من إيرادات الإعلانات حسب نسبة العشرة بالمائة المقررة لرؤساء التحرير، ورؤساء مجلس الإدارة من سيل الإعلانات المنهمر على المؤسسة وإصداراتها المختلفة، ويحكى المحررون فى المؤسسة حواديت تفوق حواديت ألف ليلة وليلة فى شططها وهوسها، وجنون أبطالها عن الإمبراطور عبد العليم طايع، وكأنه رجل أسطورى خارق، يذكرون قصره المنيف فى مدينة السادس من أكتوبر، والذى أنفق على تشييده ٧٥ مليون جنيه، واشترى كل أثاثه وتجهيزاته قطعة قطعة من إيطاليا، ويضم بين جدرانه لوحات لأشهر الفنانين العالميين من بينها لوحات أصلية بريشة ڤان جوخ وبيكاسو ودانتى بجانب أشهر، وأغلى لوحة رسمها فاروق حسنى وزير ثقافة مصر على مدى ربع قرن، وفنانها التشكيلى الخالد على مر العصور، وقدرت اللوحة بمليون دولار.. لكنه اتصل بالوزير، وأبدى إعجابه الشديد بها وأثنى على عبقرية الفنان الذى يتخفى فى ثوب الوزير، وأكد له أنه مستعد لاقتناء هذه اللوحة بأى ثمن، ومهما كان الثمن، وبذكاء الوزير الفنان ودهائه وكرم أخلاقه الحاتمى المعروف رفض أن يبيعها وأهداه إياها!

وهناك أيضا إستراحته الفارهة التى تشبه قطعة رائعة من الجنة، ولا

يقل ثمنها عن عشـرة ملايين جنيه، وتقع فى مكان مميز للغاية على شـاطئ السـاحل الشمالى.. هذا بخلاف الأموال السـائلة، والودائع الذهبية المجمدة فـى بنوك مصر وسويسـرا وباريـس وروما وأرصدته التـى تضخمت وتجاوزت أموال قارون، بالإضافة إلى الأراضى والشقق فى المدن الجديدة والشاليهات فى شـرم الشـيخ والغردقة والتى سجلها بأسـماء أولاده وأحفاده وأقاربه حتى يظل بعيدًا عن قبضة المسـاءلة، وحتى لا يكون ضحية قانون الكسـب غير المشروع أو تشريع من أين لك هذا؟!

حواديـت وحكايـات وأسـاطير تحكـى عـن هـذا الرجل الـذى يعد بحق أسطورة فى الصحافة والثراء، والأقرب إلى قلب ووجدان وأذن الرئيس..

هـذا الصحفـى العبقرى فى التسـلق والوصولية مثل شـجرة اللبلاب.. بدأ حياتـه مندوبًـا صغيرًا فـى وزارة النقل ثم تـدرج بدهـاء الثعالـب حتى إرتقى الكرسى الأكبر فى مؤسسة الأيام للصحافه والنشر.. كان الحظ حليفه والدأب والصبر سـلاحه حتى صعد القمة، وتربع فوقها سـنوات وسـنوات.. وظلت المرأة كمخلوق أنثوى متميز مهما كان شكلها ووصفها هى غرامه الذى لا يفتر، وشغفه الذى لا يهدأ ونقطة ضعفه الوحيدة!

***

(٢٨)

" جسـد الأنثـى معبدهـا .. تمنحه لمن تشـاء مـن الدراويش العاشقين العابدين.. فالمعبد لا يدخله إلا التائبون! "

تواصلت اللقاءات الودية بين حمد الغامدى وإيناس منـدور.. دبت بينهما الصداقـة والألفـة.. كان حمد يظنهـا حالة حب أو هكـذا إعتبرها بالفعل بينما هو بالنسبة لها مجرد صديق.. أو طبيب نفسى ترتاح للثرثرة معه، وهما يعيشـان كغريميـن غريبين عن وطنهمـا العربى الكبيـر، وبينهما صفات كثيرة مشتركة، ويتقاسمان الحنين للوطن.

ولمـا ألح فـى رغبته بالـزواج منها مرارًا وتكرارًا.. سـألته سـؤالاً ذكيًا خبيثًا.. قالت:

ـ ولماذا لا تتزوج فتاة أوروبية.. إنهن جميلات فارعات قويات أجسـادهن مثـل نتـف الثلج الأبيـض، وشـعرهن كأسـلاك الذهـب الخالـص، وأنوثتهن طاغية غامرة فياضة تروى ظمأ العطشـى من أبناء الصحارى مثلك يا حمد!

ضحكا سويًا ضحكة ذات مغزى مفهوم.

قال وكأنه يحكى فصولاً من رسالته الأكاديمية للدكتوراة أمام لجنة التحكيم:

ـ لـم يعـد خافيًـا يـا إينـاس أن المـرأة العربيـة لا تطولهـا الدراسـات، والاختبـارات المتعلقـة بـالأداء الجنسـى، والكفـاءة ومكوناتهـا النفسـية، وبدون خوض فى الأسـباب التى أصبح أغلبها معروفًا للعامة والمتخصصين.. تبقى المرأة العربية جنسـيًا عصية، وغير مدركة مع أن التكوين البيولوجى هو الصحة الجسـدية التى تتمتع بها، وجيناتها الوراثية، وكذلك وقوع أغلب النسـاء العربيـات فى المنطقة الدافئة،

أو الحـارة مما يفـرض ميولاً متكـررة للتعبير عن الدافـع العاطفى أو رغبة الجماع، لكن الرائج هو غياب هذه المرأة عن وضع المواصفات الجنسية للرجل، وعادة ما تكون هى ذاتها مادة لهذه المواصفات!

تبسمت قائلة:

ـ يـا دكـتـور حمد.. أقسـم لك بشـرف الأمـة العربية أننى لـم أفهم منك شيئًا.. ماذا تقصد؟!

اعتدل فى جلسته، ووضع كوب العصير من يده ثم قال:

ـ يـا عزيزتـى كـتـب التاريخ والسـيرة تحدثت عـن نوعيـات مختلفة من النسـاء الراغبـات بمعاشـرة من نوع خـاص، وكـذلك ذكـرت نوعية مـن الرجال ومن أشـهر الرجال المذكورين فى هـذا المجال هو " ابن الغز " الشـخصية التاريخية المعروفة الذى انتصر بذكورته، وفحولته علـى إمـرأة عربية كان الرجـال يخافون مضاجعتهـا، وعندما عرفت بـأن هناك رجلاً قويًا قادرًا على إروائها جسـديًا بدأ التحدى، ووافقت تلك المرأة على معاشرة هذا الرجل، وبعد انتهائها من مضاجعته قالت للناس:

هل بالركب تجامعون النساء؟! والإشارة إلى الركبة هنا مفهومة وواضحة الدلالة.. لكن الطريف أن العرب عرفوا نساء يتباهين بعدم وجود رجل قادر على إروائهن، واشباع احتياجاتهن النفسية والجسدية.. أى أن هناك إشارات معينـة تثبـت أن المـرأة العربية حارة فـى المضاجعة، وليـس هناك أى رجل يقدر على إشباعها تمامًا!

قالت ايناس وقد شد الحديث المثير إنتباهها تمامًا:

ـ أظن أن ما تقصده بحديثك هو عن المرأة الأفريقية السـمراء، وليست المرأة العربية البرونزية اللون.. أليس كذلك؟!

قال: هذه ليسـت مغالطة.. وأؤكد لك أن للمرأة السمراء خصوصية بالغة

فهى تعكس جسدًا مشدودًا ممشوقًا مزنرًا بالغموض، والرائحة الغابيّة الحادة.. جسد ممسوك من شهوة بالغة العودة إلى التاريخ، وإلى الحياة الأولى الشهوانية الهمجية.. كل إمرأة أفريقية سمراء هى دافعة ضرائب وضحية ديون تاريخية وعرقية بغيضة.. بينما الأخريات يتمتعن بحماية لونية كئيبة لا يستطعن فى أغلب الأحيان مجاراة السمراء فى اكتساب الحب والرغبة.. المرأة الأفريقية السمراء فكرة حب، ولذة لا نهائية بين أصناف البشر.

قاطعته إيناس بحنق وضيق وغيرة:

ـ وبماذا تتميز المرأة السمراء عن غيرها من النساء فى الشرق والغرب والشمال الأوروبى؟!

أقول لك يا إيناس:

يمتاز جسد المرأة السمراء بصفرة حزن تتغلغل بين دهاليز اللون الأسود المسيطر.. هى أنثى لا تشبع من خلق المتعة، كما تعد وجبات الطعام.. كما تقدم ناستازيا كأس الفودكا للأمير ميشكين حتى تتفحص مواطن رجولته لترضى اعجابها به.. تقول إحدى بطلات الأفريقى بول سونيكا :جسدى لحظة غرام دائمة، ولا وقت عندى إلا للمس، ومباركة الشهوة.. الأجساد النسوية الأفريقية تولد فى عين الشهوة ولا تشبع من الفراش!

ـ أعتقد يا دكتور حمد أن هذا كلام غير واقعى على الإطلاق، ولا يصلح إلا فى كتب الأساطير والروايات!

ـ لا تنسى أن الروايات الأدبية تؤرخ للواقع الاجتماعى والانسانى بشكل كبير

ـ بمعنى؟!

ـ أقول لك.. فى روايات ماركيز يأتى الرجل المشتاق، ويدهن المرأة بمربى المشمش ثم يبدأ بتناوله من فوق جسد امرأته.. يلعق المشمش

obeikandi.com

بلسانه عن اليدين والعنق والسَّرة، ويواصل لعق المشمش عن البقعة التى لن تأتى إلا مصحوبة بالنيران.. كل إمرأة أفريقية تمارس الحب بحجم امرأتين فى أى مكان آخر فى العالم.. إذا كان السرير هو الذى سيطفئ الحب فى الرواية فإن الجسد هو الذى يشعل تلك النار من جديد.. الجسد الأسمر النسوى المتوحش القادم من أدغال أفريقيا القارة السمراء الحنون!

ـ وكيف ترى الخلاف بين اللونين الأبيض والأسمر فى المرأة؟!

ـ يا عزيزتى.. يختلفون بين الأبيض والأسمر فى الجسد.. هذا السر العظيم لا يخرج من أفواه المتمتعين فى العواصم بسهولة.. سر الجسد الأسمر النسوى الممتلئ بأعذب الفاكهة الإستوائية.. تجيد المرأة السمراء إمتاع نفسها بنفس القدر، فهى تدرك أن لذة الرجل طريق يمضى باتجاه جسدها المعبَّد بانتظار اللحظة.. كلما استيقظت إمرأة أفريقية من نومها، وأبعدت غطاء السرير عن جسمها تتلألأ أضواء على الفخدين العاريتين، والخصر المشدود المتوتر.. إشباع المرأة الأفريقية ليس أصعب من حل أزمات الفقر فى تلك القارة العذراء البكر!

وعندما تشبع المرأة الأفريقية من الرجل سينتهى الفقر فى أفريقيا.. كل إمرأة فى تلك الغابة عناق بين الجسد ونفسه.. على نحو يجعل من طالبى الحب والمتعة طلاب علم ورهبان معرفة وثقافة!

ـ دعنا من المرأة الأفريقية.. خبرنى عن معلوماتك عن المرأة العربية يا خبير شئون النساء؟!

قال حمد الغامدى بثقة الحكماء وهدوء العلماء:

ـ تميل المرأة العربية إلى الضخامة فى تكوين الجسد.. كالوركين والفخذين والثديين، واذا أضيف لهما طول فى الجذع تكون المرأة قد اكتسبت مواصفات قياسية للفعل العاطفى.. لكن أخطاء فى الولادة

أو عملية التوليد يزيد من حجم عضوها التناسلى، ويجعله أكثر سعة من ذى قبل، وهى مسألة معروفة علميا وعمليا، إلا أن النقطة المهمة هنا أن المرأة العربية لا تلبث أن تستجمع جمال وتناسق جسدها، وعودة أعضائها إلى حجمها الطبيعى إلا وتكون قد دخلت فى حمل جديد، وولادة جديدة مما يبعدها عن أى إحساس سريع بالمتعة فى ممارسة الحب، وذلك بعد التوسع الكبير الذى أصابها فى كهف متعتها، وهنا تستقيل المرأة من ممارسة الرغبة، ويكون إرضائها لزوجها أمرًا متعذرًا.

قالت إيناس متسائلة بدهشة من غزارة معلوماته وثقافته النسوية الواسعة:

ـ وهل يعنى ذلك أن المرأة العربية أقل إثارة بالنسبة للرجل من المرأة الأفريقية والأوروبية؟!

تبسم قائلاً:

ـ هذا سؤال فى غاية الذكاء.. على العموم المرأة العربية معشوقة بالنسبة للآخر، وهى مطلوبة فى وطنها، ومرغوبة تمامًا لكن احتجاب معايير المرأة عن اختيار المواصفات الجسدية للرجل، يجعل من حياتها العاطفية غامضة وصعبة، وإن كان هذا لا يعنى أن الحال مأساوية على طول الخط، ويظل البحث فى منطقة معايير المرأة التى تحدد هى فيها مواصفات رجلها.. أسرع مكان يستدل به على المواصفات الذكورية التى تتطلبها النساء فى الرجال نراها فى الصحف، والقنوات التليفزيونية العربية التى تهتم بعرض رسائل الرغبة ما بين الرجل والمرأة.. وفى قراءة رسائل النساء اللواتى يرغبن فى الزواج، نلمح أهم الصفات التى تتمناها فى شريك حياتها!

تساءلت إيناس:

ـ وما أهم تلك الصفات التى تحلم بها المرأة فى رجلها وشريك

obeikandl.com

عمرها؟!

ـ أقول لك.. الصفات الأساسية التى تركز عليها أغلب النساء العربيات الراغبات فى الإقتران برجل ما ، هى طول القامة.. أغلب الرسائل إن لم يكن كلها تذكر العبارة التالية فى المواصفات التى تريدها فى الرجل: " أن يكون طويل القامة " ومن المعروف أن طلب المرأة للقامة الطويلة فى الرجل هو بالأساس إحساس غريزى صرف، فالقامة الطويلة تعكس فى نفس المرأة فحولة الرجل وخصوبته وسيطرته.. وبالتالى قدرته على الإرواء والإشباع.. طلب المرأة طول قامة الرجل هو طلب ينعكس لديها على بقية أعضائه.. ومن هنا فإن طلب المرأة العربية لطول القامة يعطى شيئًا ما عن دافعها الجنسى القوى الذى لا شك فيه على كل الأحوال وفى كل الظروف.

ـ وماذا أيضًا لديك يا عالم ببواطن أمور النساء؟! أكاد أجزم يا حمد أن رسالتك للدكتوراة فى أسرار المرأة وليست فى فنون الإدارة.. أليس كذلك؟!

ضحك حمد وقهقه عاليًا ثم قال متجاهلاً تعليقها:

ـ الصفة الروحية الأساسية التى ترد فى رسائل الرغبات بالاقتران هى "اللطف" فى الرجل، فأغلب الرسائل توجد فيها هذه العبارة " أن يقدر المرأة ويحترمها " أو "أن يكون لطيف العشرة " أو يحسن معاملة المرأة.. والإكثار من صفة اللطف تشى برغبة المداعبة والاقتراب السلس من الشريك لا الاقتراب الخشن ومن طرف واحد.. الإصرارعلى صفة اللطف عند الرجل هو طلب مسبق لنوعية من الممارسة التى يبدو أنها يجب أن تأتى مسبوقة بمداعبات معينة!

وإذا انتبه القارئ إلى أن أغلب صاحبات الرسائل هن من المطلقات والأرامل فلابد أنه سيتأكد من أن طلبهن لصفة اللطف فى الرجل جاء عن خبرة سابقة إما بحرمانهن من هذا اللطف من الزوج السابق أو اعتيادهن

عليه قبل فقدانه، وإن كنت أرجح حرمانهن منه فى معظم الأحوال.

وأعرف إمرأة مصرية مطلقة قالت لى ذات مرة: " أنا أكره حتى الرجل الجيد الطيب.. أنا أكره الرجل كرجل!" وقد وصلت هذه المرأة المسكينة إلى هذا الإحساس بسبب تعامل زوجها القاسى، والمتوحش معها فى الفراش وبسبب طبيعته الأنانية المستبدة الكسولة والمرضية.

- وما علاقة الجمع بين صفتى طول القامة واللطف وحرص المرأة على توافرهما فى الرجل الذى تختاره؟!

قال حمد بخبرة الحكيم الواعر المتعمق:

- إذا جمعنا صفة طول القامة جسديًا.. بصفة اللطف روحيًا.. وهما الصفتان اللتان تركز عليهما المرأة العربية، فتكون النتيجة الواضحة أن للمرأة العربية ميلاً للرغبة الطويلة الأمد لا الرغبة القصيرة الوقت.. بالإضافة إلى أن لديها ميلاً للإشباع الكامل.. كما أن المعاشرة طويلة الأمد لا تتأتى إلا مع رجل يمتاز ببطء وصبر فى الفراش، لأن سرعة الرجل تحول لحظة المتعة عند المرأة إلى جحيم لا يحتمل.. وعندما تركز المرأة العربية على طول قامة الرجل فذلك لاحتمال قوى بأن طول قامته سيمنحه نوعًا من الرضا عن الذات يمكنه من السيطرة على دافعه الجسدى، والتحكم فى شهوته أطول فترة ممكنة، وبالتالى السيطرة على اللحظة الحميمية الحاسمة، خاصة وأن كثيرًا من الرجال المغمورين الذين يعانون مشاكل فى التعبيرعن الذات يكون رد فعلهم العاطفى سريعًا ومحبطًا وسوداويًا.

قالت ايناس بجرأة:

- أعتقد أن طول القامة لا يضمن للرجل عنصر الفحولة، والقوة فى الفراش

قال بإعجاب:

obeikandl.com

ـ هذه ملاحظة فى منتهى الذكاء.. وأؤكد لكِ أن اختيار المرأة العربية لطول القامة هو لضمان الحد الأدنى على الأقل من ثقة الرجل بنفسه، وبالتالى ميله لإشباع شريكته، وبسبب الطبيعة البيولوجية القوية، والخصبة للمرأة العربية التى تجعلها متأخرة فى الوصول إلى لحظة السعادة الكاملة " الأورجيزم " مع شريك حياتها فإنها تصر على صفة اللطف.. اللطف يمكن ترجمته فى شكل مداعبات وقبلات وحب وهمسات ساخنة مثيرة حتى تصل إلى لحظة الإرواء التى تنشدها مع الرجل.

ـ لكن يا حمد.. المرأة العربية مقهورة نفسيًا وجسديًا تكبلها الثقافة المنغلقة، وتحريم التعرض للجسد والحديث عن شئونه وشجونه، لذلك هى دائما متهمة بالتخلف العاطفى، وأنها لا تعرف إمتاع نفسها وإمتاع زوجها.. ألا تتفق معى؟!

قال: برغم كل ميراث الثقافة المؤلم والمقيد لحريتها، وتحرر جسدها فإن المرأة العربية تحسن التعامل مع الرجل فى اللحظات الحميمية، وهى تعرف كيف تساعده على إمتاعها وإمتاعه فى الوقت ذاته..

لكن دعنى أحكى لكِ تجربة شخصية.. من خلال متابعاتى لبعض الصديقات المتزوجات لهذا الشأن النسوى: أخبرتنى إمرأة أنها تحتاج لكاتم صوت وهى تمارس الحب بسبب قوة الصوت الذى تصدره تمتعًا وبهجة، وأن زوجها كان يتضايق من صرخاتها، وآهاتها خوفًا من أن يتسلل صوتها إلى خارج غرفة النوم!

وهذه القصة تشى بقوة الإحساس لدى المرأة العربية، وأنها بحق من أفضل نساء العالم للزواج والمعاشرة والحياة العاطفية المستقرة!

***

(٢٩)

" لا أحد يمكنه التسلل إلى جحور الأفاعى سوى النمل! "

إرتاحت إيناس مندور لتقاليد السويسريين، وعقليتهم الحرة، وأجسادهم المتحررة وأحست أنها كان يجب أن تولد فى الغرب الأوروبى المستنير، وليس فى الشرق العربى المكبل بأفكار ظلامية رجعية، هذا العالم المأخوذ رهينة للجهل والتخلف.. كانت تعرف فى مصر عاهرات داعرات ساقطات يرتدين الحجاب، وتعرف أيضًا مومسات شاذات يحرصن على النقاب، يغطين الرأس والوجه والكفين، ويعرين العورتين!

تلك هى المأساة فى بلادنا الشرقية.. كل المتناقضات حاضرة..

فى الغرب الأوروبى حلمت إيناس بالحرية المطلقة، ووجدتها أكثر مما تتصور، وذات مساء كانت تتمشى فى حديقة عامة كبيرة تعج باللون الأخضر والورود، وتبدو خالية تمامًا من الناس إلا قليلاً، وفوق الحشائش هالها ما رأت.. كان المشهد مثيرًا للغاية.. شاب يمتطى فتاة بارعة الجمال، ونصفه الأسفل عارى تمامًا، والفتاة كذلك ومفتوحة الساقين أيضًا، والفتى يدخل ويخرج فيها بطريقة ميكانيكية، يلجها بعنف وعصبية، والفتاة تتأوه تحته وتكاد تصرخ من متعة الألم، وألم المتعة، وكلاهما فى قمة النشوة والشهوة.. وقفت إيناس مبهورة مبهوتة على بعد أمتار معدودة.. إتكأت على جذع شجرة، وظلت ترقب المنظر كما لو كانت تشاهد فيلم بورنو كامل الأوصاف، ومكتمل الإثارة، وفجأة لمحها الفتى وهو يبدل موقعه ليكون مضجعًا أسفل الفتاة بعد أن كان فوقها، وبسرعة إلتقط هاتفه النقال الملقى بجواره على العشب الأخضر، وأجرى إتصالاً والفتاة منهمكة فى ممارسة الحب معه بشراهة.. تحدث الفتى من تحتها بأنفاس لاهثة وبكلمات سريعة بالفرنسية.. لم تسمع إيناس منها شيئًا يذكر، وما

هى إلا لحظات وجاءت عربة الشـرطة تدوى بأبواقها الكلاسيكية، ونزل منهـا ثلاثـة رجال بملابسـهم الرسـمية الأنيقـة، وألقوا القبـض على إيناس مندور، لم تصدق إيناس أنهم كبدوا أنفسـهم عناء المجئ للإمسـاك بها، كانت تظـن أنهم جـاءوا للقبض على من يمارسـون الحب جهـارًا نهارًا فى حديقـة عامـة، وعلى الملأ وفى مكان مكشـوف ومفتوح لـكل العيون، لكـن الصفعـة التـى تلقتهـا، والصدمة التـى لطمتهـا أنهم جـاءوا للقبض عليهـا، وببلاغ من الفتى الجرئ الـذى يمارس الرذيلة فى الحديقة، والتهمة التى وجهها لها رجال الشـرطة السويسـرية هى التلصص على الآخرين دون اسـتئذان، وحرمانهـم مـن حقهم فـى التمتـع بالحريـة، والخصوصية التى كفلها الدسـتور والقانون السويسـرى لجميع المواطنين بلا اسـتثناء.. وفى قسـم الشـرطة ظلت تدافع عن نفسـها دون جدوى حتى اسـتأذنت فى إجراء مكالمـة هاتفية لصديقتها چانيت التى جاءتها على الفور، وتدخلت ودفعت غرامـة قيمتهـا ألف يـورو نظيـر إرتكـاب مخالفـة التعدى علـى خصوصية الآخرين، ليس هذا فحسـب بل وقعت إيناس مندور على إقرار بعدم تكرار هذه المخالفة وإلا عرضت نفسـها للسـجن.. خرجت إيناس مع چانيت، وهـى فـى غايـة الذهول لا تصدق مـا حدث، وبرغم ضيقهـا وغضبها من الموقف الصعـب والطريقـة المهينة التى تعرضـت لها أثناء القبض عليها، وسـخافة اسـتجواب رجال الشرطة لها، ومعاملتها على أنها غبية جاهلة حمقاء جاءت مـن بلاد الشـرق المتخلفـة لتنكد على أهـل الغرب حياتهم، وتـدس أنفها فـى شـئونهم الحميمية والخاصة جدًا، إلا أنهـا وبرغم كل ذلك كانت فى أعماقها فى منتهى السعادة لأن هؤلاء الناس يحترمون حرية الإنسان وحقوقه إلـى درجة التقديس، ويحافظون على خصوصية المرء حتى ولو كانت تلك الخصوصية فجورًا، وشذوذًا فى ميدان عام أو حديقة مفتوحة، ولكل فرد حريـة التصرف فى روحه وجسـده.. كل شـئ مبـاح ومتـاح لا محرمات.. لا ممنوعات.. بوتيك السعادة والتحرر مفتوح الأبواب دائمًا.

أوصلتها چانيت بسـيارتها الفاخرة، واطمأنت عليها، وقَّبلتها واحتضنتها

وهــى تودعهــا علــى وعــد باللقــاء فــى الغــد ، وتحسســت إينــاس تضاريس جســد صديقتها ، مســت بقوة نتؤاته وبروزاته.. لامســت دهاليــزه ومرتفعاته وتجويفاته، وهى تتحســر من أعماقها على هذا الجســد الذى لا يســتمتع به أحد ، وقالت چانيت وهى تخلص نفسها من بين يديها : ياإيناس هناك مفاجأة كبيرة تنتظرك فى ليلة الغد ، وســوف ترين مالا عين رأت، وتســمعين مالا أذن ســمعت يا عزيزتى.. وتركتها وانصرفت، بينما نظرات إيناس تتفحص ملامحهــا من الخلف، وتحدق فى مؤخرتها بإمعان بنظرات رجالية شــرهة، تعــرف مواطــن الجمــال والاثارة أيــن تنام، وكيــف يتم إيقاظهــا فى الوقت المناسب وفى المكان المناسب.

***

obeikandl.com

(٣٠)

" شئ عجيب.. المرأة تخاف وتفزع لو رأت فأرًا، ولا تخاف ولا تقلق إذا ذهبت إلى ذئب فى فراشه! "

فى كواليس مؤسسة " الأيام " شهد ناجى شرف الدين العجب العجاب، ومرت أمام عينيه أحداث عبثية لم تكن تخطر له يومًا على بال، وطافت بمسامعه حكايات أغرب من الخيال الجامح، وتفوق تصور المجنون والعاقل معًا.. فى الفترة التى انخرط فيها بمجلة " نجوم الفنون " مع ميرفت العطيفى عرف الكثير عن حياة المشاهير الخاصة وهتك أسرارهم، وانتهك فضائحهم القذرة، عرف منهم الشاذ والخائن والداعروالعاهر والأفاق، وعرف منهم أيضًا الفنانة الطاغية الحسن والجمال التى عرضت جسدها على المخرج الكبير وجدى الشامى ليعبر عليه فى الفراش ثم تعبر هى بعد ذلك من خلاله إلى دور البطولة، عرف أيضًا مَن تدعى أنها ملاك هبط من السماء وتتبنى طفلاً من ملجأ الأيتام وترعاه لوجه الله، بينما الحقيقة أنه ابنها الذى أنجبته فى الحرام فى لحظة حب جنونية طائشة، وهجرها من غرس بذرته فى أحشائها!

نجوم براقة تلمع، وتتلألأ أمام الناس بينما هم فى الواقع شياطين تسعى إلى الرذيلة والفاحشة، وارتكاب الكبائر واقتراف الموبقات، لكن استوقفه فى هذا الوسط.. الوسط الفنى.. الذى أحبه فى البداية، وانبهر به.. وكرهه ومقته إلى درجة البغض فى النهاية!

شاب أربعينى العمر بدين أبيض وردى، متورد الخدين ناعم الشعر كستنائى اللون، عيونه عسلية براقة.. يعمل كمصور فوتوغرافى بالمؤسسة، ونظرًا لعلاقاته الواسعة بالفنانين والنجوم، وارتباطه معهم بعلاقات غامضة ومشبوهة أطلقوا عليه.. " مصور النجوم "، وهو يمتلك استوديو تصوير خاص به على أحدث طراز.. هذا الشاب ميسور الحال جدًا..

إذا تكلم تلعثم، وإذا سكت تملكه الخجل مثل عذراء فى خدرها ليلة زفافها!

فى الاستوديو الخاص به كانت تبرم الصفقات، وفى جوف الليل المعتم والسهرات الحمراء والحفلات الصاخبة فى مجتمع النجوم، والمشاهير كان يعثر دائمًا على ضالته.. الطريف فى الأمر أن هذا الشاب الأعزب كان يقيم معظم الأيام والليالى فى الفنادق الكبيرة فئة الخمس نجوم، والمطلة على نهر النيل بصفة خاصة لتيسير عملياته السرية! كان ماهرًا بارعًا فى تصوير النجوم والجميلات والأميرات الخليجيات، كما كان بارعًا أيضًا فى اصطياد الحسناوات، وتوريدهن إلى الأمراء العرب ورجال الأعمال من أصحاب المليارات هواة الإقامة فى الفنادق الفاخرة.

وكانت ليالى العهر والدعارة تقام فى كثير من الأحيان تحت إشرافه وبرعايته، ودوره رئيسى ومحورى فى عمليات تسهيل لقاءات الفراش، والاتفاق بين الأطراف منذ البداية وحتى النهاية.. بداية من السعر حتى ممارسة الحب مدفوع الأجر، وطبعًا نسبته فى كل عملية لا تقل عن ٥٠٪ من قيمة ما تتقاضاه الفنانة أو الحسناء التى يقودها إلى صاحب الحظ والنصيب لتمارس معه المتعة فى أحد الفنادق الفخمة، وأحيانًا تزيد النسبة لتصل إلى ٦٠٪ لو كانت الأنثى نجمة كبيرة.. وذات مرة وفى إحدى الليالى كان يصور حفلة خاصة أقامها الأمير الثرى الوليد بن سلال بمناسبة شرائه سلسلة قنوات فضائية متخصصة فى الفن والرياضة والمنوعات، وكانت النجمة الجميلة ليلى عزمى متلألئة فى الحفل المبهر، ومتوهجة بفستان أحمر قانى نصف عارى يكشف عن صدرها النافر الناهض، وظهرها النحاسى الأملس المثير.. سال لعاب الأمير، وزاغت عينه على جسدها البض الشهى، وعلى الفور استدعى الأمير مصور النجوم الفوتوغرافى الشاب البدين خالد طلعت وطلب منه أن يدعوها لقضاء ليلة حمراء مع الأمير فى أحد قصوره المتناثرة فى طول البلاد العربية وعرضها، تلعثم خالد كعادته، وتاهت منه

الحروف كالعادة وما عاد قادرًا على النطق ثم قال:

ـ يا سيدى الأمير.. إن ليلى عزمى تختلف عن الأخريات فهى ترفض هذا الأمر نهائيًا، وقد تبلغ عنى الشرطة لو فاتحتها فى الأمر، وتكون فضيحة لا أول لها ولا آخر!

قال الأمير محفزًا إياه:

يا خالد.. لقد سبق وقدمت لى من هن أكثر منها جمالاً.. هل نسيت أنك كنت همزة الوصل لى مع النجمة ميرفت حسين والنجمة دلال عبد العظيم، وسمية الخطاب وغادة عبد الراشد.. وكلهن فاتنات شهيرات باهرات الحسن. هل نسيت يا خالد؟! عمومًا اطمئن أنا أعرف أن الموضوع يحتاج منك للكثير من الجهد، ويحتاج منى إلى المزيد من المال والصبر حتى أنالها، وإن كنت غير قادرعلى الصبر دقيقة واحدة بعد الآن.. أريدها الآن.. الآن.

تلعثم المصور خالد طلعت مجددًا، وبدأ يتشاغل بالكاميرا ويعبث فيها استعدادًا للتصوير.

قال الأمير بحزم چنرال عسكرى صارم:

ـ إسمع يا خالد.. لك مليون جنيه لو نجحت فى إقناعها بقضاء ليلة واحدة معى.. وهى لها منى خمسة ملايين جنيه.. مبلغ مناسب أليس كذلك؟!

لم يصدق خالد الأرقام التى يسمعها ورد بسرعة وحماس:

ـ أمرك.. أمرك.. يا سمو الأمير سأحاول والله.. مليون لى وخمسة لها.. هذا ظلم والله.. ليتنى كنت أنثى!

ضحك الأمير وقهقه من قلبه قائلاً:

ـ مليونان لك لو نجحت فى مهمتك، ولاحظ أن الوقت كالسيف

تبسم خالد طلعت بابتسامة عريضة وقال:

ـ الفلوس يا سمو الأمير تحرك الحجر وتحوله إلى ملبن.. إن شاء الله

سـوف أنجح، وقبل أن يمر أسـبوع واحد سـتكون الجميلة ليلى عزمى فـى مخدعك وبين أحضانك.. هى سـوف تحظى بهذا الشـرف يا سـمو الأمير!

وخـلال ٤٨ سـاعة قـد كـان.. خضعت فاتنة الشاشـة للملاييـن، وفتحت فرجهـا للأميـر الذى يشـبه الصعلوك فى ليلـة من ليالى ألـف ليلة، وفتحت خزائنهـا للملاييـن التـى حصدتهـا فـى ليلـة واحـدة، ولـكنهـا قـررت ألا تنتهـى بنهايـة تلك الليلة.. لقـد صارت رفيقة خاصة وصاحبـة دائمة للأمير، والجميع فى الوسـط الفنى والسياسى والصحفى، ومجتمع الليل والسهرات والحفـلات والأضواء والسـينما والنجـوم يعرف تمام المعرفـة أنها أصبحت النجمـة الأكثر نفوذًا بملايين الأميـر الخليجى بعد أن تحولت إلى محظيته التـى تتحكم فى كل قنواته ومحطاتـه الفضائية والأرضية، الإذاعية منها والتليفزيونية.. ولها كلمة مسـموعة فى تحريك ثروته، واقتطاع جزء كبير منهـا إلى رصيدها فى البنوك.. ثروة المليونيـر الامبراطور تفوق ثروة قارون مئـات المـرات.. صارت تتحكم فى أمواله ومشـروعاته وقنواته تمامًا مثلما تتحكم فى جسده وعقله وقلبه!

***

(٣١)

" ليس هناك من يولد ضعيفًا بالوراثة.. ولكن الضعيف من يجهل أسرار القوة بداخله! "

لم يكن خالد طلعت المصوراتى الفوتوغرافى الأشهر فى أوساط الكبار، ونجوم مجتمع الليل يتوقف عند تصويرهم، بل كانت الكاميرا ستارًا يتخفى خلفه ليروج بضاعته، ألا وهى توريد الحسناوات المصريات للسياح العرب، وتصدير الفنانات الناشئات الصاعدات إلى مخرجى السينما، ورجال الأعمال الكبار العتاة ذوى الثراء الفاحش والنفوذ الطاغى، حتى وقعت الواقعة، وحلت الكارثة التى لم يكن يحسب لها أى حساب فى يوم من الأيام، حدث ما حدث نتيجة صداقته الوطيدة مع رجل الأعمال الشهير الملياردير همام مصطفى صاحب الشركات العقارية العملاقة، والمشروعات الاستثمارية الضخمة وعضو مجلس الشورى عن الحزب الحاكم، وهو رجل طموح جموح، عاشق للنساء بشتى ألوانهن وصورهن وتضاريسهن.. تلك نقطة ضعفه الوحيدة والخطيرة.. هذا الديناصور المالى صاحب إمبراطورية الثروة والسلطة والتجارة فى رحلة صعوده إلى عرش الملايين خمس نساء جميلات شكلن معالم حياته فى مشوار كفاحه.. إحداهن تعرف عليها فى إحدى السهرات الصاخبة عن طريق المصور الفوتوغرافى خالد طلعت.. وهى مطربة لبنانية مغمورة ومجنونة بالشهرة والفن والمجد تدعى سوزان عبيد.. وقد تمكنت هذه المغمورة المجهولة من حرمان صاحب الجاه والسلطان والصولجان والحصانة البرلمانية من نور الحياة، ونسمات الحرية، أطاحت بالملياردير خلف أسوار السجن.. وظلت روحه مهددة بالإعدام بسببها ما يقرب من ثلاثة أعوام!

أما المرأة الأولى فى حياة همام مصطفى فهى سيدة من الوسط الفنى حيث إرتبط بالنجمة المعتزلة " لورا " ورغم رفض والده مصطفى مبروك

بشـدة إلا أنه تمسـك بإختيـاره، وأصر على الزواج منهـا.. كـان الأب فلاحًا عصاميًا يعارض تلك الزيجة غير المتكافئة اجتماعيًا وانسـانيًا، ورأى أنها سـتدمر حياة ابنه، وتبدد ثروته وتعرقل مسيرته ومع ذلك لم يقف أمام رغبة ابنـه الجامحـة فـى " لورا ".. هذه المـرأة المطلقة من زوجها الممثل الشـهير عاصـم ذو الفقـار بعـد تورطه فـى قضية مخـدرات.. طلقت لورا نفسـها من زوجهـا المدمـن، وطلقت نفسـها من الفن أيضًـا.. اعتزلـت التمثيل وارتدت الحجاب..

جـاء زواج همـام مصطفـى مـن لورا قبـل عقد مـن الزمـان، كـان عمره وقتها ٣٥ عامًا فيما تكبره هى بخمس سنوات، ولم تستمر الحياة الزوجية بشـكل طبيعـى بينهمـا طويـلاً لأن همـام مصطفى رجـل متقلـب المزاج، متطـرف الرغبـات، جامـح الأهـواء، فنشـبت بينهمـا خلافات ومشـاكل كثيـرة، وكانـت النتيجـة أن ألقـى عليهـا يميـن الطلاق مرتيـن، وعادت إلـه مـرة ثالثة، ثم تجددت الخلافات بينهما فعادا للانفصال والمشـاحنات والشـجار مجددًا، وفى هذه الأثناء تدخل والـده وضغط عليه لكى يطلقها بصفة نهائية وبلا رجعة للمرة الثالثة!

أراد همام أن يعيد " لورا " إلـه مرة أخرى بعد أن أحس أنه يشـعر بالحنين إلـهـا ويشـتاق فعلاً لوجودهـا فى حياته، وأن حبها ملـك عليه قلبه وتمكن مـن وجدانه.. وهنـا علم أنه لابد من فتوى شـرعية مـن دار الإفتاء المصرية، لأن الطـلاق وقـع ثلاث مرات، والمرة الثالثة مثبتة فى أوراق رسـمية، وعلى الفور توجه همام مصطفى إلى دار الإفتاء، وادعى أنه رفض فى البداية أمام المأذون واسـمه الشـيخ عبد الفتـاح الدويب مأذون منطقـة الزمالك.. لكن والده أجبره على التوقيع على أوراق الطلاق رغمًا عنه، ودون رضاه إلا أن دار الإفتاء خيبت ظن همام مصطفى، وأكـدت له أن إثبات بطلان الطلاق إذا تم أمام مأذون لابد له من اللجوء إلى المحاكم الشرعية، ولكـن همام تراجع عـن هذه الخطوة أمام ضغوط أسـرته، وخاصة والـده ولم يكمل رغبته فى

العودة إلى زوجته السابقة، وحبيبته النجمة المعتزلة لورا حتى لا يصطدم بوالده من جديد، وقد تكون العواقب وخيمة لا يقدر على احتمالها!

أما المرأة الثانية فى حياة رجل الأعمال الملياردير همام مصطفى فهى هويدا التى اختارها له والده لتكون سنده فى مشوار الثروة والسلطة، وبالفعل استقر همام معها ردحًا من الزمن، وأصبح صاحب أقوى إمبراطورية عقارية فى مصر والوطن العربى ودخل مجلس الشورى، وحظى بعضوية لجنة السياسات بالحزب الحاكم إضافة إلى أنه أنجب منها أولاده، كل ذلك ولم تظهر هويدا فى الصورة على الإطلاق، ولم تسلط عليها الأضواء، ولم تحظ بالشهرة التى حظيت بها سوزان عبيد المطربة التى كانت مغمورة قبل أن تدمر حياته، وتهدم مستقبله وتقوض أركان إمبراطوريته!

المرأة الثالثة فى حياة همام مصطفى هى سوزان عبيد صاحبة القضية الأشهر والأبشع فى الصحافه خلال السنوات العشر الأخيرة، ارتبطت معه بقصه حب مثيرة وجريئة وغريبة منذ قدومها إلى مصر هاربة من زوجها اللبنانى عادل مسعود، واستأجرت شقة فى شارع مصدق بحى الدقى بالقاهرة، وتعرفت على همام آنذاك من خلال صداقتها لمصور النجوم خالد طلعت الذى رأى أمه وهو طفل صغير تخون والده مع عمه، فبدت كل الأمور بعد ذلك مختلطة فى ذهنه ولا مانع عنده من أن تكون كل النساء لكل الرجال.. شعاره المرأة للجميع والحرية للجميع.. المهم ألا يكون هناك أى ضغط أو إكراه.. فلا إكراه فى المعاشرة!

ومنذ البداية إنجذبت سوزان عبيد إلى همام مصطفى، وبنفس القدر كان هو أكثر إنجذابا إليها.. أحبها بجنون، ووطد علاقته معها قرابة الثلاث سنوات.. هى أكدت أنه حب عذرى رومانسى طاهر برئ لكن كل الشواهد والأدلة وطبيعة الرجل الذئب الذى يعيش الحياة بطريقة عملية تثبت عكس ذلك تمامًا!

عائلة همام رفضت زواجه منها، ووضعوا كل العراقيل والمطبات أمام هذا

المشـروع وقيل أنه تزوجها عرفيًا ، ونظرًا لأن جواز سـفرها الأصلى مثبت فيه أنها سـيدة متزوجة من رجل الأعمال اللبنانى عادل مسعود ، استخرج لها همام مصطفى جواز سفر جديدًا بعلاقاته وماله ونفوذه ، أثبت فيه أنها سيدة مطلقة ، وظـن همام أنـه تمكن من إزاحة العقبة القانونية التـى تحول بينه وبين الزواج من فتاة لبنان سـوزان عبيد ، لكن والدته ظهرت فى الصورة ، ورفضت إتمام هـذه الزيجـة بإصرار وعناد لا يلين ، فما كان من همام إلا أن نظم رحلة عمرة إلـى الأراضـى الحجازية المقدسـة ، وهناك كان اللقاء المرتقب بين سـوزان وغريمتهـا أم همـام ، ودارت بينهما حوارات وأحـداث ومواقف وتفاصيل قربت بينهما ، لكن ظلت أم همام على موقفها الصلب المتشدد الرافض لزواج ابنها مـن هـذه المطربـة المغمـورة ، أو نصف المشـهورة التى لم تصدر سـوى ألبوم غنائى واحد يتيم!

استـغلت سـوزان ثـراء همـام ، وتجولت معه فـى بلدان كثيرة مـن العالم بطائرتـه الخاصـة ، وعاشـت كأميرة فى القاهرة وشـرم الشـيخ والغردقة ومارينـا ، وكان الرجـل كريمًا معها إلى أقصى درجـات الكرم ، فأغدق عليهـا بالأمـوال الطائلة ، وحقق لها ما كـانت متمسـكة به لأقصى حد ألا وهـو تطليـق زوجته أم أولاده ، فكان دائمًا يتهـرب من رغبتها تلك بإغراقها بالأمـوال والهدايـا والمجوهرات ، وأنتـج لها بعض الأغنيات فى سويسـرا ، وللأسـف الشـديد لم تذع هذه الأغانى حتى الآن لأسباب غامضة ومجهولة.. وقيل إن سوزان عبيد كانت شاهدة على معظم الاتفاقات المتعلقة بأراضى مشـروعه الأضخـم " بلـدى " لبنـاء وتشـييد العقـارات والڤيـلات والشـقق السـكنية ، وكان همـام يسـتقبل فـى كـثير مـن الأحيان فى بيتهـا عددًا مـن ضيوفـه المهميـن والكبار فـى مجال المال والاسـتثمار فـى الأراضـى والعقـارات ، كمـا كـانت شـقتها أيضًا ملتقـى لعدد من أكابر السياسـة ورموز البرلمان والحزب.

فجـأة وبـلا مقدمات دبـت الخلافـات بين سـوزان وهمام بسـبب الغيرة..

جـن جنونه وقرر الانتقام منها ، ودبر لقتلها فـى دبى مدينة الثراء والعقارات وسوق المال ، وذلك من خلال استخدام ضابط أمن دولة سابق أعطاه مليونى دولار لينفـذ جريمته خارج الحدود ، وأوصلته تلك الخطة الجهنمية إلى حبل المشنقة!

لكـن مَن تكون المرأة الرابعة فى حياة همام مصطفى العاطفية ، وكيف ارتبط بها هذا العاشق الولهان للمال والسلطة والجوارى الحسان؟!

المرأة الرابعة فى أجندته الحمراء هى المذيعة اللامعة ياسـمين حسـان ، وقد ربطته بها علاقة عاطفية غرامية سـريعة ، وعابرة ثم تزوجها فورًا حتى تعلم سوزان عبيد أنها بالنسبه له مرحلة وانتهت للأبد من حياته بدليل زواجه من صديقتها المذيعة!

وكأنه أراد أن يكيد لها ، ويثير حنقها وغيرتها ليس إلا!

وبالفعل تزوج ياسـمين حسان ، واليوم التالى مباشرة لنشر خبر زواجه فى الصحف والمجلات تم القبض عليه ، وخضع للتحقيقات فى مكتب النائب العـام بتهمـة التحريض علـى قتل المطربـة اللبنانية سـوزان عبيـد ، وبرغم سـاعات العسل القليلة التى عاشـتها ياسمين حسان مع همام إلا أنها نصبت نفسـها مدافعًا قويًا عنه أمام الناس ووسـائل الإعلام والرأى العام ، وأشادت كثيـرًا بخلقـه الرفيـع ، وكرم أخلاقه وحسـن سـلوكه ، وبراءتـه من دم سوزان ، لكنها سرعان ما توارت عن الأضواء واختفت عن العيون ، ولم تعد تحضر جلسات محاكمته ، وصدرت أوامر عليا من وزير الإعلام بمنعها من الظهـور على شاشـة التليفزيون المصرى ، وعدم تقديمهـا لأى برنامج لحين حسـم قضية همـام مصطفى فى سـاحات القضـاء ، والتى إعتبرهـا الوزير قضية رأى عام بإمتياز!

***

(٣٢)

" الحب سيناريو تقوم المرأة بتمثيله، ويقوم الرجل بتمويله! "

أظهرت جلسات محاكمة الملياردير همام مصطفى فى قضية ذبح المطربة سوزان عبيد إمرأة خامسة فى حياته ألا وهى سمر شقيقته التى لعبت دورًا مهمًا، ولقبت بالدينامو.. إنها إمرأة بمليون رجل، فقد وقفت بجوار شقيقها فى محنته بكل شجاعة واصرار على براءته، ولم تتغيب جلسة واحدة من جلسات محاكمته الطويلة والمتعددة، وكانت طوال شهور المحاكمة هى المحرك الرئيسى للعائلة كلها، وكانت هى الوحيدة من نساء العائلة التى تحضر إلى قاعة المحكمة من البداية إلى النهاية، وظهرت سمر قوية صلبه متماسكة.. لذلك كان همام يلجأ إليها، ويهمس فى أذنها يبلغها بما يريد، فتذهب مباشرة إلى المحامى الذى كان وزيرًا سابقًا للعدل أثناء وجوده فى الصف الأول وأمام منصة المحكمة مباشرة، وتتحدث معه وتأمره أن ينفذ رغبة شقيقها القابع فى القفص الحديدى!

حتى آخر جلسة حضرت المرأة القوية سمر مصطفى برغم تأكدها من أن الحكم سيكون بالإعدام، ومع هذا جاءت لتؤازر شقيقها وتقوى عزمه، وتطمئنه بأنها لن تتخلى عنه، ولن تيأس من دعمه ومساندته والوقوف إلى جواره طالما أن هناك فرصة للدفاع عنه، وإنقاذ رقبته من حبل المشنقة!

وقد كذب القاضى إيمانها بالإعدام، وحكمت محكمة النقض بإلغاء حكم الاعدام الصادر بحق شقيقها همام مصطفى.. خيب القاضى ظنها فكانت فى قمة السعادة، ورقصت وقفزت فى الهواء من الفرحة بهستيرية وجنون!

فى هذه اللحظة أحست أن الله لن يتركها تحزن على شقيقها.

دخل مصور النجوم خالد طلعت فى استجوابات وتحقيقات لا أول لها ولا

آخر ضمن هذه القضية، بصفته كان شاهدًا على كل الأحداث والوقائع من البداية إلى النهاية، منذ جاءت سوزان عبيد من بيروت واستقرت فى القاهرة ٣ سنوات حتى هربت إلى عاصمة الضباب لتعيش مع رجل آخر فى لندن ثم تعود لكى تستقر فى مدينة دبى بعد مطاردة مستمرة من زوجها رجل الأعمال ومنظم الحفلات اللبنانى عادل مسعود لتكون المدينة الإماراتية مستقرها الأخير الذى شهد نهايتها المأساوية، ونحرها فى ساعة نحس!

قدم خالد طلعت للنيابة والمحكمة كل ما يملك من صور, ومعلومات تتعلق بسوزان وعلاقاتها المتعددة مع الرجال، وبصفة خاصة الفترة التى قضتها مع همام مصطفى، وكيف استضافها فى أحد فنادقه الشهيرة المطلة على النيل على مدى أكثر من عامين، وأنفق عليها حوالى خمسين مليون جنيه غير المجوهرات والماس والهدايا الثمينة الأخرى.

لكن من تكون سوزان عبيد تلك التى مزقت قلوب الرجال، وفى النهاية مزقوها إربًا بسكين حاد شفرته قاتلة؟! ما تاريخها وماذا أنجزت؟!

درست سوزان عبيد فى كلية الصيدلة حتى السنة الثالثة، ولم تكمل دراستها بعد أن تقدمت إلى برنامج "ستوديو الفن" وفازت بجدارة بالمركز الأول، ونالت الميدالية الذهبية.. وسبق لها الزواج مرتين.. الأولى من مخرج تليفزيونى لبنانى، ولم تستمر حياتها الزوجية سوى ستة أشهر والثانية من عادل مسعود منظم حفلات، وبعد عشرة أشهر طلبت الطلاق منه، لكنه رفض تطليقها، وتمسك بالحياة معها فأصرت على موقفها وانفصلت عنه، وتركته وانتقلت إلى القاهرة وكان زوجها يملك حقوقًا فنية عليها من خلال عقود احتكار لشركته لإنتاج الألبومات الغنائية، لذلك رفع ضدها دعوى قضائية فى لبنان، وطالب نقابة الموسيقيين فى مصر بمنعها من ممارسة أى نشاط فنى فى هوليوود الشرق، بل ونجح فى منع القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية من عرض أغانيها وكليباتها على الشاشة وأمام الميكروفون.

عاشت حياة قصيرة لا تتجاوز الثلاثين عامًا، ورحلت بطريقة دراماتيكية جهنمية، حيث لقيت مصرعها فى دبى عندما عُثر عليها مذبوحة فى شقتها بعد أن عاجلها القاتل بمجرد دخوله الشقة بسكين على رقبتها فى البرج السكنى الذى تقيم فيه، وذكرت شرطة دبى أن القاتل تم تصويره بكاميرات أمن البرج السكنى، وأنه غادر عائدًا إلى مصر بعد ساعة واحدة من إرتكابه الجريمة، وبالتعاون مع السلطات المصرية تم إلقاء القبض عليه، وهو ضابط أمن دولة سابق، ويعمل مديرًا لأمن أحد الفنادق المملوكة للملياردير همام مصطفى، والذى اعترف بتقاضيه مليونى دولار ثمن قتلها وإزهاق روحها..

ولأن القضية كبيرة، وتهم الرأى العام نظرًا لاستثمارات الملايين فى البورصة وارتباط آلاف المواطنين بشركات وعقارات همام مصطفى، ولها جانب سياسى وفنى، واقتصادى كلفت ميرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون " بمؤسسة الأيام المحرر الصحفى ناجى شرف الدين بمتابعة القضية بالتفصيل مع اجراء حوارات مع أفراد أسرة سوزان عبيد وكذلك نساء همام مصطفى.. الناس تحب قراءة هذه الحوارات الإنسانية.. وبالتعاون مع زملائه المحررين أعد ملفًا متميزًا، وعرضه على رئيسة التحرير بعد أن أصبح بروفات جاهزة للطبع فأعجبت به وأثنت على الجهد الصحفى المبذول تحريريًا واخراجيًا.

ولإعجابها بما فعله ناجى شرف الدين حاولت أن تعرب له عن تقديرها لجهوده كلفته بكتابة عمود صحفى أو مقال ينشر مع ملف القضية التى اختار لها ناجى عنوان " الدم والعشق ".. وشعر بالسعادة والإمتنان لميرفت العطيفى وكتب مقالاً بعد أن زار همام مصطفى فى سجنه كتب يقول:

" إن قضية سوزان عبيد وهمام مصطفى أعادت إلى أذهان الناس مسلسل الجرئ والجميلات، وإن كان الواقع أن هذا المسلسل فى نسخته العربية يمكن أن يطلق عليه " المليونير والجميلات ".. لكن ما الذى يجعل رجل

أعمال ناجح وسياسى بارز من طراز فريد له مكانة عظيمة، ومستقبل واعد فى حزب السلطة الحاكم ليصرف ملايينه بهذا البذخ على سوزان وحدها؟! إنها بكل تأكيد ليست ملكة جمال الكون، وليست آخر اللبنانيات الفاتنات كما أن أمواله الطائلة المتدفقة من كل صوب وحدب تستطيع أن تؤمن له أجمل جميلات الكون لو أراد وحتى نهاية العمر.. فماذا كان لدى سوزان عبيد أكثر مما لدى غيرها من مئات الجميلات اللواتى لا يكلفن الرجل ربع ما أنفقه عليها همام مصطفى فى يوم واحد؟!

ما الذى يجعل رجل أعمال له مشروعات عملاقة، وشركات هائلة من الممكن أن تنهار من مجرد شائعة لأن يغامر باسمه وسمعته، ومكانته ونفوذه وشركاته من أجل إقامة علاقة غرامية مشبوهة مع مطربة نصف مشهورة وعلى ذمة رجل آخر؟!

أستبعد أن تكون لدى همام مصطفى شهوة التملك.. فماذا كانت سوزان عبيد ستضيف إليه؟! فالرجل لديه من الشهوة والمال والنفوذ ما يكفيه مدى الحياة، وإذا لم تكن علاقته بها مثل غيرها من نوع تزاوج المال والشهرة.. كما رأينا فى زيجات الفنانات من رجال أعمال لتكتمل دائرة الضوء والنجومية.

لقد كانت تلك الدائرة مكتملة تمامًا حول همام مصطفى.. لكن السؤال الآن.. هل هو فعلاً وقع فى حبها، وغامر بكل شئ من أجلها؟! ربما يعتبره الكثيرون سؤالاً ساذجًا، ولكن ما الذى يجعل أولاد الملوك يتزوجون من عامة الشعب، ويتنازل الرجال عن عروشهم، وألقابهم من أجل نساء قد لا تبدو فيهن مسحة من الجمال؟!

ولكن تحت سلطان وهم اسمه الغرام يفعل بعض الرجال ما نعتبره نحن العقلاء دربًا من الجنون.. ألم يتنازل الملك ادوارد الثامن عن العرش ليتزوج من المطلقة الأمريكية السيدة واليس سمبسون؟! ألم يتحدى الأمير تشارلز القوانين الملكية التى تحتم الزواج من عذراء ليتزوج من حبيبته المطلقة

كاميلا باركر التى عرفها فى عام ١٩٧٠.. وبعد أكثر من عشرين عامًا تخللها زواج لها وآخر له وأولاد ينجح الأمير تشارلز فى أن يتزوج حبيبته ليجمع بين الحب والعرش معًا!

أنا على يقين أن سوزان عبيد كانت تتمتع بذكاء أنثوى خارق لتجعل كل رجل ارتبط اسمها به يشعر أنه شمشون الجبار أو طرزان أو سوبرمان، وهو المخلِّص الذى على يديه وحده دون سواه يكون خلاصها من المعاناة التى برعت فى نسجها حتى توهم كل رجل أنها أنثاه التى لا تنشد غير الحب والحنان والحماية والأمان فى كنفه، وحفنه من الدولارات يوميًا، ولذلك أغدقوا جميعًا عليها العطايا والهدايا والخدمات!

وزاد همام مصطفى عن الجميع، وفاضت هداياه وعطاياه داخل مصر وخارجها.. ومن أجل عيونها الساحرة أنقذ والدها وشقيقها من تهم وقضايا خطيرة..

لم يتخيل أنها من الممكن أن تتمرد عليه فى يوم من الأيام، فقد أعطته الشعور بأنه هو الفارس الوحيد الذى نجح فى اقتناء الحسناء الفاتنة التى تهوى الزواج وتعدد الرجال فى حياتها على طريقة أفلام الويسترن.. أو كما يسمونها أهل الشام.. الخطيفة.. زواج الخطيفة!

الشئ المحير.. هو لماذا تلجأ سوزان عبيد لهذا السلوك فى اقتناص المليونيرات من رجال الأعمال ونجوم المجتمع والمشاهير؟! ولماذا كلما أغدق عليها أحدهم أدارت إليه ظهرها لتبحث عن آخر يخلصها من سابقه؟! ولماذا تحرص دائمًا أبدًا على أن توحى لرجلها الجديد أنها شهيدة الحب والاخلاص، وضحية الرجل السابق الخائن؟! ألم يكفها رجال يتسابقون لإرضاء نزواتها وتطلعاتها، وشهوتها للحب والمال والشهرة؟! وبرغم أن قائمة غرامياتها والرجال فى حياتها طويلة وممتدة إلا أنها محظوظة.. فما زال الذكور يتكالبون عليها مثل ملكة النحل.. وهمام مصطفى أيضًا لا يشبع، هو مثلها تمامًا.. ألم يكفه ما عرف من النساء؟! هل تريد الأنثى أن

تكون محاطة بالحب والرعاية والحنان والمال من أكثر من رجل؟! هل ترغب المرأة فى تعدد الأزواج؟! ماذا كان ينقصها فى علاقتها مع همام مصطفى؟! وماذا كان ينقصه ليقيم معها علاقة.. فلديه المال الذى لا ينتهى، والجاه والمركز والسلطان والصولجان والنساء أيضا؟!

لماذا كل هذا.. وما سر حرصها على أن تتمادى فى محاولة إستمالة والدته من أجل مباركة زواجهما؟!

هناك خلل بالتأكيد فى تركيبتها النفسية يجعلها تفتقد الشعور بالأمان والحماية ويدفعها للفرار هنا وهناك.. من حصن إلى حصن.. ومن حضن إلى حضن.. ومن بنك إلى بنك بحثًا عن الرجل المدجج بالمال، والحنان ليكون بمثابة الدرع الذى يحميها من غدر الزمن أو من غدر رجل آخر!

وربما كان لديها هاجس يرعبها ألا وهو أن رأس مالها هو جمالها الذى سيذبل لا محالة مع الأيام، حتى وإن توافرت عمليات التجميل، وضمنها لها أحد عشاقها المغرمين.. كما ذكرت هى ذلك بنفسها!

كانت سوزان عبيد تشعر ببعض الراحة فى بداية كل علاقة غرامية حتى تكتشف بعد ذلك أن كلمة الحب عند الفنانين والمشاهير مثل كلمة الديمقراطية عند السياسيين لا معنى لها فى نهاية المطاف، وبعد فترة من الغرام الملتهب تشعر بالفتور والملل، وتشك فى إمكانية دوام هذا الغرام، فتفضل أن تكون هى التى تبادر بهجر رجلها، وتركه عندما يستنفذ وطره منها، وتستنفذ وطرها منه.. ربما نظلمها لو قلنا أنها المرأة اللعوب، ولكنها كانت فتاة الحواديت التى آمنت تمام الإيمان أنها الجميلة التى يطاردها الوحوش المفترسة، آكلة لحوم الحسناوات، ونهش أجسادهن بلا رحمة!

ولكى تنتصر عليهم، وتهزمهم عليها أن تجعلهم دائمًا فى اشتباك، وصراع لا ينتهى من أجلها.. فالغنائم فى كل الأحوال من نصيبها، والجروح والدماء، ووجع القلب من نصيبهم، سواء أكانوا قد وقعوا فى حبها أم طمعوا فى التلذذ بأنوثتها.. فهى مع كل واحد من رجالها قبل همام مصطفى كانت مشروع

فنانة ثرية تسير على الطريق الصحيح.. وتبقى الحقيقة الكاملة هى أن همام مصطفى لم يكسب من ورائها دولارًا واحدًا بل خسر الملايين، فالرجل ليست لديه شركة إنتاج فنى، ولا إعلانات ولا ألبومات غنائية ليستغل صوتها وجمالها مثلما فعل سابقوه من الرجال، وخاصة زوجها اللبنانى الأصل الفرنسى الجنسية عادل مسعود، بل قام همام بدور الرجل النبيل المنقذ الذى تطوع للدفاع عنها وحمايتها، وتعويضها عما مرت به فى حياتها من أهوال وحرمان وقسوة.. وسواء إشترك بالتحريض، والتمويل فى جريمة قتلها أم لا إلا أنه كان يعانى مثلما يعانى أى رجل تخلت عنه امرأته التى أغدق عليها بلا حساب، وفوق كل ذلك كان الرجل مستعدًا لأن يتحدى الدنيا كلها فى سبيل الزواج منها مانحًا إياها اسمه الذى هو بكل تأكيد أهم من جسدها، واسمها.. من المرجح أنه كان يعانى، ويشعر بإهانة رجولته، ويشعربالصدمة من أن يتمرد عليه تمثال جميل ساهم فى صنعه بيده وماله!

إن همام مصطفى كان هو " بجماليون " الذى وقع فى غرام تمثال العاج الذى صنعه بِأنامله، وزينه بالأزياء الملونة المبهرة، وجمله باللؤلؤ، وتوسل لفينوس أن تبث فيه الروح، وتهبه الحياة الأبدية، وفى مقابل ذلك أعطاها كل شئ وقدم لها الغالى والرخيص!

لكل ذلك لم يكن من المعقول أو المقبول فى نظره أن يتمرد التمثال على صانعه المليونير همام مصطفى، والحسناء سوزان عبيد مجرد إخراج عصرى برؤية عبقرية جديدة قديمة لكوكتيل يمزج بين الجميلة والوحش، والجرئ والجميلات وأسطورة " بجماليون " الخالدة.. تلك هى فتاة الحواديت مع المليونير التى شغلت الرأى العام، والجورنالجية بصفة عامة فى مؤسسة " الأيام" ومجلة "نجوم الفنون" بصفة خاصة، والتى تورط فيها مصور النجوم المخنث خالد طلعت بشكل غيرمباشر، ورصد تفاصيلها الجورنالجى الشاب ناجى شرف الدين بقلمه على مدار عدة أسابيع!

***

(٣٣)

" إن العقول كالقلوب تذهب إلى حيث تقدر حق قدرها ! "

فـى ليلة رأس السـنة أقامت چانيت حفلة فـى منزلها ، ودعت مجموعة من زملائهـا وزميلاتها وأصدقائها فى العمل ، ومن بينهم بالطبع أعضاء الجالية العربية ، والمصريين المقيمين فى سويسرا سواء لدواعى العمل ، أو الهجرة الدائمة أو الدراسـة.. فى الحفلة أكلوا وشـربوا ، ورقصوا وغنوا ، وتناقشوا وأثناء الحفلة همست چانيت فى أذن إيناس مندور قائلة :

ـ هنـاك مفاجأة كبيـرة فى انتظارك قبل نهاية الحفل.. مفاجأة ليس لها مثيـل فـى بلدك مصر ، وكل بلاد الشـرق على الإطـلاق.. نوع مختلف مـن المفاجـآت مثير ومدهش لـم تعرفوه أنتم يا أبنـاء الضاد الناطقون بالعربية.

ثـم ضحكـت بقهقهـة عاليـة ، ولـم تضـف كلمة أخـرى ، بـل تركتها وانصرفت والشـرود يسـيطر على إيناس.. سألت نفسـها.. يا ترى ماذا تخبئ لى جانيت الملعونة؟!

وبعد لحظات نسـيت الأمر كله ، وجلسـت مع شـاب فى العقد الرابع من عمره أسـمر البشـرة أسود الشـعر.. خصلاته ناعمة مسترسـلة بإهمال فوق جبهته ، فى يده مسـبحة لا تفارقه أبدًا ، يرتدى بدلة رمادية اللون أنيقة ، هو إماراتـى الجنسـية ، ويدعى حمـد الغامدى جاء إلى سويسـرا للحصول على درجـة الدكتـوراه فى فنـون الإدارة الحديثة ، وتطوير المجتمعـات النامية.. وبسـرعة حدثـت ألفـة بينهما.. قدم لها شـرابًا مثلجًا ، وأشـعل لها سـيجارة وتعارفا وتآلفا !

تحدثـا فى أمور شـتى من بينهـا الغربة عن الوطن حتى جـاء الحديث عن العرب ، وأحوالهم فى أوروبا بصفة عامة ، وسويسرا بصفة خاصة ، وشردت

إينـاس قليلاً بعـد أن تذكرت كلمـات چانيت عن المفاجـأة المذهلة التى تنتظرها ، ولا مثيل لها فى بلاد العرب وأوطان العروبة.

فـى تلـك الأثناء كان حمد الغامدى يتحدث بفلسـفة مشـوبة بالحزن عن أحـوال بنـى جلدته من العرب.. قال لا فض فوه ولا انصرف عنه سـامعوه بعد أن فرغ من تجرع شرابه ، وألقى بقايا سيجارته:

لـم يـدرك العرب كعادتهـم إلا بعد فـوات الأوان ما ضاع منهـم ، ونزيف عقولهم المستمر بالهجرة إلى الشمال..

تساءلت إيناس مندور: ماذا تقصد يا حمد؟!

ثـم عادت لشـرودها وترقبهـا لمفاجأة چانيت الفريدة من نوعها.. أحسـت بشـئ مـن التوتـر ، ورجفة فى جسـدها خشـية أن تكون المفاجـأة صادمة وكارثيـة.. غابت عن شـرودها ، وعادت تتابـع كلماته بنصف وعى ونصف انتباه، بينما واصل هو كلامه قائلاً:

ـ لقـد خسـر العرب أكثـر من ٨٠٠ ألـف مـن أبنائهم العلمـاء أصحاب العقـول الفذة المبدعـة ، والتخصصـات الدقيقة النـادرة المتفردة فى الهجـرة إلى الدول الغنية المتقدمة.. هـؤلاء العلماء هاجروا لأوروبا بعد أن ضاقـت بهـم سـبل العيش فـى بلادهـم العربية ، وخاضـوا معارك ، وصراعـات ضاريـة مع القـوى المعوقة للإبـداع، القاتلـة للكفاءات، واستشـرى الفسـاد والروتين، بجانب فقر الإمكانيات، وغياب نظام تعليمـى ، وعلمى قادر على إنتاج علماء جـدد فى دولهم التى لا تقدرهم حـق قدرهـم ولا تتركهم فى حالهم بل تشـن عليهم الحـرب ، وتتواطأ ضدهـم كل الظـروف حتى أصبحـت الأوطان العربية طـاردة لعقولها العبقرية ، وقاسية عليهم قسوة زوجة الأب على ابن زوجها!

وعلـى العكس مـن ذلك تمامًـا اتبعت الـدول المتقدمة خاصـة الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وبريطانيا تجاه هؤلاء العلماء سياسة " اصطياد العقول " فحققت منها ٢٠٠ مليار دولار عائد سـنويًا وذلك باستقبال ٥٠ ألف

عالم كل عام من ثمانى دول عربية هى مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن وتونـس والمغرب، والجزائـر، وتوفير كل عوامل النجاح لهم حتى نبغ وذاع صيت معظمهم.

ونتيجـة لنبـوغ عـدد كبير مـن العلماء العـرب فى التخصصـات الدقيقة ورفضهـم البقـاء فـى الـدول المبتعثين إليهـا ، وذلك على عكس مـا يفعله ٧٠٪ مـن المبعوثين العرب احتـدم الصراع بين أجهزة المخابرات، ونشـأت ظاهرة الاغتيالات العلمية الشـهيرة لحوالى ٤٠ عالمًـا عربيًا نوويًا من بينهم الدكتـور مصطفـى مشـرفة صاحـب نظريـة النسـبية الصغرى، وسـميرة موسـى التـى توصلت إلى تفتيـت ذرات رخيصة جـدًا من المعـادن، ومتاحة أيضًا لاستخدامها فى إنتاج قنبلة ذرية قليلة التكاليف، وكذلك الحال مع الدكتور يحيى المشد عالم المفاعلات النووية.

ولأن الولايـات المتحـدة الأمريكيـة أصبحـت تسـتأثر وحدهـا بأكبـر عـدد من العلمـاء العرب، والرابح الأكبر منهم، فقـد أطلق عدد من الدول الأوروبية واليابان والصين على الولايات المتحدة " صائد العقول " خاصة بعد أن أصدر الكونجرس الأمريكى عام ١٩٩٠ تشـريعًا لمسـاعدة شـركات صناعـة التكنولوچيـا والمعلومـات على اصطيـاد العلماء حتـى أصبح ثلث العلماء العاملين بوادى السيليكون الأمريكى للصناعات الإلكترونية من الذين ولـدوا وتربوا وتعلموا فى الدول العربيـة النامية واصطادتهم أمريكا وغيرها من القوى العظمى!

استفاقت إيناس على خطورة القضية، والأرقام والمعلومات التى يطرحها حمد الغامدى فتساءلت بإستنكار:

وما المطلوب من العرب فى رأيك لمواجهة هذه القرصنة الأمريكية؟!

تبسم حمد قائلاً:

ـ سؤال فى منتهى الذكاء.. المطلوب من العرب يا سيدتى كى يحدوا من اصطيـاد العقول العربية أن يتبنوا سياسـات جديـدة جاذبة للعلماء العرب

داخـل وخارج الوطن العربى، ترتكـز على الترغيب والجذب لا التضييق والطـرد واسـتدراك هجرة العلماء إلى الداخل كتلـك التى حدثت للعالم الجليـل الدكتـور جمـال حمـدان، وأودت بحياتـه بعد احساسـه القاتل بغربته فى وطنه.. وكانت النتيجة نهاية مأساوية!

احتسـوا جميعًـا كئـوس الويسـكى والشـمبانيا، وأنواع أخـرى فاخرة معتقة من الخمر اللذيذ، ورقصوا وغنوا.. كان عددهم لا يتجاوز الثلاثين.. وأصداء الموسـيقى الكلاسـيكية تصدح فى المكان، وسـط غلال من أضـواء خافتة تسـبغ الرومانسـية على أجـواء الحفلة، أوقفـت چانيت فجأة مصدر الموسـيقى، فالتفتوا جميعًا إليها.. بدت على ملامحها الجدية كما لو كانت سـتلقى بيانًا عسـكريًا حاسمًا أو سـتعلن إنقلابًا ثوريًا على نظام الحياة، وطبيعة الكون.. ثم قالت:

ـ الآن حانت اللحظة الحاسمة الفارقة التى لا مثيل لها فى كل بلاد الشرق، (ونظـرت نحو إينـاس نظرة ذات مغزى) وكثير من بـلاد الغرب أيضًا.. الآن سـنختتم الحفـل الـذى أقمنـاه على شـرف " دافيد وسـاندرا ".. ثم أشـارت إليهما.. هما كما تريان شابان رائعان فى منتهى الجمال والحب والإنسجام.. جمعتهما قصة عاطفية خلابة منذ عام، وحتى اليوم لم يمارسـا الحب سويًا بالمعنـى الكامـل.. هل تصدقون ذلك؟! عام كامل من الحب بلا ممارسـة للحـب.. يبـدو أمرًا غريبًا هنا فى أوروبا.. لقـد قررا أن يقيما هذا الحفل هنا فى هذا المكان، وفى هذه الليلة ووجها الدعوة لكم جميعًا لتشاركوهما فرحتهما بفض بكارة سـاندرا.. الآن أمام عيونكم.. دافيد سيقوم بالمهمة وأنتـم جميعًا سـوف تشـاهدونها حالاً، وسـيتم تصوير هذا الحـدث المثير بالفيديـو والموبايل، ولكم الحق فى الاسـتمتاع بمشـاهدة قص الشـريط وإزالـة الشـمع الأحمر، وتسـجيل هـذه اللحظة النـادرة.. لم تصـدق إيناس الواقـع، وشـعرت أنهـا فى حلم كئيـب أو كابوس مفزع مزعـج، وبعد أن إنتهـت چانيت من حديثها.. وعزفت الموسـيقى من جديد، وكلهم يراقبون

المشـهد ، وكـأن على رؤوسـهم الطير الجارح، بدأ دافيد ينزع عن ساندرا ملابسـها قطعة قطعة حتى حانت اللحظة الحاسـمة.. ونزع الفتى عن نفسـه ملابسه هو أيضًا ، وسط تصفيق الجميع وصيحاتهم.. صرخت ساندرا بمتعة مؤلمـة وألم ممتع، وسـالت قطـرات دم حمراء قانية علـى فخذيها.. وإيناس تصرخ من أثر ما ترى، ولا تغمض عينيها ، بل تبحلق فى ساندرا ، وما يجرى لهـا ، وكـأنهـا هى التى فضت بكارتها فى تلك اللحظة وليسـت سـاندرا.. الباقون يهللون ويقفز بعضهم فى الهواء فرحًا ومرحًا والبعض الآخر يصور، ويلتقـط بالكاميرا والموبايل تفاصيل اللحظة المثيرة المدهشـة الجريئة.. انفضـت الحفلة الغريبة، وانتهـت الليلة المريبة التى لم تشـهد إيناس مثيلاً لها فى حياتها ، ولم تسـمع عنها فى الحواديت والأسـاطير، وحكاوى ألف ليلـة وليلـة ، ولم تقرأ عن مثل هذا فى الكتب، أو تشـاهد ذلك فى الأفلام العربية ، ولا الأجنبية التى تفضلها منذ طفولتها.

وعندما همت بالخروج، وهى شاردة تفكر فيما حدث، وفيما رأت بعينيها منـذ قليـل جاءها صـوت حمد الغامـدى طالبًا منها أن تسـمح لـه بتوصيلها بسـيارته، هزت رأسها بابتسامة ساذجة دون أن تنطق بكلمة واحدة، ففهم الرجـل ما يجول بخاطرها ، وأدرك بسـرعة ما تحس بـه وما تعانيه.. كـانت تتخيل نفسـها لو كـانت مكـان سـاندرا.. كيف سـتقابل هؤلاء الناس مرة أخرى؟! وبأى وجه تلقاهم؟!

أدرك حمـد الغامـدى بذكـائـه وسـرعة بديهته وقـع الصدمـة الفاضحة الجارحـة عليهـا.. كـانت فى قرارة نفسـها تتسـاءل دون أن يسـمعها.. لماذا يصـر بعض النـاس على فضح أنفسـهم طالمـا أن الله أتاح لهم نعمة السـتر والكتمان، وارتكـاب كل المحرمات المبوقات فى السر؟!

وكـأن حمد الغامدى كـان يسـمعها ، فقال الرجل المثقف واسع الإطلاع بلباقته وفطنته:

ـ هـل تعرفيـن يا إينـاس أن هناك بعض الرجـال فى الصحـراء الغربية،

وتحديدًا فى بلاد المغرب العربى يمتهنون فض البكارة بالنيابة عن العريس فى ليلة الدخلة؟!

بدا عليها الاستغراب، وكسرت حاجز الصمت متسائلة:

ـ كيف يحدث ذلك يا حمد فى جزء من الوطن العربى؟!

قال الرجل بثقة وهدوء:

ـ تحتفى بعض القبائل المتواجدة فى منطقة الصحراء الغربية بليلة الدخلة وفق عادة غريبة جدًا على مجتمعاتنا الشرقية العربية حيث ينوب رجل معروف يكون محل ثقة القبيلة عن العريس فى فض بكارة العروس، ونسف عذريتها.. إذ يتسلل هذا الرجل إلى غرفة مطبقة بالظلام حيث تتمدد فيها العروس مستورة الوجه والجسد، لينحنى هذا الرجل صوبها متحسسًا منطقة فرجها، ويدس يده بين فخذيها داخلاً إلى كهف المتعة فيطأ بكارتها بإصبعه، ثم ينسحب بهدوء عقب إنهاء هذه المهمة!

إن هذه الظاهرة يا إيناس طقس إرادى، ويرتبط فى أحيان كثيرة بطقوس السحر.

وأحيانًا أخرى يستعين العريس بإمرأة لفض بكارة عروسه، خاصة حين يواجه صعوبة فى الانتصاب أثناء مراسم الدخلة، وهو ما يعرف بالربط حيث يظل العريس عاجزًا عن اختراق أسوار عروسه، وفك شفرة أنوثتها وإسقاط حاجزعذريتها حيث يكون مربوطًا، وعاجزًا بفعل فاعل ساحر كان أو ساحرة، وفى تلك الحالة يتم الاستعانة بالشياطين، والقوى الخفية لإصابة منطقة المركز المهيمن على أعضاء التناسل فى المخ فلا يحدث الانتصاب فى هذه الليلة الموعودة، ويصبح العريس مثل طفل صغير لم يبلغ الحلم، ويفشل اللقاء الحميم بين العروسين!

وهذه العملية السحرية تعتمد بالأساس على الفتح والإغلاق من خلال مجموعة الأدوات التى تفتح، وتغلق مثل القفل والمقص، والباب والشباك والصندوق!

كمـا أن ليلة الدخلة التى يطلق عليها المغاربة " الصباح " تشـكل لحظة انتظار وترقب، ولهفة لدى جميع أفراد عائلة العريس والعروس لرؤية " الإزار " وهـو ثوب أبيـض ترتديه العروس فى تلك الليلـة ليخضب بقطرات دم قليلة ترسم عنوان شرفها ، وتجسد عفة وطهارة جسدها.

قالت إيناس مندور:

ـ أهذا صحيح.. أم أنه من صنع خيالك الجامح؟!

ضحك حمد الغامدى قائلاً:

ـ فـى هذه المناطق العربيـة تعود تلك الممارسـات الغريبة، واللامعقولة إلى تمسـك القبائل هناك بمفهوم الشـرف المقترن بالبكارة، وغشاء العذرية وللتأكد من الخبر اليقين لابد أن يأتى من رجل غريب يكون محل ثقة القبيلة!

وفى معظم الأحيان يتفاخر هؤلاء الرجال فيما بينهم بعدد النسـاء اللواتى فضـوا بكارتهـن بأيديهم نيابـة عن الأزواج فى ليلة العـرس.. وبذلك يحظى هؤلاء الرجال الذين يمتهنون أغرب مهنة فى التاريخ باحترام وتقدير القبيلة، واحتقـار الأزواج الذيـن تركـوا زوجاتهـم للغربـاء لكـى يفضوا بـدلاً منهم الشمع الأحمر، ويقصوا شريط افتتاح دخول الدنيا الجديدة!

***

(٣٤)

" عيون الرجال التى لا تعشق الجمال فى النساء.. عمياء! "

دارت الأيـام ومعهـا طالت المحادثـات الهاتفية اليومية بيـن حمد الغامدى وإيناس مندور.. سـرت حالة من الألفة والود بينهما ، شـعر الشـاب الإماراتى ببزوغ فجر الحب فى قلبه ، وأدرك أن إيناس مندور المصرية سحرته بجمالها ، وأنوثتها ، ورشاقتها ، وكان يتصل بها يوميًا مرتين.. فى الصباح وقبل النوم.. يتحدثان ويتجاذبان أطراف الحوار فى كثير من الشئون الصغيرة ، ويتناقشان فـى الأمور الكبيرة.. لم يكن بينهما حواجـز ولا خطوط حمراء.. هو يحمل عقلاً مسـتنيرًا وهى تحمل عقلاً حرًا وجسـدًا حرًا.. لا تكبلهما قيود الشرق وعاداته.. رفعا راية الحرية ، وتناقشا فى كل شئ بداية من قضية فلسطين ، والصـراع الأبدى بين العرب وإسـرائيل ، وهيمنة أمريكا على العالم ، وحتى آلام الدورة الشـهرية.. رفعا حاجب الحرج ، ونزعا برقع الخوف من المجتمع.. بل كانت حبال الود موصولة بينهما لأنهما عاشـقان للحياة ، وينتميان لعالم واحـد ، وجذور راسـخة فى الشـرق ، وعقـول طائرة تحلق فى سـماء الغرب.. وذات يوم ، وهما فى سـاعة صفاء ، وقد عزمها على العشـاء فى مطعم لبنانى يقدم الوجبات الشـرقية ، وعلى نغمات موسـيقى موتسـارت ، وضوء الشموع الخافت قدم لها هدية عبارة عن خاتم من الماس.. وقال لها :

ـ كل سنة وأنت طيبة.. اليوم عيد ميلادك.. أليس كذلك؟!

ذهلت إيناس مندور من المفاجأة السارة.. وسألته :

ـ كيف عرفت يوم ميلادى ، وقد نسيته أنا شخصيًا؟!

ـ من يسأل لا يتوه.. كما تقولون أنتم فى مصر.

ـ سألت من عن يوم ميلادى يا حمد؟!

ـ سألت أوراقك وبياناتك فى جهة عملك.

ـ لا .. لا أظن.. لابد أنها المجنونة چانيت هى التى أخبرتك..

تلعثم حمد الغامدى، وضحك سعيدًا بذكائها المتوقد وقال:

ـ لقد عرفت وإنتهى الأمر..هل ضايقك ذلك؟!

ـ أبدًا .. أبدًا على العكس تمامًا .. يسرنى اهتمامك بدون شك ولكن..

ـ ولكن ماذا يا إيناس؟!

لـم تنطق.. لاذت بالصمت، فقد مد يده يتحسـس يدها ، ويمس ببطن يده ظهر يدها السـاكنة أمامه على الطاولة.. سـحبتها ببطء، وقد إحمر وجهها خجلاً ، وتوردت أوداجها..

قال:

ـ إيناس.. أريد أن أتزوجك.. ما رأيك؟!

ـ تتزوجنى.. هكذا مرة واحدة؟!

ـ نعم.. أتزوجك مرة واحدة.. وهل يمكن أن أتزوجك على مراحل؟!

ضحكت وقالت:

ـ لا .. لا .. ليـس قصدى ولكن أنـت تعرف أننى مصرية ، وفى مصر أهلى وناسى، ولابد فى مثل هذه الحالات من الحديث مع الأسرة ، وإجراءات كثيرة يجب مراعاتها والالتزام بها.

ـ لو وافقتِ يا إيناس فأنا مسـتعد لأن أسـافر إلى مصر، وأفعل أى شـئ من أجلك.. ويشرفنى طبعًا أن ألتقى مع أفراد أسرتك وأطلب يدك منهم

قالت إيناس:

ـ وماذا عن أهلك وأسـرتك أنت يا حمد فى الإمارات؟! مع العلم بأننى لا أعرف عنك إلا أقل القليل!

ـ وماذا تريدين أن تعرفى عنى يا إيناس؟!

ـ أريـد أن أعـرف رأى عائلتك يا حمد فى فكـرة الزواج من فتاة مصرية

مثلاً.. وهل يرحبون بهذا الزواج أم لا.. وأشياء أخرى كثيرة.. أظن أنك تعجلت فى هذا الطلب يا حمد؟!

ـ لا.. لا والله يا إيناس لم أتعجل على الإطلاق، بل العكس تمامًا.. لقد تأخرت وتجاوز عمرى الأربعين!

ـ إذن دعنى أسألك سؤالين يا حمد..

ـ إسألى يا سيدتى كما تشائين..

السؤال الأول هو: ألا تخشى الزواج من فتاة غير إماراتية؟!

تبسم حمد قائلا:

ـ أقولها لك يا إيناس بكل ثقة.. أنا أفضلها مصرية.. صحيح إن أحدث دراسة علمية صدرت تؤكد أن المرأة المصرية صاحبة الرقم الأعلى فى ضرب زوجها بنسبة وصلت إلى ٢٨٪ متفوقة بذلك على المرأة الأمريكية التى جاءت فى المرتبة الثانية من حيث ضربها لزوجها بنسبة بلغت ٢٣٪ بينما جاءت المرأة الإنجليزية فى المرتبة الثالثة بنسبة ١٧٪ ثم المرأة الهندية التى جاءت فى المرتبة الرابعة بنسبة ١١٪.

ضحكت إيناس مندور من قلبها قائلة:

ـ ألا تنسى أبدًا أنك باحث، وتعد رسالة دكتوراة؟! دائما تتحدث بشكل رسمى وعلمى موثق بالمعلومات والأرقام!

ـ عمومًا يا إيناس أنا أفضل المرأة المصرية على غيرها من بنات حواء فى شتى بلاد العالم برغم ما يقال من ضربها للزوج أو التخلص منه، وتعدد وسائلها فى ذلك الأمر من السكين والسم والأسلحة النارية وماء النار.. وأحيانًا المقشة، وهى أخف أسلحتها فى معركتها المنزلية ليصبح الرجال دمعتهم على خدهم! وبدلاً من أن يصرخ الزوج سى السيد بأعلى صوته فى الست أمينة فوجئ بها تصرخ فيه، ولو عاش نجيب محفوظ حتى يومنا هذا لأمعن النظر من جديد فى رؤيته للعلاقة بين الرجل

والمـرأة، ونفض يديه من رائعته الثلاثية " السـكرية، قصر الشـوق، بيـن القصرين " بعد أن أصبح الرجال بفعـل تحولات الزمن هم الجنس اللطيف، والضعيف!

واليوم أصبح من المألوف أن نرى ونسـمع زوجًا يستغيث من بطش زوجته التى تضربه، وتنكل به كلما حانت لها الفرصة، وسـمحت لها الظروف.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تبسمت إيناس مندور وقالت بنبرة فيها ود وعتاب رقيق:

ـ كل هذا فى قلبك وتكتمه؟! عمومًا لا تصدق كل ما يقال عن المرأة المصريـة.. فهـى الأم المناضلـة الـرءوم، والزوجـة الوفيـة المخلصة، والحبيبة العاشـقة المتيمـة.. المرأة المصرية يا سـيدى صنعت الرجال وأهـدت الدنيـا العلمـاء والحكمـاء والمبدعين فـى كل المجالات.. شيدت أركان الحضارات عبر حقب التاريخ!

ـ لقد أجبت عن سؤالى الأول يا حمد.. أما السؤال الثانى فهو:

لماذا تأخرت فى الزواج حتى وصلت سن الأربعين أو تجاوزتها؟!

تنهـد بعمـق، وبـدت الجدية على ملامحـه كأنه يفكـر فـى أمر جلل ثم قال:

ـ تأخرت فى الزواج لأننى أحب النسـاء!

ضحكت بصوت مرتفع:

ـ كيـف هـذا؟! المفـروض أن يحدث العكـس.. بمعنى أنـه طالما أنك تحب النساء كان يجب الاقتران بواحدة منهن قبل الآن بعشرين عامًا.

ـ سوف أعترف لك وأمرى إلى الله:

ـ ليـس مـن هواياتى حـرق أكباد النسـاء.. وليس من هواياتـى التحرش بالجميـلات أو حتى لعب الورق، وتصفـح الجرائد الصفراء، ولم أعتد يومًـا على النوم بين ذراعى أميرة حسـناء سـمراء سـواء كانت بأعين

سـوداء، أو شـقراء بأعين زرقاء.. أنا لم أجد يومًا إمرأة أحبها، وكأن سـيف الحجاج خلف ظهرى لأننى ببسـاطة أكره الاسـتبداد، ولسـت حفيد شهريار حتى أغتال كل ليلة على الفراش واحدة، ولا أنا سليل آل فرعون حتى أبنى أهرامًا من رؤوس الإماء، وحلمات البنات، ولم أكن فى حياتى زير نساء حتى أمضى ساعات الليل بأكملها، وأنا أتسكع فى شوارع المدن المخملية.. عساى أحظى بإمرأة طاغية الأنوثة تحجب بنهديها قرص الشـمس، وتجعل الشـمس تشـرق فى المساء، أنا لست مهتمًا بالتنقيب فى أوسـاط الحسـناوات عن سـراويل الجينز الضيقة، وعن الصدور العارية ونادرًا ما أدع عينى تسافر عبر جسد إمرأة..

سألته إيناس مندور بدهشة:

ـ وهل أنت بائع الحب؟!

رد عليها بتلقائية:

ـ لا.. لا لسـت أنا الذى يبيع كلام الحب بالدراهم، ولسـت من الذين لا يـرون الـوردة جميلة إلا عندمـا يقطفونها، وكل من يظـن أننى لا أرى فى المرأة سـوى الجسـد والغـزل والإغراء إما مخدوع فى شـخصى أو واهم..

لمعت عينا إيناس بانبهار، وسألته وحمرة الخجل تضج فى وجنتيها:

ـ ولماذا تحب النساء يا دنجوان؟!

قال بثقة وأريحية:

ـ أنـا أحـب النسـاء ولا أنكـر ذلـك.. أنا أحب حتـى أتمكن مـن الحياة وحتـى لا أرى كوابيس الأحلام، ولسـت مهتمًا بتعداد النسـاء اللواتى أعرفهن، لأننى ببساطة أكره الأرقام، وآخر شئ أفكر فيه بعد كل تجربة حب هى الاحتفاظ بالأسماء!

ـ وهل أنت ضعيف أمام جمال النساء يا حمد؟!

obeikandl.com

ـ أحب النساء، ولا أنكر ذلك، والعين حين ترى الجمال ولا تبالى به إما أنها باردة أو مخمورة أو عمياء!

ـ أحب النساء.. نعم.. أحب النساء، فهن حديقة ورد لا تعرف الإنتهاء، أحب النساء ولا أنكر ذلك، ولولاهن لكان مذاق الحياة علقمًا، ولكانت كلمات العشق والكراهية سواء بسواء!

ـ وما الذى يغريك يا حمد فى بنات حواء؟!

ـ أحب النساء ولا أنكر، وتغرينى المرأة الجميلة، ويذبحنى ذلك الشعر الأسود الملقى على ظهرها، ويفتننى ذلك الكحل الدامس فى رموشها، لكن بعد دقائق من زيارتى عقلها، إما أن تظل فى عينى جميلة ومثيرة وفاتنة، وإما تلحق بالأخريات، وتذوب كالملح فى كوب ماء!

أنا يا إيناس الذى لا ييأس من البحث عن الحب فى كل مكان.. أبحث عنه فى أعشاش العصافير، وفى رحيق أزهار الرمان.. أبحث عن حب يعترف بأننى إنسان، حب يدفعنى للإحساس بأننى مالك هذا العالم، وشاعر هذا العصر والزمان.. إن الحب يا سيدتى هو عصارة كل الثقافات، وكل من لم يحس به إما بارد أو جاف، أو تمثال مجهول الهوية معرض فى أى لحظة للنسيان، أو طائر خرافى لم يستطع التحليق يومًا فى السماء!

ـ ومن أنت يا حمد هل أنت روميو العصر والأوان؟! أم مجنون ليلى هارب من أسوار التاريخ ورمال الصحارى، وقلاع الزمن؟!

ـ أنا يا إيناس وبكل بساطة أحب أن تكون لى حبيبة تفهم الحب الذى يستوطن عينى وتحتضنه وتهدهده.. أحب أن تكون لى حبيبة تهوى الشعر العربى المنقوش فوق جسدى ولا تكرهه، أبحث عن إمرأة تعلم جيدًا أننى جبل بركان من المشاعر تكسوه ثلوج الكبرياء، وأن تعلم جيدًا أننى فخور جدًا بذاتى وعروبتى وجنسيتى، ولست مستعدًا أن أغير جلدى من أجل عيون إمرأة فائقة الدهاء، لذلك ومنذ بدأت التنقيب والبحث، وأنا أفتش فى داخل الأنثى العربية عن المرأة الإستثناء.. أبحث عن إمرأة لها

القدرة على كتابة تاريخى من جديد، ولها القدرة على إعادة الدفء لروحى من جديد.. إمرأة بدون قُبلة منها كل صباح لا أستطيع المضى قدمًا فى يومى والبقاء على قيد الحب والحياة!

بحثت وبحثت، ومازلت أبحث عن المرأة التى أتعلم منها كل ليلة آلاف الأشياء.. إمرأة توقف الأرض حين تغضب منى، وحين تبتسم فى وجهى تشرق دون أوانها شمسى، ويصل نورها إلى كل البسطاء، فتشت طويلاً فى أعين النساء من حولى عن ولاّدة، وعن ليلى العامرية وعن الخنساء، ولم أجد حتى اللحظة سوى أجساد متعبة من البغاء.. لم أجد سوى قلوب رمى بها القدر من شاطئ المعاناة، لم أجد سوى نساء يخجلن من اكتشاف أجسادهن فى لحظة تأمل وإصغاء.. لم أجد سوى نساء لا يتعبن من الوقوف طويلاً أمام المرآة فى محاولة يائسة لتجميل أنوثة تعانى من زمن الكبت والقمع والإقصاء، أنا وبكل بساطة أبحث عن إمرأة تعلم جيدًا ماذا تريد منى، ولا تتركنى واقفًا أمامها لساعات لربما أستطيع التحدث مع كائن لا يميز بين الأرض والسماء!

أنا وبكل بساطة أبحث عن إمرأة لها القدرة على استيعاب مخيلتى التى لا حدود لها.. وعلى السباحة فى محيطاتى التى لا شواطئ لها.. إمرأة تملك ما يكفى من الذكاء حتى تجعلنى فى كل موعد أتوه فى أنوثتها.. أبحث عن إمرأة شريرة تجعلنى بعد كل قبلة أنا المقتول الوحيد، والشهيد الوحيد، والخاسر الوحيد.. أبحث عن إمرأة تكسر بجمالها كل أسلحتى، وتجعلنى أنا وذكورتى أقزامًا تلهو بنا كما تشاء.. أبحث عن إمرأة برقتها وحنانها تجعل أوراقى تمزق نفسها، فهى مهما كتبت عنها، وسأكتب لن أوفيها حقها لأنها قادرة بسحرها أن تمزق الكون إلى أشلاء!..

تفرست إيناس ملامحه، وحدقت فى عينيه قائلة:

ـ وماذا أيضًا؟!

ـ أبحث عن إمرأة تغفر لى إذا فاض نهر جنونى، وإذا ما التهمت فى لحظة

طيش منى شفاهها المتحضرة الملساء.. أبحث عن إمرأة تستطيع إعادة شحن بطارية الحياة فى روحى وجسدى كلما شحت أمطارى، وتنعش قلبى الذى نال منه الإجهاد، وهزمته الهموم والنوائب هزيمة نكراء..

ـ وماذا فى جعبتك أيضًا يا عاشق النساء؟!

ـ أبحث عن أنثى أحس بين ذراعيها أننى الرجل الوحيد الناضج فى هذا العالم وأن باقى الرجال من حولى مجرد أطفال تعساء بؤساء.. أبحث عن إمرأة تكون لى وحدى، وأكون لها العالم بأسره.. إمرأة تطرد من فصولى الخريف والشتاء!..

ـ وماذا تريدها أن تكون بالنسبة لك؟!

ـ أنا أبحث عن إمرأة تفهمنى من نظرة عينى.. إمرأة تضيف كل لحظة شيئًا جديدًا لشخصيتى.. إمرأة تبنى لى قصرًا صغيرًا فى أعماق قلبها.. إمرأة تحبنى أكثر من نفسها حتى أحبها أكثر من نفسى.. أبحث عن إمرأة لا تسألنى عن ماضى الغامض، ولا عن النساء اللواتى أحببت، ولا عن الجرائم التى إقترفت.. إمرأة لها القدرة على التعايش مع جنونى، ومع صور جميلات السينما العالمية المتناثرة فى غرفة نومى وعلى جدران ذاكرتى!

ـ هل تبحث عن إمرأة للفراش؟! أم تبحث عن إمرأة تمنحك الحب؟! وهل تأسى على الحب؟!

ـ إنما يأسى على الحب النساء.. أنا يا ايناس أبحث عن إمرأة تعطينى الحب وأمنحها الأمان.. إمرأة تكون حقًا حبيبتى، ويكون الحب فى عروقها أهم من البلاتين والكرات الحمراء، أبحث عن حب يعيد لأيامى نكهتها المفقودة، ويعيد لقلبى ثوراته المخمودة.. حب يتحمل طيشى وعفويتى ومجونى!

ـ هذا عن المرأة.. لكن لو عاد بك الزمان إلى العشرين من عمرك.. ماذا تطلب من الزمان يا حمد؟!

ـ أنا لا أطلب منه الكثير، أريده فقط أن يكون منصفًا بحقى، ويهدينى حبيبة بحركة من شفتيها تنشئ لى ولها جاذبية فى الفضاء.. إمرأة حين تضحك توقع القمر فى خجله، وتجعل الأرض تنسى الدوران!

وأقول للزمان.. أنت خير من يعلم تكوينى.. أنت خير من يعلم أننى بدون الحب رفات إنسان.. أنا أريد أن أحب.. لا قيمة لحياتى بدون إمرأة.. العمر بلا جدوى بدون النساء.. الأيام بلا أنثى تشاركنى رغيف الحلم جافة جدًا، وأنا بطبعى أحب المطر وأكره الجفاف.. الزمان أكثر من يعلم أن الحب الذى لا يدمى القلب، ويجعله أشلاء متناثرة هو حب واهن ومشوه.. وأنا أحب أن يصبح قلبى أشلاء!

***

obeikandl.com

(٣٥)

" ممكن جدًا أن تعطى دون أن تحب.. مستحيل أن تحب دون أن تعطى! "

منذ سنوات يدق فتى غامض، وغريب الأطوار وعجيب الصفات بلا ملل أو كلل على طبلة صفيح فى ملهى ليلى رخيص بقبو فى المدينة الواسعة المتلألئة، ويروى وقائع مدهشة، يكشفها وكأنه يتوضأ ويتطهر من الآثام والذنوب والأدران.. ذلك الفتى هو " أوسكار " الذى توقف عن النمو فجأة، ورفض الانتماء إلى عالم الكبار! وكان قد نجا من حرائق وجرائم، وكوارث الحرب العالمية الثانية التى أشعلها النازى الألمانى أدولف هتلر، وتجاسر على مواجهة أشباح النازية بدلاً من الهروب منها، والانكفاء فى عقدة الذنب الجماعى.

هذه هى رواية " الطبلة الصفيح " رائعة الكاتب الألمانى الكبير " جونتر جراس " التى عكف ناجى شرف الدين فى تلك الليلة الباردة من أيام الشتاء الممطرة على قراءتها فى فراشه الدافئ.. هذه الرواية التى نشرها مبدع ألمانيا الفذ عام ١٩٥٩ وحملته على جناح إبداعها، وتجليات دلالتها إلى آفاق الشهرة والفوز بجائزة نوبل للأدب، وكان من أعلام الاشتراكية الديمقراطية، وأقطابها لكنه آثر الابتعاد عن السياسة الحزبية منذ عام ١٩٩٤.

وإذا كان " جونتر جراس " قد ولى مدبرًا من عنفوان المشهد السياسى، فإن شابًا ألمانيا اسمه " أوسكار لافنتين " ظهر على الساحة، وكان اشتراكيًا ديمقراطيًا.. وهب لنجدة الاشتراكيين من عثراتهم، وتمكن عام ١٩٨٩ من إحياء الحزب، وتولى زعامته، وخاض الانتخابات التاريخية عام ١٩٩٨، وأطاح بالمستشار هيلموت كول رجل ألمانيا القوى، وحزبه المسيحى الديمقراطى بعد ستة عشر عامًا قضاها فى السلطة، وصار

جيرهارد شرودر مستشارًا لألمانيا، وتولى أوسكار وزارة المالية.

ومعنى هذا التحول أن جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية قد تولى الحكم، وكان نفر منه من الشباب الغاضبين إبان ثورة الطلبة عام ١٩٦٨ وفى هذا السياق أصبح " أوسكار لافونتين " أقوى رجل فى ألمانيا، وأخطر رجل فى أوروبا، وكانت الصحف اليمينية تطلق عليه " أوسكار الأحمر " نظرًا لأنه يمثل الجناح اليسارى التقليدى المناهض للرأسمالية المتوحشة التى أطلقتها أمريكا فى زمن العولمة!

وكما وصفت الصحف الأمر فإن الإشتراكية الديمقراطية، بكل ما تنطوى عليه من فضائل العدل، وقيم الديمقراطية تمثل أساسًا راسخًا لنظام الحكم فى ألمانيا منذ تبنى الآباء المؤسسون لألمانيا الغربية مفهوم " السوق الحرة الاجتماعية " وأكدوا نبذهم لنمط الرأسمالية الأمريكية، وهو مفهوم يلتزم به اليمين، ولا يحيد عنه اليسار.

وعندما تعرضت هذه التجربة الألمانية، ونموذجها الإجتماعى الرائع لعاصفة العولمة الأمريكية، واستهدفت تفكيك دولة الرفاه الإجتماعى، حاول " أوسكار " التصدى لها.. لكن رياحها كانت شرسة، وجنحت بالمستشار شرودر إلا قليلاً نحو يمين الوسط، لذلك استقال " أوسكار " من رئاسة الحزب الاشتراكى الديمقراطى الحاكم، ومن منصبه كوزير للمالية، واختفى عن الأنظار دون أن يثير ضجة غير أنه أثار جدلاً واسعًا عندما فاجأ الجميع، وأصدر كتابه المهم " القلب يدق يسارًا.

وسكن الفتى الجامح فى بياته الشتوى الطويل، ولم يخرج إلا بعد عشر سنوات، فقد أسس حزبًا يساريًا جديدًا من الساخطين فى شرق ألمانيا، والغاضبين فى غربها، وحقق فوزًا باهرًا فى الانتخابات الأخيرة، لكن يد القدر الباطشة كانت له بالمرصاد فقد أصابه مرض عضال، وعلى الفور إستقال من زعامة الحزب، وأعلن إعتزاله العمل السياسى بصفة نهائية!

وعندما دوى النبأ فى المدينة، وانتشر فى دروبها وأرجائها، وخرج عازف

" الطبلة الصفيح " من الملهى الليلى إلى الشارع، وأخذ يدق على طبلته بعنف ويتمتم بحماس:

نعم القلب يدق يسار.. نعم القلب يدق يسارًا!

وعندما تأكد الروائى " جونتر جراس " أن بطله الوديع المسالم تمرد عليه، وخرج على النص، أدرك بما لايدع مجالاً للشك أنه انحاز إلى أهل اليسار، ووقف فى خندق العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان.

بعد فترة طويلة من القراءة بمتعة، ونشوة فرغ منها.. فقد كانت أحداث الرواية تجذبه وتشوقه، ولا يستطيع الفكاك منها، لكنه شعر بثقل فى مثانته بما يؤلمه، ولم يعد قادرًا على احتماله، نهض مهرولاً ثم دلف إلى الحمام أفرغ ما فى مثانته على عجل، خرج الماء منه دافقًا ساخنًا، فأحس بالإرتياح.. تنهد بعمق وعاد إلى فراشه الدافىء، وقبل أن يعاود القراءة مجددًا خطرت له فكرة أن يجلس قليلاً أمام الكمبيوتر، ويفتح بريده الإلكترونى الذى لم يتصفحه منذ أكثر من أسبوع عساه يحمل إليه شيئًا جديدا له قيمة..

بمجرد أن فتح صفحة الرسائل الواردة فوجئ برسالة من إيناس مندور.. أسرع بفتحها بطريقة إلكترونية بلمسة سحرية من أنامله، وبدأ يقرأ ما جاء فيها بكل عناية وتركيز..

قالت إيناس مندور:

ناجى شرف الدين.. أنت أيها الصديق الرائع.. إننى ألجأ إليك لأتحرر من الخوف الذى يعترينى.. ألجأ إليك لتحمينى من المجهول، وتقوينى وتستمع بقلبك الأخضر الطيب إلى أسرارى الصغيرة، وشئونى اليومية وهمومى وشجونى الكبيرة!

أحس أنك توأم روحى، وعقلى الذى أستطيع أن أفضفض له وأبوح إليه بما يعن لى، وبما ينغص على حياتى دون أن يخوننى أو يكتب عنى تقريرًا إلى أمن الدولة!

أنت الشخص الوحيد الذى أفر إليه..وإليك ملاذى مهما اتسع عالمى.. أنت وحدك أشعر معك بالأمان، وأحكى لك بلا خجل ولا وجل.. أبوح بذنبى كأننى أحدث نفسى.. فلا لوم ولا عتاب، وإنما قلب كبير ينصت إلى صخبى وثورتى، ويهدئ من جموحى وروعتى!

إن الأشخاص والأمكنة فى عالمنا العربى كلها تحت المراقبة والتنصت.. والنساء بصفة خاصة يا عزيزى هن الأكثر تعرضًا للرقابة، والتجسس والتلصص!

ها أنذا ألجأ إليك رغم آلاف الكيلومترات وبشاعة المسافات الفارقة بيننا لأقول لك ما لا أستطيع أن أقوله أمام مجتمع لا يعترف بسلطة غير سلطة الذكور أو بأراء وأفكار غير أراء وأفكار الذكور.. فأنا أنثى تقف فى الخط الأول للمواجهة.. تقاتل بشجاعة، وببسالة فدائى، وتصر فى أحلك الظروف على التفوق والنصر، وتؤمن بأن زمن البنفسج قادم.. قادم لامحالة.

صحيح إن واقعنا العربى فى منتهى البشاعة والقتامة، ولكن هل هذه الصورة نهائية، وغير قابلة للتعديل أو التجميل؟!

أعتقد يا ناجى يا صديقى الغالى أن حركة التاريخ تعلمنا أن للحضارة مدارًا وللإنحطاط مدارًا.. النقطة التى كانت فى القمة قد تصير سفحًا.. والنقطة التى كانت فى السفح قد تغدو فوق القمة ذات يوم.

ومن المؤكد أن عصور الانحطاط ليست نهائية، ولن تكون كذلك إلا إذا ضرب الانحطاط إرادة الأمة بكاملها، وأنا يا صديقى أظن وليس كل الظن إثم أن ارادة الأمة ما تزال قوية عفية.

وها هى القوى الشعبية مازالت تتحرك.

وليست المقاومة اللبنانية لجيش الاحتلال الاسرائيلى فى الجنوب اللبنانى، ومزارع شبعا ومقاومة الفلسطينيين فى الأرض المحتلة سوى ارهاصات الغضب الشعبى الذى يتشكل مثل الأنهار تحت سطح التاريخ.

ولا تنسى يا صديقى أننى مثلك أحب أن أقرأ المستقبل بعيون البسطاء والطيبين والأطفال..

وليكن واضحًا جليًا فى ذهنك يا ناجى.. يا أيها الجورنالجى العاشق للصحافة وحبرها أن هذا الشعب العربى العظيم الساكن فى القصور أو الخيام أو القبور سيخرج الشمس الذهبية من جيب معطفه..

وهو أيضًا الذى سيفجر الماء فى صحارى العطش، وهو الذى سيضرم النار فى الكتب الصفراء، ويحكم بالاعدام شنقًا على عصور الانحطاط، ليولد فجر العرب الموعود، ويعود مجد العرب من جديد.. أراه أمام عينى هاهو قادم من بعيد.. قادم لا ريب فيه!

***

obeikandl.com

(٣٦)

" أربعة لا تثبت على حال: الصحافة والجو والحب والمرأة! "

فـى الاجتمـاع الصباحى الأسـبوعى بـدا عبـد العليم طايع رئيـس تحرير ورئيس مجلس إدارة مؤسسـة الأيام الصحفية مرهقًا منهكًـا .. شـعره القليل المهـوش يلمـع قليلاً من أثر الشـامبو ، وكـريم الشـعر اللاصق الذى يشـبه الصمغ العربى.. عيون الرجل متورمة جاحظة من سهرة حمراء قضاها الليلة الفائتة.. ليلة الجمعة شـرب وسـكر وعربد مع فتاتين روسيتين كل واحدة منهما فارعة الطول هيفاء تملك جسدًا ناصعًا كالشمع.. وظل يعبث معهما حتـى مطلع الفجر فى فندق شـهير مملوك لصديقـه القديم همام مصطفى رجـل الأعمـال المعـروف، وصاحـب أشـهر قضية فـى تاريخ المحروسـة ، وصاحب السطوة والنفوذ فى الحزب الحاكم، النائب الذى لا يشق له غبار فى البرلمان!

إلتـف حوله المحررون ورؤسـاء الأقسـام ومديرو التحريـر ، ونواب رئيس التحريـر وبالطبع تصدرت المشـهد ميرفـت العطيفى رئيـس تحرير مجلة " نجـوم الفنـون ".. بـدأ الرجل يتقمص شـخصية أسـتاذ الإعـلام المخضرم، وعميد الصحافة المصرية المحنك وقال:

اليـوم لـن أناقش معكـم مسـتوى الأخبـار والتقاريـر والتحقيقـات، بل سـأحكـى لكـم عن واقعة فـى غاية الأهمية والخطـورة.. هنـاك حادث مهم جدًا فى تاريخ الصحافة يعرفه الجيل الأول من فرسان القلم فى بلاط صاحبة الجلالـة.. هذا الحادث العجيب وقع فى ٢٥ يونيو عام ١٩٠٦ بمدينة نيويورك قلعة المال والأعمال الأمريكية حيث كانت تعرض هناك مسـرحية سنوية اسمها " مدموازيل شمبانيا " ويقبل عليها الجمهور كل ليلة لمشاهدة العرض على خشبة مسرح " ماديسون " وأرسلت كبرى الصحف الأمريكية محررها المسرحى ليشاهد تلك المسرحية المثيرة للجدل لكى يكتب عنها تقارير

فنية، ويفسر سر إعجاب الناس بها وإقبالهم عليها، وهذا المحرر اسمه " شال والتون ".. وفى هذا اليوم كان المحرر غائبًا عن مقر جريدته لأنه يقضى شهر العسل مع عروسه فى جزيرة بالى الأندونيسية.

اضطر رئيس التحرير إلى أن يستدعى محررًا آخر يدعى " ألبرت " وقال له آمرًا:

عليك أن تذهب إلى المسرح وتتابع العرض، وتكتب وصفًا تفصيليًا للمسرحية وأجواء عرضها.. وبالفعل ذهب المحرر بحماس إلى المسرح، وجلس على كرسى فى الجهة اليسرى القريبة من خشبة المسرح يرقب الممثلين أبطال العرض، ويتابع المشاهد بإمعان شديد، لكن المسرحية خيبت أمله، وخذلت ظنه فقد وجدها تافهة لا شئ فيها يسر العين أو يبهج القلب أو ينعش الوجدان.. مسرحية بلا نجوم كبار، ولا موضوع يستحق المشاهدة والإثارة والكتابة، ووجد نفسه كمحرر فى مهمة فاشلة.. ولا يستطيع أن يصف الفشل أو يكتب عنه لجريدته وقرائها.. فماذا يفعل إذن؟! هل يعود خالى الوفاض إلى رئيس التحرير؟! أم يكتب كلامًا فارغًا لذر الرماد فى العيون؟!

فكر المحرر طويلاً حتى مل من التفكير، وفجأة تنبه إلى وجود شخص معروف كان يقف على مقربة من الكواليس، وهو " استامبورج هوايت " أهم وأشهر مهندس معمارى فى أمريكا، هذا المهندس المرموق كان يسير فى شوارع مدينته نيويورك كما لو كان مالكها وحده، وكان محقا فى إحساسه لأنه هو الذى صمم أجمل مبانيها! وقد كان استامبورج معروفًا عنه غرامه بالنساء وأنه " دون جوان" العصر والأوان ومفتون بالجميلات، برغم أنه يعد من أنبغ عباقرة العمارة فى زمانه إلا أنه كان يردد دائما: إن الجمال هو الذى يغذى العبقرية!

وكان يقول أيضًا: إن جمال البنات اللاتى يهواهن هو الذى يلهمه عبقرية الإبداع، وتصميم الملامح المعمارية، ويدلل على ذلك بأن صدر فتاة جميلة

كان يعرفها ألهمه مدخل عمارة.. وساق فتاة أخرى ألهمه بناء ناطحة سحاب.. وعنق فتاة أخرى فائقة الحسن كان نموذجًا للسلم فى دار بلدية نيويورك!

وعندما وجد المحرر الصحفى أن المسرحية من وجهة نظره فاشلة نقل اهتمامه من المسرح إلى مراقبة هذا المهندس، وما يدور على ملامح وجهه من تعابير وانفعالات، وقرر أن يصنع قصته الصحفية من هذا المهندس المعمارى النابغ عاشق النساء متعدد العلاقات، وليس من المسرحية التى يتابعها ولم تعجبه، وكان يمكن أن يحصل على نصر صحفى ممتاز، ولكن حدث ما لا يتوقعه أحد، فقد لاحظ أن هناك شابًا يقف أمام المهندس ثم يذهب، ويعود عدة مرات دون أن يلتفت المهندس إليه أو يلحظ وجوده، بل كان الشاب ينظر إليه بحنق وغضب!

وبينما كانت الراقصات يغنين أغنية "أتحداك للمبارزة" ثم يصطففن ويهجمن، ويضربن بالسيوف، وجد هذا الشاب يخرج مسدسه، ويطلق ٣ رصاصات صوب المهندس، وظن الجمهور أن هذا جزء من المسرحية، بينما المحرر الصحفى هو الوحيد الذى عرف أن هذه هى الجريمة الكاملة التى وقعت على المسرح!

واستمرت الموسيقى تصدح، وسقط المهندس على الأرض، وإذا بفتاة تهجم على القاتل وتصرخ فيه: لماذا فعلت ذلك؟! لماذا؟! والناس يصفقون بينما المحرر الصحفى يهرول كالمجنون نحو الهاتف للإبلاغ بسرعة عن جريمة حقيقية وقعت أمام عينيه، ولكى يرسل الخبر إلى جريدته يحكى فيه قصة مصرع أعظم وأشهر مهندس فى الولايات المتحدة الأمريكية أمام عينيه!

ذهب إلى الهاتف فوجد شخصًا يهمس فى سماعة الهاتف بكلمات غرامية ساخنة، ضبطه فى حالة تلبس بالحب، وتأجج المشاعر.. طلب المحرر من هذا العاشق الولهان أن يتنحى جانبًا، ويترك له الهاتف لأن الأمر جد خطير

ولا يحتمل التأجيل.. لكنه لم يترك له الهاتف فاضطر المحرر الصحفى لأن يخطف منه السماعة عنوة ثم أغلق على نفسه غرفة التليفون الزجاجية، وطلب جريدته ليمليها خبره العاجل، وبعد قليل عاد الرجل ومعه عدد من زملائه، وهاجموا " ألبرت ستون " بعنف وغطرسة، فكان يمسك الهاتف بيد، ويملى الخبر لجريدته، ويدافع عن نفسه بيده الأخرى، والجريدة تأخذ منه التفاصيل أثناء المعركة!

ثم طلب " ألبرت ستون " من جريدته أن ترسل إليه بمحررين آخرين.. جزء منهم أنهى المشاجرة الحامية، وجزء دخل المسرح وأكمل كتابة القصة الخبرية، ووصف التفاصيل، وظهرت الصور بالجريدة فى اليوم التالى، والمحرر يملى الخبر بيد، ويصد اللكمات باليد الأخرى، والموضوع يروى بالكلمة والصورة تلك القصة الرائعة المدهشة التى لم تكن متوقعة أبدًا!

هذه الحدوتة الدراماتيكية دخلت تاريخ الصحافة العالمية من أوسع الأبواب باعتبارها حادثة فى غاية الأهمية عاش مشاهدها المحرر الصحفى " ألبرت ستون " الذى وجد أن الموضوع الذى تم تكليفه بإنجازه، وتغطيته صحفيًا فى المسرح غير صالح للنشر، فنقل عدسة عينيه، وأفكاره إلى مكان آخر يتابع فيه انفعالات أخرى، وشاء حظه أن وقعت جريمة قتل فى ذلك المكان، وظنها الجمهور جزءًا من العرض التمثيلى لأبطال المسرحية! وقد وصف الصحفى للقارئ هذا الحادث الذى يشبه المسلسلات البوليسية المكونة من عدة حلقات.. الحلقة الأولى، والحلقة الثانية، والحلقة الثالثة من كابينة الهاتف العمومى!

وقد نجح هذا المحرر الصحفى أن يطور مهمته، ولا يتقيد بها.. فالصحفى ليس صحفيًا بالحادثة، ولا بالقطعة ولا بالحدث، بل هو صحفى على مدى ٢٤ ساعة فى اليوم.

سادت لحظة صمت احتسى خلالها الكاتب الصحفى الكبير عبد العليم طايع رشفة من فنجان قهوته السادة ثم أشعل سيجارته الفخمة،

obeikandi.com

والتفت بإيماءة ناحية ميرفت العطيفى قائلاً بصوت رخيم هادئ:

أنا لا أطلب منكم أن تضربوا أحدًا، ولا تكونوا عرضة للضرب والأذى، بل عليكم أن تشركوا القارئ معكم دائمًا حتى يتعايش مع الأحداث التى تكتبون عنها وخاصة عندما تكون بحجم هذه القصة الخبرية المثيرة المدهشة!

***

obeikandl.com

(٣٧)

" لا تخشى العقبات الكبيرة لأن خلفها تقع الفرص العظيمة! "

لم يشـكو عبد العليم طايع فى يوم من الأيام من أى ألم، برغم أنه شـيخ هرم بلغ السادسة والسبعين من عمره، وفى أحد الأيام زاره طبيب على صلة قرابـة بزوجتـه فلم يكن مـن الزوجـة إلا أن طلبت من الطبيـب أن يفحصه كنـوع من الاطمئنـان عليه ليس إلا.. وبعد أن استسـلم له عبـد العليم طايع قـال لها الطبيب: أقسـم بالله العظيم أننى لو لم أكـن أعرف جيدًا صاحب الشـخصية التى أفحصها، وأعرف عمـره وكل تفاصيل حياته، ووضعونى معـه فى غرفة واحدة مظلمة لأكدت بـكل البراهين الممكنة، والقاطعة بـأن الجسـد المسـتلقى أمامـى فى العتمـة، ما هو إلا جسـد شـاب لم يبلغ الأربعين بعد!

عبد العليم طايع كاتب خطب الرئيس ومستشـاره الصحفى ورئيس مجلس ادارة ورئيـس تحرير أكبر مؤسسـة صحفية قومية فى البلد رفض فى يوم من الأيـام أن يكـون وزيـرًا للإعلام مفضلاً موقعه الإسـتراتيجى فـى توجيه دفه السياسـة، والتحكـم فـى مصير البلد من خـلال خندقه الحصين فى شـارع الصحافة العامر بالأحداث والمفاجآت والانقلابات المروعة!

يـرى عبـد العليم طايـع أن يوما واحـدا فقط من السـعادة أفضل من حياة مأسـاوية طويلـة عريضـة! كان لجبروته يطـوى درجات أربعـة طوابق دفعة واحـدة دون لهاث أو شـكوى، وفى المرة الوحيدة التى شـعر فيها بنقر ألم فـى ضرسـه وقـف متعجبًا ينظر إلـى المرآة قائلاً لنفسـه ولمـن حوله: هذا الملعون الذى فى فمى أشـعر بالبغض العظيم تجاهه. وبرغم كل السـنوات والخبرات التى يحملها فوق كاهله، كان عربيدًا عتيًا فى الخفاء، يفضل البنات الحسناوات تحت العشرين، ولا مانع من هن فوق العشرين.. هو أخضر

القلب برغم المظهر الوقور والإطلالة المهيبة، والشيبة المجيدة، والصوت الأجش والنبرة الهادئة والقول الحكمة، والخطوة الوئيدة، والتعليق الموجز المتقتضب، والحياد المفتعل والشفافية المزعومة، والتحية بإمالة الرأس، وليس بحضن اليد.

لقد كتبت فنانة شهيرة فصلاً كاملاً فى مذكراتها عن هذا الجورنالجى العتيد قالت فيه: "إن من تجعل هذا الرجل سعيدًا ولو للحظات ذنبها مغفور، وأن اللقاء معه يمثل مجدًا قوميًا!"

كانت زوجته تعانى كثيرًا من نظراته المصوبة إلى كل إمرأة عابرة حتى ولو كانت خادمة تمسح البلاط.. فهى تدرك أنهن حوله مثل الفراشات يجذبهن الضوء بلا مقاومة، وذات مرة وصفت نساء زوجها فى العمل، والنادى وكل مكان يذهب إليه بأنهن مثل الدجاجات ذات الريش الملون، عليه التخلص منهن فى أسرع وقت ممكن.. فلا فرق بين الجميلة والقبيحة كلهن سواء عندما تنطفىء الأنوار!

كان الرجل صاحب قلم وموهبة لا ينكرها إلا غيور أو حاقد، لكنه كتب مقالاً ناريًا ذات مرة لإحدى الصحف العربية الكبرى الصادرة فى لندن وخانته عبقريته فى هذا المقال الذى كتبه تحت عنوان...

"سيادة الرئيس... مصر ليست للوراثة!"

وهاجم فى هذا المقال الفكرة التى يرددها أقطاب المعارضة بأن الرئيس سوف يورث البلد لإبنه على غرار ما حدث فى معظم البلدان العربية، وأن الأب الرئيس الذى ظل قابعًا على صدر شعبه أكثر من ربع قرن يحكمه بالحديد والنار لن يتورع إذا أحس باقتراب أجله عن أن يسلم مقاليد الأمور، ومفتاح البلد إلى ولده!

أحد الوشاة تطوع بإرسال هذه النسخة من الجريدة إلى يد رئيس الديوان الذى كان يكره عبد العليم طايع بغباء، ويتصيد له الأخطاء لأنه يدرك أنه أقرب منه إلى قلب وعقل وأذن الرئيس.. ونجح رئيس الديوان فى أن يوغر

صدر الرئيس ضد عبد العليم طايع.. والطريف أنه كان قبل هذه الواقعة قد قدم للرئيس عددًا من جريدة الأيام والذى تضمن فى باب " حدث فى مثل هذا اليوم " أن السيدة الأولى الفاضلة ولدت فى يوم ٢٥ مارس قبل ٦٥ عامًا وهو ما أثار غضبها واستهجان مؤسسة الرئاسة التى استنكرت بشدة التعرض لهذه المسألة بالنشر خاصة وأن الأمر شخصى محض، ولا يعد من المعلومات التى تهم القارئ فى شىء، وبالفعل تم استدعاء عبد العليم طايع بصفته المسئول الأول عن كل ما نشر فى جريدة " الأيام " إلى الرئاسة على وجه السرعة، ووقف أمام الرئيس مثل التلميذ الخائب فى الامتحان السهل، بينما وقف رئيس الديوان منتشيًا بشماتة وتشفى، والرئيس يوبخ عبد العليم طايع رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة مؤسسة الأيام.. وبعدها بأيام صدرت أوامر عليا بالقبض عليه بتهمة التحريض ضد النظام، والإساءة إلى الرئيس وأسرته.. ووجد الرجل نفسه فى دوامة لم تكن تخطر على باله فى يوم من الأيام!

كان يقضى أيامه داخل زنزانته مثل إمبراطور فى مخدعه، يتحرك فى قصوره ويتنزه فى بساتينه ومزارعه، وذات يوم فاجأ مأمور السجن وطلب صندوق مياه ماركة " إيفيان " الفرنسية على نفقته الخاصة حتى ولو جاءوا به من عاصمة النور!

وبرغم أنه يعتبر سجينًا سياسيًا إلا أنه كانت هناك أوامر عليا بمعاملته بصورة طيبه وتلبية كل طلباته، حيث كان مسموحًا له بممارسة رياضته المفضلة " بلاى ستيشن" وقراءة الصحف، ومشاهدة التليفزيون بقنواته المختلفة، وتزويده بكل الكتب التى يريدها.

***

(٣٨)

" الصحفى.. خبر يبحث عن مبتدأ! "

فوجئ ناجى شرف الدين برسالة قصيرة على بريده الإلكترونى من إيناس مندور تطلب فيها رأيه فى قرارها بالحصول على الجنسية السويسرية، وتلتمس رده على وجه السرعة..أحس بالنشوة والأهمية، وأعجبه أن ترسل من فوق جبال وروابى سويسرا تسأله المشورة.. أعد لنفسه كوباً من الشاى الأخضر، وتبسم زهوًا بحاله ثم جلس على الكمبيوتر يكتب ردًا عاجلاً..

قال لها:

عزيزتى إيناس مندور.. القريبة من القلب.. البعيدة عن العين..

أعرف تمامًا أنك الآن تعيشين فى أوروبا، وتتحدثين الفرنسية.. سوف أخاطبك بلغة العقل.. العقل يا صديقتى زينة الرجال، كما هو زينة النساء أيضًا.. وهاأنذا أكتب إلىك رسالتى تلك بالعربية.. لغة أباؤك وأجدادك وبنى جلدتك.. وأنا يا عزيزتى لست ضد إجادتك لغات أخرى عالمية، والنطق بها كأهلها تمامًا.. اللغة العربية يا إيناس ليست زيًا نلبسه ونخلعه حين نريد، ولا سيارة نبيعها حين نشاء أوعندما تتهالك أو يصيبها العطب.. ولا ورقة طائشة نرميها فى سلة المهملات بعد حين.. فاللغة وثيقة العمر.. الوثيقة الوحيدة التى تثبت هويتنا وانتماؤنا لأرض ما وحضارة ما، وبدونها نكون كائنات هلامية تسكن فى العدم وتأتى من فراغ!

أعرف يا عزيزتى تأثرك بالأوروبيين والثقافة الغربية، ومصادر الفكرهناك مثلما تتأثر الأسماك الصغيرة بكل تيارات الحضارة الإفرنجية، وصراعاتها وجنونها ومخترعاتها وعجائبها!

يا عزيزتى أنا لا أستطيع أن أمنعك من أن تعيشى وقتك حيث أنت، لا أستطيع أن أُجبرك على أن يكون جسدك فى أوروبا، وعقلك وروحك فى

الشـرق.. هنا فى وطنك.. لكل وطن يا صديقتى فلسفته وأفكاره وثقافته، لكـن ما أريـده منك يا إيناس دون إكـراه أن تحتفظى بأصالتك الشـرقية وعروبتـك ومصريتك.. كونى أنت.. كونى كما خلقك الله، وكما أرادك سبحانه.. فنحن لنا جذور وحضارة وتاريخ حتى لو كنا دون ذلك الآن!

أنـا لا أريـد ولا أسـتطيع أن أحبسـك فـى قـارورة زجاجية مثل أسـماك " الأكواريـوم " وأمنعـك مـن استنشـاق هـواء الحضـارة الأوروبيـة، والتنعم بجنسـيتها فهـذه فرصتك، ولكـن نصيحتى لك كصديـق.. ألا تذوبى فى محيطـك الجديـد، وتفقـدى شـخصيتك وهويتـك.. عومى فـى أى بحر من بحـار الشـمال تشـائين، وإيـاك أن تذوبـى فى مياهـه.. حافظـى دائمًا على جواز سـفرك المصرى، فلن تسـتطيعى أن تكونى إنجليزية أو سويسرية أو فرنسـية.. إن كل المواطنين العرب الذين تجنسـوا بجنسـيات أخرى، ظلوا علـى هامـش الحياة فى بلدانهم الجديدة، فلا عرب أمريكا اسـتطاعوا أن يصبحـوا أمريـكان، ولا عـرب بريطانيا اسـتطاعوا أن يصبحـوا نوابًا فى مجلس العموم.. أو أعضاء مجلس اللوردات.

ابـق مصرية يـا إيناس كما كان أبوك مصريًا.. وكما كان جدك وجد جدك وأعمامك وأخوالك.. ابق مربوطة بهذه الأرض المباركة مغروسـة فى طينها كشـجرة طيبة، موصولة بحبل سرى مثلما يتصل الجنين بأمه، هذه الأرض فيهـا كل الخيـر والبركة فلن تجدى أرضًا أجـزل منها عطاء، ولا أكثر منها حبًا وحنانًا مهما كانت قسوتها.. والله يرعاك.

مع خالص الود... ناجى شرف الدين.

***

(٣٩)

" اعتن بسمعتك جيدًا، ولسوف تثبت لك الأيام أنها أغلى ما تملك! "

منذ تعرضت المحررة الصحفية نهير السباعى لمحاولة الشروع فى اغتصابها من المطرب الشهير، وتركت العمل فى قسم الفن، واتجهت للعمل فى التحقيقات وتخصصت فى الموضوعات والقضايا الشائكة التى تخص البنات والنساء على وجه الخصوص.. فاجأت الجميع بإصدارها لكتاب مثير للجدل عنوانه " كلاب السكك "، استعرضت فيه التجارب الشخصية، والحكايات التى عاشتها أو سمعتها من صديقاتها بشأن التحرش بهن، وكافأها رئيس التحرير بنشر الكتاب على حلقات مسلسلة فى الجريدة.. كل أسبوع حلقة.. ليس هذا فحسب بل كلفها أيضًا مع مجموعة من زملائها وزميلاتها بإجراء دراسة عن أثر ممارسة الحب على حياة المصريين، وترتيب أولوياته بالنسبة لهم، وتضمن الاستبيان ٦٠سؤالاً يتم توجيهها للمشاركين بحيث تغطى العديد من جوانب العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة بجانب أولويات أخرى مثل الصحة العامة، والعلاقات الخاصة والمال والحياة الأسرية..

وجاءت نتائج البحث مذهلة، وتضمنت خمس نقاط أساسية:

اولاً: يحتل الجنس مرتبة متقدمة ضمن أولويات الحياة للسيدات والرجال فى مصر بالرغم من عدم رضاء معظمهم عن حياته العاطفية، فقد طلب من المشاركين ترتيب ١٨ من أولويات الحياة المختلفة مثل الصحة العامة والقدرة المالية والحياة الأسرية وإنجاب الأولاد والعلاقات الاجتماعية وغيرها من الأولويات فجاءت الصحة العامة فى المرتبة الأولى بالنسبة للرجال يليها العمل والمستقبل المهنى، بينما جاء الجنس فى المرتبة الثالثة متقدمًا على كثير من أولويات الحياة مثل القدرة المالية والحياة الأسرية

أما بالنسبة للسيدات.. فجاءت الحياة الأسرية على قمة الأولويات بينما احتل الجنس المرتبة الخامسة وبالرغم من أن ٩٨٪ من الرجال و ٩٦٪ من النساء أقروا أن الجنس مهم فى حياتهم فان ٨١٪ من الرجال والسيدات أقروا بعدم الرضاء عن حياتهم الجنسية الحالية، وتتضح أهمية الجنس فى منطقة الشرق الأوسط عند مقارنة نتائج هذا المسح بنتائج بحث مثيل أجرى فى جنوب شرق أسيا أقر فيه ٥٥٪ من الرجال و٣٦٪ من النساء بأهمية الجنس ضمن أولويات الحياة.

ثانيا: عدم الرضاء عن الحياة العاطفية لا يقتصر على الرجال والسيدات المتقدمين فى السن ولكن يشاركهم فيه الشباب أيضًا، فقد تمت مقارنة المشاركين فى البحث بعد تقسيمهم لثلاث مجموعات سنية شملت الأولى الرجال أو السيدات قبل سن الثلاثين والثانية بين سن الثلاثين والخمسين، والثالثة فوق سن الخمسين.. وتبين أن السيدات تحت سن الثلاثين هن الأقل رضاءً عن الحياة الجنسية، وعلى الجانب الآخر كان الرجال بين سن الثلاثين والخمسين هم الأقل رضاءً عن حياتهم الجنسية والعاطفية.

ثالثًا: أظهرت نتائج الاستبيان أن الرضاء عن الحياة العاطفية يؤثر بشكل كبير على الرضاء عن أولويات الحياة الأخرى فالسيدات والرجال الذين أقروا بالرضاء التام عن حياتهم أظهروا قدرًا كبيرًا من الرضاء عن أولويات الحياة الأخرى ونظرة أكثر ايجابية لأمور الحياة العامة، وأظهروا قدرا أكبر من الثقة بالنفس.. وقد تبين أن الرضاء عن الحياة الجنسية يؤثر على معدل النشاط الجنسى حيث بلغ معدل اللقاء الحميم بالنسبة للسيدات والرجال الراضين عن حياتهم الجنسية نحو ١٢ لقاء شهريًا مقارنة بنحو ٧ لقاءات للسيدات والرجال الذين أظهروا قدرا أقل من الرضاء، وهذه الأرقام تبين مرة أخرى اهتمام شعوب منطقة الشرق الأوسط بالجنس لأنه يمثل ضعف معدل اللقاء الحميم لدول جنوب شرق أسيا، وكذلك تفوق المعدل العالمى والبالغ ٦,٤ لقاء حميما شهريًا.

رابعًا: فى محاولة لمعرفة العوامل المؤثرة على الرضاء عن الحياة الجنسية من محددات اللقاء الحميم المختلفة مثل عدد مرات الجماع وصلابة الانتصاب والقدرة على تأخير القذف واستخدام أوضاع جنسية مختلفة، والمحافظة على الانتصاب والمداعبة وحدوث انتصاب بعد القذف تبين أن المحافظة على الانتصاب أثناء اللقاء الحميم تمثل الأهمية الأولى بالنسبة للرجال والسيدات، يتلوها فى الأهمية قوة الانتصاب حيث أقر المشاركون فى الاستبيان أن الانتصاب تام الصلابة من أهم عوامل الرضاء ليس فقط عن الحياة العاطفية.. ولكن أيضًا الرضاء عن الصحة العامة، والثقة بالنفس وكذلك معدل اللقاءات الشهرية.

خامسًا: ٨٠٪ من السيدات و٧٦٪ من الرجال أقروا أن حدوث انتصاب غير تام الصلابة يمثل لهم مشكلة كبيرة بالرغم من قدرتهم على المعاشرة الزوجية حيث أقر المشاركون فى البحث أنهم يشعرون بالذنب تجاه شريك الحياة، ويحسون بالحرج الشديد الذى يدفعهم للابتعاد عن اللقاء الحميم.

ومثلما أخذت فصول كتابها "كلاب السكك" طريقها للنشر فى حلقات مسلسلة.. أخذ تحقيقها الجرئ طريقه للنشر، وقد نصحها رئيس التحرير الذى كان عضوًا فى لجنة تحكيم مسابقة الموضوعات الصحفية بنقابة الصحفيين أن تتقدم بهذه السلسلة من الحلقات لمسابقة النقابة، وبالفعل تقدمت بأوراقها، وساعدها الرجل بحماس وخاض معركة فى كواليس اللجنة التى تحدد الموضوعات الصحفية الفائزة حتى ضمن لها الفوز بالجائزة الأولى مع عشرين صحفيًا وصحفية من جرائد ومجلات مختلفة!

فى تلك الفترة بدأت الأوساط الصحفية تشهد رواجًا وانتعاشًا، وعرفت الأرصفة عشرات الإصدارات الجديدة من المطبوعات اليومية والأسبوعية التى ولدت فجأة بعد مخاض عسير مع الحكومة والجهات الأمنية ومجلس الشورى الأب الشرعى والرسمى ومالك الصحف القومية.. عرفت مصر

الصحف الخاصة أو كما يحلو لأصحابها من رجال المال والأعمال والأثرياء الجدد وجنرالات الأحزاب السياسية أن يطلقوا عليها لقب " الصحافة المستقلة " وأحدث هذه الصحف وأكثرها إغراء للصحفيين فى المؤسسات القومية بالمال صحيفة "الغروب" لصاحبها فريد المعلم صاحب أكبر دار نشر فى البلد!

منذ عرف شارع الصحافة عشرات المطبوعات الوليدة، عرفت طيور صاحبة الجلالة الهجرة إلى جريدة " الغروب "..لجأوا إليها من مختلف الصحف القومية الحكومية، وبصفة خاصة أبناء مؤسسة " الأيام " الصحفية، حيث استقطبت معظمهم ووقعت معهم عقود عمل برواتب مجزية لا يحلمون بها، وتتجاوز عشرة أضعاف ما يتقاضونه فى مؤسستهم الحكومية، ومن هنا دبت المشاكل والخلافات بين ميرفت العطيفى ومجموعة من محررى مجلتها " نجوم الفنون " التابعة لمؤسسة الأيام بعد أن رفضت منحهم أجازة بدون مرتب للتفرغ للعمل فى جريدة " الغروب " بدعوى أن عدد المحررين بالمجلة محدود وحاجة العمل لا تسمح، وأنها تسعى لتطوير المجلة والعمل على زيادة نسبة توزيعها بجانب إنشاء موقع إلكترونى يبث مواد المجلة وينشر أخبارها إلكترونيًا لحظة بلحظة وكأنها جريدة يومية لا مجلة أسبوعية!

***

obeikandl.com

(٤٠)

" عيوب الناس نحفرها على النحاس.. أما فضائلهم فنكتبها على الماء! "

فى صباح أحد الأيام الشتوية الدافئة المشمسة تصدر الصحف القومية قرار العفو الرئاسى عن عبد العليم طايع، وخرج الرجل من السجن ليدخل سجنًا آخر، فقد وضعوه تحت الإقامة الجبرية فى الفيلا الضخمة التى شيدها لنفسه أيام المجد والعز من مال مؤسسة " الأيام " للصحافة والنشر، والتى تربع عرشها، وجثم فوق صدرها أكثر من عشرين عامًا.. رضخ للإقامة الجبرية فى قصره المنيف المحاط بأسواره العالية لمدة عام تقريبًا.. ترهبن الرجل خلال هذه الفترة لتدوين مذكراته تحت عنوان: " سمعت ورأيت.. مذكرات الجورنالجى " وبدأ يحكى على صفحاتها تفاصيل أجندته اليومية منذ استيقاظه من النوم، ثم يصلى ركعتين ثم يحتسى كوب الشاى، ويطالع الصحف، وينتابه إحساس سريالى غريب بمجرد أن يلمح اسم الشخص الذى إحتل مكانه ووضع اسمه بدلاً منه على ترويسة جريدة الأيام، هذا الشخص الذى طالما وقع عليه عقوبات، ونقله إلى العمل فى المطبعة لعدة سنوات، ثم نكل به مرة أخرى ونقله إلى الأرشيف، وكان دائمًا ما ينكل به، فها هى الظروف والأقدار قد شاءت لأن يجلس مكانه فوق كرسيه الأثير فى المؤسسة، ويتبوأ مقعده رئيسًا لمجلس الإدارة والتحرير.. وهو الأمر الذى جعل عبد العليم طايع يفضل العزلة بين جدران قصره الشاهق، ويكتفى بالتجول فى حديقته وبين ردهاته معللاً ذلك بأنه لا شئ فى هذا البلد يبعث على الأمان، ويدعو للطمأنينة بعدما أصبح التشفى هو السلاح الذى يجيد استخدامه الحقراء والسفلة فى هذا البلد وفى أوساط صاحبة الجلالة!

استهل عبد العليم طايع مذكراته بوصف القصر الذى آل إليه مصيره حبيسًا فيه يحيطه مراقبون بملابس مدنية من جهة أمنية عليا!

وشرع يحكى عن الفيلات المجاورة له ومن هم أصحابها؟! ومن أين حققوا ثرواتهم الطائلة فى غفلة من الزمن.. وبعضهم من الصحفيين الذين دخلوا لعبة المضاربة فى العقارات والإعلانات من الباب الخلفى للصحافة وصاروا مليونيرات بلا مقدمات؟!

فى لحظات كثيرة كان يتمنى أن يرن تليفونه ولو مرة واحدة ثم يخرس من جديد.. كان يتمنى أن يسمع صوتًا غير السفرجى والجناينى والسائق والخادمة السيرلانكية " إيرين ".. كان يتوق لأن يسمع صوت أنثوى آخر غير صوت زوجته التى كان يصفها دائمًا فى سره " بالحيزبون.. مرضعة قلاوون " التى يراها صباحًا وهى تهم بالخروج لمزاولة أنشطتها الاجتماعية، وجمعياتها الخيرية، ولا يسمع منها سوى.." صباح الخير.. سوف أتأخر.. لا تقلق "، وعندما تعود لا يسمع منها إلا " تصبح على خير"!

وقد أعد عبد العليم طايع أربعة تواريخ لأحداث فى غاية الأهمية من حياته ثم وضعها على شاهد من الرخام مثل تلك التى تنتصب على مقابر الأقباط.. هذه التواريخ تحمل يوم مولده ويوم تعيينه فى مؤسسة الأيام، ويوم أصبح رئيسًا لمجلس الإدارة، ورئيسًا للتحرير، ويوم خروجه من منصبه بصحبة رجال الأمن القومى إلى السجن الحربى وأخذ يكتب ويكتب، ويقضى ساعات يومه وليله فى التدوين، وتسجيل الذكريات والخواطر والأحداث والمواقف.. أخذ يسرد ما حدث يوم مولده.. ذلك اليوم الذى سمع عنه من والده أنه ولد فى عز البرد، ولم يكن لديه ملابس يرتديها، ووالده ليس لديه مال ليشترى له أى شىء، وكان من عادة الناس فى بلدتهم أن يتبادلوا ملابس الأطفال بينهم.. كان هذا اليوم عصيبًا للغاية وبعد ميلاده بيوم واحد ماتت أمه متأثرة بحمى النفاس! ويوم تعيينه فى مؤسسة " الأيام " الصحفية عقب تخرجه فى كلية التجارة، وقد توسط له ابن خالته لدى بلدياتهم الذى

يعمل فى صحيفة الأيام!

ويوم أصبح رئيسًا لمجلس الإدارة، ورئيسًا للتحرير، كان يومًا عظيمًا مشهودًا عظيمًا حيث تطوع أحد المحررين الأثرياء بذبح ثلاثة عجول قبل أن يدخل المؤسسة بعد قرار الترقية.. ويوم خروجه من المؤسسة بصورة مهينة بغيضة سمع بأذنيه من يلعنونه، ويسبونه بأمه وأبيه، ويدعون عليه بخراب الديار وبئس المصير!

فى مذكراته التى تشبه اليوميات حكى عبد العليم طايع كيف كان يتعامل مع سائقه الخاص الذى عينته له المؤسسة طوال فترة وجوده فيها، ومدى خوفه من هذا السائق الذى يعرف كل أسراره، وأيضًا علاقته الخاصة جدًا مع سكرتيرته التى كانت تعطيه كل شئ، وعلاقته السرية مع ميرفت العطيفى، وأيضًا الغيرة القاتلة بين المحررين وبعضهم البعض! كما استعرض عبد العليم طايع فى مذكراته ما يدور فى قصره من حكايات مثيرة، ومريبة مع الخدم بعد انقطاع صلته بكل أصدقائه وزملاء المهنة ورفاق الدرب، والعمر الطويل إثر خروجه من المؤسسة معترفًا بأن معظمهم يكرهونه، ويحقدون عليه.. وكان مسعود سائقه الخاص سابقًا هو الذى يجمع له الأخبار، والمعلومات ويلتقط له أدق الأسرار داخل المؤسسة بحكم عمله معه بعد خروجه من المؤسسة مقابل راتب شهرى كبير.

لم يبخل عبد العليم طايع فى مذكراته، بل كان كريمًا فى كشف كل الأسرار وهتك المستور، وحتى الأسوار العالية فى حياته التى قيدته طويلاً، وكبلته سنوات تحدث عنها واصفًا إياها فى قصره المنيف بمدينة السادس من أكتوبر.. وكيف إقتنى كل أثاثه وسجاده الفخم من أوروبا، وقيمة السجادة الواحدة ٣٠٠ألف جنيه على حساب المؤسسة التى أعطته بلا حساب طوال مدة خدمته رئيسًا لتحريرها ومجلس إدارتها.

وأفاض الرجل بكل صراحة وجرأة عن علاقته بخادمته السيرلانكية

التى كان يمنحها ٥٠ دولارًا فى الليلة الواحدة علاوة على راتبها الشهرى الذى كانت تتقاضاه مقابل خدمتها فى القصر.

وبدأت تتسرب أخبار فى الوسط الصحفى، وتنشرها على استحياء بعض وسائل الاعلام يقرأها بنفسه أو تصله عن طريق مسعود سائقه الخاص بأن رؤساء مجلس إدارات ورؤساء الصحف القومية سوف يتم التحقيق معهم فى مخالفات مالية حدثت طوال فترة وجودهم على رأس مؤسساتهم الصحفية.. تملكت عبد العليم طايع حالة من القلق المزرى، وكان ينتظر كل يوم أن يتم استدعاؤه للتحقيق والاستجواب أمام النائب العام.. القلق يزعجه والفزع يسيطر عليه ويرتجف عندما تكتب الصحف سواء الخاصة منها أو المعارضة فى هذا الموضوع الحساس المثير للجدل.

استعاد الرجل من ذاكرته الوظيفية سيناريو فساده بحلقاته الطويلة، وتذكر جنرالات المقالات النارية والمدافع الصحفية.. كيف عاش طفولة قاسية بائسة، ونهشه الضنك، والفقر المدقع حتى ألقت به الأمواج على رأس مؤسسة صحفية كبرى طوال ربع قرن أو يزيد، فحول أحد طوابقها إلى فندق خمس نجوم، وكان يدير أكثر من ٥ آلاف عامل وموظف ومحرر ومصور من تحت الماء المعطر فى مقر إقامته بالچاكوزى الذى أقامه فى مبنى المؤسسة، وعلى بعد خطوات معدودات من مكتبه الفخم الأنيق المريح!

وفى الوقت ذاته تذكر سوءات أقرانه رؤساء مجالس الإدارات والتحرير فى المؤسسات القومية الأخرى، وقارن نفسه بهم ليرى أيهم الأكثر فسادًا , والأكثر استحقاقًا للمحاكمة.. تذكر عنتر رجب رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة " المصرية للصحافة والنشر ".. وكيف كان يبيع صفحات جريدته يوميًا، ويؤجرها مفروشة لبرامج الفضائيات الليلية التى يطلقون عليها " برامج التوك شو " لتحقق رواجًا جماهيريًا قبل أن تصبح الصحيفة بين أيدى القراء فى اليوم التالى.. تذكر حكايته الغريبة التى

يعرفها القاصى والدانى عن غرفة النوم الملحقة بمكتبه وعشيقاته فى المؤسسة.. وكيف دوت فضيحته حينما حاول التحرش بصحفية حسناء!

وعقد مقارنة أخرى بينه وبين جلال عمار رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة " الأحداث " القومية للصحافة.. وكيف كان يقضى أكثر من نصف الليل ساهرًا يبدع سطورًا عن القيم والمبادئ السامية، وبعد صلاة الفجر يسكر ويعربد ويضاجع راقصة مصر الأولى.

وكيف كان لا يكتب حرفًا ولا يخط سطرًا إلا إذا وصله المعلوم فى مظروف مختوم من جهة حكومية، ومملوء بآلاف الجنيهات ثمن الكلمات، ولا يجرؤ مخلوق أن يهمس بأن الكاتب المرموق صاحب القلم الذهبى مرتشيًا.

وتذكر أيضًا صديقه القديم وعدوه اللدود توفيق أبو المكارم رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير دار الكلام للصحافة والنشر وكيف جاء من قريته النائية بمحافظة المنوفية، ودخل المهنة عقب هبوطه إلى القاهرة، وهو لا يملك ثمن تذكرة العودة بالقطار إلى بلدته، ومع مرور الأيام صار نقيبًا لكل الجورنالجية فى بر مصر، واستغل موقعه المهم والخطير فى ابتزاز الأكابر والوزراء، وصار من أثرى الأثرياء! والغريب أن هذا النقيب نال هذا الشرف على مدار خمس دورات يتباهى بحب مصر جهارًا نهارًا، ويفخر فى مقالاته بأنه يركب طائرة الرئاسة، وفى سره يلعن مصر المحروسة، ويصف شعبها بالحقير الواطئ، ويعرب لأقرب المقربين بتأفف أن حظه العثر جعله يعيش فى هذا البلد القذر صاحب حضارة الحجارة التى لا تغنى ولا تسمن من جوع.

ولكى يخرج عبد العليم طايع من دوامات أزماته بدأ فى تنظيم حفلات يدعو فيها بعض المقربين والمسئولين حتى لا يظن الآخرون ضعفه، وكسر عزلته خلف أسوار قصره العالية، وخرج لمقابلة الأصدقاء فى المقهى المعتاد جلوسه عليه أثناء فترة عمله فى مؤسسة الأيام.

خرج الرجل وبصحبته الخادمة السيرلانكية " إيرين " بسيارته المرسيدس السوداء التى يقودها العجوز مسعود لكى يقابل أصحابه الذين تهربوا منه كما يفر السليم من الأجرب ، وغيروا موعد اللقاء المعتاد إلى موعد آخر وقابلهم على كل الأحوال وأخبرهم بعزمه تأسيس شركة رأسمالها سبعة ملايين جنيه يقوم من خلالها بإصدار صحيفة يومية تكون فرس الرهان فى الوسط الصحفى.

وبعد هذه المقابلة ارتسمت علامات القلق جلية واضحة على وجه عبد العليم طايع عندما وصله الخبر من الرجل العجوز سائقه الخاص بأن رؤساء مجالس إدارات الصحف القومية سوف يحالون للتحقيق معهم بشأن إهدار المال العام والمخالفات المالية التى ارتكبوها طوال سنوات رئاستهم للمؤسسات الصحفية ، كان كل يوم يتوقع أن يستدعوه للتحقيق ويكون مصيره المثول أمام هيئة النيابة.

القلق يسرق النوم من عينه ، والفزع يرعبه.. يرتجف عندما تكتب صحف المعارضة فى هذا الموضوع الشائك ، وتفتح هذا الملف الملغوم!

لم يهدأ الرجل واسترجع فى ذاكرته كل مراحل عبثه ومجونه داخل المؤسسة.. سلسلة خطاياه أشبه بشريط سينمائى يبعده عن لقطات ومشاهد ، ويقربه من أخرى. ذهب عبد العليم طايع ليلتقى كبار المسئولين على مركب فى النيل.. مقابلة سوف تحدد مصيره إلى الأبد.. وفى الجلسة أعلن مولد صحيفته ، واختار اسمها وبدأ فى توجيه من سيعملون فيها بالتركيز على حواديت عن الماضى ، وعن كبار المسئولين فى هذا البلد ونجوم المجتمع والليل والسهر ، وأبطال المغامرات من رجال الأعمال والفنانين ونواب البرلمان ثم ذهب إلى الفندق الذى كان محجوزًا له جناح فيه باسمه هو وإيرين.. وفى اليوم التالى ذهب إلى قصره حتى يأتى ببعض حاجاته الشخصية للسفر إلى قريته النائية التى مكث فيها خمسة أيام تذكر فيها طفولته وصباه.. وفى هذه الأيام جلس مع زوج عمته فهاجمه

obeikandi.com

الرجل بكلمات قاسية، وعنفه بغلظة على غيابه الطويل وإصراره على قطع صلة الرحم، فترك القرية وعاد إلى قصره فى مدينة السادس من أكتوبر آسفًا نادمًا على تلك الزيارة.

فى تلك الأثناء كان أحد كبار المسئولين الأمنيين يحاول الاتصال به طوال الفترة الماضية، إلا أنه كان يماطل فى الرد على هاتفه.. لكن هذه المرة رد على الهاتف فوجد هذا المسئول يسبه بأمه، ويلعنه بأبيه وهنا تذكر عبد العليم طايع أن الذى سبه بأمه اثنان فقط هما زوجته وهذا المسئول الأمنى الوقح.

لم يعد أمام عبد العليم طايع سوى الرحيل عن مصر، وعلى الفور بدأ يفكر فى السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يخبر مخلوق بخطته السرية سواء عشيقته السرية وخادمته العلنية إيرين أو سائقه مسعود العجوز لأنه لم يعد يثق فى أحد، ولا يعرف من معه ولا من ضده، وسافر بالفعل لأداء العمرة، وهناك لم يجد ما كان يلقاه دائمًا من حفاوة وترحيب فى مكتب المؤسسة فى العاصمة السعودية الرياض.

إختار ذات الغرفة التى كان يسكنها دائمًا فى ذات الفندق الذى يحبه، وفى بهو الفندق مساء أحد الأيام رأته إحدى الصحفيات التى قضى على مستقبلها منذ عشر سنوات وأجبرها على تقديم استقالتها من مؤسسة الأيام بعد أن عرفها القراء، وصارت صحفية لامعة يشار إليها بالبنان.. فقد كان يمقت أن يشتهر أى صحفى فى مؤسسته، ويرى أن من يسخر قلمه لينال بريق الشهرة يجب القضاء عليه بشتى الوسائل حتى لو وصل الأمر إلى نشر خبر فى صحيفة الأيام الأوسع انتشارًا فى مصر يؤكد فيه موت هذا الصحفى إثر حادث أليم ومفاجئ، مثلما فعل مع تلك الصحفية الموهوبة التى غادرت مصر ودموعها تسح فوق خدها لتتعاقد مع كبرى الصحف السعودية، ولتجعل من الأرض المقدسة مقر إقامتها الدائم.

ولم يكتف بذلك، بل يكتب فقرة فى مقاله الإفتتاحى بالجريدة ينعى

بأسى هذا الصحفى أو تلك الصحفية، ويؤكد بكلمات حزينة مؤثرة أن فى بلاط صاحبة الجلالة قليل من ملائكة الفردوس لا يعيشون طويلاً.. وكثير من شياطين أسفل سافلين يعيشون أطول ويعمرون أكثر!

لم يتوقف عبد العليم عن التفكير فى مصيره المجهول الغامض وهو فى مكة المكرمة.. دار فى رأسه السؤال الحائر المحير.. هل يعود إلى مصر أم يسافر إلى بلد آخر سواء كان عربيًا أو أوروبيًا ليقضى هناك بقيه عمره؟! تذكر هول ما كان يراه بعينه من أجهزة الأمن، وما يسمعه عن بطش كبار المسئولين بالمعارضين الخارجين عن سياسة البلد، وطوع النظام الحاكم، لدرجة أنه كان قد جعل من نفسه جزءًا من كيان النظام وترسًا فى هيكله الأساسى.. فكيف لكبار رجال الدولة وأجهزتها الأمنية أن تبطش به فى نهاية المطاف، وبعد سنوات طويلة من خدمة النظام والأمن والحزب وكل أجهزة الدولة؟! هل غربت شمس سطوته وجبروته، وانقلب السحر على الساحر لمجرد الخروج عن النص لمرة واحدة فى العمر؟! ولماذا يهوى النظام مثل معظم النظم العربية أن تشرب دماء خادميها، وتطحن عظام عبيدها بعد أن صلوا لها وفى محرابها صلوات خاصة مخلصة نقية على مدار سنوات عديدة؟!

وذات صباح جاءه اتصال هاتفى من المحامى الخاص به فى القاهرة يخبره فيه بأن صحفيًا من مؤسسة الأيام تقدم ضده ببلاغ إلى النائب العام، وكان كل ما يشغله ويثير شجونه العقد المزور لقطعة الأرض التى اشتراها للمؤسسة لبناء مبنى جديد بقيمة عشرين مليون جنيه، ودون فى العقد أنه اشتراها بمبلغ خمسين مليون جنيه، ولو ظهر هذا العقد المزور الذى ربح من ورائه ثلاثين مليون جنيه دخلوا فى حسابه فى البنك ستكون فضيحة مدوية، وتلتف أساور الحديد حول معصمه لذلك سعى على الفور لتغيير مسار رحلته من القاهرة إلى مكة، والعكس لتكون من مكة إلى الدوحة.. وسافر بعد أداء العمرة إلى قطر، وهناك التقى مع عدد من الرفاق

والأصدقاء القدامى فى بلاط صاحبة الجلالة من الذين زاملوه ردحًا من الزمن.

إلا أن بقاءه طويلاً فى قطر يعد أمرًا لا يمكن تخيله أو الصبر عليه، فالجو حار بشكل لا يطاق، رطب رطوبة لا تحتمل طوال العام.. سأل نفسه.. ما هذا الجحيم الذى لا تطفئه نار المكيفات ولا ماء الخليج!

جاءته فكرة الفرار إلى فرنسا فهو بلد ممتع صيفًا وشتاء خاصة وأن معظم رجال الأعمال المصريين الذين هربوا بأموال البنوك، وثروات البلد فروا إليها واستقروا فيها، وأعربوا عن سعادتهم بهذه الهجرة الاضطرارية، وهو نفسه سافر فرنسا عشرات بل مئات المرات فى مهام صحفية عبر الطائرة الرئاسية، وأعجبه جوها وأهلها وشوارعها وميادينها ومطاعمها، وكل ملامحها وبصفة خاصة الحور العين من بنات باريس.

كان يطالع الصحف المصرية يوميًا، ويترقب ما تحمله من أخبار قد تكون غير سارة وصادمة بالنسبة له، وكانت كل الصحف بلا استثناء تهاجمه سواء بشكل مباشر أو غير مباشر حتى المؤسسة التى رأس مجلس إدارتها وتحريرها.. كظم غيظه ودفن غضبه فى صدره، وتوعد كل من ألقاه بحجر أو وجه إليه كلمة سباب جارحة أو انتقده بأسلوب غير لائق بأن يضعه فى حجمه الطبيعى عندما يعود إلى مصر، ويسترد ثقته فى نفسه، وكان قد توسط له مسئول قطرى عند الرجل الكبير فى مصر الذى يمسك بخيوط اللعبة كلها، ووعده أنه لا نية على الإطلاق لتقديمه إلى المحاكمة لأنه رجلهم فى النهاية، وعندما سمع الكاتب الصحفى الكبير عبد العليم طايع هذه الكلمات قال:

لقد نفذت كل ما طلبوه منى وما لم يطلبوه أيضًا.. طلبوا مهاجمة الإخوان المسلمين هاجمت بضراوة لا نظير لها، وتلقيت تهديدات بالقتل.. حرضونى على الاشتباك مع الناصريين اشتبكت.. أعطونى الضوء الأخضر لمهاجمة أمريكا ففعلت.. طالبونى بأن ألصق تهمة مشينة بأتباع أمريكا فى مصر

فوصمتهم بالخيانة العظمى، وتلك جريمة لا تغتفر، وبعد كل ذلك تركونى للكلاب الضالة تنهش لحمى!

ثم طار عائدًا إلى مصر حيث ارتمى فى أحضان خادمته وعشيقته إيرين، وظلت علاقته بزوجته باردة فاترة لأنها كما كان يصفها دائمًا.. جبل الجليد.. وفى نفس الوقت تمنى لو تعود علاقته بالمسئول الأمنى الكبير كما كانت فيما مضى ليفرض سطوته وسيطرته على المحررين المتمردين الجدد فى سوق صاحبة الجلالة الذين أغرتهم أموال الصحف الخاصة والحزبية التى أطلق عليها لقب "دكاكين الصحافة" لصاحبها رجال الأعمال وخبراء نهب أموال البلد أمثال رجل الأعمال والمال وشهريار العصر والأوان همام مصطفى الذى سقط ضحية غرامه وانتقامه من المطربة سوزان عبيد!

فجأة رن جرس التليفون كان المسئول الأمنى الكبير على الطرف الآخر.. ظل الرجل صامتًا لفترة تذكر خلالها عبد العليم طايع أن هذا المسئول سبه بأمه ولعنه بأبيه ولكنه كان فى أشد الحاجة إليه فى هذا الوقت، وبدأ الحديث معه قائلاً:

ـ صباح الخير يا معالى الباشا..

دار بينهما الحديث على أفضل ما يرام وكأن شيئًا لم يكن.

اتصل عبد العليم طايع بمدير تحرير الجريدة الجديدة التى أسسها ليستعرضا معًا الماكيتات وأسماء المحررين المرشحين للعمل فيها، وطالب باستبعاد المحررين أبناء الفلاحين والفقراء، فقد فوجئ بأن أحد المحررين الذين عملوا معه سابقًا جاء ليعمل فى الجريدة، وتذكر عبد العليم طايع أنه كان قد عرض على هذا المحرر أن يتزوج من محررة أخطأ عبد العليم معها فى لحظة طيش عابثة، رفض المحرر لأن المؤسسة كلها كانت تهمس وتتناقل هذه الحكاية سرًا، وعلى الفور فصله من المؤسسة ثم أعاده للعمل مرة أخرى بعد وساطة من شخصية كبيرة فى

رئاسة الجمهورية، وعرض عليه الزواج منها مرة أخرى مقابل منحه شقة وسيارة وراتبًا كبيرًا مغريًا يضمن له حياة أفضل، ولكن المحرر رفض بعناد شديد، فقد كانت جذوره الصعيدية تمنعه من الاقتران بفتاة مثل الفريسة التى التهمها أسد شرس شره، ولم يتبق منها سوى الفتات!

فى نهاية الأمر طلب عبد العليم طايع من شئون العاملين ملف خدمته وأوراقه الأصلية للإطلاع عليها بعد أن شك فى مؤهله الدراسى، كما كلف أحد أصدقائه من ضباط أمن الدولة بالتحرى عن هذا المحرر، وكانت الصدمة الكبرى أن المحرر انتحل صفة واسم أخيه التوأم الذى توفى فى حادث أليم، واستغل شهادة شقيقة الجامعية فى التعيين، وكانت فضيحة لا مثيل لها فى كواليس المؤسسة!

التقى عبد العليم طايع مع محاميه الشهير الذى يتعامل معه منذ عشرين عامًا، واستعان به فى مؤسسة " الأيام "، واستحدث له منصب مستشار قانونى بمبلغ خيالى وبعد التحيات والسلامات سأله: ماذا يفعل إذا تم القبض عليه فى أى وقت؟! نصحه المحامى نجم الفضائيات، والصحافة الذى يسعى لأن يرد له الجميل بأن يقول للقضاه ثلاث كلمات فقط! وبعد أن تركه المحامى وانصرف انتابته حالة من البكاء المتواصل المحموم الذى يشبه العويل.. تلك الحالة جعلت خادمته ومعشوقته السرية إيرين تخلع عنه ملابسه بالكامل حتى يتحرر من كل شىء ويستريح، ثم طلبت منه أن ينام على بطنه كنوم الأعزب، وانهمكت فى تدليك جسده بقطعة قطن مبللة بالشمبانيا، وبعدها أخذ الحمام ونام باستغراق، وفى الصباح قرأ الصحف كعادته واحتسى القهوة.. وسألته فى تلك الأثناء عن حالته النفسية، ولماذا يبدو هذه الأيام حزينًا مهمومًا؟!

قال الرجل بمرارة:

ـ يا عزيزتى.. أنت لا تدركين ما أعانيه، ولا تقدرين خطورة الموقف.. الهروب خارج البلد لن يحل مشكلتى، والبقاء داخل مصر قد ينتهى بى فى

السجن! أنت ساذجة وبريئة ولا تعرفين هذه الحكومة، ولا العناصر التى تجلس فى مواقع السلطة.. إنهم جبابرة.. أنا أعرفهم أكثر من أى مخلوق فى هذا البلد التعس!

ـ ماذا تقصد بالضبط؟!

أطلق تنهيدة حارة وقال:

ـ الحكومة تلجأ لتلفيق القضايا لكل مسئول مغضوب عليه أو خرج عن النص وخالف سيناريو أصحاب السلطة، وصناع القرار.

ثم استغرق لحظات فى التفكير، وساوره القلق والخوف، وطاردته مشاهد السجن والتحقيقات والإهانات.. وسأل نفسه بحسرة.. ياترى كيف سيعاملونه هناك مرة أخرى؟!

فى هذه اللحظة التراجيدية دخل عليه مدير تحرير جريدته الجديدة التى اختار لها اسم "٤٨ ساعة" وعرض عليه العدد التجريبى الأول، فاستعاد عبد العليم طايع ذكرياته وسلطاته الضائعة، وبدأ يضع السياسة التحريرية، ويحدد ملامحها، ويطرح الأفكار والموضوعات فى صورة أوامر صارمة، ويرسم سيناريو توزيع الجريدة، والكمية المطبوعة منها وحجمها وشكلها، والرعاة الذين سيتولون الإنفاق عليها مقابل الإعلان عن مؤسساتهم ومصانعهم وشركاتهم.. انتشى الرجل وعاد إليه الأمل من جديد، وردت فيه الروح واسترد الطموح فى مكالمات كبار المسئولين له، وسيعود هاتفه الأخرس ليصرخ من جديد، ويدوى بالرنين.. وفى مصر تقاس أهمية المرء واعتباره من خلال هاتفه وعدد مرات رنينه!

كان يؤمن بأن المصالح تحرك العالم من حوله مثل الوقود الذى يحرك الشاحنات والبواخر والطائرات، ولا بد من التعامل معها بواقعية، سواء فوق الكرسى أو تحت الكرسى.. هو يؤمن بأن المرء عندما يكون فوق الكرسى يأمر فيطاع.. ويؤمن أيضا بأن المصالح تتصالح.. كان وهو فوق الكرسى يلقى بالتعليمات والتوجيهات والأوامر فيجد العشرات يهرولون

لتنفيذها، وعندما يكون تحت الكرسى يبحث عن خندق آمن، وملاذ حصين ليهرب بجلده من اللعنات الحقيرة والطعنات الشريرة.

أدرك فى قرارة نفسه بما لا يدع مجالاً للشك أن الخروج من المنصب يكسب الإنسان فضائل ومزايا عديدة منها فضيلة الإنصات إلى الآخرين.

كل هذه الأسرار والخفايا والحواديت كان قد أفضى بها إلى ناجى شرف الدين فى جلسات مطولة فى قصره بمدينة أكتوبر مع المزيد من الصور والمستندات وعندما فرغ من كتابة قصة حياته التى تتضمن مذكراته فى بلاط صاحبة الجلالة تم القبض عليه فى ليلة ممطرة، وفى الطابق العاشر بمبنى الجهاز الأمنى العتيق بكوبرى القبة تم إستجوابه عن ثروته وأملاكه وأرصدته فى بنوك مصر وأوروبا، وفى نهاية الأمر أمسك ضابط كبير برتبة لواء بالمذكرات التى سهر ليال طويلة، حتى أنجزها وفى لحظة عاصفة مزقها الضابط بمنتهى الغضب والعصبية، وهو يلعن الصحافة والصحفيين الذين لم يحفظوا سرًا لمخلوق فى هذا البلد.. وقال:

يا أولاد الكلاب حتى مصر نزعتم عنها ورقة التوت الأخيرة بأسنة أقلامكم الوقحة الحادة كشفرة السيف الفتاك؟!

وألقى ببقايا المذكرات فى سلة المهملات!

***

(٤١)

" كثرة إضاعة الفرص نوع من الانتحار المتدرج! "

فوق ربوة عالية ساحرة على جبال الألب الخلابة، التقت إيناس مندور مع حمد الغامدى فى كازينو يقدم وجبات غذائية، ومشروبات شرقية.. لبنانية ومصرية وخليجية.. تناولا العشاء والموسيقى الكلاسيكية تصدح حولهما، والأضواء الخافتة تسرى ساحرة ناعمة تضوى فى الأنحاء.. دار بينهما حديث هامس رقيق عذب عن الحياة والحب والعمل.. سألته عن المستقبل، وماذا سيفعل بعد الدكتوراه؟!

بدأ يحكى عن تجربته السابقة فى العمل بمركز رعاية الفتيات بالسعودية قائلاً:

منذ سنوات ومشكلة الفتيات الهاربات محل نقاش وتداول من جهات عدة وبدلاً من تراجع الظاهرة، وانحسارها نجد أنها تسجل أرقامًا وإحصائيات مخيفة تؤكد بما لا يقبل الشك أننا نعيش خطرًا اجتماعيًا مرعبًا يجلب العار ويفكك الأوصال.. والمقلق فى هذه الظاهرة التى عرفت ولمست تداعياتها أن الأنثى الهاربة من بيت ذويها فى معظم الحالات تبقى آخر شىء يمكن الاعتناء به فهروبها لا يشكل خوفًا وهلعًا لأسرتها التى تخشى فقط من الفضيحة، وتخاف أن يلحقها القيل والقال على ألسن الأهل، فلامانع لديها من أن تذهب إلى الجحيم، والبنات الهاربات لسن مجرمات بقدر ما هن ضحايا، ولسن نباتًا شيطانيًا خبيثًا بقدر ما هن مريضات نتيجة عنف جسدى ولفظى مورس عليهن عنوة دون أن تكون هناك جهات رسمية لديها الصلاحيات الكاملة فى رفع الظلم عنهن قبل وقوعه أو حتى بعد وقوعه، والسبب عادات اجتماعية تفرض الصمت والانصياع على بنات حواء فى مجتمعاتنا العربية، وإن طفح الكيل تضطر الأنثى إلى الفرار للهاوية، لاذت إيناس مندور بالصمت والشرود والدهشة ثم قالت:

ـ هل هناك حالات معينة تتذكرها؟!

ـ حالات عديدة عشت أسرار وتفاصيل وكواليس أزماتها ومشاكلها، وسوف أتوقف عند قصة فتاة تدعى " عالية " هربت من بيتها وعمرها ٢٢ عامًا وجاءت لتعيش في مركز رعاية الفتيات، وفي أول مقابلة قالت لي:

" هربت من المنزل عدة مرات بعد أن سئمت الحياة التى أعيشها مع والدى الذى كان يعاشرنى، وعندما أفكر فى منعه من ذلك، كان يضربنى ويعتدى على بالقوة فى غياب والدتى، وعندما علمت أمى بفعلته الشنعاء انفصلت عنه، وعادت إلى بلدها فهى من دولة أجنبية، أما أنا فبقيت مع والدى فى البيت حيث كان يفترسنى كل ليلة، ويرغمنى على ممارسة البغاء معه، ويهددنى لو منعت نفسى بالطرد من البيت الذى يأوينى شر طرده! "

وواصلت عالية حكايتها الغريبة قائلة بمرارة:

" بعدما سئمت من الوضع المخجل الذى أعيشه، وحياتى القذرة مع أبى قررت الهروب إلى أى مكان بعيدًا عن هذا الوكر، والنجاة من بؤرة الشيطان، ولن أعود إليه أبدًا، لذلك لجأت إلى مركز رعاية الفتيات من أجل حمايتى، والحصول على صك الأمان الذى فقدته داخل البيت.. ولا أعرف الصورة التى سيكون عليها حالى ومستقبلى فى قادم الأيام، ولا أدرى ماذا تخبئ لى الأقدار غدًا أو بعد غد.. وهل سأبقى هنا لآخر العمر أم لا؟! ومن الذى يقبل أن يرتبط بفتاة ملطخة بالعار؟! "

قالت إيناس مندور:

ـ " يا الله.. الحياة فيها مصائب كثيرة ودائمًا الضحية أنثى بريئة من بنات حواء "

عاود حمد الغامدى حديثه مسترسلاً:

ـ تبدو قصة "آمنة" مختلفة تمامًا ونهايتها درامية مشوقة حيث قالت لى:

" أنا فتاة أبلغ من العمر ٢٨ عامًا لا أكثر ولا أقل، هربت من بيت والدى عدة مرات وفى كل مرة تتم اعادتى من خلال رجال الشرطة، أو هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد الإمساك بى فى أحد الشوارع التى أكون مختبئة فيها، ولكن فى إحدى المرات قررت الهرب برفقة شاب كنت قد تعرفت عليه فى أحد المجمعات التجارية، وذهبت معه إلى منزله وجمع الحب بين قلبينا واستمرت قصة الحب مدة طويلة حتى أمسك بى رجال الهيئة بعد أن تم إبلاغهم من أسرتى بأننى هاربة، وهناك احتجزونى فى مكتب الهيئة لحين مجئ أهلى لإستلامى! لم أكن نادمة برغم أننى منحت هذا الشاب خلاصة أنوثتى وفورة شهوتى"

وتقول آمنة أيضًا:

لعل الظروف الصعبة التى عشتها فى بيت عائلتى، والقسوة التى كانوا يعاملوننى بها خاصة أخوتى، واعتدائهم علىَّ بالضرب فى جميع الأوقات، ولأسباب تافهة وليست منطقية هى التى أدت إلى هذا الحال، فأنا أعلم أن هروبى مع شخص آخر يعد سلوكًا غير أخلاقى بالمرة، ولا من العادات والتقاليد المألوفة فى مجتمعنا العربى الذى كان قلعة الشهامة فى سالف الدهر.

هزت إيناس مندور رأسها ثم قالت: فعلاً حكاية غريبة وعجيبة..

احتسى خمد الغامدى فنجانًا من القهوة ومصمص شفتيه وقال:

ـ القصة الأغرب تلك التى سأحكيها لك الآن.. وهى لفتاة تدعى ياسمين.. مطلقة وتبلغ من العمر ٣٠ عامًا ولديها طفلان، وجاءت إلى مركز الرعاية وقالت لى:

" لقد انفصلت عن زوجى بعد قصة حب سريعة مثل وجبات " التيك أواى " وعشرة ثلاث سنوات فى بيت الزوجية، لكن المشاكل العائلية المزعجة

والمزمنـة أدت إلـى الطلاق فى نهاية المطاف، وعـدت بعدها خائبة الرجاء مكسورة الجناح إلى بيت أبى مع طفلى، ووضعت فى ذهنى أن الحياة سوف تصفو لى، وأننى سـأعيش فى أمان واطمئنان، ولكن الواقع شـئ والتمنى شئ آخر.. بدأت المشاكل تطل بوجهها القمئ مجددًا، وتحيط بى من كل صوب وحدب، وصار أخوتى يفرضون سـلطتهم على، ويمارسون معى جميع صنوف العنف الجسـدى والنفسـى، وكذلك والدى الـذى لا يكل ولا يمل من تهديدى بالطرد من البيت فى حال عدم الانصياع للأوامر التى تملى على من أشـقائى، فقررت الهرب من البيت، واللجـوء إلى مركز رعاية الفتيات لحمايتى من شر أخوتى!

***

obeikandl.com

(٤٢)

" الأدبـاء يطهـرون نفوسـنا، ويعيـدون إلـنا ذلـك القدر من التوازن الذى يخفف عنا متاعب وأشجان الحياة! "

عاد الصخب من جديد إلى شارع الصحافة، وسالت الأحبار على الأخبار، وتناثرت الحوارات واللقاءات والتحليلات الصحفية فى مختلف الصحف القومية والحزبية، والخاصة التى يطلقون عليها " مستقلة ".. لا صوت يعلو من جديد فوق صوت قضية رجل الأعمال الملياردير صاحب الحصانة البرلمانية النائب همام مصطفى المتهم بتحريض ضابط أمن دولة سابق على قتل المطربة سوزان عبيد، وفجرت المفاجأة هذه المرة أسرة المطربة الراحلة المغدورة عندما تنازلت عن حقها المدنى فى الدعوة المنظورة أمام المحاكم المصرية، هذا الأمر أثار الكثير من الجدل حول وجود صفقة ما لإنقاذ رقبة همام مصطفى من حبل المشنقة!

نشرت جريدة " الأيام " القومية الحكومية فى صدر صفحتها الأولى نقلاً عن والد المطربة الضحية سوزان عبيد تأكيد تنازله عن حقه المدنى فى القضية الجنائية المروعة، وإعلانه عن كشفه تفاصيل التنازل قريبًا، وجدد الأب المكلوم اتهامه لضابط أمن الدولة السابق بقتل ابنته مع سبق الإصرار والترصد، كما أكد محامى الأسرة أن التنازل تم بالفعل فى العاصمة اللبنانية بيروت ومن خلال أوراق ثبوتية رسمية معتمدة من وزارة العدل اللبنانية مبررا ذلك برغبة الأسرة فى نسيان تلك المأساة الفظيعة حتى تعيش الأسرة فى هدوء بعيدًا عن ضجة الاعلام، وأجواء المحاكم والتحقيقات، وألمح محامى الأسرة إلى قيامه برفع دعوى قضائية ضد من سرب معلومات حول أن واقعة التنازل تمت مقابل دفع همام مصطفى دية لأسرة سوزان عبيد قدرها ١٠٠مليون دولار!

وذكـرت صحيفـة " الأيـام " أيضًـا أن والد ووالدة وشـقيق سـوزان عبيد قـد وقعوا بالتنـازل عن الادعاء بالحق المدنى فى القضية أمام موثق الشـهر العقارى بوسـط العاصمة بيروت، وسـوف يتقاسـم أفراد العائلـة مبلغ الدية بالتساوى.

وقد تسـلم محامى رجل الأعمال همام مصطفى التنازل موثقًا من وزارتى العـدل والخارجية، وتقدم به لمحكمة جنايات جنوب القاهرة بعد حصول آل عبيـد على الرقـم الخيالى من الدولارات من خلال الصفقة التى أدارتها، وأبرمتها شـقيقة همام مصطفى والمعروفة فى الأوسـاط الصحفية بالمرأة الحديدية.

وقالت صحفية " الغروب " الخاصة نقلاً عن مصادر قضائية أن المحكمة عندما تنظر الدعوى بعد التنازل عن الحق المدنى تنظر إلى شخصية المتهم، وشـخصية المجنى عليها، والظـروف التى أحاطت بالدعوى الجنائية بهدف تخفيض العقوبة، وأن التنازل لن يكون له تأثير فى سير المحاكمة إلا إذا صاحبت التنازل حقائق وأدلة وبراهين جديدة، ودامغة من الممكن أن تغير مسار ومصير القضية.

واستشـهدت الصحيفة برأى الدكتور عواد العايد أستاذ القانون الجنائى وعميـد كليـة الحقـوق بجامعـة القاهرة حيـث أكد فيـه أنه مـن الناحية القانونيـة يحـق لأى شـخص أن يتنـازل عن دعـواه المدنية أمـام المحكمة الجنائيـة لأن تنازلـه عن هذه الدعـوى هو حقه الخاص ولـه الحق فى إثبات التنـازل، وهـل تم بمقابل أو بـدون مقابل بمعنى أنه حصل علـى أموال أو لم يحصل لأن الدعوى ملكه.

وأوضـح أنه مـن الناحية القانونيـة يجوز للمدعى بالحـق المدنى إذا تعدد المتهمـون أن يتـرك دعـواه المدنية بالنسـبة إلى أحد المتهميـن دون المتهم الآخـر، وأنـه ليـس هناك ما يحـول دون ذلـك قانونًا، لأن القضايـا المدنية عبـارة عـن تعويض، وفـى القضايـا الجنائية الكبـرى يجـب أن تقف هيئة

الدفاع والمحكمة على ظروف التنازل، والمقدمات والمبررات المحيطة به، وهل هو تنازل مجرد لوجه الحق والعدالة أم له أسباب أخرى؟!.

كما كتبت صحيفة " الأحداث " تؤكد أن هناك آراء شرعية تثبت أن من حق ولى الدم فى أى مرحلة من مراحل التقاضى أن يعفو، ويقبل الدية أو يتصالح، وفى هذه الحالات يمنع القصاص شرعًا، وأن هذا التنازل والبت فى تغييره لمسار القضية من عدمه يرجع إلى تقدير المحكمة.. بينما أقرت الشريعة الإسلامية أن التنازل يسقط القصاص، وهو الإعدام للمتهم فى القضية.

أما موقف القانون الجنائى المصرى الذى ركزت عليه معظم الصحف الحزبية فهو لا يعفى المتهم من العقوبة حتى ولو كان بالتنازل عن حق الدم ولا يمنع القاضى من توقيع عقوبة الإعدام لأنه محكوم بنصوص جنائية، وملتزم بمبدأ الشرعية.

فى ظل هذه الفوضى العارمة، والأمواج العاتية فى بلاط صاحبة الجلالة تذكر ناجى شرف الدين حكايات أستاذه الصحفى القدير عطا الهلالى الذى اختفى منذ سنوات، ومنها هذه الحكاية العجيبة وكأن الهلالى كان يقرأ المستقبل ويطلع على المجهول بعيون " زرقاء اليمامة " تلك الشخصية الأسطورية العربية القديمة.. هى إمرأة من قبيلة " جريس " من أهل اليمامة سكنت جنوب الجزيرة العربية، وتحديدًا السعودية والبحرين، وكانت ترى الشخص القادم من بعيد على مسيرة ثلاثة أيام، وهى أبصر خلق الله عن بعد، وفى إحدى الغزوات الحربية استتر جنود العدو بقطع الأشجار وحملوها أمامهم، فرأت زرقاء اليمامة ذلك وأنذرت وحذرت قومها.. فلم يصدقوها وقالوا: لقد خرفت المرأة، ورق عقلها، وذهب بصرها!

فلما وصل الأعداء لمهاجمة قومها وجدوهم فى حالة لهو وعبث واسترخاء تام، فأبادوهم وهدموا بيوتهم، وأحرقوا خيامهم، ونزعوا عين زرقاء اليمامة فوجدوها محشوة بالأثمد، وهو حجر أسود كانت تطحنه وتكتحل به

وسميت زرقاء اليمامة لزرقة عينيها.

وقال العرب القدماء عنها: إن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشعرة البيضاء فى اللبن والنملة السوداء فى الليلة الظلماء.. وفى النهاية قتلها الأعداء!

استعاد ناجى شرف الدين من ذاكرته حكاية طريفة سمعها ذات ليلة مقمرة من عطا الهلالى قبل اختفائه بأسابيع، تدور الحكاية حول صحفية روسية تدعى "آنا بوليتكو" عملت أثناء حكم "بريجنيف" فى الصحيفة السوفيتية الأولى آنذاك "أزفستيا"، وهى الفترة التى حظى فيها الصحفيون الروس بالحرية.. تلك الحرية التى شجعت "آنا بوليتكو" على إقتحام قضايا خطيرة، وفتح ملفات شائكة وملغومة للتنديد بالفساد والأفاسد صعودًا إلى شن حملة صحفية شرسة ضد التدخل العسكرى للقوات الروسية فى الشيشان من خلال التحقيقات الجريئة التى قامت بها، وسجلتها بالصوت والصورة والكلمة، ولفتت تحقيقاتها نظر المسئولين عن صحيفة "نوفايا جازيتا" المعارضة، وعرضوا عليها العمل معهم وبالفعل رحبت "آنا" وذلك لأن تلك الصحيفة تقاوم سياسة التطبيع الصحفى مع النظام الحاكم، ثم كانت المفاجأة المدوية بوصول بوتين للحكم، والذى أعطى دعمًا قويًا لفرض سياسة التطبيع والتطويع لصاحبة الجلالة مستخدمًا فى ذلك عصا الترهيب وجزرة الترغيب!

فى كتاب "هل ماتوا هباء؟!" الذى صدر مؤخرًا فى فرنسا صفحات عديدة تروى حكايات مثيرة عن تداعيات "تطبيع العلاقات الصحفية مع النظام الحاكم"، الإلحاح على هذا التطبيع أجبر الكثير من مشاهير الصحفيين الروس على التخلى شيئًا فشيئًا عن "الكلمة الحرة".. طوعًا، أو كرهًا!

الصحفية الدءوبة "آنا بوليتكو" حافظت على موقفها، وتمسكت باستقلالها، ولم تضعف أمام الإغراء، كما لم تخف من الترهيب، ولم تكتف بنقد أخطاء نسبتها للقوات الروسية، وإنما صعّدت هجماتها

واتهاماتها، لتستهدف الكرملين وأهم المقيمين فيه: " فلاديمير بوتين " بصفة خاصة!

شككت فى سياساته الداخلية منها قبل الخارجية، طعنت فى مصداقية الحرب على الإرهاب التى يخوضها الغرب على الإسلام، بدليل أن الإرهاب لا يزال يوجه ضرباته العنيفة ضد المدنيين الأبرياء فى مناطق مختلفة من العالم.. الواحدة بعد الأخرى.

والموقف المعارض الذى حافظت عليه صحيفة " نوفايا جازيتا " كان ثمنه باهظًا على الصحيفة، وعلى كتابها ومحرريها، اثنان منهم تم إغتيالهما برصاصات أطلقها مجهولان ثم لاذا بالفرار! واثنان آخران لقيا حتفهما فى ظروف غريبة لم يكشف غموضها حتى الآن! وصحفية خامسة اسمها: " آناستاسيا بابوروفنا " نجح مجهول فى إغتيالها.

هذه الاغتيالات كلها لم ترهب " آنا بوليتكو " ولم تقنعها بالتهدئة، كما لم تتأثر أو تتغير عندما مارسوا ضغوطًا عليها، وكان ردها المزيد من كشف الأسرار، والمزيد من فضح الأكاذيب!

لم تهتم " آنا " عندما منعوا استضافتها فى برامج التليفزيون الحكومى، ولم تقلق من كثرة الخطابات والرسائل الإلكترونية التى تلقتها وكلها تهددها بالأذى والحرق والقتل والسحل.. ولم ترتعد أيضًا عندما تم القبض عليها بواسطة رجال من المخابرات الروسية أثناء قيامها بتحقيقاتها فى " الشيشان " وإخضاعها للتحقيق يومين وليلتين ومصارحتها باحتمال قيامهم باغتصابها، ثم قتلها إن لم يردعها الاغتصاب! ولولا تدخل إدارة تحرير صحيفة " نوفايا جازيتا " لدى وزارة الدفاع الروسية لما أمكن الإفراج عنها، والسماح لها بالعودة إلى موسكو.

لم تتوقف الضغوط عليها بهدف إجبارها على التطبيع أو التطويع مع التصعيد فيها مرحلة بعد أخرى، فبعد التهديد انتقلوا إلى التنفيذ، استخدموا سمومًا للتخلص منها، منها السم الذى يحتاج إلى أيام عديدة

obeikandi.com

قبل سـريانه فى الجسـد ، ولحسن حظها أمكن إنقاذها من الموت فى آخر لحظة وفى النهاية.. تقرر قتلها رميا بالرصاص أمام مصعد منزلها.

التخلـص من الصحفية جسـديًا لم يكن كافيًا بـل أرادوا القضاء عليها معنويًا بعد موتها ووجدوا لـلأسف ـ زملاء وزميلات لها يمسكون بأقلامهم ويكتبون ما يملى عليهم من قصص وحكايات عن " آنا بوليتكو فسكايا " التـى لا يعرفهـا غيرهـم! مـن هـؤلاء رئيس تحريـر صحيفة " أزفيسـتيا " " فلاديمير مامونتوف " الذى ألمح إلى أن "آنا بوليتكو " انخرطت فى نشاطات مشبوهة ، ومثمرة فى الوقت نفسه!

بينما الجريدة الاقتصادية " كوميرسـانت " شـككت فى ولائها لبلدها بزعم أنها ولدت فى نيويورك عندما كان والدها عضوًا فى الوفد السوفيتى لـدى مقـر الأمم المتحدة وتحمل الجنسـية الأمريكية إلى جانب الروسـية! وقلـم آخـر كتـب يتهم " آنـا " بأنها تتحـدث لغـة أوكرانيا بنفـس إجادتها للروسية ، وكأن ذلك يشكل خيانة عظمى!

***

(٤٣)

" البحر الهادئ لا يخلق بحارًا ماهرًا "

لم تكن ألسـنة الصحافة تلوك سيرة وتخوض فى سمعة عبد العليم طايع فحسب، بل إمتدت ألسنتها الطويلة لتمسك بتلابيب ابنه، وصار أحمد عبد العليم طايع مادة خصبة وثرية للكتابة اليومية، وبصفة خاصة فى الصحف الحزبية والمستقلة..

كان الابـن يهوى اللعـب بالمليارات بعيدًا عن الأضواء والشـهرة عكس والـده تمامًـا يفضـل دائمًا الاسـتثمار وجنى الأمـوال الهائلة من مشـروعات عملاقة فى الخفاء، لا يطيق الشهرة وكفاه ما حصده والده منها.. فى نهاية الأمر ظل رهين المحبسين قلقًا مطاردًا يخشى الغد، ويخاف من رنين هاتفه أو طـارق لبابه وكتبت إحدى الصحـف المارقة عن النظام الحكومى ذات يوم تقول:

إن همـزة الوصـل بين أحمـد طايع وحكام الإمـارة الخليجية كان والده الصحفى المرموق طبعًا عبد العليم طايع الذى عرف طريقه إلى أمراء وأثرياء الإمـارة النائمة على برميل من الذهب الأسـود عبر مسـار ملتبس فلم يعرف أحـد أن اطلالة عبد العليم طايع على شاشـة قناة " الجريئة " هى ثمن الصلة بيـن الطرفيـن، وكانت الملايين الخمسـة مـن الدولارات التـى يتقاضاها عبد العليم طايع سـنويًا من تلك القناة والبوح بأسرار الصحافة وبعثرة أوراق الساسـة والسياسـة بالحق تـارة، وبالباطل تارة هى الثمـن الإضافى لصفقة أكبر جعلت أحمد عبد العليم طايع يجنى الملايين هو الآخر!

كانت تعليمات الأمراء إياهم واضحة كالشمس جليه كنهار أغسطس: استثمر أموالنا فى الأرض!

ولـم يكـن أمامه سـوى السـمع والطاعـة، لذلـك كانت المحطـة الأهم

والأبـرز للاسـتثمار فـى الأرض هى السـودان.. تربة خصبة بكـر عفيه قوية شاسـعة، والمياة تحيط بها من كل جانب، هناك اشـتروا مسـاحات هائلة مـن أجود الأراضى فى بلد تبلغ مسـاحة أراضيه الصالحة للزراعة ٢٠٠مليون فدان ولن تمر سـوى سـنوات قليلة حتى تغرق أسـواق البلاد بسـكر السودان الذى ينتجه أحمد عبد العليم طايع عبر شـركته " القابضة " وهى مؤسسـة استثمارية ضخمة جعلت تركيزها الأول على المسائل الزراعية، وقد توسعت الشـركة العملاقة فى مشروعات زراعية أخرى داخل مصر حيث تملكوا " مزارع ديانا " الشـهيرة على طريق مصر الإسـكندرية الصحراوى لتضم إلى جانـب زراعاتهـا المتنوعـة واحدة من أكبـر مراكز تربية الأبقـار " ٥٠ألف رأس " من أفضل سلالات الأبقار الأمريكية المعروفة باسم "الهوليشتين" مع إنتـاج الحليب الذى يتم تصنيعه وفق أحدث التكنولوجيا العالمية.. واشـترى أحمد عبد العليم طايع أشهر مصانع إنتاج العصائر المعلبة فى البلد.

ولـم يتوقـف طايـع الصغيـر عند مجـال الاسـتثمار فى الأرض فحسـب، بـل توجـه إلى كل مـا له علاقة بالنشـر أيضًا، وتـم هذا الأمـر بتوجيه من والده الكاتب الصحفى، حيث إشـترى مجموعة مكتبات " الغروب " وقام بتطويرهـا وتجديدها، وكذلك جريدة " الغروب اليومية " ودار النشـر التى كانت مملوكة لصديق والده فريد المعلم.. مراقبون ماليون أكدوا أن أحمد عبد العليم طايع لن يتوقف عن الشـراء فى الحقول والمصانع والشـركات ولن يتوقف أيضًا عن البيع، فهو كمعظم رجال الأعمال الكبار يشترى ما يعتبره خاسـرًا أو رخيص السـعر ثم يعمد إلى ضخ الملايين فيه لزيادة رأس المـال، ويطرح أسـهمه للبيع بعد ذلك فيحصد سـعرًا مرتفعًـا، وينتقل إلى مشروع آخر وسلعة أخرى.. وهكذا.

المدهـش فـى الملياردير الجديد أنه بـدأ حياته موظفًا بسـيطًا فى أحد البنـوك وفى فترة الانفتاح الاقتصادى تغيرت أوراق اللعبة.. وفى الوقت الذى خـرج فيـه عبد العليـم طايع من لعبـة الصحافة والسياسـة، دخـل ابنه لعبه

السوق والاقتصاد مستثمرًا الأموال التى تأتيه من على شاطئ الخليج حتى أصبح واحدًا من أهم أصحاب شركات الاستثمار المالى ثم الزراعى فى مصر رغم اختلافه مع ابن الرئيس الذى كان شريكًا له فى الاستثمارات وتحول إلى منافس لدود له بقدرة قادر.

المتابعون لحركة أحمد عبد العليم طايع المالية يراقبون زياراته المتكررة إلى جنوب لبنان بطائرة خاصة دائمًا يلتقى خلالها كبار المسئولين فى حزب الله بعيدًا عن العيون والأضواء وكاميرات وسائل الاعلام، وجواسيس الصحافة التى ترصد دبيب النمل فى جوف القمقم، ولا يعرف أحد متى يأتى ومتى يغادر إلا عدد قليل من مسئولى الحزب الفارسى فى أقصى أقصى الجنوب، أو من خلال قراءة جدول السفر فى مطار رفيق الحريرى الدولى فى العاصمة بيروت، ومستقبليه ومودعيه من الحزب نفسه.. الكثيرون يعتبرون أن حزب الله يستثمر جزءا هائلاً من أمواله فى مشروعات أحمد عبد العليم طايع الزراعية الكبرى فى السودان تحديدًا حيث للحزب مكانة خاصة لدى المسئولين السودانيين الذين يتلقون دعمًا سياسيًا وإعلاميًا وماليًا من طهران.

ويتوقع الكثيرون أيضًا أن يحل أحمد طايع محل رجل الأعمال اللبنانى الشيعى وضاح عز الدين الذى أفلست مؤسسته المالية التى كانت تشكل حافظة نقود حزب الله، وبلغت خسائره ٥٠مليون دولار شملت ودائع الفقراء، ومتوسطى الحال من الشيعة وبعض المستثمرين الخليجيين فضلاً عن أموال قادة حزب الله السياسيين والأمنيين فى حالة شبيهة بإفلاس شركات الريان المصرية فى ثمانينيات القرن الماضى.

عندما طالع عبد العليم طايع هذا الكلام أدرك أن أبواب جهنم أصبحت مفتوحة عليه ومن زاوية لم يكن يتوقعها على الإطلاق.. لم يكن يتوقع فى يوم من الأيام أن يكون ابنه مصدر الخطر، ومكمن الإزعاج، ونقطة الضعف التى يجهزون عليه من خلالها!

(٤٤)

" سأل أحد الصحفيين إحدى الممثلات:

متى نعرف أن المرأة تكذب؟!

فأجابت: إذا تحركت شفتاها! "

أوفدت ميرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون " ناجى شرف الدين إلى الإسكندرية لتغطية وقائع مهرجان الإسكندرية السينمائى الدولى، وهناك إلتقى صحفية إسرائيلية فائقة الجمال تدعى " روث إيجلاش " جاءت موفدة من جريدة "هاآرتس"، تعرف عليها فى كواليس المهرجان، وخرجا سويًا فى نزهة بحرية ثم دلفا إلى أحد المطاعم الشاطئية لتناول ثمار البحر الشهية من الأسماك والاستاكوزا والجمبرى، وفتحت له قلبها وقالت لناجى شرف الدين:

ـ " لقد كتبت عن تجربتى هنا فى بلادكم تقريرًا لصحيفة " هاآرتس " تساءلت فيه عما إذا كانت ترتدى النساء المسلمات فى مصر للحجاب من أجل الموضة والظهور بأحدث الأزياء أم لتطبيق الشعائر الدينية والشريعة الإسلامية؟!"

بدأت الكاتبة الصحفية الاسرائيلية تقريرها قائلة:

ـ استغرقت رحلتى فى مصر حوالى ثلاثة أيام أثناء مشاركتى فى المهرجان الذى استمر على مدى عشرة أيام، وحضره ٤٠ صحفيًا ومراسلاً من دول عربية وأجنبية مختلفة، لكن الأمر تحول بالنسبة لى أن يكون هدف رحلتى بجانب تغطية أعمال المهرجان أن أجد إجابة للسؤال: لماذا ترتدى المصريات كل هذه الأزياء والأشكال المختلفة من الحجاب؟! وعندها زادت رغبتى أنا الاسرائيلية اليهودية فى شراء حجاب لأتدثر به بعد أن رأيت هذا الكم الهائل من الألوان والأشكال

والأحجام من الأحجبة ، فهناك الحجاب ذو اللون الواحد ، والحجاب متعدد الألوان ، والحجاب الحرير أو القطن أو الباشمينا..

ثم وجهت سؤالاً لناجى:

هل أنا كعلمانية يهودية أعيش فى تل أبيب فى حاجة لارتدائه هنا فى بلدكم؟!

تبسم قائلاً: لا أعرف.. أنت حرة!

قالت: لقد شعرت أننى كيهودية علمانية بانجذاب لشراء غطاء الرأس الاسلامى ، وكان من الواضح لى أن ارتداءه لم يكن بوازع دينى ، ولكن ما كان يدفعنى لارتدائه هو الستر على الأقل طوال فترة وجودى فى مصر ، وأيضًا لأننى واثقة من أن الحجاب سيكون مهما لحمايتى من التحرش.

قال ناجى ضاحكًا:

- لا تخافى على نفسك إلى هذه الدرجة ، فلن يأكلك الرجال هنا.. المصريون ليسوا وحوشًا آدمية كما تتصورون فى إسرائيل!

قالت روث إيجلاش:

- يا ناجى يجب أن تعرف يا عزيزى أن كل من حولى من الفتيات والنساء المصريات صغيرات وكبيرات يسرن فى شوارع المدينة الساحلية مرتديات الحجاب بأشكاله المختلفة ، والمتنوعة فهناك الحجاب المتورم أو المنتفخ ، والحجاب المدسوس ، وآخر بدون عدة لفات ، وآخر محشو ومزخرف بالترتر ، وحجاب مطرز وآخر بلا تطريز ، وهناك أيضًا الحجاب الذى يظهر بعض خصلات الشعر تبسم ناجى وقال بإيماءة:

- هذا أمر عادى جدًا ، فالأنثى هى الأنثى فى كل زمان ومكان تبحث عن الأناقة والجمال تحت أى رداء..

ردت الصحفية الإسرائيلية بكبرياء:

obeikandi.com

ـ وسط هذا الكرنفال من الأزياء المتنوعة من الأحجبة يمكن لأى إنسان أن يحصى بسهولة عدد النساء اللواتى لا يرتدين الحجاب، كما أن وجودى بينهن عارية الرأس يجعلنى أبدو مثل سائحة أفرنجية جاءت إلى بلادكم كى تتفرجوا عليها!

سألها ناجى بحسم::

ـ وكيف وجدت نفسك تحت الحجاب؟! بماذا شعرت؟!

ضحكت بسعادة وزهو قائلة:

على الرغم من أننى فى نهاية الأمر قررت التخلى عن الحجاب وتركته إلا أننى ظللت مفتونة به، وعندما إرتديته شعرت باحترام كبير لذاتى وأحسست بوقار غير عادى، وأنا تحت هذا الزى الاسلامى القديم جدًا.

قال ناجى بهدوء وحكمة:

ـ هذه فطرة الله التى فطر الناس الصالحين عليها.

هتفت قائلة:

ولكن بالرغم من كل ذلك فقد لاحظت أن ارتداء النقاب أو الحجاب لم يكن لأسباب دينية فقط، بل إن العديد من النساء والفتيات يرتدين الحجاب مع مزيد من الملابس الضيقة غير اللائقة، والعارية فى كثير من الأحيان، وذلك لمواكبة آخر صيحات الموضة.. ثم لاذت بالصمت المطبق، وبدا عليها أنها تفكر فى أمر خطير، كانت عيونها مصوبة نحو البحر، وعقلها شارد فى السماء.

وفجأة طرحت عليه سؤالاً صادمًا:

ـ لماذا أصبحت الصحافة عندكم جريئة إلى درجة الوقاحة، ووقحة إلى درجة البذاءة وعشوائية إلى درجة الفوضى؟!

قال ناجى:

ـ هذه ملاحظة ذكية تستحق التحية، ودعينى أقول لك أننى منذ بدأت

obeikandi.com

العمل فى بلاط صاحبة الجلالة قبل أكثر من خمس سنوات أسر لى أستاذ عزيز على قلبى بنصيحة، وأنا أخطو خطواتى الأولى قائلاً:

" عليك بجذوة الكلمة وصدقها.. تمسك بها ما حييت "

وها أنذا متمسك بهذه العبارة القصيرة الخطيرة.

الصحافة تلك المهنة المغرية للكثيرين، والغامضة للغالبية العظمى بكل تفاصيلها ودهاليزها ومساراتها الصعبة، وطرقاتها الوعرة ومنحنياتها الخطرة وجروفها السحيقة، لم تتوقف حتى الآن عن مشاكساتها ومعاكساتها وأدوارها حتى وإن تغيرت أشكال بعضها، وتعددت قوالبها بين تقليدى واليكترونى.

سألته:

_ وما الذى قدمته لك صاحبة الجلالة بعد خمس سنوات كاملة من الشقاء والبحث عن المتاعب فى دروبها؟!

_ هذا سؤال يا عزيزتى لا يبدو سهلاً على الإطلاق لمن اختار " مهنة المتاعب ".. لا يعرف القارئ سوى فرسانها وأصحاب أقلامها البارزين، ولكن بين دهاليزها طاقم يملأ ما بين الأرض والسماء حيوية ونشاطًا وعملاً.

أولى محطات المعاناة التى واجهتها مع مهنة " الشهد والدموع " هو تغيير نظامى اليومى لأصبح " بومة " ليلية لا تكل ولا تمل من طول السهر، وقد أقنعت نفسى بعدها بأننى نجم ليلى أنام النهار، وأسهر الليل.. شئ مؤلم أن تتغير ساعتك البيولوجية فتلك أم المصائب لتبقى على علاقة بالعالم أجمع فى الوقت الذى أنت فيه بعيد فيزيقيًا وعلاقتك به من خلال وكالات الأنباء التى تمزق عبابها فى الليلة الواحدة ألف مرة.

أما علاقتك بالواقع فلا تعدو سوى حضور الفعاليات والتواصل مع بعض الكتاب فيما تدور كتروس الساقية مجبرًا بين أروقة الصحافة.

obeikandi.com

كانت " روث إيجلاش " مبهورة بكلامه مشدودة لكل ما ينطق به.. وعندما سكت سألته:

ـ هل تمنحك الصحافة علاقات عامة واسعة، ونفوذًا كبيرًا؟!

قال:

ـ باختصار شديد يا عزيزتى إذا ما خبرت الصحافة جيدًا فسوف تكتشفين أنها " قربة مثقوبة " يتسرب منها الأصدقاء كما يتسرب الرمل من بين الأصابع..

على المرء أن يخسر الكثير من الأصدقاء فى سبيل الحفاظ على مهنيته، وقد يخسر الكثير ليخرج مع نجمة الفجر من مبنى الجريدة وحيدًا ليجرى حوارًا مع راقصة عاهرة أو ممثلة داعرة شهيرة.. أنهت وصلتها توا فى الملاهى الليلية والبلاتوهات السينمائية.. يخرج الصحفى وحيدًا لا أحد يسامره يا عزيزتى سوى برودة الفجر التى يرتشفها مع كوب الشاى أو فنجان قهوة يقاسمه وحدته، وبعضًا مما علق فى أنفه من حبر المطبعة!

عاد للصمت ونظراتها مصوبة إلى وجهه.. وقالت:

ـ لماذا الصمت.. تكلم.

بصوت مبحوح متهدج:

ـ أصدقاء الصحافة وحيدون أيضًا فى حمل شباك صيدهم، علهم يجدون فكرة طائرة يقتنصونها.. الوحدة شعارهم للبحث عن الأفكار، ولتحقيق السبق فى ماراثون لا ينتهى.. السبق الذى يتطلب مصادر تجبر المحرر الصحفى على أن يظهر مالا يبطن فى كثير من الأحيان.. والعبارة لا يعرف كنهها سوى زملاء المهنة ورفقاء القلم!

بين المنشور واللامنشور يُنشر الصحفى والنشر هنا ليس بمعناه الورقى المعروف، بل بمعنى " التمزيق "، فالصحفى منشور بالوقت الذى يحكمه كحد السيف على الرقاب، ومنشور بالأمانة الملقاة على عاتقه، ومنشور

obeikandi.com

بالبعد عن عالمه الواقعى، ومنشور بالقارئ الذى ينتظره ليشرب كلماته مع كوب شايه الصباحى الساخن على مكتب وثير أو فراش أثير.

لكن هناك دائمًا من يقرأ على قارعة الطريق، وعلى ربوة مرتفعة بين المزارع وفى أحراش الحقول، وعلى حد البحر بين النوارس والصقور، وعلى مقعد الدراسة وفى غرفة النوم، وبين زملائه وأصدقائه، وفى المقهى والنادى وفندق خمس نجوم، وغرفة حقيرة فوق السطوح، وزنزانة ضيقة كئيبة فى سجن لعين.

لكن السؤال: ما الذى تقدمه لنا صاحبة الجلالة الصحافة؟! أليست مهنة كهذه جديرة بأن نطلق عليها " مهنة المصائب "؟! واستعاد من ذاكرته مجموعة أبيات من قصيدة رائعة لا يتذكر مؤلفها، أسمعها إياها قائلاً بلحن شجى:

صغير ود لو كبرا وشيخ ود لو صغرا
وخال يشتهى عملاً وذو عمل به ضجرًا
ورب المال فى تعبٍ وفى تعب من إفتقرا
ويشقى المرء منهزمًا ولا يرتاح منتصرا
فهل حاروا مع الأقدار أم هم حيروا القدرا؟!

سألته بإعجاب دهش:

ـ قل لى يا ناجى.. ما الذى تحلم به لصحافة بلدك؟!

ـ أحلم لصحافة بلدى أن تكون السلطة الرابعة بالفعل، تكشف الحقائق ولا تغطى عين الشمس بالغربال.. لا تجامل ولا تداهن فى الحق، ولا تصادر الحقيقة بل تقدمها للناس عارية كما ولدتها أمها حتى ولو كانت صادمة المهم أن تكون صادقة.. صحافة لا تعمل من أجل أشخاص ولا تخضع للسلطة خضوع العبد الأذل للحاكم الجبار

وإن كنت أرى أنه مع كل تقدم تحققه صاحبة الجلالة فى عالمنا العربى هناك ثمة انتكاسة أمنية، ومحظورات إضافية، وممنوعات تهدد الصحفى نفسيًا وجسديًا بما لا يطيق!

سألته ببراءة أقرب إلى السذاجة:

- لماذا ترتبط علاقة مصر مع إسرائيل الآن بالجواسيس؟! وهل هناك جواسيس فى الصحافة؟!

قال ناجى:

- هذا سؤال فى منتهى الذكاء والخطورة.. سأحكى لك يا عزيزتى عن أغرب أمسية حضرتها فى أحد الأيام.. وكانت عن "جواسيس الصحافة".. الأمسية تبرع بعقدها أحد الصحفيين المعروفين، وحضرها أكثر من مئة وعشرين صحفيًا بين هاو ومحترف.. وكان الكلام كثيرًا بين الصحفيين عن زملائهم الذين يقولون إنهم يخونون مهنتهم الشريفة فيتحولون إلى عشاق للنميمة داخل المؤسسة الصحفية التى يعملون بها من أجل المال أو الترقية أو من أجل أشياء أخرى ومآرب مختلفة، وإذا باشروا هذا الدور باقتدار وكفاءة يحسدون عليها فإن لهم إضافات جهنمية لا يرقى لها الشيطان، ولا تخطر له على قلب بشر لتأكيد قدراتهم، واثبات ذواتهم..

قال الصحفى الأول: أنه فوجئ بقرار فصله من المؤسسة فأجرى على الفور اتصالاً هاتفيًا بالمسئول عنه فى المؤسسة مستغيثًا ومستنكرًا فجاءته الإجابة الغريبة المريبة: إذا كنت تريد أن تعود للعمل عليك أن تمدنى بتقرير يومى عن تحرك زملاءك فى المكتب فردًا فردًا!

قال الصحفى: لكننى لم يسبق لى العمل فى هذا المجال وأخشى أن أفشل فى هذه المهمة.. رجائى أن تعفينى منها، وتختار شخصًا آخر غيرى، وأن تأمر بإعادتى إلى عملى، فأنا يا سيدى لا أعرف مهنة ولا أجيد غير الصحافة.

جاءته الإجابة قاطعة حاسمة بغباء من المسئول إياه: لا يوجد عندنا عمل لك وأنت بمواصفاتك تلك، وعلى العموم قرار الاستغناء عنك فى يدك، وإذا عرفت مصلحتك فنحن نرحب بك فى أى لحظة ثم أغلق الهاتف.

وقال الصحفى الثانى فى تلك الأمسية: إن رئيس التحرير عاتبه على أسلوب عمله وقال له صراحة.. عليك أن تفعل مثل زميلك تميم حسان الذى يكتب تقريرًا يوميًا عن أحوال العاملين بأقوالهم وأفعالهم ويرفعه لى.. فلماذا لا تكون مثله؟!

أفعل يا سيدى بشرط.

ما هو هذا الشرط؟!

أن تقوم بتنفيذ ما أعرضه عليك.

مستحيل.

ومستحيل أن يذهب جهدى هباء منثورًا.

أنا قلت لك ما يفعله زميلك الذى صار أعلى منك درجة فى السلم الوظيفى وهو الذى بادر بكتابة التقرير وأنا معجب به جدًا.

قال الصحفى الثالث: إن رئيس التحرير الذى عمل معه لسنوات كانت تبدو على ملامحه علامات الوقار والورع والتقى لكنه اكتشف أن له " جواسيس " داخل هيئة التحرير ينقلون له بالتفصيل الممل غير المخل كل ما يجهر به المحررون أو يهمسون، بل ويجلبون له ليل نهار ما يكتبه البعض من مواد صحفية يرون فيها خروجًا على هوى رئيس التحرير وطريقته فى العمل وأسلوبه فى الإدارة، وطبعًا ينالون على ذلك التقدير المناسب والمكافأة المجزية، ويتم بطريقة تدريجية قصيرة النفس أو طويلة النفس التخلص من المحررين غير المرغوب فيهم بناء على تقارير زملائهم دون أدنى استفسار أو تحقيق أو حتى مجرد حوار أو فرصة للدفاع عن النفس.

أما الصحفى الرابع فقال عائدًا بعجلة الزمن إلى الوراء أنه سمع عن عدد

مـن " رواد الصحافة " كانـوا لا يبخلون عن رفع التقارير إياها ، وإذا وجدوا أنه لا فائدة ترجى من كتاباتهم تلك التقارير هم يجيزون ذلك لأنفسـهم من باب "المصلحة العامة" ومشتقاتها والرغبة فى الوصول إلى الأفضل!

هـذا هـو الشـعار العام لهـم وللمطبوعـات التى يمارسـون فيهـا " طقوس الكتابة " فى الشئون الإنسانية والاجتماعية والتاريخية , وتكون كتاباتهم أو تقاريرهم السـرية غير مقبولة خاصة وأن من تتناوله هذه التقارير يكون فى غفلة فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

وقـال أيضًـا : إن زميلاً له أعتـرف أمامه بأنه حـرر ٤٨٠ تقريرًا ضد زملائه ، كانت معظمها كاذبة ومفبركة وكيدية إعتمد فيها هذا الملعون على خياله الخصـب وبراعتـه فى تأليف الافتـراءات ونسـج المؤامرات ، وأنـه أطلعه على صـور من هذه التقارير التى أطاحت ببعـض زملائه الأعزاء ، ونجا منها البعض بأعجوبة لم يصدقها أحد.. الضرر جاء من داخل الجريدة ومن خارجها.

ويواصل الصحفى الأخير مسترسلاً فى رصد الحكاية المثيرة قائلاً : أنه علـى ثقـة تامة من أن زميله لـم يرحمه من تقاريره الكاذبـة ، ولم يخب ظنه فقد وجد ضمن تلك التقارير تقريرًا عنه يتضمن ملاحظة واحدة ألا وهى أنه يمضى وقتًا طويلاً من نهار العمل الصحفى فى الثرثرة عبر هاتف المؤسسة التى تتحمل فاتورة هذه المكالمات ، كما أنها كلها مكالمات حريمى.. أى أنها علاقات عاطفية سـاخنة ومشـبوهة ويحاسب عليها النظام العام.. ثم سكت وهنا ضجت القاعة بالضحك والهمهمات.

حـوارات وحكايـات واعترافات من هذه العينة تكشـف بجلاء ما يفعله النـاس حين يتركون مصالحهم رهينة لدى التاريخ ، ومن يرى الدنيا بعينين ويكتـب بعين واحدة يشـعر بالمتعة التى ليس بعدها متعـة.. متعة التقريب ، ومتعـة التبعيد.. متعة التوازن ومتعة الجموح.. متعة اللهو ومتعة الجد ، وكلها مـن الصـور التى تنعكس علـى بعضها البعض.. مثلاً عن الكاتب السـاخر حيـن يدخـل لعبـة الـورق والقلـم بهـدف السـخرية ، وليس بهـدف التصدى

للكتابة نفسها.

والسخرية فى حد ذاتها مادة ساحرة من مواد الأدب والفن، وتعتبر من المطالب الضرورية للحياة، فالمرء يحتاجها فى عمله، والموظف فى مكتبه، والمرأة فى بيتها، والأستاذ فى جامعته لأنها هى التى تجعل الإنسان يرى الأشياء عن قرب وعن بعد بشكل لا يتسنى له أن يراها بدونها، مثل العدسة تمامًا تجعله يرى ويتأنى ويتأمل قبل أن يصدر أحكامه على قيمة أو تفاهة ما حوله ومن حوله.. من معه ومن ضده.. ولماذا تستمر التفاهة فترة أطول من عمرها الإفتراضى، ولماذا تغيب وسائل الردع والقمع عن مباشرة دورها فى تعرية هذه التفاهة ووضع حد لتضخمها واسترسالها وانغماسها؟! كما أن التفاهة لا يستطيع التصدى لها وردعها إلا الصحفى الساخر، ولا يستطيع التندر عليها وإخراج لسانه لها إلا الصحفى الساخر، وإذا لم يفعل ذلك، ويقوم به يكون أول ضحاياها وعليه أن يدفع ثمن انتشار تلك التفاهة بالطول والعرض، ويتحمل أيضًا مسئولية التنبيه عنها والتحذير منها، وإذا لم يصغ له أحد فهذا يزيد من حجم مسئوليته ولا ينقص منها حتى لو دخل فى تحد معها.. والكتابة الساخرة علاوة على أنها فن رفيع المستوى عالى القيمة إلا أنها لا تجد الحماية الكافية واللازمة لمنع الدخلاء من ارتياد ساحتها، ولا تجد فى نفس الوقت التشجيع الكافى لإستمرار موكبها، ومضى مسيرتها بعيدًا عن العقبات والعراقيل.

وبقدر ما يكون دخول الغرباء ساحتها مؤلما، بقدر ما يكون غياب التشجيع عنها مؤثرًا فإن ذلك يمنحها وقودًا جديدًا، وحافزًا قويًا لاستمرار العطاء، وبقاء شمعة الأمل مشتعلة.

جواسيس وسخرية فى عالم الصحافة بلا شك.. السخرية هى الفاكهة الأولى لصاحبة الجلالة، ويجب ألا تخلو موائدها منها، بل يجب أن تتصدر هذه الفاكهة المائدة الصحفية بكل ما فيها من فواكه.. كثير منها بلا طعم ولا فائدة سوى أنها تملأ المائدة!

obeikandl.com

(٤٥)

" إنهم يفضلونها ساخنة.. لا باحثة ولا عالمة! "

هاجمها الشوق للوطن وخربش الحنين بأظافره أيامها.. وكاد يحولها إلى رماد ودخان..استعادت ايناس مندور ذكرياتها فى محاولة لتبدد عنها وجع الغربة وبرودتها.

فبين سماء مصر وثلوج سويسرا آلاف من الأميال، ولكنها فى حساب عشقها أقصر من ضربات القلب.. هذا الوطن المتدثر بشال أزرق يلامس الأفق ويحضن السحاب، هو إدمان لا فرار منه ولا شفاء.. مازالت تحلم بأن تتكور فى رحم الوطن، رائحته العطرة تهاجمها فى اليقظة والأحلام.. تتوق لحضن الديار وتشتاق لتراب الوطن ونيله وناسه.. مازالت تحلم بأن تخرج المرأة المصرية من المعتقل، وبالثقافة وحدها تستطيع أن تسترد مفاتيح حريتها، وبالثقافة وحدها تكون قادرة على العودة من المنفى الإجبارى الذى تعيش فيه منذ قرون طويلة.

الوطن العربى غارق فى جهله، ومصر قطعة أصيلة من جسده.. نسبة الأمية بين الرجال ٤٥٪ ونسبة الأمية بين النساء ٦٥٪ولابد للنساء من اقتحام معترك الحياة لتحقيق التوازن فى المجتمع العربى اللامتوازن أصلاً..

النساء فى المجتمع العربى بحاجة إلى تصحيح المعادلة المغلوطة التى تعطى للرجل كل الامتيازات، وتضعه فى خندق مراكز القوى، والمرأة فى خندق الضعفاء!

كانت إيناس مندور تشعر بغصة مرارة حادة ومؤلمة فى حلقها.. لا أحد يحرر أحدًا فى هذا العالم.. فالحرية من صنع الأحرار وحدهم، ولم يحدث فى التاريخ الانسانى أن شعبًا تحرر بالمراسلة، أو أن إمرأة تحررت بالتوسلات وتقبيل الوجنات، وذرف الدمعات.

كانت تحب وطنها وتحن إليه وتؤمن أنه محاصر بمليون مشكلة ومشكلة لكن الموضوع الأساسى الذى تتوقف عليه حركة التاريخ، ويطغى على أخبار الفقر والأمن وأخبار الاقتصاد، وانخفاض أسعار النفط وأخطار الحرب النووية العالمية الثالثة هو المرأة!

هل يسمحون لها أن تعيش كما أراد لها الله؟! هل يسمحون لها أن تمارس دورها فى الحياة كاملاً كأى كائن حى حر التفكير والإرادة.. أم يتركونها واقفة ألف سنة أخرى تحت الريح والمطر حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة جوعًا وبردًا وعطشًا وقهرًا وكبتًا؟!

لماذا دائمًا يشغل العرب بالهم بمثل هذه الهوامش التى أسقطها العالم من حساباته؟!

ولماذا لا يغلقون ملف المرأة للأبد من الاستفادة من كل طاقات المجتمع؟! فليس فى ميدان الفكر والعلم والابداع ذكر أو أنثى، إنما هناك إنسان يؤسس مجتمع العقل والعدل والمساواة.

لماذا يقبل الرجل أن تجالسه المرأة حجرة الطعام، وحجرة الإستقبال؟! ولماذا يقبل أن تطارحه الغرام، وتقاسمه الفراش وتشاركه رحلة العمر والحب والمرض والشيخوخة ولا يقبل أن يعطيها مقعدًا مساويًا له فى قطار الحياة؟!

لماذا يتغزل الرجل فى عيون المرأة السود طوال الليل حتى إذا طلع النهار شرب الشاى وقرأ جريدته بسرعة، وانصرف إلى حال سبيله، ونسى المرأة ونسى عيونها؟!

لماذا يكتب الرجل للمرأة رسائل العشق قبل الزواج، وعندما يتزوجها يضعها قيد الإقامة الجبرية، ويتصرف معها كما يتصرف الاستعمار مع شعوب أفريقيا المنكوبة بلعنته؟! وإذا ناقشنا المسألة لغويًا وجدنا مفردات الحكم مؤنثة فالحكومة أنثى، والسلطة والديمقراطية أنثى والحرية أنثى والحياة نفسها بكل ما فيها أنثى.. فى حين أن جميع صفات القمع

والإرهاب والاستبداد والشنق والسحل والتعذيب والذبح والإجرام صفات ذكورية، ولا يليق بالرجل العربى الشرقى أن يحاكم كل يوم أمه وأخته وزوجته وابنته وحبيبته بتهمه القصور العقلى، وإذا كن أميات أو منطفئات الذهن فلأن الرجل الذى خرجن من تحت عباءته أميًا ومنطفئ الذهن.. هذا هو الواقع، وهو واقع كسيح مشلول لأنه يمشى على قدم واحدة.. فالمرأة مطلوب منها أن تكون ولودًا خصبة كثيرة النسل.. إنهم يفضلونها ساخنة، ولا يريدونها باحثة أو عالمة أو مفكرة، يفضلونها صامته لا مجادلة أو مناظرة أو متحدثة!

يريدونها خرساء.. صماء.. بكماء.. يريدونها زوجة أو عاشقة أو جارية بالسخرة لأنهم لا يقبلون قسمة الحياة على إثنين.

يريدونها بلا عقل ولا ذكاء لأن عقل المرأة ضد الأمن القومى.. ضد الأمن الاقتصادى.. وضد الأمن الثقافى.. وضد الأمن الإجتماعى.. المرأة هى جدول المياه المهدور والنهر الضائع، والأجنحة الممنوعة من الطيران والتحليق فى أى اتجاه.

هى منجم الذهب الذى لا يزال مخبوءًا فى أحشاء الأرض.. فمتى يفتحون نوافذ الضوء لتدخل أشعة الحرية ونسمات الحياة إلى أعماق هذا المنجم؟!

ثم إنخرطت إيناس مندور فى بكاء محموم، وألقت بجسدها فوق فراشها الوردى، ودموعها تنساب على خدها تبلل وسادتها؟!

***

(٤٦)

" من يسـرق رغيف خبز فهو لص.. ومن يسـرق قلب أنثى فهو لص شريف! "

مـل ناجـى شـرف الديـن الصحافـة ، ودروبهـا وشـوارعها وحكاويهـا وحبرها ، فإبتعد أسـبوعًا عن مجالها المغناطيسـى عسـاه يهدأ ويستكين ويغرق قلقه فى البحر.. هناك على شاطئ الاسكندرية استلقى على الرمال تعبث الأمواج بأنامله وظل يفكر ويفكر..أسئلة كثيرة تضج فى رأسه ولا مجيب.. ما الذى يحدث فى البلد؟! أين اختفى أستاذه عطا الهلالى؟! ولماذا أصيبت ميرفت العطيفى بحالة مـن جنون العظمـة ودخلت فـى صراعات واشتباكات مع معظم محررى مجلتها " نجوم الفنون"؟!.. وكيف تصاعدت تلك الصراعات ووصلت إلى شكاوى متبادلة فى نقابة الصحفيين والمجلس الأعلى للصحافة ورئاسة الجمهورية؟!

لم تغادر رأسـه فضائح ومواجع صاحبة الجلالة.. ألقى بعينيه فوق الأمواج يتأمل لونها الأزرق الصافى الرقراق.. دارت فى ذهنه علاقة الانسـان العربى بالبحر وهو يعلم تمامًا أنها علاقة قديمة قدم التاريخ نفسه.. كيف لا وبلاد العـرب مفتوحـة على بحار ومحيطات ، وقاموا بصناعة السـفن والأسـاطيل البحريـة وبصفـة خاصـة فى زمـن الأمويين والعباسـيين ، وقـد قادتهم هذه السفن والأساطيل إلى بلاد بعيدة شرقًا وغربًا لدواعى الفتوحات والتجارة ، وظهـر بينهم علماء بحـار عظام يتصدر صفوفهم أحمد بـن ماجد فى القرن الخامس عشر وهو شاعر موهوب وأسد البحار والمحيطات كما وصفوه.

وضـع ابـن ماجد العديد من الكتب من بينهـا كتاب " الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد " الذى قال عنه المستشـرق الفرنسى جابريل فيران أنه أروع وأكمل مؤلف فلكى ملاحى فى عصره.. أما ابن ماجد نفسه الملقب بأسـد البحار فيرى أنه وريث ثلاثة شـيوخ عرب من رواد علم البحار.. سـهيل

بـن أنـان والليث بن كهـلان ومحمد بن شـاذان..وإذا كان الإسـلام أعظم ثورة دينية وإنسـانية حملها الإنسـان العربى إلى العالـم فقد لعب البحر دورًا كبيرًا فى نقل هذه الرسـالة إلى بلاد وأصقاع بعيدة، وكان للتجار العرب دورهـم الخالـد فـى هـذا المضمار مـن خـلال انفتاحهم علـى الصين ودول الشـرق الأقصى من جهة، وسـكان السواحل الأوروبية من جهة أخرى حيث جـرى تعميق عرى الود والتواصل وفتـح باب لحوار الحضارات مع الآخرين، وتميز التجار العرب القدامى بأمانتهم مع أبناء الشـعوب الأخرى مما جعلهم يثقـون بهم وبدينهـم وأخلاقهم وثقافتهم، فانخرطـوا تلقائيًا وعن قناعة فى الاسلام.

كانـت السـفن العربية تخـرج من موانـئ عمان والاسـكندرية والبصرة وعـكا وعـدن متوجهة إلى الهند والصين وموانـئ أوروبا المطلة على البحر الأبيض المتوسـط وسـيطر العرب على الطرق البحرية الممتدة من كانتون فـى الصيـن إلـى طنجة فى المغـرب، وكانت فـروع هذه الطـرق تصل إلى الملايـو والخليج العربى وبحر إيجـه، والبحر الأدرياتيكى، وامتلك التجار والبحـارة العـرب السـفن البحريـة العملاقـة وتمرسـوا فـى فنـون الملاحة وإختراع أدواتها من البوصلة إلى الأسطرلاب، كما مكنتهم تلك الرحلات البحرية من التعرف على ثقافات الشعوب الأخرى وفنونهم وآدابهم وطبائعهم وطرق عيشـهم خاصة وأن بعض السـفن التجارية العربية كانت تحمل على متـن رحلاتها كل التجـارب والحوادث التى عاشـوها، فآثـروا بذلك علوم الجغرافيا والملاحة البحرية والاجتماع، ولعل أشـهر هؤلاء الرحالة العرب " ياقوت الحموى " صاحب " معجم البلدان " والمسعودى صاحب " مروج الذهب " وابن بطوطة عملاق المسـافات والفضـاءات المترامية.. ودام هذا الإزدهار التجـارى والثقافـى العربى من خلال الأمـواج والشـواطئ والموانئ والبحار والمحيطات من القرن الثامن الميلادى إلى القرن الخامس عشر الميلادى، وقد عرفت البحار باسمهم "بحر العرب " كما أن شبنغلر الألمانى قال:

" إن العرب وراء حضارة أوروبا كلها ، ولولاهم لما كانت لنا نهضة علمية وفلسفية.. من موانئهم الأولى انطلقوا إلينا ليعلمونا كل شئ.. حقًا إن البحر الأبيض المتوسط كله حضارة عربية " هكذا أجاد العرب حوار الثقافات عبر البحر منذ زمن بعيد ، وكان حوارهم ناجحًا ومثمرًا على كل الأصعدة ، وما بين عرب الأمس وعرب اليوم ثمة بون شاسع وبعيد فى كل شئ يلمسه ليس العرب أنفسهم فقط ، بل الشعوب المحيطة بهم ، والبعيدة عنهم فى آن واحد.

ولم يعد البحر بالنسبة للإنسان المصرى خاصة والعربى عامة عامل تواصل ثقافى وانسانى وحضارى وتنويرى بقدر ما صار وسيلة للهرب من جحيم بلادهم الطاردة لهم ، وبعضهم تحول البحر أمامه إلى مجرد مقبرة مائية وللمراكب والزوارق التى يمتطيها ويغامر بها فرارًا من نار وطنه!

وكتب ذات مرة شاعر صينى يدعى " شوان شورنج " من مقاطعة كانتون الصينية.. تلك المقاطعة التى وطئها قبل عدة قرون تاجر عربى استطيب العيش فيها ، وتزوج منها ومات ودفن فى أراضيها ، ويبدو أن هذا الشاعر من سلالة ذلك التاجر العربى.. يقول فى قصيدته التى تحمل عنوان: " صينى ابن عربى "..

خرجت من سلالة تاجر عربى استزرع نفسه فى كانتون.
تزوج إمرأة ذات جمال سماوى هى جدتى الأولى.

ولا أدرى من الذى علم الآخر الحب.. الحب فى الصين أقوى من الحب فى كل مكان.

فكر ناجى شرف الدين أن يكتب قصة أو رواية ، واستعاد من دهاليز ذاكرته كلمات أستاذه المختفى عطا الهلالى حين قال له:

ضع فيها كثيرًا من وجعك.. ضع عقلك جانبًا .. واصنع للرؤيا أجنحة

بيضاء.

فكـر بصمـت شـهى.. تأمـل الوقـت.. تجنب الأفـكـار الكبيـرة.. اترك رؤوس الأفكار تسـبح حرة طليقة.. قل فقط ما يناوش القلب.. افرد الخيال بجناحين.. ترصد المعانى الشـاردة.. مرر اللغة بانسـيابية من ثقب الفكرة.. قـل أشـياءك الصغيـرة واهرب من أى رتابـة تصل إلى حلمـك البعيد بعد أن تستوفى شروط الصبر الجميل!

***

obeikandl.com

(٤٧)

" أسوأ ما فى الدنيا .. جار سئ وابن عاق وزوجة خائنة! "

بـدا ناجى شـرف الدين كسـائح فـى بلاط صاحبـة الجلالـة ، ينتقل من جريـدة إلـى أخـرى ومن مجلـة إلى دار نشـر ، وذلك بعـد أن توتـرت علاقته مـع ميرفت العطيفى رئيسـه المباشـر ، وبلغـت الأمور ذروتهـا عندما كتب موضوعًا صحفيًا وفوجئ بغلطة فى اسمه بعد أن أصبحت المجلة فى السوق.. وجـد اسـمه " ناجى سـرق الدين بدلاً من ناجى شـرف الديـن " النقاط فقط ضاعـت من فـوق الحروف.. فهاج وماج فى صالة التحريـر أمام الجميع ومزق المجلة وداسـها بحذائه ، وبسـرعة البرق انتشـر الخبر فى المؤسسة كلها ، وغضبـت ميرفت العطيفى غضبتها الكبرى ، وقررت طرد ناجى من جنتها.. ومن وقتها صار كطير يبحث عن حبات رزقه يلتقطها فى أى مكان كان.. والرزق يحب الحركة والسرعة ويكره الخمول والتباطؤ والكسل.. ظروف الحياة القاسـية فى قاهرة المعز لدين الله وجنون أسـعارها جعلته مثل آلاف البشـر يلهثون يوميًا لآداء أكثر من عمل عساهم يتكسبون عيشهم فحسب وليس لتحقيق الثراء.

انطلـق ناجى يعمل فى مجلة " فريدة " بجانب وجوده طبعًا فى مجلة "نجوم الفنون " التى يرأس تحريرها ويمتلكها شـاب سـورى فـى العقد الرابع من عمره يدعى بشـار عمار ، متوسط القامة أبيض الوجه ، ذهبى الشعر ، ضيق العينين يتحرك بخفة ورشاقة وسرعة مثل عقرب الثوانى فى إحدى الساعات السويسرية التى لا تقدم ولا تؤخر مهما جار عليها الزمن بنوائبه.

عـاش بشـار فى شـوارع القاهـرة ودروبهـا ونواديها وحدائقهـا قصة حب جنونيـة مع فتـاة مصرية لعوب تدعـى " فريدة " فتزوجها وأنجـب منها طفلة جميلة أسـمياها مى.. ودارت الأيام والتقى ناجى شرف الدين بفتاة اختطفت قلبـه من أول نظرة كما تقول كتب الرومانسـية والحـب العذرى ملامحها

دقيقة برونزية البشرة، سوداء الشعر والعينين، ابتسامتها تضئ الدنيا مثل شمس الشتاء.. صابرين جاءت تعمل سكرتيرة، وبسرعة عرفت أنه فقير موهوب يستكتبه كبار الكتاب ويقولون له نعطيك الفكرة واكتب أنت.. الحجة دائما أن الكاتب الكبير الذى يستكتب ناجى شرف الدين لديه اجتماع.. وفى كل الأحوال تكون الفكرة مسروقة ومختلسه من آخرين.. فى بداية تعارف ناجى شرف الدين وصابرين دارت بينهما بعض المناوشات، والمشاكسات البسيطة ثم سرعان ما تحولت إلى مشاعر ودية، وصداقة لطيفة فيها احترام متبادل، ولأن العادة أقوى من الحب، وهما يقضيان معظم الوقت مع بعضهما بحكم العمل فى المجلة ربطت خيوط الحب بين قلبيهما، وأصبحت صابرين تهتم به فى كل شئ، وخاصة الطعام فقد كانت تحرص على أن تعده له بيدها، وتتفنن فى صنعه، وبمجرد أن أحس بشار عمار وزوجته فريدة بما يدور بين ناجى وصابرين رحبا بتلك العلاقة العاطفية العفيفة البريئة، فلا الحب ولا الحرب يمكن اخفاؤهما مهما بذل المحب أو المحارب من حيلة، عرض بشار أن يقدم لهما دبلتى الخطوبة هدية منه تتويجًا لحبهما واخلاصهما للمجلة التى تحمل اسم زوجته.

تقدم ناجى لخطبتها بعد أن تيسرت أحواله بعض الشئ، وبمرور أقل من عامين تزوجها، ورزقهما الله بطفلين فى غاية الجمال والذكاء.. ولد وبنت.. ومنذ لحظة زواجهما أصر ناجى على أن تتفرغ صابرين لبيت الزوجية، وتمتنع نهائيًا عن الخروج إلى العمل.. وبالفعل كان له ما أراد، وفعلت هى ذلك راضية مرضية حبًا فيه واكرامًا له واحترامًا لرأيه.

لم يكن ناجى شرف الدين يعرف أن فريدة أنثى لعوب إلا عندما حكت له صابرين ما حدث ذات يوم فى القناطر الخيرية.. كانت فريدة قد قررت أن تخرج فى نزهة خلوية، واصطحبت صابرين معها فى سيارتها الشيفروليه السوداء التى اشتراها لها بشار، وفى حدائق القناطر الخضراء المترامية الأطراف بدأت العبث، اصطحبت شابًا وسيمًا قسيمًا تعرفت عليه بالصدفة

البحتـه واختارتـه بعناية ، كانـت قـد وجدتـه وحيـدًا راقدًا تحت شـجرة صفصـاف عتيقة يطالع صحيفـة قومية ثم فرغ منها ، وحدق فى الفراغ وظل شـاردًا يراقـب المـارة ويتأمل الطريـق ووجه الماء وحركـة الناس فى كل اتجاه..

انطلقت معه بعيدًا عن العيون تلهو به ومعه فى سيارتها ، وتركت طفلتها الرضيعـة بحـوزة صابرين لكـى ترعاهـا ، غابت أكثر من خمس سـاعات ثم عادت بصحبة الشـاب إياه متوردة الخدين باسـمة الثغر ، ملتهبة الشفتين ضاحكة مستبشرة كأنها خرجت لتوها من مستودع السعادة!

وبمجرد أن رأتها صابرين ثارت فى وجهها غاضبة محتدة ، ونهرتها بسؤال استهجانى وهى ترمقهما شذرًا :

ـ أيـن كنـت يا فريدة كل هـذا الوقت؟! ثم ألقت لهـا طفلتها بين يديها وتركتهـا وانصرفت مسـرعة ، بينما فريـدة تحاول أن تسـتبقيها دون جدوى.

وظلت صابرين تتمتم بضيق:

ـ مسـتهترة.. عابثة.. مهملة.. لا يمكـن أن أشـاركك هذا العبث والجنون ولا يمكـن أن أكون شاهدة على ما يحدث فى بئر الخيانة؟!

فى تلك الأثناء كانت صابرين قد إرتبطت بصداقة ودية مع فادية السكرتيرة الخاصـة للدكتـور عمـر فرج طبيب الأسـنان المعـروف فى العيـادة المجاورة مباشرة لمقر مجلة " فريدة " فى نفس الطابق بالعمارة.. جمعتهما جلسات دردشة وفضفضة ونميمة بريئة مثل كل البنات ، وفى بعض الأحيان كان ناجى شرف الديـن ثالثهمـا.. وذات مرة حكت فادية لصابرين أن الدكتور عمر فرج غريب الأطوار ، لأنه قبل أن يبدأ عمله يشاهد على كمبيوتر العيادة فيلم بورنو ، ومن حيـن لآخـر يتحرش بها ، وأنها تجاريه قليلاً بدون خسـائر حتـى لا تفقد عملها الذى يدر عليها عائدًا مجزيًا إلى حد ما يساعدها فى تجهيز نفسها وشراء كل ما يلزم زواجها ، خاصة وأنها مخطوبة لشـاب يعمل فى مطابع مؤسسـة " الأيام

" للصحافة.

وظل هذا الطبيب المشهور حديث الصحف القومية والحزبية والخاصة على مدار عدة شهور ، بداية الأحداث كانت فى أحد أيام شهر يونيو.. همسة من إحدى الساقطات عن طبيب الأسنان المعروف.. قالت إنه يراود مريضاته عن أنفسهن.. بعضهن يسقطن فى المحظور بعد جولة قصيرة من التحرش بهن أثناء الكشف وفق خطة جهنمية يعتمد عليها.

واحدة من مريضاته الحسناوات إنهارت بعدما أدار لها مشاهد ساخنة على أسطوانة يحتفظ بها على كمبيوتر العيادة.. خارت قواها تمامًا ورفعت الراية البيضاء للطبيب الذئب.. ولم تكن تدرى أن كاميرا خاصة مثبتة فى أحد الأركان تسجل كل شئ ، ١٢ إمرأة من المترددات على عيادة طبيب الأسنان استسلمن لرغبته المحمومة ، وسجل رجل الطب مشاهد صارخة بينه وبينهن فى غرفة الكشف ، منها ما تم تحت تأثير المخدر ومنها ما تم بدونه.

هناك أربع جوارى يساعدن الطبيب فى الإجهاز على فريسته.. الهمسة والوشاية المرفقة بالدليل وصلت إلى مكتب أحد ضباط مكافحة جرائم الآداب ، الذهول أصاب الضابط وظل يضرب كفًا بكف متسائلاً بهستيرية :

ـ رجل الطب والإنسانية نجم الصحافة والفضائيات حول العيادة إلى وكر للمتعة الحرام ، ولا يكتفى هذا الجشع بذلك بل يصور مريضاته أيضًا.

عندما سأل الضابط مصدره السرى عن حكاية الجوارى.. جاءته الإجابة مباشرة هن أربع فتيات يتمتعن بقدر كبير من الجمال الشرقى الخلاب.. شاء حظهن العثر أن ينشأن فى مناطق شعبية لعائلات تعيش على حافة الفقر خرجن الواحدة تلو الأخرى بحثًا عن فرصة عمل ، ومصدر للرزق لمواجهة شظف العيش فكان مصيرهن اللقاء تباعًا فى عيادة الطبيب المعروف للعمل سكرتيرات.

رجال الشرطة ذهبوا إلى المكان بشكل سرى قبل مداهمته للتأكد من صدق المعلومات التى تطايرت إليهم، لكن المفاجآت توالت، وأثبتت التحريات صدق المعلومات وإن كان الواقع أقل من الخيال، فهناك أسطوانة C.D تحوى مشاهد ساخنة للطبيب مع ١٢ من المترددات على عيادته بينهن فريدة المصرية زوجة بشار عمار السورى.. ساكنات الأحياء الراقية وسيدات المجتمع سقطن فى براثن الطبيب الذئب، نفذ خطته بمساعدة السكرتيرات أو الجوارى وفى النهاية أصبحت الوليمة بين أنياب الذئب يفترسها من حيث يشاء أمام الكاميرا التى لا تكذب أبدًا!

فى معظم الأحيان تظل غرفة الكشف مغلقة أغلب الأوقات، لا أحد يعرف على الإطلاق ما يدور بداخلها من المترددين على العمارة الموجودة فى أحد أهم شوارع حى المهندسين.

أما حكاية الجوارى.. فهن أربع حسناوات وظيفتهن الحقيقية خدمة طبيب الأسنان الثرى المعروف.. خرجت كل واحدة منهن للبحث عن عمل، وساقهن حظهن الأسود إلى العيادة بعدما قرأن إعلانًا فى الصحف القومية اليومية.. "مطلوب سكرتيرة حسناء براتب كبير".. كثيرات حضرن للفوز بالوظيفة ولكن العيون المتوحشة للذئب المتنكر فى بالطو أبيض كانت تتفحص.. وعندما تلمع ببريق النشوة فمعنى هذا أن الفتاة نالت الإعجاب وفازت بالوظيفة، ويستطيع الطبيب طرد السكرتيرة الحسناء التى لا ترضخ لأوامره ولا تستجيب لطلباته الممنوعة، وحتى بعدما تسقط معه فى بحر الخطيئة بورقة زواج ليس عليها شهود يحتفظ الطبيب بعشرات النسخ منها فى مكتبه بغرفة الكشف ليوهم ضحاياه بأنه يتزوجهن.. ولكنه زواج بلا شهود!

الجوارى الأربع ومنهن فادية بالطبع من إحدى المناطق الشعبية بالقاهرة القديمة كن يخرجن من منازلهن فى العاشرة صباحًا ويعدن فى العاشرة ليلاً، لدواعى العمل فى العيادة وقد نال منهن الارهاق وطول الوقت.

الشرطة أنهت عملها.. ودون الضابط المختص ورقة تحمل عنوان " محضر تحريات " قال فيها كل شئ ، وأضاف عليه أن الطبيب يقوم بتسجيل لقاءات المتعة المحرمة على أسطوانات C.D..

محضر التحريات تم وضعه فى مظروف أصفر اللون وأغلق بشريط لاصق.. الذهول سيطر على وكيل النيابة ، وأصدر الأمر على الفور.. القبض على الطبيب والسكرتيرات والمترددات ومداهمة العيادة وتفتيشها.

ضباط الشرطة انطلقوا إلى العمارة المكونة من ١٤ طابقًا هدفهم الطابق السادس كبيرهم طلب منهم أن يصعدوا على دفعات ، ويتجمعوا فى طابق أعلى من مسرح الحدث ثم يتحرك الجميع فى توقيت متزامن.

أحد رجال الشرطة كانت مهمته مراقبة مدخل العمارة ربما تواجدت بالصدفة إحدى المترددات على العيادة.. وبعد دقائق وقفت القوة بكاملها على بعد خطوات من وكر الذئب حتى صدرت الإشارة بالاقتحام ، ليهبط أفراد القوة السلم.. ثوان قليلة وكان الجميع داخل العيادة.. فوجئوا بالطبيب وسكرتيرته يجهزان إحدى الضحايا لممارسة الخطيئة. ألقوا القبض على الجميع ، وعثروا فى مكتب الطبيب على ثلاث ورقات مدون بها بيانات غريبة ، واكتشف الضابط أنها أوراق زواج عرفى لا تحمل توقيعات الشهود وغير موثقة.

الورقة الأولى فيها اسم الزوجة "مريم حلمى " عمرها ٢١ عامًا طالبة باحدى الجامعات الحكومية وتقيم فى منطقة شعبية عشوائية.

تقدمت فى البداية للعمل كسكرتيرة عن طريق إحدى صديقاتها فى عيادة الطبيب المعروف فالراتب يكفى نفقات طالبة جامعية ويزيد.. كان جمالها هو المفتاح السحرى الذى فتح لها أبواب العيادة ، وجعل الطبيب الذئب نجم الفضائيات والصحف يرحب بها للعمل معه.

الورقة الثانية.. لفتاة عمرها ١٨ عامًا.. لا تعمل وتقيم فى منطقة إمبابة بمحافظة الجيزة اسمها هدى جاد الله حاصلة على دبلوم تجارة.

أما الثالثة.. حميدة حمدى عمرها ٣٠ عامًا حاصلة على بكالوريوس زراعة طويلة هيفاء بيضاء وهى أقدم السكرتيرات.. أو الجوارى لدى الطبيب ومهمتها الأساسية مساعدته على افتراس ضحاياه سواء من السكرتيرات أو المريضات الجميلات!

أما الأحراز فهى أوراق زواج عرفى لاتحمل شهودًا.. تحريات المباحث تثبت أنه زواج صورى، والعيادة ما هى إلا ستار لوكر بغيض.

وهناك أيضًا كاميرات ڤيديو حديثه عثر عليها الضابط وبداخلها شريط صغير الحجم يحتوى على مشاهد للطبيب المذكور مع الحسناوات فى أوضاع مخلة.

وهناك جهاز عرض بشاشة تليفزيونية يعرض من خلالها لقطات لدغدغة مشاعر الضحايا، وإسقاط حائط المقاومة النسائية لنوازعه الوقحة.

قام رجال الشرطة بتفريغ أسطوانات الـ C.D وشرائط الفيديو ومصادرة كميات كبيرة من أقراص الفياجرا المستوردة.. انتهى التفتيش وتم القبض على الطبيب وجواريه وللمرة الأولى يجد نفسه محاطًا بالمخبرين مقيد اليدين ويساق إلى إدارة مكافحة جرائم الآداب.

وشرع رجال الشرطة فى تحرير المحضر لعرضه على النيابة.

الدكتور عمر فرج بدا مذهولاً لم يعلق كثيرًا سوى بالنفى، ويهتف أنه برئ ومظلوم حتى فى حالة الأشرطة والأقراص المدمجة التى تحمل صورته.. إكتفى بالنفى ثم اتهم مطلقته أنها وراء تسريب الأشرطة وتعمد فضحه.

فى هذه الأثناء كانت فادية السكرتيرة صديقة صابرين قد أصبحت قيد التحقيق، وقرر ناجى شرف الدين أن ينأى بنفسه، وبحبيبته صابرين عن المكان المشبوه فتركا المجلة نهائيًا، واعتذرا لبشار عمار وزوجته فريدة.

استغرق تحقيق النيابة عدة أيام.. وقرر وكيل النيابة حبس الطبيب أربعة

أيام على ذمة القضية، وعرض المضبوطات على الجهات المعنية للتحقيق، لكن الأمر المثير أن الطبيب الشهير فجر أكثر من مفاجأة فور القبض عليه.. وزع اتهاماته على مطلقاته، وادعى أنه صور ضحاياه فى أوضاع مخلة لاستخدامه الشخصى، وليس للتوزيع فى الأسواق، وكانت هناك بعض الأشرطة توزع فى الأسواق تحت اسم "شريط الدكتور" لأنه كان يظهر بالبالطو الأبيض ثم يخلعه فيبدو عاريًا تمامًا بدون ملابس داخلية.

عاشت صابرين حزينة لفترة طويلة، تعانى من صدمة عصبية بسبب مشهد القبض على فادية صديقتها وجارتها فى العمارة.

ظل ناجى شرف الدين يواسيها ويهدئ من روعها ويخفف عنها، قصة ضبط طبيب الأسنان المعروف الثرى شديدة الإثارة.

وقد وجدت أجهزة الأمن سهولة فى تحديد شخصيته من خلال الأسطوانات التى أغرقت الأسواق.

مصدر سرى لأجهزة الأمن اكتشف الأسطوانات التى سرت كالنار فى الهشيم الجاف تحت عنوان فيلم "الدكتور".. بعض سماسرة المتعة غالوا فى ثمن هذه الأشرطة ووصل سعر الشريط الواحد ألف جنيه.

أمام خطورة هذه الظاهرة هرعت مباحث القاهرة إلى التنسيق مع مباحث الجيزة بتشكيل فريق بحث على أعلى مستوى لكشف سر هذه الأسطوانات على اعتبار أن كل المشاهد دليل دامغ لا يقبل المراوغة.

حاول مدير مباحث الآداب بالعاصمة تكبير لقطة الشهادات الطبية المعلقة بالعيادة، وتوصل رجال المباحث إلى الإمساك بطرف الخيط، والقبض على الطبيب وجواريه.

بعد بحث وتحريات تمكن رجال المباحث من تحديد المكان، وجدوها عيادة واسعة مؤثثة بشكل أسطورى فاخر تحوى أغلى وأجود أنواع الأثاث الإيطالى المستورد.. مكتبه الخاص وغرفة نومه تم تجهيزها بأكثر من مليون جنيه. الطبيب الشهير خصص مدخلاً للمصعد فى قلب عيادته..

مريضاتـه يسـتقبلهن ثـلاث حسـناوات فى ثيـاب بيضاء كـأنهـن مـلائكة الفردوس.. لكن الحقيقة أنهن ملائكة العذاب!

إحداهن ترد على الهاتف لتحديد المواعيد والمقابلات لإجراء الكشف وأخرى تقوم بدور السكرتيرة، والثالثة تختص بالأمور المالية.

كاميـرات المراقبـة الحديثـة الدقيقـة مزروعـة فـى أركان العيادة.. الطبيـب أحـاط نفسـه بجـو أسـطورى، وضحاياه مـن سـيدات المجتمع الراقى ومذيعات شـهيرات لامعات وزوجـات وزراء ورفيقات رجال أعمال ولواءات!

واجـه ضابط التحقيقات الطبيب بالإتهامـات الموجهة إليه، أنكر التهم تمامًا، وأقسـم بأغلظ الأيمان أنه رجل شريف عفيف له وضعه الاجتماعى، وبـكل هدوء بدأ الكمبيوتر فى عرض الأسـطوانات.. صمت المتهم تمامًا خجلاً من مشـاهدة نفسـه مع الجميلات.. تعرى أمام الجميع.. تمنى أن تفتح الأرض بطنها وتبتلعه فلا يراه أحد بعد اليوم.

لم يجد ما يقوله، نبرته العاليه تحشـرجت ثم تلاشـت، وسالت دمعة على خـده فلا سـبيل أمامه للإنـكار.. اعترف أن ما فعله مع النسـاء تم بالاتفاق معهـن وليـس بالإكـراه، وصورهـن لمزاجـه الشـخصى، وأخفـى بعـض الأسـطوانات فى منزله لكن كيد النسـاء غلب كيد الشـيطان.. سـرقت مطلقته الأسـطوانات وطبعت منها عشرات النسخ وطرحتها على الأرصفة، وتولى أصحاب شركات الكمبيوتر توزيع كميات هائلة منها على الشباب والراغبين بأسعار رمزية.

قص الطبيب حكايته مع مطلقته التى سببت له الكثير من المشـاكل، ونصبـت له العديد من الفخاخ.. قال أنه تزوجها لمدة أسـبوع واحد ثم طلقها بعد اكتشـافه أنها ليسـت بكرًا كما إدعت، ثم تزوج من أخرى، وهددته الزوجـة الأولى بانتقام شـرير شـرس، واختلف مع زوجتـه الثانية فتضامنت مـع الأولـى ودبرتـا خطـة جهنمية للنيـل من الـزوج الذئـب.. سـهلت الزوجة

obeikandl.com

الثانيــة للزوجة الأولى دخول المنزل للسـطو على بعض المتعلقات ومن بينها أسطوانات الـ C.D.. فحدث ما حدث.. وأقسم الطبيب الشهير نجم الصحافة والفضائيات أنه ضحية كيد النساء!

غـادر ناجى شـرف الدين وصابرين العمارة المشـبوهة للأبد.. وقررا عدم العودة إليها مجددًا مرة أخرى.

***

obeikandl.com

(٤٨)

" إذا أردت التطهير فاعترف بذنوبك، واصفح عن خصومك! "

انتقل ناجى شرف الدين بعد تجربته المريرة مع مجلة " فريدة " للعمل فى جريدة " الوعد " الأسبوعية المعارضة التى يمتلكها ويرأس تحريرها مصطفى شكرى الذى عرفه الجميع بمعارضته الشديدة والمتطرفة للنظام الحاكم فى مصر، واعتمد فى اصدار صحيفته على تمويل هائل من إيران، وتدفقت عليه الدولارات كالسيل المنهمر من ملالى طهران عندما شرع فى اجراءات تشكيل حزب سياسى تحت اسم "مايحكمش" فى إشاره واضحة لرفضه مبدأ توريث الحكم إلى ابن الرئيس..

وبدأ الصدام الحقيقى بينه وبين النظام الحاكم عندما فتح ملف التوريث على صفحات جريدته، وتعرض للمحاكمة والاعتقال والسجن لأكثر من عام.

لكن من يكون مصطفى شكرى هذا الذى يصف نفسه فى مقالاته بالمناضل العروبى القومى؟! هل هو بطل من ورق وحبر كذب؟!.. مصطفى شكرى من مواليد محافظة قنا، درس الاقتصاد والعلوم السياسية فى جامعة القاهرة، وعقب تخرجه التحق بالعمل فى الدائرة السياسية بحزب " ما يحكمش " وترأس الحزب بعد عدة سنوات ونهج فى الصحافة المصرية نهجًا جديدا لم يجرؤ أحد قبله على الولوج فيه، وبدأ ينشر ملفات ممنوع الاقتراب منها.. تلك الملفات التى زجت به إلى ظلمات السجن والملاحقة والمراقبة ليل نهار.

فى ليلة ٥ سبتمبر من العام قبل الماضى تم اعتقاله بتهمة إهانة رئيس الجمهورية، وإثارة النعرة الطائفية للاضرار بالمصلحة العليا للبلد، وصدر ضده الحكم الذى قضى باغلاق الصحيفة لمدة ستة أشهر والحبس لعام

كامـل، رضـخ لكلمة العدالة حتـى ولو كانت غير عادلـة، وبعد الافراج عنه بعدة أيام، تعرض لمحاولة شروع فى قتل من خلال الضرب بآلات حادة وصلبـة أدت إلـى إصابته بجروح خطيرة أثنـاء عودته من الجريدة فى طريقه إلـى منزله بمنطقة المقطـم بعد منتصف الليل.. فقد قامت عصابة مسـلحة مكونـة من ٨ أفـراد باختطافـه، دفعوه بقوة إلـى المقعد الخلفى للسـيارة الجيـب السـوداء التـى تحمل لوحات مطموسـة الأرقـام والملامـح، وتحت أحذيتهـم الغليظـة وضعوه، وبدأوا الـركل والضرب بعنف فـى كل أنحاء جسده..

كانت التهمة الموجهة إليه هى التآمر على نظام الحكم ثم خففوها إلى الإساءة لرأس الدولة والنظام فى مقال كتبه ولم ينشر تحت عنوان: " الطور الذى أصبح الفرعون! "

لـم تنتـه أزمـة مصطفى شـكرى عند هـذا الحـد، بل خرج منهـا أكثر اصرارًا وعنادًا وبأسًـا ليؤسـس موقعًا إلكترونيًا يثير جدلاً فى الأوسـاط الصحفية والسياسية ويحقق رواجًا وانتشارًا يدعو للدهشة والعجب.

وفـى تحـول غريـب ومفاجـئ أذهـل معظـم أبنـاء صاحبـة الجلالـة عقد مصطفـى شـكرى صفقة مشـبوهة مع الحكومـة بموجبها يتولـى التهدئة لنبرة النقد والهجوم ويعتمد سياسة المهادنة مقابل السماح له بترشيح نفسه نائبًا مستقلاً فى البرلمان بحيث يكون بلا أنياب.

ويعـرف الجميـع أن مصطفـى شـكرى صاحـب " سـوابق " فى الترشـح للبرلمان وأخفق مرتين للوصول إلى الكرسـى النيابى، وحقق فشـلاً ذريعًا لا يحسـد عليه.. وفى المـرة الثالثة والأخيرة لعبـت كل الظروف لصالحه، سـخرتها السـلطة له، وتمت الصفقة بنجاح وفاز بالمقعد الذى كان يعتبره بعيد المنال، ودربًا من دروب الخيال الأسطورى.

بـاع المبـادئ الوطنيـة والأهـداف العروبيـة القوميـة، واشـترى مصلحة الشخصية.

وذات يوم قال:

لقد ضيعت عمرى فى أوهام.. لا شئ يعلو على مصلحتى الخاصة.. ومن حقى أن أغير مبادئى وأخلاقياتى وجلدى لأحصل على ما أريد.. فالعمر واحد.. واليوم الذى يذهب لا يعود أبدًا والغبى هو الذى يدافع عن أشياء لو تحققت لإستفاد منها الجميع دون سواه!

الصحفى الصعيدى الصلد العنيد المغامر الحاصل على دراسات عليا فى النظم السياسية والقانونية والاقتصادية إلتحق بمنظمة الشباب الاشتراكى فى مطلع السبعينيات.. بدأ حياته محررًا صغيرًا فى عدد الصحف والمجلات محدودة الإنتشار، وعمل بعد ذلك مراسلاً لإذاعة مونت كارلو من القاهرة قبل أن يفتح خطوط اتصال مع أطراف خارجية تمده بنهر من الدولارات لا ينقطع مداده، ولنبوغه الصحفى والفكرى حصل على العديد من جوائز التفوق الصحفية من مختلف العواصم العربية، واختاره المنتدى العربى بالخليج شخصية العام الصحفية، وذلك فى مهرجان احتفالى كبير حضره رموز الحركة السياسية والحزبية من شتى التيارات العربية.

الطريف فى الأمر أنه على الرغم من أن ناجى شرف الدين لا علاقة له بالسياسة وألاعيبها، ولا يحبها من قريب أو من بعيد، ويتجنب الحديث فيها والخوض فى غمارها إلا أنه كان قريبًا جدًا من قلب مصطفى شكرى خلال الفترة غير الطويلة التى قضاها معه فى جريدة " الوعد " حتى تم القبض عليه وهو يقود مظاهرة خرجت من نقابة الصحفيين بقلب القاهرة متجهة إلى مجلس الشعب فى ميدان التحرير ثم إلى السفارة الإسرائيلية على النيل بالجيزة تندد بالتطبيع وتستنكر دم الشهداء الذى ضاع هباء منثورًا.

هاجم الحكومة ولعن النظام وسب القيادة السياسية التى ارتمت فى أحضان العدو الإسرائيلى تخطب وده، وسلامه اللئيم المخادع.. لقد ظن مصطفى شكرى وليس كل الظن إثم أن الحصانة الدبلوماسية التى نالها

فـى صفقة حكومية سـوف تحميه وتمنعه عن سـياط السـلطة خاصة وأنه كان قـد ورط نفسـه فى معركة تحت القبة مع رجـل الحزب الفولاذى عز الديـن عبـد المجيد محتكر صناعة وتجارة الحديـد فى مصر من أقصاها إلـى أقصاهـا ، وصاحب الجاه والسـلطان والصولجان برغـم أن هذا الرجل الحديدى لا يزيد طوله عن ١٥٠سم.

وكانـت نهايـة مصطفـى شـكرى عندما ألغـوا لـه دائرتـه الانتخابية.. واسـتيقظ ذات يـوم ليجد نفسـه بلا دائرة ولا مرشـحين ليس هذا فحسـب بـل شـددوا الرقابة علـى صحيفتـه ، واسـتجوبوا كل محرريهـا.. لم يكن أمام ناجى شـرف الدين سـوى الانسحاب قائلاً لنفسـه: فلتذهب الفلوس إلى الجحيم.. الفقر خير ألف مرة من أن يكون لى ملفًا فى أمن الدولة!

***

obeikandi.com

(٤٩)

" الديـن.. هـذا النفق الذى يسـلكه الجميع لتبريـر الغايات النبيلة والحقيرة! "

معظـم الصحفييـن فى مصر مثـل عمـال التراحيل ينتقلون مـن حقل إلى حقل حسـب الأجر، وهـكذا أصحاب القلم يهجرون صحيفة ويهرولون إلى صحيفة أخرى سعيًا وراء المكسب المالى.. لا عزاء للمبادئ أو الأخلاقيات أو الأيديولوجيـات الثقافية أو الفكرية أو السياسـية.. فى تلك الأثناء كان ناجى شرف الدين ينتقل أيضًا بين أكثر من صحيفة للإسترزاق وفقًا لمعايير سوق الصحافة الذى شهد انفتاحًا غير مسبوق مثل الانفتاح الاقتصادى الذى أرسى دعائمه السادات فى سبعينيات القرن الماضى.

شـاء حظـه العثر هذه المـرة أن يقوده إلى فخ صحفـى، ومنطقة ملغومة، وقبل أن يقع فى هذا الفخ انخرط فى الدراسـات العليا بكلية الاعلام قسـم الصحافة بجامعة القاهرة، وفى أول محاضرة داخل مدرجات الكليه فوجئ برئيـس تحريـر ومجلس إدارة جريدة " الأيام " معتـز القط يلقى المحاضرة.. أحـس بالارتبـاك لكنه كظـم غيظه، وانزوى فى ركن قصـى من القاعة ينصت للرجل الذى قال بثقه وهدوء وسط صمت رهيب لجميع الحاضرين:

منـذ خمسـين عامًا لـم تكن قد وجدت بعـد موضة مـدارس الصحافة، كنـا نتعلـم فى صالات التحريـر، فى ورش المطبعة، فـى المقهى المواجه للمبنى، فى حفلات الجمعة، كل جريدة كانت صناعة تشـكل وتخبز بلا أخطـاء، وتتولد آراء داخل مناخ من المشـاركة التـى تحتفظ فيها الأخلاق بمكانها. فنحن الصحفيون كنا نسـير دائما معًا، نصنع حياة مشـتركة، وكنا متعصبين جدًا للمهنة لدرجة أننا لم نكن نتحدث عن شئ غير المهنة نفسها، كان العمل يحمل معه صداقة المجموعة التى تترك هامشًا صغيرًا للحيـاة الخاصة، لم تكن هناك تجمعات التحرير المؤسسـاتية، لكن فى

الخامسة مساءً دون دعوة رسمية، كل طاقم الدور كان يأخذ راحة من ضغوط اليوم، وننضم لتناول القهوة فى أى مكان من الصالة.

كان تسامرًا مفتوحًا حيث نناقش بحماس موضوعات كل قسم ونعطى اللمسات الأخيرة لطبعة الغد والذين لم يتعلموا فى تلك المراسى المتجولة والملتهبة أربع وعشرين ساعة يوميًا، أو الذين كانوا يملون من الكلام الكثير حول نفس الشئ، هذا لأنهم كانوا يريدون أو يعتقدون أنهم صحفيون، لكنهم فى الحقيقة لم يكونوا كذلك.. كانت الجريدة حينئذ ثلاثة أقسام كبيرة: أخبار، أحداث، تحقيقات، وأعمدة افتتاحية. الحمل الثقيل كان يقع على المحرر الذى كان يحمل فى نفس الوقت مفهوم الصبى وحامل الطوب.

الوقت والمهنة نفسها برهنا على أن النظام المتوتر للصحافة يجول فى الواقع فى مغزى عكسى.. أعترف لكم: أننى بعد أن كنت أسوأ دارس للاعلام بدأت مجالى كمحرر للافتتاحيات وصعدت رويدًا رويدًا وعملت كثيرًا بسلالم أقسام مختلفة، حتى وصلت لأعلى مستوى للمحرر الصحفى المتمكن، نفس الممارسة للمهنة كانت تفرض ضرورة أن تكون ثقافيًا، ونفس جو العمل كان يتكفل بتحميسى على ذلك، وكانت القراءة إدمانًا مرتبطًا بالعمل عادة ما يكون العاصميون طامعين متعجلين، فى تلك الفترة كنا كذلك وزيادة لنستمر فى فتح أبواب من الحياة لأفضل مهنة فى العالم.. كما كنا نسميها نحن أنفسنا، ألبيرتويراس كامارجو الذى كان صحفيًا دائمًا، وكان رئيس كولومبيا مرتين، لم يحصل حتى على دروس لتدعيم فكرة أن المهنة ينقصها التعليم الأكاديمى. الآن لا يقتصر الأمر فقط على الصحافة المكتوبة وإنما وصل لكل الوسائل المبتكرة والتى على وشك الابتكار، لكن فى اتساعها أخذوا من الشارع حتى الاسم المتواضع للمهنة منذ أصولها فى القرن الخامس عشر، والآن لا تسمى صحافة بل علوم الإعلام أو الإعلام الاجتماعى.. النتيجة عمومًا غير مشجعة.

الأولاد الذين يتخرجون من الأكاديميات مدهوشين، يرون الحياة أمامهم.. يبدون غير مرتبطين بالواقع وبمشكلاته الحياتية، ويضعون هدف البطولة فوق المكيال الطبيعى والمهارات الخلقية، وخاصة فوق شرطين مهمين: الإبداع والممارسة.. أغلب الخريجين يصلون للصحافة بعيوب فاضحة، وبمشكلات مع الهجاء والقواعد اللغوية، وبصعوبة لفهم النصوص بمرونة، بعضهم يُقدَر لأنهم يستطيعون قراءة مستند بالمقلوب على مكتب وزير، أو تسجيل حوار مباغت دون اخبار المتحدث، أو استخدام حوار حميمى قبل ذلك كخبر، أخطر شئ أن هذه الاعتداءات الأخلاقية تخلق مفهوم الخوف من المهنة، القائمة على الضمير والمؤسسة بفخر على تقديس المهمة مهما كان الثمن وفوق كل شئ، لا يثيرهم مبدأ أن أفضل خبر ليس هو ما يُكتب بشكل أفضل، بعضهم مدركين لعيوبهم، يشعرون بخيبة الأمل من المدرسة ولا ترتجف أصواتهم وهم يلقون اللوم على مدرسيهم الذين لم يغرسوا فيهم الفضائل التى يشتكون منها الآن، وخاصة الفضول فى الحياة، الحق أن هذا النقد يفيد فى التعليم العام، الذى يفسده اكتظاظ المدراس التى تتبع الخط المفرغ الذى يُعلم ولا يُشكل، لكن فى الحالة الخاصة للصحافة يبدو أن المهنة فضلاً عن ذلك، لم تستطع التطور بنفس سرعة أدواتها، والصحفيون تاهوا فى متاهة التكنولوجيا المنطلقة بلا سيطرة نجو المستقبل، بمعنى أن المؤسسات راهنت بقوة على المنافسة الشرسة فى جانب التحديث المادى، وتركت للمستقبل تشكيل فرقة المشاة وميكانيزمات المشاركة التى كانت تعزز الروح المعنية فى الماضى. فصالات التحرير معامل عقيمة للبحارة الفرادى، حيث يبدو من الأسهل التعامل مع الظواهر الفلكية من التعامل مع قلوب القراء.

هناك تقدم مهم حدث فى النصف الثانى من القرن وهو امكانية التعليق وابداء الرأى فى الخبر والتحقيق، وهكذا أثيرت هيئة التحرير ببيانات معلوماتية ومع ذلك لا تبدو النتائج أفضل، حيث أن المهنة لم تتعرض أبدًا لخطر مثل اليوم، فالعمل الشائن المبنى على اقتباسات مزيفة أو صحيحة

يسمح بأخطاء بريئة أو متعمدة، تزييف مؤذى أو تحريفات سامة تعطى للخبر عظمة سلاح قاتل، وآراء المصادر التى تستحق التصديق التام من شخصيات مطلعة بشكل عام أو من كبار الموظفين الذين طلبوا عدم ذكر اسمائهم، أو من مراقبين يعرفون كل شئ ولا يراهم أحد، كل ذلك يخلق نوعًا من الشكاوى التى لا عقاب لها، لكن المذنب يتمسك بحقه فى عدم اطلاع أحد على مصدره دون أن يسأل نفسه ألم يكن هو هو نفسه أداة سهلة لمصدر نقل له المعلومة كما أراد، وضبطها بالشكل الذى يناسبه أكثر فالصحفى السئ يعتقد أن مصدره هو حياته نفسها خاصة لو كان مصدرًا رسميًا ولهذا يقدسه و يتضامن معه ويحميه.. ويصل فى النهاية لإقامة علاقة تواطؤ خطيرة معه تؤدى به لاحتقار نزاهة المصدر الثانى.

لم يكن يخطر على بال أى محرر أو مصور أو حتى ساعى أن يكون معتز القط فى يوم من الأيام رئيسًا لهذا الصرح الصحفى العملاق، كيف لقزم يناطح العمالقة وينازلهم ويجلس على عرشهم ويشهر قلمه فى وجوههم الأحياء منهم أو الأموات ليقول هاأنذا؟!.. لكنه ظل قزمًا يشفق عليه البعض، ويسخر منه البعض، ويتعاطف معه البعض.

بدأ حياته محررًا برلمانيًا صغيرًا رث الملابس، غير متناسق الهندام يرتدى عوينات تشبه عوينات الممثل فؤاد المهندس، شكله العام يوحى بالرثاء أحيانًا، ويبعث على الضحك بهستيرية فى كثير من الأحيان.. ولأنه منوفى الأصل والفصل كان يعرف من أين تؤكل الكتف فواصل رحلة صعوده من البرلمان إلى رئاسة مجلس الوزراء وصار يبعث بأخبار رئيس الوزراء، وذات مرة كلفوه باجراء حوار مع رئيس الوزراء وأعاد ناجى شرف الدين صياغة الموضوع ووضع له عنوانًا فانتازيًا:

رئيس الوزراء: أنا خادم الشعب!

نال الموضوع إعجاب واستحسان رئيس الوزراء نفسه فمنحه مكافأة كبيرة واتصل برئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير مُبديًا شكره

وإعجابه.. من هنا لمع نجم معتز القط الذى كان يعانى من الفقر، ولا يملك هاتفًا محمولاً ويجلس مع عشرة محررين فى مكان ضيق وحقير، وكلما أرادوه فى الجريدة يضطرون للاتصال بابنته " بسمة " على هاتفها المحمول لكن الحياة ابتسمت له وفى أول تغييرات صحفية صار رئيسًا للتحرير وجلس على العرش!

بعد هذه المحاضرة التى ألقاها الرجل تحت عنوان متحيز " الصحافة أعظم مهنة فى الدنيا! " كره ناجى شرف الدين الصحافة ومنافقيها ومتسلقى أشجارها وقاطفى ثمارها بغير وجه حق.. وقرر ألا يواصل الدراسة لأنه شعر بأنها مجرد إضاعة للوقت وإهدار للجهد المهدر أصلاً..

كانت قدمه قد زلّت فى الفخ وأصبح عضوًا فى هيئه تحرير لجريدة حزبية تسمى "العدالة الإنسانية".. تلك التى يصدرها حزب العدالة الذى يرأسه ويرأس تحرير الجريدة أيضًا الدكتور محمد العادلى.. مقر الجريدة والحزب فى ڤيلا ضخمة بحى المهندسين.. الڤيلا تشبه القلعة الحصينة محاطة بسور ضخم وفوقه أسلاك شائكة وبوابات حديدية تعمل بطريقة إلكترونية، وكاميرات مراقبة داخلية بحيث يستطيع الدكتور محمد العادلى مراقبة المكان كله.. مداخله ومخارجه والزوار والمحررين، وحتى أفراد الأمن الذين استعان بهم وراعى أن يكونوا أشداء أقوياء مخلصين له، واشترط أن يكونوا من أبناء المحافظات والأقاليم البعيدة ووفر لهم مكانًا ينامون فيه بالطابق الثانى من الڤيلا.. والبوابات الاليكترونية لا تسمح لأحد بالدخول إلا بعد التعرف على هويته وهدفه والرجوع إلى الدكتور محمد العادلى الذى لا يفارق الڤيلا إلا بعد منتصف الليل يوميًا عائدًا لمنزله بحى الزمالك..

فوجئ ناجى بأن المكان غريب الأطوار والناس فيه كذلك ولفت نظره الحرص الزائد والحراسة المشددة والإجراءات الأمنية غير العادية، وعندما استفسر قالوا له..النظام هنا هكذا!

كان الدكتور محمد العادلى رئيس حزب العدالة رجلاً غامضًا يحيط نفسه مثل مقر حزبه وجريدته بأسلاك شائكة وأسوار شاهقة، وحراسة خاصة كما لو كان يخشى من أن يغتاله أحد أعدائه، وما أكثرهم فى الوسط السياسى والثقافى والصحفى، والرجل صفحته قاتمة سوداء وسمعته كذلك، وقد بلغت به درجة الشك والخوف والهواجس أقصى مداها حتى أنه أمر حراسه بتفتيش كل الناس الذين يأتون إلى مقر الحزب والجريدة ومن بينهم شقيقه الوحيد الذى كان يأتى بين الحين والآخر لزيارته والاطمئنان عليه لأنه يعرف أنه صاحب مرض مزمن، يسأل عن أحواله ويتجاذب معه أطراف الحديث، وبرغم جبروت محمد العادلى وشراسته وحبه للشر وحرصه على تعمد إيذاء الآخرين بشتى السبل إلا أنه كان مريضًا بالقلب والسكر والضغط، ويسير على نظام غذائى وعلاجى قاسى للغاية، لكن المثير للاستغراب أنه كان يتلقى الأموال من الخارج وتتدفق عليه كسيل عرمرم، وتتضخم ثروته وتتضاعف أرصدته فى البنوك ولا يعرف أحد مصادر هذه الأموال، ولم يسأله جنس مخلوق: من أين لك هذا يا دكتور؟!

تجاوز الرجل الخمسين بسنوات قليلة، ويحرص على ارتداء البالطو الأبيض فوق القميص والبنطلون كما لو كان يحن لحلمه القديم بأن يكون طبيبًا وأخفق فى أن يكمل دراسته للطب قبل أن يتحول رغمًا عنه إلى الصحافة والاعلام، وشاء رب المشيئة وخالق الخلائق ألا يرزقه الذرية لا بنين ولا بنات فعاش وحيدًا مع زوجته زينات التى كانت تنفر من إسمها، وتصر على أن يناديها الجميع باسم " زيزى "، وبرغم قسوته عليها وغلظته وخشونته فى التعامل معها لدرجة أنه كان يسب لها الدين، ويوبخها بألعن الشتائم وأقبح الكلمات، ظلت صابرة على فظاظته، متحملة لجنوحه وجموحه لأنها كانت تعرف أنه قادر على تجريدها من كل شئ والزج بها فى غياهب السجن إذا غضب عليها، ظلت بجواره خوفًا وطمعًا وفى أعماق قلبها تكن له الحقد الدفين.. خوفًا من لعنته وتحاشى لغضبته وطمعًا فى

جنتـه التى تتمثل فـى الثروة الهائلة التى تتضخم وتنمو مع الأيام فى أرصدته كما ينمو الجنين فى أحشاء أمه!

ظلت زينات تحلم باليوم الذى تداهمه فيه غيبوبة السـكر القاتلة أو نوبة القلب المميتة عندما ينسى الدواء كعادته، لن تذكره به هذه المرة عساها تكون نهايته المأساوية، والنهاية السعيدة لحياتها الزوجية مع شخص غير طبيعـى فـى كل تصرفاتـه وأفكاره وجنونـه.. وذات يوم أحـس أنه لا يلقى الاهتمام الذى يسـتحقه وهو رئيس حزب سياسـى ومالك صحيفة أسـبوعية وفـى طريقهـا لأن تكـون يومية، ولا أحد مـن الحكومة أو قصر الرئاسـة يعره العناية التى تليق به فافتعل حادثه اغتياله على طريق مصر إسكندرية الصحراوى ـ وأطلق الرصاص بنفسه على سيارته ليوهم الجميع بكذبته، وأملـى على الصحف والقنـوات الفضائية المصرية منهـا والعربية والأجنبية أن حياتـه فـى خطـر، وأن النظـام يبغـى التخلـص مـن معارضيـه وهو على رأسـهم بالطبـع، طار الخبر فى أرجاء المعمورة وعـرف به القاصى والدانى فى مصر المحروسـة، فأصدر الرئيس مرسـومًا رئاسـيًا بتعيينه عضوًا فى مجلس الشورى، وهـكذا يحظى الرجل بالحصانة البرلمانية، كما تضمن المرسوم الرئاسى أيضًا بأن يتم تعيين حراسة من وزارة الداخلية للرجل مثل كبـار الشـخصيات فى الدولة وبعـد أن ذاع الأمر وانتشـر وحقق الدكتور محمـد العادلـى المراد أرسـل زوجته زينـات إلى شـوكت الغطريف رئيس مجلس الشـورى الذى هو فى الوقت نفسـه رئيس المجلس الأعلى للصحافة وأميـن عام الحزب الحاكم الزيارة كان غرضها توجيه الشـكر، وتقديم فـروض الـولاء والطاعة ولو لزم الأمر التسـرية عنه وعـن رغباته فى جناحه الخصوصى بالفنـدق الفخـم القريب مـن مقر البرلمـان والمطـل على نهر النيل، ولم يكتف الدكتور محمد العادلى بهذا القدر بعد نجاته من حادث الاغتيال المشئوم المزعوم، بل أرسل برقيه شكر وعرفان وامتنان للرئيس فى ذات الوقت الذى أوفد فيه زينات لشـوكت الغطريف، ومن وقتها دأبت علـى معاودة الرجل فى جناحـه الخـاص بإصرار وإلحاح من زوجها العصامى

صاحب الحصانة والحزب والجريدة!

مقر الحزب والجريدة ڤيلا فخمة استأجرها الدكتور محمد العادلى من مذيعة شهيرة لمدة عام واحد ثم تلاعب بشروط العقد واستعان بمحامى متخصص فى التزوير وحتى اليوم مرت عشر سنوات والقضية متداولة فى المحاكم، والمذيعة أصابها اليأس من استعادة الڤيلا التى ورثتها عن والدها الذى كان رئيسًا لوزراء مصر.

داخل هذه الڤيلا الإيطالية الطراز والتصميم المعمارى يقضى ناجى شرف الدين نهاره فى العمل الصحفى بقسم الديسك حيث يتولى إعادة صياغة الموضوعات لمحررين أنصاف مواهب إن لم يكونوا معدومى المواهب على الإطلاق، وكثيرًا ما كان يستعير التشبيه اللبنانى لمن يعمل بالديسك قائلاً:

" إنه الشخص الذى يتولى غسيل الملابس الداخلية للآخرين! " فهو يجِّمل عمل غيره ويضعهم على طريق الشهرة والنجومية ويظل هو كالجندى المجهول شهيد مهنته التى تحتم عليه أن يبقى وراء الستار وفى الظل بعيدًا عن الأضواء..

فوجئ ناجى بأن رئيس التحرير الذى هو فى الوقت نفسه رئيس الحزب يأتى بأمور جهنمية ما أنزل الله بها من سلطان تخالف القانون والأخلاق، فقد نشر إعلانًا فى عدة صحف قومية يومية من بينها جريدة " الأيام " عن وظائف خالية لمئات من الشباب خريجى الجامعات والمعاهد والمؤهلات المتوسطة، وعندما توافدوا إلى المقر كان قد أصدر أوامره بتحصيل خمسة جنيهات من كل متقدم لشغل الوظيفة مع ملء عدة استمارات من بينها استمارة يوقع عليها دون أن يكتب فيها كلمة واحدة، واكتشف ناجى شرف الدين بعد ذلك أن هذه الاستمارة البيضاء مسوغات انضمام لحزب العدالة الإنسانية دون أن يعلم هؤلاء الشباب المساكين الذين جاءوا من محافظات مختلفة وهم يعانون من كابوس البطالة المزعج أنهم وقعوا فى

الفخ الذى نصبه لهم.. وفى دردشة عادية بين ناجى وشاب يدعى عبد الصبور الجبالى من محافظة المنيا ويعمل بالفعل فى هذا المكان منذ عامين عرف ناجى بقصة الفتاة " زهرة " التى كانت تعمل سكرتيرة وكاتمة أسرار للدكتور محمد العادلى، وشاء حظها الأغبر أن تقضى زهرة شبابها وأجمل سنوات عمرها خلف الأسوار، تم القبض عليها متلبسة بحيازة مخدرات وحكم عليها بالسجن عشر سنوات ومات والدها حسرة عليها.

ذات ليلة شتوية كالحة جاءت مكالمة هاتفية سرية من لندن عاصمة الضباب للدكتور محمد العادلى قال المتحدث على الطرف الآخر كلمتين فقط: أرسل المندوب!

وبالفعل أرسل المخدرات فى حقيبة يد مع " زهرة " بقيمة مليون دولار إلى شخص ما فى فندق الهيلتون بوسط القاهرة.

وهناك وقعت الواقعة، تم القبض عليها ورفضت أن تقول الحقيقة لرجال الشرطة على أمل أن يتدخل الدكتور بنفوذه وحصانته وينتشلها من الضياع، ولم يكذب الرجل ظنونها جاءها مهرولاً وأوهمها بأنه سيخلصها كما تخلص الشعرة من العجين لكن بشرط ألا تذكر اسمه فى القضية على الإطلاق وأرسل لأمها عشرة آلاف جنيه ذرًا للرماد فى العيون.

وظلت زهرة تكتم الحقيقة المرة عن الجميع، وتنتظر الفرج والإفراج على يد الدكتور محمد العادلى حتى نطق القاضى بالحكم النهائى فى القضية، وأفاقت المسكينة على الكارثة.. السجن عشر سنوات مع الشغل والنفاذ.

لم يصدق ناجى شرف الدين أذنيه وبدا كما لو كان طفلاً ينصت لإحدى حواديت ومغامرات ألف ليلة وليلة الخرافية أو يستمع لواحدة من الأساطير الإغريقية.

لكنها كانت الحقيقة بوجهها المشرق الذى يبدو وقحًا فى كثير من الأحيان لكنها الحقيقة ولا شئ غيرها.

وبرغم أن الأجواء فى المكان ملبدة بالغيوم، وتعلوها سحب الضباب، وتفوح منها رائحة الشبهات النفاذة إلا أن ناجى شارك فى اجتماع حضره أكثر من ٢٠٠ محرر وموظف صاروا دون علم منهم ولا رغبة أعضاء فى حزب العدالة الإنسانية، انبرى الرجل الأصلع النحيل الشاحب الذى يضغط على نهايات الحروف مقلدًا الرئيس السادات وهو ما يزال بالبالطو الأبيض الذى يعتبره داءه ودواءه كما لو كان ملاكًا طاهرًا نقيًا تقيًا.. بدأ " الشيطان يعظ " فقال:

هذه الكلمات ليست شأنا يخص الجماعة الصحفية فى مصر، بل شأن عام يخص المواطنين كافة، حكاما ومحكومين، باعتبار أن الجميع هم المكون الحقيقى للرأى العام، الذى يتوجه إليه الكتاب والمفكرون والصحفيون وأصحاب الرأى والإعلاميون على تنوع معتقداتهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية.. فالقراء هم وحدهم الذين يكتبون شهادة نجاح أى مطبوعة صحفية بالإقبال عليها فيتحقق لها الاستمرار والازدهار.. والقراء هم وحدهم الذين يكتبون شهادة وفاة أى صحيفة بالابتعاد عنها، لأنها تخون أمانة القلم، وتنقلب على المهنة وآدابها وتقاليدها التى توارثتها الأجيال عن الرواد الأوائل عبر سنين طويلة.

وما أقوله مجرد لفت الأنظار للمخاطر التى تواجه الصحافة المصرية.. اليوم، وفى مستقبل الأيام.. من سعى بعض رجال الأعمال، الذين لا صلة لهم بالصحافة من قريب أو بعيد بهدف إحكام السيطرة على مقدرات الصحافة والصحفيين.. وما نراه من محاولات رأس المال من تملك بعض الصحف تشبهًا بأخطبوط الاعلام العالمى مردوخ، من تملك بعض الصحف، وكثير من القنوات الفضائية والعبث بسياستها التحريرية، والنيل من رسالتها فى التنوير، والتثقيف، وقد لا يعرف البعض من هو ذلك المردوخ الرهيب، هو روبرت مردوخ ملياردير وناشر استرالى المولد، أمريكى الجنسية، وهو من أكثر الرجال تأثيرًا فى الرأى العام العالمى يوجهه وفق

أغراضه ومخططاته، كما قالت عنه صحيفة كريستيان ساينس مونيتور الشهيرة، فى تقرير مهم عن أكثر الرجال نفوذًا وتأثيرًا على الناس، فى هذه الأيام، أرجعت الصحيفة نفوذه وسطوته لامتلاكه لعدد كبير من وسائل الاعلام العالمية المرئية والمقروءة، يسخرها لخدمة أغراضه، مما جعل الإعلاميين المحترمين يقدمون استقالاتهم فور شرائه للصحف التى يعملون فيها، ويستطرد التقرير: بنظرة سريعة على ممتلكاته الإعلامية تجعل الناس يتساءلون إن كان مجرد واجهة لمخطط صهيونى عالمى تمت صناعته ببراعة منذ سبعينيات القرن الماضى، ويتساءلون أيضا: كيف تحققت له هذه الأموال الطائلة، وما هى مشروعية جمعها حتى امتدت إمبراطوريته الإعلامية إلى أنحاء كثيرة من العالم من إستراليا إلى بريطانيا إلى نيويورك وإلى الصين فأصبح الملك غير المتوج للاعلام الدولى عابر القارات والمحيطات والذى يسعى لتخريب العقول، وهدم القيم النظيفة والداعى إلى كل ما هو فاضح ومشين.

إن إحتكار فرد أو مجموعة أفراد، لا صلة لهم بالصحافة يقلق الشعوب، فتملك فرد معظم صحف العالم ظاهرة احتكار سياسى، حيث يعمل الفرد أو مجموعة من الأفراد على تسخير ما تحت أيديهم، وهو كثير بما يخدم أغراضهم، كما أن دخول المؤسسات الصحفية إلى مجال المنافسة بين المستثمرين فى أسواق المال يثير قضية مهمة: ما علاقة رأس المال بالصحافة إلى جانب انعكاسات هذا التوجه على حقوق الصحفيين والإداريين والعمال الذين يعملون فى هذه المؤسسات؟!.. وفى نفس الوقت يثير قضية لا تقل خطرًا على سابقتها وهى: حقوق القارئ فى أن يتلقى إعلامًا نظيفًا يقوم على انتاجه وصناعته وتجويده صحفيون محترمون.. وفى ظل تنامى هذه الاحتكارات تحجب عن القراء المعلومات والحق فى المعرفة، وهو أحد الحقوق الأساسية للإنسان، والتى تقوم الحكومات وتنشأ لكفالة وتنظيم حق ممارستها، كما قال بذلك منصور حسن وزير الاعلام فى عهد الرئيس السادات أواخر عام ١٩٧٨، وسواء تملك فرد أو مجموعة أفراد، أو

أنظمـة الحكم فالجميـع يدعى انهم يعملون على حمايـة المصلحة العامة، وباسم هذه المصلحة تحجب بعض المعلومات بدعوى أنها غير حقيقية، وأن فى إذاعتها ونشـرها إضـرار بالصالح العام، ومن هـذه النقطة تبدأ محاولة السـيطرة على الاعلام فى خطوات متدرجة تنتهى إلى سـيطرة كاملة على المعلومـات التى تقدم للمواطنين عن طريق تملك الصحف ووسـائل الاعلام الأخـرى وتوجيـه مـا تذيعه، فـلا تمنع فحسـب المعلومات غيـر الحقيقية، بـل تقـدم للمواطن معلومات تعلم أنهـا غير حقيقية، مدعيـة أنها تعمل على حمايـة مصالح الوطن العليـا، وهـكذا تنتهى الرغبة فى حماية المواطن من المعلومات الضارة، إلى مصادرة كل حق له فى أن يعرف.. وتكمن خطورة هـذا الحجب فى أنه يحرم المواطن مـن خبرات كثيرة.. ومن معرفة حقائق الأمـور داخل الوطن وخارجـه.. انهم بهذا التصرف اللئيم يتشـبهون بفرعون موسـى الـذى قال لقومه: " لا أريكم إلا مـا أرى "، وقد ينجح القائمون على تملك هذه الصحف فى تكوين رأى عام مؤيد لهم فى كثير من تصرفاتهم الخاطئة.

ومـا دمنا نتحدث عن مسـاوئ احتكار الفـرد أو مجموعة أفراد أو النظم الحاكمة للمؤسسـات الصحفية، ووسـائل الإعلام الأخرى.. أذكر دراسة نشرتها منذ عشرين سنة، فى مجلة " الصحفيون " وكانت تصدر شهريًا عن نقابتنا الموقرة، وهى مجلة متخصصة فى الشـئون الصحفية وقضايا الرأى العام، وكان نقيب الصحفيين هو رئيس تحريرها.

والمثيـر للدهشـة أن القضايـا التـى عرضناها فـى هذه الدراسـة، تحت عنـوان: "الصحافـة المصرية بيـن المهنة والمحنة " خمس قضايا أساسـية، حذرنـا فيهـا من المخاطـر التى قد تؤدى إلـى انصراف القـراء عنها، وهى نفـس القضايا المثـارة على السـاحة الصحفية والإعلامية فـى هذه الأيام، وكـأن الزمـن قـد توقـف، وأصبحنـا ندور فى حلقـة مفرغـة لا أول لها ولا آخر، أو محلك سر بل إلى الخلف در، وأصبحنا أسرى نفس السلبيات التى

حذرت من استمرارها منذ عشرين سنة! ولم نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، نتحدث عن غيبة الانتماء المهنى، وتجاوزات الصحف الدينية، وأخطار الفتنة الطائفية، وأجور الصحفيين المتدنية التى دفعت كثيرًا منهم للوقوف على أبواب الصحف الخاصة والجرى وراء الفضائيات لعرض إنتاجهم من أخبار وتحقيقات صحفية بصورة غير لائقة، ولكن ما الذى رماهم إلى المر والبهدلة وقلة القيمة هو الأمَرْ منه، هم معذورون فالدخل الشهرى الذى يتقاضونه من صحفهم التى يعملون بها لا يوفر لهم ولأسرهم الحد الأدنى للحياة اللائقة الكريمة.. وامتدت مناقشات الكتاب والصحفيين فى مجلة " الصحفيون " إلى علاقة الصحفى بالإعلان.. وعلاقة رأس المال بالصحافة.. والصحافة بين الالتزام الحزبى وقواعد المهنة، وتقاليد الصحافة وترسانة القوانين المقيدة للحريات، والتساهل المعيب عند القيد بجدول الصحفيين، الذى أصبح مفتوحًا على " البهلى أو البحرى ".. ، نتج عنه تكدس الجدول بأعداد هائلة من الأعضاء، وأصبح كثير منهم لا يجدون فرصة عمل لائقة.. وقد ساهم فى هذا التكدس قيام المؤسسات الصحفية بسيادة الفكر القبلى بين رؤساء مجالس الإدارات وصحفيى كل مؤسسة، والحرص على أن يكون النقيب وأعضاء المجلس من بين ابنائها.. دون الاهتمام باختيار الأفضل.. حيث قامت المؤسسات الصحفية، بمنح بعض العاملين بها من غير الصحفيين، من إداريين وموظفى أمن وسكرتارية شهادات تتيح لهم القيد فى جدول النقابة دون استحقاق قانونى وعملى.. وهذا التساهل المعيب يتحمله الصحفيون أنفسهم، فقد أخطأوا فى حق مهنتهم، مما أتاح الفرصة للأسف وفق القانون الحالى، لتسلل عدد كبير ممن لا مهنة له إلى عضوية النقابة.

وأذكر أن القيد فى جدول النقابة قبل صدور القانون الحالى، كان يمر بإجراءات تحفظ للمهنة هيبتها وكرامتها وقد مررت بهذه الإجراءات عام ١٩٦٥، عندما تقدمت للقيد بجدول المشتغلين، كانت اللجنة برئاسة عنصر قضائى وكان المتقدم يحلف اليمين أمام لجنة برئاسة أحد رؤساء

محكمة استئناف القاهرة وعضوية أحد رؤساء النيابة العامة، وممثل للنقابة وممثل لهيئة الاستعلامات، ويمنح العضوية بعد أن يكون قد اجتاز متطلبات مهنة الصحافة من تنوع ثقافى، وعلى وعى بقضايا الوطن والأمة العربية والإسلامية مع إلمام بما يجرى فى الداخل والخارج من أحداث.. ورؤيته لها..

توقف الرجل لحظات التقط أنفاسه، وتجرع كوب ماء ثم قال:

لا شك أن حلف اليمين أمام الهيئة الموقرة لجنة القيد، يلقى على الصحفى مسئوليات كبيرة تجاه قرائه، ويشعره بجلال القضاء وعدله، والحرص على كرامته بين مواطنيه، وإعلاء شأن الصحيفة التى يعمل بها.. لقد كان العنصر القضائى يمثل الضمان الوحيد لصحة الشهادات التى يقدمها طالب القيد، وبعد صدور القانون الحالى عام ١٩٧٠، لم يعد للعنصر القضائى وجود بدعوى أن النقابة سيدة جدولها وقرارها، وأنها ليست فى حاجة إلى عنصر قضائى، وأصبحت نقابة الصحفيين أول من ابتدع هذا الشعار المعيب، وسار على خطاها فيما بعد مجلس الشعب الذى أطلق صيحته المدوية: مجلس الشعب سيد قراره، عند البت فى صحة انتخاب الأعضاء أو عند رفع الحصانة البرلمانية عن أحد أعضائه.. وعود على بدء إلى الدراسة التى نشرناها فى مجلة " الصحفيين ".. وكأننا كنا نستشرف المستقبل، فقد حددنا خمسة مخاطر يجب تداركها، والتصدى لها للحفاظ على أنبل رسالة لأعظم مهنة:

قيام الحكومات بحجب المعلومات عن الصحف، ومنع الصحفيين من الوصول إليها بهدف إخفاء الحقيقة عن الرأى العام، أو ما يسمى بالتعتيم الاعلامى إزاء حدث مهم، أو مجموعة أحداث.

التفسير الخاطئ من بعض الصحفيين لمفهوم حرية الصحافة، إذ يعتبرها البعض أنها حريتهم وحدهم دون سائر خلق الله إلى الدرجة التى تحولت فيها خلافات الصحفيين الشخصية، بينهم وبين بعضهم أو مع بعض

المواطنين إلى قضايا رأى عام.. لذلك نرى البعض يجيشون أنفسهم بكل أسلحة الهجوم على الآخر.. من اتهام بالعمالة ، وتنابذ بالألقاب وبألفاظ لا تليق بحملة الأقلام حماة الرأى والرأى الآخر.

تحول بعض الصحفيين إلى رقباء يتولون حذف أو تشويه الأخبار والموضوعات وقضايا الرأى لصالح مالك الصحيفة أو لصالح السلطة سواء طلب ذلك منهم أو قاموا بهذا العمل الأثيم نفاقًا ورياءًا وتقربًا وزلفى أو خوفًا وطمعًا!

قيام الصحافة بإصدار أحكام الإدانة فى القضاء قبل أن يقول كلمته الفاصلة بحكم نهائى وبات.

***

obeikandl.com

(٥٠)

" عجبت لمن ضاع حقه.. ولا يخرج على الناس شاهرًا سيفه! "

إندلعت ثورة عارمة فى مؤسسة الأيام الصحفية أطلق عليها جنرالات القلم فى بلاط صاحبة الجلالة.. " ثورة السعاة " تيمنًا بثورة الجياع.. تمردوا ورفضوا تنفيذ أوامر رؤسائهم بعد أن ضجوا وملوا ويئسوا من طول الانتظار لقرار التعيين الذى لم ولن يأتى، تعاهدوا على الإضراب والاحتجاج والصراخ حتى يصل صوتهم إلى أعلى عليين، رفعوا شعارًا تعلموه من المدرسة الابتدائية قبل أن يغادروا فصول التعليم إلى غير رجعة: الاتحاد قوة!

تركوا المكاتب بلا نظافة تحيطها الأوساخ من كل صوب وحدب عسى أن يشعر الكبار فى المؤسسة أن هؤلاء السعادة الصغار أصحاب حق وهم بشر يستحقون الحياة، لا صراصير تستحق السحل بالنعال.. كان زعيمهم المتوج وثائرهم الأكبر سامى الأزعر شاب نحيل الجسم ضئيل الحجم دقيق الملامح قصير القامة لا يزيد طوله عن ١٥٠سم لكنه قوى الشخصية يتعامل مع الجميع بثقة كأنه طويل عملاق ضخم، هو منوفى الأصل والفصل وقد غير محل إقامته فى بطاقته الشخصية، وجعلها شبرا بدلاً من المنوفية حتى لا يعايره أحد بأنه منوفى ينتمى إلى محافظة سيئة السمعة.. نجح سامى الأزعر هذا الساعى الخصوصى لميرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون " فى أن يستفز ويثير غضب أكثر من عشرين من السعاة الذين قضوا فى خدمة المؤسسة حوالى سبع سنوات دون تعيين يؤمن مستقبلهم، وكانت مؤسسة الأيام تعاملهم بالأجر اليومى الذى لا يكفيهم لتناول الخبز الحاف.

اعتصموا جميعا أمام المبنى الرئيسى للمؤسسة حيث يستطيع رئيس مجلس الإدارة رؤيتهم لو كلف خاطره وأطل من نافذته، وكتبت صحف

المعارضة وسجلت معهم بعض الفضائيات المصرية والعربية وفى المقدمة قناة " الجريئة " المثيرة للجدل والغضب، ولما يئسوا من رحمة قيادات المؤسسة لجأوا إلى سلم النقابة مطالبين بحقهم فى التعيين أسوة بزملائهم فى المؤسسات والهيئات والشركات الأخرى!

وجاء الفرج بعد أسبوع الغضب استجاب رئيس مجلس الإدارة وأصدر أوامره بتحرير عقود سنوية لهولاء السعادة، فرحوا وهللوا وظنوا أنهم حققوا نصرًا مؤزرا لكنهم اكتشفوا أنها كانت خدعة كبيرة، وأن العقد مجرد فخ نصبته لهم المؤسسة، لأنه لا يمنحهم مزايا جديدة، وأجورهم كما هى لن تزيد جنيهًا واحدًا فلم يكن أمامهم إلا رفض صيغة التعاقد وأصروا على التعيين قبل العودة لممارسة عملهم مرة أخرى، وعندما علم رئيس مجلس الإدارة غضب كثيرًا ووصفهم بالحثالة، وهدد بالاستغناء عنهم والاستعانة بشركة نظافة قطاع خاص تحل محلهم ما لم يعودوا لأداء عملهم خلال ٢٤ ساعة، أحس السعاة بالخطر الداهم يهدد مصيرهم ووجودهم فى المؤسسة، وأنهم صاروا على كف عفريت فرضخوا وعادوا لعملهم فى إصدارات المؤسسة المختلفة مكسورى الجناح على أمل أن ينفذ رئيس مجلس الإدارة وعده الهزيل بتعيين من يثبت كفاءته وولاءه للمؤسسة والصبر عليها حتى تمنحه شرف البقاء الأبدى بها فى الوقت المناسب.

ظهرت لسامى الأزعر كرامات تجسدت فى سلطته القوية على زملائه وطاعتهم العمياء له برغم أن مواصفاته الجسدية لا تؤهله أبدًا للزعامة، وإن كان قد قدم التاريخ لنا زعامات من قصار القامة.. والقائمة طويلة يتصدرهم الزعيم لألمانى ناظر مدرسة النازية أدولف هتلر!

أمرهم سامى الأزعر أن يعودوا إلى أماكنهم فعادوا.. مثلما يأمر الجنرال جنوده أن ينسحبوا من ميدان المعركة بعد أن أوشكوا على الهزيمة ليخرجوا منها بأقل الخسائر الممكنة، لم يلوموه أو يسألوه.. لماذا حرضتنا على التمرد؟! ولماذا تأمرنا الآن بالتراجع والاستسلام؟!

الغريب فى الأمر أن محررًا إنضم لصفوف السعاة الغاضبين الثائرين، فقد شعر هذا المحرر بالظلم والغبن، وله قصة طريفة جدًا، دفعته لأن يكون بينهم بعد أن استأذن سامى الأزعر بالطبع الذى أذن له بشرط ألا يخرج عن طوعه ولا يشذ عن الجماعة قائلاً له بحزم وحسم:

_ لا يغرنك أنك محرر صحفى ونحن سعاة، فالمجموعة لا بد لها من قائد تسمع له ولا يشق أحد صفها، صحيح الأمر شورى لكن القيادة ضرورة.

أبدى المحرر موافقته راضيًا مرضيًا.

هذا المحرر ظل يعمل بمجلة " الحوادث " التى تصدر عن مؤسسة " الأيام " ويرأس تحريرها مسعود صلاح حوالى ست سنوات، وذات مرة أعد موضوعًا صحفيًا عن " فتيات الليل والبغاء فى مصر "، وعندما عجز عن توفير الصور اللازمة للنشر بسبب رفض الفتيات نشر صورهن استعان بمجموعة صور عشوائية لعدد من الفتيات من على شبكة الانترنت، ولسوء حظه جاء أهالى البنات إلى مقر المؤسسة فى اليوم التالى لنشر الموضوع وطرح المجلة فى الأسواق..وقد اعتبروا نشر صور بناتهم مصيبة كبرى، وهددوا باللجوء للقضاء إنقاذا لبناتهم من العار والفضيحة، وأكدوا أن بناتهم فاضلات عفيفات طاهرات لا علاقة لهن من قريب أو بعيد بالليل والبغاء.

فكر مسعود صلاح رئيس التحرير طويلاً.. كيف يمكن له الخروج من هذا المأزق الصحفى والخطأ المهنى الفادح؟!.. مصداقيته ومصداقية مجلته اهتزت بصورة غير مسبوقة أمام الرأى العام، وقيادات المؤسسة وعلى شاشات الفضائيات التى ترصد الفضائح يوميًا وتبحث عن الإثارة وإن لم تجدها تخترعها.

بعد تأمل عميق وتفكير دقيق إهتدى مسعود صلاح إلى حل مثالى ينقذه من هذه الكارثة، وفى الوقت نفسه يرضى عائلات البنات ويهدئ ثورتهم فما كان منه إلا أن كتب مقاله الإفتتاحى فى مجلة الحوادث تحت عنوان " المزور وبنات الليل.. الحقيقة الكاملة! " ونشر مع المقال صورة كبيرة

للمحرر المتهم بتزوير الصور على غلاف المجلة ، ولم يكتف بفضحه والتشهير به بل قرر طرده من المجلة والمؤسسة..وأعلن ذلك فى مقاله بصراحة يحسد عليها ، ولم يشفع للفتى المتهم بالتزوير أنه درس الصحافة والاعلام، وعمل بمجلة " الحوادث " حوالى ست سنوات دون عائد يذكر سواء كان ماديًا أو معنويًا ، وكان كل أمله أن يحظى بالتعيين، ويصبح عضوا فى نقابة الصحفيين ليضمن مستقبله المهنى ثم يفكر فى الحب والزواج مثل كل زملائه الذين سبقوه فى العمل بالمؤسسة.

عاد السعاة إلى مواقع خدمتهم، بينما توجه المحرر إياه إلى مكتب رئيسه متوسلاً إليه أن يعيده إلى عمله فلم يقبل.. لجأ المحرر إلى وساطة بعض الصحفيين وهو يعرف أن مسعود صلاح يقدرهم ولهم فى قلبه مكانه متميزة وحب لا ينضب، وتحت الضغوط والإلحاح وحتى لا يضيع مستقبل الفتى هباء، وافق مسعود صلاح على إعادته لعمله بشرط أن يعمل ساعيًا ينظف مكاتب زملائه فى المجلة ويقدم لهم الشاى والقهوة لمدة عام كامل! بكى المحرر بالدموع الحارة واستجدى رئيس التحرير أن يخفف عنه تلك العقوبة القاسية، فقرر الرجل أن تكون سته شهور فقط، ورآها عقوبة عادلة فى حين رآها المحرر المتهم بالتزوير والحماقة عقبة ظالمة لابد من تجاوزها ، وعادت الأمور إلى نصابها بعد فترة من الزمن وانتهى الأمر!

فى هذه الأثناء كان ناجى شرف الدين يتابع من خلال قراءاته حكاية أخرى أكثر إثارة وطرافة وجاذبية من حكاية السعاة الذين يقودهم قصير القامة المنوفى الطموح الجرئ سامى الأزعر والمحرر الغبى الأحمق إياه.. كان يتابع حدوته رجل والده كان مولعًا بالثقافة ، وبارعًا فى الجدل والحوار وتمنى أن يصبح ابنه الذى يتسم بالذكاء والفطنة ، رجل دين ، وامتثل الفتى روبرت مالتوس لرغبة الأب ، وصار كذلك لفترة ، لكنه كان شغوفًا بالفلسفة والاقتصاد ، ولذلك ترك الكهنوت ، وصار أستاذا للاقتصاد فى الجامعة البريطانية حدث ذلك نهاية القرن الثامن عشر.

وكان مالتوس محبا للمرح ويؤثر البهجة ولم يقطب جبينه إلا لماما ، خاصة عندما تؤرقه مشكلات زمنه وأفضت به دراساته المستفيضة ، وتأملاته العميقة إلى إطلاق إنذارات احتمالات المجاعة القادمة ، وأكد أن السكان يتزايد عددهم بمعدل أكبر من زيادة الموارد التى يقتاتون بها ، وحذر من أن الأوبئة والحروب والكوارث الطبيعية هى وحدها القادرة على تقليص عدد السكان.

وعندما نشر مالتوس رؤيته القاتمة هذه تسابقت الصحف السيارة لرجمه بسيل أحبارها ، ورشقه كبار الشعراء بقصائد الهجاء والسخرية ، وقال شاعر مرموق هو كوليريدج مبدع " الملاح القديم ".. إنه لأمر محزن أن يصغى حكماء بريطانيا وحكامها لما يقوله مالتوس، وكأن المطلوب اسكاته، وتحديد إقامته الفكرية.

وكان المفكرون والسياسيون فى ذلك الزمن يرون أن زيادة السكان نعمة لا نقمة ، ويمنون النفس بالفردوس الأرضى المنشود ، ذلك أن الرومانسية الفكرية كانت تسدل ستائرها الزاهية ألوانها عليهم، وما أن كاد مالتوس يعصف برومانسية أحلام يقظتهم، حتى انقلبوا عليه، لكن كان من حسن حظه وحظهم أن انذاراته لم تتحقق، برغم أن منطقه كان صائبا فقد انطلقت الثورة الصناعية ، وتجلت التكنولوجيا وتقدم الطب.. وأفلت البشر من براثن الموت جوعًا..

غير أن رؤية مالتوس لم تهبط من عرشها ، وظلت تراوغ وتنتظر لحظة انفجار حممها ، وربما كان هذا ما بدت انذاراته منذ نحو ثلاث سنوات ، فقد استبد الفزع بالدنيا ذات صباح من غلاء أسعار المواد الغذائية ، واندلعت مظاهرات صاخبة فى عواصم شتى، وترنحت حكومتا هايتى والسنغال وصرخت صحيفة وول ستريت الأمريكية فى صفحتها الأولى وهى تحذر من تجدد مخاوف مالتوس.

وكانت جماهير الهند قد بدأت الاحتجاج مبكرًا ، وأطاحت بحزب

يمينى متشدد كان يرفع شعار الهند المشرقة، لكن الفلاحين لم يشعروا بأى إشراق فى حياتهم ولذلك صوتوا لحزب المؤتمر بزعامة سونيا غاندى، واهتم رئيس الوزراء بتحسين أحوال الفلاحين، وزيادة ميزانية الزراعة، وكانت الهند قد تمكنت إبان الثورة الخضراء الأولى فى عقد الستينيات من تحقيق طفرة زراعية، وهى سياسة سعت بلدان أخرى لبلوغ أهدافها، فانخفضت أسعار المواد الغذائية.

وعندئذ غيرت الحكومات مسار اهتمامها، وأهملت الفلاحين والزراعة طوال ثلاثة عقود.. حتى صدمها ارتفاع الأسعار، وتحذيرات من أن زمن المواد الغذائية الرخيصة قد ولى وانتهى إلى غير رجعة.

ولم يعد ممكنا الإفلات من هواجس مالتوس، وحتى يمكن ذلك لابد من العودة إلى الأرض الزراعية، وبدء ثورة خضراء جديدة.

***

obeikandi.com

(٥١)

" لا تنتقم.. إجلس على حافة النهر وانتظر.. وذات يوم سوف يأتيك الموج حاملاً معه جثة عدوك! "

يحرص معتز القط رئيس تحرير جريدة الأيام كل الحرص على أن يحج كل عام ولا يترك ركعة من صلاة سواء كانت فرضًا أو سنة إلا ويؤديها على أكمل وجه، ويهتم بشدة بمقالاته التى ينافق فيها السلطة، ويتزلف للرئيس وبطانته، ويلعن الجهاد ضد الفنانات المحجبات، ويطالبهن بنزع الحجاب، ويكفيهن برقع الحياء، ويشجع عودتهن لإرتداء المايوه، وهو شخصية تجمع كثير من المتناقضات، فهو طيب شرير.. جميل قبيح.. مجنون عاقل.. عنيف حنون شرس هادئ ثائر كبركان نائم تحت الرماد، وكثيرًا ما أكد للمقربين منه أن رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير السابق لمؤسسة الأيام لم تنته علاقته بالسبق الصحفى والشارع والمؤتمرات السياسية، والتصريحات النارية الخاصة.. الرجل لاشك مختلف تمامًا عن القيادات الصحفية " التاريخية " التى خرجت من بلاط صاحبة الجلالة قبل سنوات بعد خدمة طويلة جدًا إلى جوار القيادة العليا فى قمة الهرم الصحفى.

الرجل أسس صحيفته اليومية الخاصة، ومازال يكتب عموده اليومى فى جريدة " الأيام " ليس هذا فحسب بل إن الصحفيين سيعثرون عليه بسهولة فى المنتديات الكبرى حيث المعلومة والمصادر المهمة أو عبر الهاتف بحثًا عن رأيه فى قضية أو كضيف لبرنامج فضائى مثير للجدل والصخب من البرامج التى تملأ الشاشات والفضائيات ليلاً ويسمونها " التوك شو " فى المقابل ما تزال قصص وذكريات الرجل الكبير السابق فى الهيمنة على المؤسسة على مدار ربع قرن من الزمان ماثلة فى الأذهان داخل المبنى الصحفى الضخم بشارع الصحافة، وهو المقر الجديد لمؤسسة الأيام للنشر

والصحافة، الصدفة وحدها قادت معتز القط إلى عرش الرجل السابق ليكون خليفته فى حكم المؤسسة، والهيمنة على مقاليدها ومقدراتها.

لم يسع القط للدخول ولم يغامر باختراق المجهول، ولم يفكر طويلاً فى حسابات المكسب والخسارة لتصوير المكتب الذى آل إليه بملحقه " الچاكوزى " الشهير، وهل هو حقيقى كما تردد.. أم مجرد شائعة أطلقها أعداؤه، كما أكد الرجل بنفسه أكثر من مرة.

فى الطابق التاسع من مؤسسة الأيام يوجد نصف المكتب الفخم لرئيس المؤسسة السابق، وهو عبارة عن إستراحة ضخمة، أما النصف الآخر فهو فى الدور الثامن حيث كان المكتب الرسمى للكاتب الصحفى الذى تبوأ رئاسة المؤسسة لعقدين ونصف من الزمان.

الاستراحة التى تجول فيها معتز القط فيها مكتب متوسط المساحة كان مخصصًا لطاقم السكرتارية الخاص به، وتشغله حاليًا سكرتيرة معتز القط، وهذا المكتب مفتوح على مصراعيه الآن بعد أن عصفت السياسة والصحافة برئيس التحرير السابق.

الغريب فى الأمر لأن مكتب معتز القط يعد جزءا من مملكة الرجل السابق، ومفتوح على بهو واسع تتجاوز مساحته المائة متر وبه صالة استقبال حديثة تنتهى بسلم حلزونى يربط الاستراحة بالمكتب فى الطابق الثامن.

أما الجهة الأخرى للإستقبال فهى مرتبطة بغرفة نوم كبيرة ورومانسية بألوان هادئة بدرجات اللون الأزرق الناعم..واللافت للنظر فى الغرفة أنها تحتوى على سرير نوم فسيح مريح حريرى الفراش وكرسى فوتيه، والكوميدون المجاور للباب تعلوه ثلاثة أجهزة تليفزيون.

وحجرة النوم هذه يربطها باب داخلى بحمام متسع تتجاوز مساحته الخمسين مترًا، وما أن فتح معتز القط الباب حتى وقعت عينه على الچاكوزى السرى الشهير، ولكى يتأكد من أنه حقيقى وليس وهمًا أو دربًا من خيال اقترب منه وطلب من كبير مصورى المؤسسة فاروق علم

الديـن أن يلتقط له مجموعة من الصور التذكارية للتاريخ فى هذا المكان الذى لا مثيل له فى كل المؤسسات الصحفية على أرض المحروسة!

قال مازحًا :

ـ اسمع يا فاروق هذه الصور ليست للنشر.

ولأن معلومـات معتز القط الأولية فى عالـم الحمامات لم تنفعه فى تقدير قيمة وفخامة " چاكوزى " سـلفه قياسـا بغيره.. تسـاءل : هل هناك إرشادات معينـة قبل الإسـتحمام فيـه ، وما الوقت المناسـب للمسـاج؟! وهـل كتابة العمـود الصحفى وعمقه ودقتـه تكون مختلفة بعد الجاكوزى عما كانت عليه من قبل؟!

فى هذه الأثناء كان ناجى شرف الدين يسعى جاهدًا أن يثبت أقدامه فى صحيفـة حزب العدالة الإنسـانية حتـى يضمن الحصول علـى العائد المادى المجزى برغم كل المخاطر والمطبات التى حاصرته.

وقد ظن ناجى شـرف الدين أن علاقته توثقت عراها مع الدكتور محمد العادلـى صاحـب الجريدة ورئيس الحـزب بعد أن إكتشـف الرجل موهبته الصحفيـة المتفـردة ، ولكـن العادلـى طلـب من محـررى الجريـدة إعداد موضوع صحفى عن أبناء الرؤساء فى الوطن العربى ، وكيف يرثون عروش الأبـاء ، وتعرض فيه بسـوء لنجلى رئيس الجمهورية ، ودلـل على أنهما جمعا ثروة هائلة وغير مشروعة من وراء وجود والدهما فى سدة الرئاسة ، وكتبوا فى الموضوع بصراحة أنهما لا يصلحان للحكم والرئاسة والسياسة ووضع الدكتور محمد العادلى اسم ناجى شرف الدين على هذا التحقيق الصحفى أثنـاء وجـود ناجى شـرف الديـن فى أجـازة لزيـارة والدته فى قريتـه النائية بمحافظة الغربية.

وتوالت المفاجآت على رأس ناجى شـرف الدين بعد نشر الموضوع ، فقد فوجـئ دون جريمـة إرتكبهـا بأكثر من جهة أمنية تسـتدعيه لسـؤاله ، ثم كانـت المفاجـأة المدوية التـى زلزلت كيانـه.. مفاجأة لم يكـن يتوقعها

علـى الاطلاق حيث رفع نجلا الرئيس قضية ضده بصفته محرر الموضوع، وكذلـك ضـد الدكتور محمد العادلـى بصفته رئيس التحريـر، ولم يعدم الدكتور العادلى الوسـيلة للخروج من تهمة السـب والقذف والاسـاءة لهما.. نجـا العادلى بسـهولة بنفوذه وألاعيبـه وحصانته البرلمانيـة كرئيس حزب معـارض وعضـو فـى مجلس الشـورى وصدر الحكـم ضد ناجـى بالحبس لمـدة عـام، وتم القبـض عليه بالفعـل، واقتادوه للسـجن لتنفيـذ الحكـم، ولـم يكن ناجى وحده ضحية جرائم النشـر، فقد صـدرت أحكام عديدة بحبس الصحفيين، ولم يكن أمام نقيب الصحفيين تحت ضغط وإلحاح من جموع الصحفيين أعضاء النقابة إلا أن يتقدم بمذكرة إلى رئيس الجمهورية يلتمس تدخل الرئيس لمنع حبس الصحفيين فى جرائم النشر بدعوى حماية الحرية التى منحها الرئيس للصحافة والاعلام طوال فترة حكمه المديدة.

وكعـادة الرئيـس فـى مثل هـذه الحـالات إسـتجاب لهـذا المطلب الإنسـانى الجماهيرى للاعلاميين والصحفيين، وأصدر مرسـومًا جمهوريا يقضى بالافراج عن الصحفيين المحبوسين على ذمة قضايا النشر، وعدم جواز حبس أى صحفى فى قضية نشر، ويمكن الاكتفاء فقط بالغرامة المالية!

***

(٥٢)

" جميعنا سجناء.. بعضنا فى سجون ذات نوافذ.. والبعض الآخر فى سجون بلا نوافذ!"

احتار ناجى شرف الدين كثيرًا.. لم يعرف لماذا اختارته تلك المرأة دون غيره لتبوح له بحكاياتها، جاءت تلك السيدة المنقبة للقاء رئيس التحرير الذى لم يكن موجودا فى ذلك الوقت، فجلست فى مكتبه لتحكى له عن القبض على زوجها أثناء مشاركته فى إحدى المظاهرات التى يحرص على قيادتها أمام مبنى نقابة الصحفيين بوسط القاهرة..

أرادت أن تطلب مساعدة رئيس التحرير للإفراج عن زوجها الذى هو بطبيعة الحال يعمل صحفيا فى جريدة " الأيام " وإذا لم يساعدها فى الإفراج عن زوجها فمن يساعدها إذن؟!.. ناجى يعرف زوجها عز المعرفة فهو زميله فى المؤسسة وابن صحفى وروائى شهير راحل ذائع الصيت، وتحولت معظم أعماله إلى أفلام سينمائية ومسلسلات تليفزيونية.. لكن ابن هذا الرجل الشهير الذى هو زوجها إنخرط فى جماعة الإخوان المسلمين على غير رغبة والده ولا مباركته، ومن ساعتها أطلق لحيته وصار يقف على باب نقابته ممسكا بالميكروفون يدعو للحرية، وهو نفسه يسجن زوجته وبناته خلف أسوار النقاب، ويحرم عليهن مشاهدة التليفزيون ويجبرهن على إرتداء النقاب.. بدأت السيدة تحكى قصتها مع زوجها الصحفى رهين الإعتقال الآن قائلة:

ـ لقد تسابقتم.. يا أصحاب الأقلام الصحفية كل واحد بأسلوبه، وبقدر شجاعته للترحيب بإنقاذ شعب أفغانستان من عذاب عهد الجاهلية الذي عاني منه طوال سنوات عديدة ماضية، ونشرت الصحف والمجلات العربية، والفضائيات الأجنبية والعربية صور مظاهر الفرح والسرور التي عمت كل أرجاء أفغانستان بعد خلاص شعبها من نير الجهل،

والتعصب الأعمي لكل الأديان السماوية ، وإنقاذ المرأة الأفغانية من تعنت الحاكم الأفغاني الجبار ، وإصراره على إذلالها ، واضطهادها ، والتحقير من شأنها ، وحرمانها من كل ما أحله الله سبحانه وتعالي ، ومن كل ما نهت عنه شريعة الإسلام السمحة التي أعطت المرأة حقوقًا أكثر من كل الحقوق التي حددتها باقي الأديان السماوية لنسائها. لقد نشرت صحفنا ، ومجلاتنا العربية ، وفضائياتنا الإعلامية صور المرأة الأفغانية ، بعد استسلام حكم صبية الطالبان ، وبعد هروب جبناء تنظيم القاعدة ، وهي تلقي على الأرض بالبرقع الذي فرض عليها ارتداؤه ، وتكشف بعد سنوات عديدة عن وجهها أملاً في استنشاق نسمات الحرية بعد طول اختناق ، وصورة أخري للمرأة الأفغانية التي عاودت ترددها على الكوافير بعد طول غياب ، وصورة ثالثة وهي تترك وجهها لأخرى تعيد تزيينه بالأحمر على شفتيها ، و الرميل الأسود فوق رموشها ، ويحدد حاجبيها ، والأزرق أو الأخضر تحت جفنيها ، إيذانًا ودليلاً على استعادتها لأبسط حقوقها في أن تتنفس وتتجمَّل وتتزين بعد أن تم تحريرها من الخيمة التي تتخفَّي تحتها ، ومن الإظلام المادي والنفسي الذي كرَّهها في الحياة ذاتها ، وكثيرًا ما ابتهلت إلى الله تعالي في سرها و بعد أن يكون جلادها قد نام وشبع نوما قائلة : ربي.. لقد خلقتني حرة ، ووضعت لي أسلوب حياتي في الدنيا بحيث لا أغضبك ، ولا أعصي أوامرك ، ولا أكون عارا على أهلي وبيتي وعشيرتي ، أما بعد أن أسلمنا حياتنا وأمورنا إلى الجهلاء بدينك و شريعتك.. فأحالوا حياتنا إلى جحيم لا يقل في نيرانه ولهيبه ولسعاته المميتة عن جهنم التي تحذِّرنا منها ، فقد فقدنا أية رغبة في الحياة الدنيا التي لم نعد نستمتع بها ، ولا نحرص عليها. ربي.. لا تغضب منَّا إذا خالفنا أوامرك.. وأقدمنا على الانتحار خلاصًا من الأهوال التي لم يعد في وسعنا ، ولا في استطاعتنا احتمالها ، وفقدنا الأمل في اقتراب تحريرنا من أسوأ أنواع الرق والعبودية التي تحرمها شريعة ديننا الإسلامي السمح الرحيم.

ولم تكتف أبواقكم الصحفية والتليفزيونية بالتهليل لتحرير المرأة الأفغانية، وإنما أسرفتم أيضا في التبشير بتحرير الرجل الأفغاني الذي حرّم عليه صبية طالبان ارتداء زي غير الزي الذي فرضوه، ومنعهم له من حلق لحيته والتنبيه عليه بعدم تهذيبها، وحظر مزاولة الرياضة، أو مشاهدة الأفلام السينمائية، أو الاستماع إلى الموسيقى والأغاني إلى جانب وقف الإرسال التليفزيوني!

لقد نشرتم صورا عديدة لافتتاح صالونات الحلاقة في كابول وباقي المدن الأفغانية، وصورا ثانية للشباب وهم يلعبون مباراة في كرة القدم، وصورا ثالثة، ورابعة، و..و..و..وعاشرة لرجال يرقصون، ويضحكون، ويغنّون، ويترددون على دور السينما التي أعيد افتتاحها، وعودة الإرسال التليفزيوني وظهور مقدمات برامج تليفزيون غير منقبات، ومقدمي برامج يرتدون الحلة، والقميص، والكرافت! وواصلتم في مصر وفي باقي الدول العربية مسيرتكم الجهادية ضد الإرهاب والإرهابيين، اكتفاء بالمقالات النارية، ونشر صور تحرير الشعب الأفغاني من الجهل والتعصب، وتهنئة بعضكم البعض على ما قمتم به، باعتبار أن الإعلام يقدم للرأي العام ما يجري في الدول الأخري، وليس ما يجري في بلده، وتحت سمع وبصر عباقرة الإعلام، وأصحاب الريادة في بثه وكتابته وعرضه! ما أبشع ما قمتم وتقومون به.. أيها السادة الإعلاميون العرب، والإعلاميون المصريون!..

أرجوك ألاّ تستعجلني..وألاّ تمل بسرعة مما تسمع..هو مجرد مقدمة للقضية الحقيقية والأساسية التي أريد أن ألفت نظرك، ونظر الشعب المصري بصفة عامة إلى حقائقها، ووقائعها فعلى مايبدو أنكم جميعا تعيشون في أبراجكم العاجية العالية جدا.. ولا يعنيكم إلقاء نظرة على ما يجري تحت أنوفكم. وثق يا أخي أن ما لا تراه، وما لا تسمعه تحت أنفك وبعيدًا عن سمعك هو أشبه بالبركان المشتعل، الذي ينتظر أول فرصة للاندفاع بحممه

ليشعل الأرض كلها نارًا ودمارًا.. لن تتوقف لسعاتها على أجساد الفقراء والمحرومين والضعفاء في هذا البلد أو ذاك، وإنما ستمسك أول ما تمسك بأجساد الأثرياء والأغنياء الذين يتوهمون أن الأبراج العالية التي يحتمون بعاجها قادرة على منع النيران المتأججة من الوصول إليهم ولسعهم وحرقهم، وتحويلهم إلى رماد تتناثره أول نفحة هواء.

أعترف لك أخي الكريم بأن المقدمة طالت أكثر مما يجب.. ولعلني قصدت بهذه الإطالة أن أثير دهشتك، وأكثر من لهفتك إلى معرفة النهاية التي أريد اقتيادك إليها.. فلو أنني كنت مباشرة في طرح مشكلتي، فمن المؤكد أنك ستعتبرها مشكلة شخصية. الذي أريد أن أؤكده لك أنني لا أطمع في كسب مساندتك، فأنت لا تملك مع إحترامي لقدراتك أن تساعدني في هذه المشكلة، فهي أكبر بكثير من قدراتك، أعلم أن صبرك عليّ قد نفد، وأنك تحاول الآن أن تستعجلني لأصل إلى ما أسعي إليه، لكن أستحلفك بأغلي شخص لديك أن تتحملني أكثر مما تحمّلت..وثق أنني بعد أن أطلت في المقدمة، سأصل إلى النهاية أسرع مما توقعت!

حياتي بدأت عادية جدا، طفولة سعيدة بين أسرة بسيطة متدينة، وملتزمة بتعاليم ديننا السمح.

شاء حظي ألاّ أكون جميلة، ورغم ذلك لم أحزن ولم يمتلىء قلبي بالغيرة من زميلاتي الجميلات في المدارس والجامعة التي تخرجت فيها، قلبي لم يعرف طوال طفولتي وشبابي غير الحب، وغير المشاركة في أفراح معارفي وصديقاتي، والحزن لأحزانهم. وشجعتني أسرتي على مزاولة العمل في وظيفة تتناسب مع دراستي، وتتفق مع ميولي. فكل أفراد أسرتي الصغيرة، وعائلتي الكبيرة، لا يفرقون بين الولد والبنت، وبالذات حقهما في العمل الذي يعتبر عبادة.. كما كنّا نقول وحتي زمن قريب.

وتقدم شاب لطلب يدي..

أعجبتني فيه قوة شخصيته، وسلامة تفكيره وخفة دمه، وعدالته في كل مواقفه.

فهو متدين..لكنه لا يتزمّت.

يرفض التبرج في زينة المرأة.. لكنه لا يستخدم في إقناعها إلاّ الكلمة الهادئة، والنصيحة الصادقة، ويترك لها بعد ذلك أن تقرر ما تراه، دون أن يعاديها، أو يغضبها، أو حتي يكرر نصيحته.

لم يعارض في البداية أن استمر في وظيفتي المتواضعة بإحدي شركات القطاع الخاص وسط عشرات من الرجال، فمن رأيه الذي حبّبني فيه كثيرا.. وقتذاك أن الفتاة التي حسنت تربيتها دينيًا واجتماعيًا وأخلاقيًا، لا يخشي عليها حتي لو ألقي بها في جبلاية الذئاب.

وأضاف قائلاً، ومطمئنًا:

إنني أوافق على استمرارك في العمل، مادمت راغبة فيه. وإذا رأيت فيما بعد..أن اهتمامك ببيتنا وبأولادنا القادمين إن شاء الله تعالي، قد يتأثر..فربما تضطرين إلى تقديم استقالتك، والتفرغ لمهامك الأكثر سموًا، فسأكون أول من يؤيدك وأول من يشجعك. كلمات طيبة.. ومواقف نبيلة..بهرت بها، وزادت من حماستي للموافقة عليه زوجًا متفهمًا، وصديقًا متجاوبًا، ورب أسرة يحرص كل الحرص على أن يسعد شريكته في الحياة، ويوّفر لها كل ما تحتاجه من حب، وتفهّم واحترام. وسبحان مغيّر الأحوال..

فقبل انتهاء مايسمي شهر العسل..فوجئت برجل جديد لم أعرفه من قبل، وشاءت الأقدار أن أعيش معه تحت سقف واحد حتي آخر لحظة في عمري. الابتسامة التي كانت لا تفارقه أصبحت نادرة ومنقرضة.

سماحته التي جذبتني إلىه خلال شهور الخطبة تبددت فجأة، وتحوّلت في يوم

وليلة إلى تعنُّت، وتسلُّط واستحواذ، وديكتاتورية لم أسمع طوال حياتي بمثل فرماناتها التعسفية، وقراراتها التي لا تسمح بأي نقض أو إبرام!

بعد أسبوع واحد من الزواج، طلب منِّي الجلوس أمامه ليسمعني أوامره:

أولا: يجب قطع علاقتك بالعمل نهائيا. ليس مطلوبا منك تقديم استقالتك، وإنما المطلوب فقط أن تتغيَّبي عن عملك بدون عذر، حتي يتم فصلك بعد غياب ١٥ يوما.. طبقا لقانون العمل، ودون الحصول على أي حق من حقوقك، لأننا لسنا في حاجة إليها.

ثانيا: لم تحظ من الطبيعة بلمسة جمال، وعليك الاعتراف الآن بأن مستحضرات التجميل الصناعية لن تحقق لوجهك ما تحلمين له به.. يكفيك إنني قبلتك على حالتك، ورضيت بمواصفات وجهك وثقل جسدك، وهذا يكفيك.. مطلوب منك التخلص فورا من كل هذه الموبقات التي تضعينها تحت مرآة الشوفينيرة، من أحمر وأزرق وأخضر وأسود. أريدك كما خلقك الله، بدون تزويق ولا تجميل زائف. لقد رضيت به رغم دمامتك، ورغم ترهل جسمك.. وفي المقابل فإنني أنتظر أن تحافظي على ما وافقت عليه، وأن تشكريني على ما رضيت به، وكان يمكن أن يرفضه غيري من الرجال.

ثالثا: أعلم أن وجهك لا يلفت أنظار الرجال، لكن لا أحد يستبعد أن بين الرجال من يلهثون وراء أية أنثي نظيفة أو قذرة، جميلة أو قبيحة، نحيلة أو سمينة، متدينة أو منحلة، شابة أو كهلة، وهذه النوعية من الرجال المنتشرة للأسف الشديد في مجتمعنا المصري الكافر الحالي يجب الابتعاد عنها، ويجب بالنسبة لك أنت بالذات عدم إثارة شهوة واحد منهم، والوسيلة الوحيدة لهذه الغاية هي ارتداء ما يخفيك عن أنظارهم الفاجرة، ويحميك من شهواتهم الحيوانية.

رابعا: لقد عشت طوال سنوات طفولتك وشبابك وأنت سافرة الوجه، مكشوفة شعر الرأس.. وهذا ذنب جسيم سيحاسب عليه أبوك وأمك وأخوتك الرجال، قبل أن تحاسبي عليه.. لقد كنت ضحلة التفكير، وضئيلة الإيمان،

ومهووسة بما يعرضه التليفزيون من موبقات وخطايا لا يقبلها دين أو عرف أو شرف! إن الله رحيم وغفور لعباده..ومن حسن حظك أن الله سبحانه وتعالي قد منحك فرصة عمرك بطلبي يدك، لأنقذك من عذاب جهنم الذي كان مصيرك لا محالة لو أنك تزوجت من رجل غيري لا يؤمن بما أؤمن به، ولا يهمه ختام حياتك كما شاء قدري أن أهتم به. مطلوب منك ابتداء من هذه اللحظة أن تقومي بعد انتهائي من هذه الجلسة بتمزيق كل ملابسك، وحرق كل أثوابك الحريرية الخارجية منها والداخلية وتحضري خياطة لتفصّل لك الثوب الوحيد الذي يجب على المرأة المسلمة ارتداؤه داخل بيتها، وخارجه.. لقد أجمعت الآراء حول مواصفات هذا الزي الإسلامي نقلا عن الرواة، وبداية من رسول الإسلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إنه الثوب الذي يغطي جسد المرأة من أخمص قدميها حتي أعلى شعرة فوق رأسها.. لن أقبل بالحجاب الذي يثير أكثر مما يحصن، ولن أقبل بأثواب ملونة غير اللون الأسود، ولا أسمح بأيد عارية دون جوانتي من الصوف الأسود أو الأبيض يخفي اليدين، إلى جانب الشراب السميك الأسود الذي يخفي القدمين قبل إدخالهما في الشبشب أو الحذاء.. الثوب الإسلامي الأكيد هو الذي لا يسمح بأكثر من ضربة موسى واحدة، ورفيعة بعرض مساحة العين يمينا ويسارا يمكن من خلالها الرؤية التي تحمي من الاصطدام بأي عائق أمامك.

وهالني ما تلقيته من فرمانات لم تكن تخطر على بالي، ولا على بال كل من عرفتهم، وعشت بينهم، و تصادقت معهم، وسمعت عن أحوالهم من جيراننا..القريبين منّا أو البعيدين عنّا.

لقد رفضت هذه الفرمانات كلها.. وعدت إلى بيت أهلي أشكو لهم مما فوجئت بسماعه، وفزعي مما يطالبني به الرجل الذي لم أكن أعرف حقيقته قبل أن أدخل بيته، وأنام على سريره، وأعيش تحت سقف بيته.

وفزع أهلي، بقدر فزعي..

غضب أبي، أكثر من غضبي..

وبكت أمي، كأقصى مايمكنها تقديمه لمساعدتي، ومساندتي.. وأجمعت الآراء على استحالة الاستمرار في حياة مع مثل هذا الرجل، وصمم أبي وأمي وأخوتي وأعمامي على طلب الطلاق، ويادار ما دخلك شر.

والتقي أبي وشقيقه الأكبر مع زوجي.. وقالا له مالم أستطع أن أصارحه به، وهو يصدر لي فرماناته.. الواحد بعد الآخر.

وبعد انتهاء اللقاء.. عاد أبي وعمي لينقلا لنا نتيجته، فقال أبي نقلاً عن زوجي إن الرجل فوجيء بثورتنا عليه، وأنه كان ودودًا إلى أقصى درجة، وأن هدفه الأوحد من وراء فرماناته الأربعة حرصه على حمايتي، وحفاظًا على قناعتي الدينية.. لا أقل ولا أكثر!

ولا تسيء الظن بي إذا علمت أنني وافقت على ماقاله أبي وعمي، وتماشيت مع تبريرات زوجي الذي كنت وقتها أسيرة حبه، ومصدٌقة لمعظم أفكاره المغلفة برقائق سماحته، ونبل توجهاته.

أرجوك.. لا تلمني إذا اعترفت لك بأنني وافقت بعد عودتي إلى منزله على فرماناته الأربعة، بكل دقائقها وكل غرابتها، وكل تبعاتها:

(١) إنقطعت عن عملي بدون عذر لأكثر من ١٥ يوما، ولم أرد على مكالمات واتصالات وخطابات إدارة الشركة التي كانت حريصة حتي آخر لحظة على الاحتفاظ بي موظفة جديرة بتحمل مسئولية ما كلٌفت به من عمل ومسئوليات.

وفي النهاية.. وصلني خطاب الفصل، الذي سعد به زوجي سعادة كبيرة، وصمم على الاحتفال به بطريقته المعتادة التي كانت تسعدني في احتفالاته قبل وصول هذا الخطاب الحزين على قلبي، وعلي إحساسي بآدميتي ووجودي كعضو عامل في المجتمع.

(٢) رميت في كيس الزبالة بكل مستحضرات التجميل، ولم أعد أفعل

بوجهي أكثر من غسله بالماء، الذي يتكرر خمس مرات يوميا.. وقبل كل صلاة.

(٣) وزعت كل ملابسي على المحتاجين لها، وبعضها حصلت عليه شقيقاتي، وبعض صديقاتي.

(٤) جاء زوجي بخياطة منقبة، لم أر وجهها حتي هذه اللحظة، رغم مرور أكثر من عشرين عاما على ترددها سنويا على بيتي، وأصبحت مصدري الوحيد أمس واليوم، وغدا للحصول على الثوب الديني طبقا لشريعة الله..كما أكد لي زوجي الذي يتوهم أنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ الفتيات والنساء المسلمات من أخطائهن وخطاياهن! أثواب عديدة لا تفترق عن الشوال الذي يخفي كل بوصة من جسدي، ما عدا ضربة الموسى بطول عيني.. شمالاً ويمينًا وبلونين لا شريك لهما.. اللون الأسود واللون الأبيض. الأول للخروج والثاني للبقاء داخل منزلي! لا تتعجب.. فالنقاب يجب الالتزام بارتدائه طوال الساعات التي أمضيها في البيت، ليس باعتباري عورة بالنسبة لزوجي المتدين، وإنما لأسباب أخري، سيأتي ذكرها لاحقا.. ولن تكون مقنعة لك، تمامًا كما أنها لم تكن مقنعة لي، ولا لكل من سمع عنها..من أقاربي، ومعارفي والغرباء عني!

(٥) لقد عشت مع زوجي مايقرب من ربع قرن من الزمان، وأقسم لك سيدي الكريم إنني لم أنعم، أو أسعد معه أكثر من أسبوع واحد خلال هذه الفترة الطويلة جدًا من أغلي وأعز سنوات شبابي الذي ضاع هدرًا، وكبتًا، وتعتيمًا، وإظلامًا، وعذابًا..لا أول له ولا آخر!

وأسباب هذا العناء كله يمكن تلخيصها في الوقائع التالية، رغم حرصي الشديد على اختصارها في نقاط محددة ومعدودة حتي لا يزداد مللك، وقد يتسبب في نفاد صبرك حتى لا أنسي.. أحب أن أبلغك بأنني الآن أم لستة أطفال: أربع بنات، وولدين، في جميع مراحل التعليم من إبتدائي، وإعدادي، وثانوي، وجامعة.

فزوجي ربما يهديه الله لا يري في الزواج أكثر من أنه يحقق المتعة التي يبررها زيادة نسل أمة محمد صلي الله عليه وسلم..ولولا أنني بلغت الآن منتصف الحلقة الخامسة من عمري ٥٣ سنة لما قنع بالأولاد الستة، ولو كان في استطاعته لضاعف عددهم مرات ومرات!

الذي يهمك كما أعتقد أن زوجي غفر الله له، وسامحه وهداه أصدر فرمانا فور انتهاء أسبوع العسل يقضي بحظر الضحك في شقتنا.. وتحريم إظهاره أو سماعه، أو حتي رؤيته! فالضحك كما أكد لي صفة من صفات الشيطان الذي لا هم له، ولا هدف غير إفساد المؤمنين المسلمين!

فور انتهاء ما يسمي: أسبوع العسل.. اختفت الضحكات من وجهي ووجه زوجي كما لم يجرؤ أحد من زوار شقتنا الكبيرة المتعددة الغرفات على الضحك أو حتى الابتسامة.. كي لا يخضع لعقوبة فرمان حظر دخوله مرة أخرى إلى شقتنا! تخيل حجم الكآبة التي خيمت تحت سقف غرف شقتنا نتيجة للالتزام بتنفيذ فرمان يحظر ويحرم الضحك تطبيقا لتعاليم زوجي الذي يزعم أنها مستوحاة من تعاليم وبنود ونصوص الشريعة الإسلامية.

وتخيل أيضا كيف يكون بيت يمتليء بالأطفال الصغار، ويحظر فيه الضحك، أو اللعب لأن قراقوش عصره وزمانه منع أولاده بدءًا من سن الرابعة من الضحك، أو اللعب، وجاء بشيخ ضرير ليحفظهم القرآن طوال ساعات النهار بما فيها الدقائق التي نجتمع خلالها حول المائدة لتناول وجبتي الغداء والعشاء.

أطفال لم يبلغوا سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية.. ولم يعرفوا بعد الفرق بين الألف و الباء، ورغم ذلك أجبرناهم على ترديد وحفظ ما ينطق به الشيخ الضرير دون أن يفقهوا كلمة واحدة مما يحفظونه عن ظهر قلب، ويرددونه ويكررونه لساعات وساعات. فوجئت به يطلب مني تغطية شعر الطفلة بمجرد بلوغها سن الرابعة، ثم النقاب بعد بلوغها سن السابعة وما بعدها. وحتي أكون قدوة

لبناتـي، فقـد أمرنـي بارتـداء النقـاب الأبيـض داخـل المنـزل، ولا أخلعـه أبـدا أثنـاء قيامـي بالأعمـال المنزليـة مـن تنظيـف وغسـيل وطبـخ، حتي لا يشـجع ذلـك بناتنـا علـى خلع النقـاب خـارج المنـزل وبعيدا عـن عيوننا! نسـكن في شـقة كبيرة مكونة من ٥ غرف وصالة واسـعة، وهناك جهاز تسـجيل فـي كل غرفة، وكل ركـن وفي الوقت نفسـه لا يوجد أي جهاز تليفزيـون، أو جهاز راديـو، لأن كلا الجهازين بدعة يحرّمها الدين، وتبلبل أفـكار الأولاد والبنـات، وتصرفهم عن الهدف الأوحـد من وراء خلقهم في هذه الدنيا الفانية.

أجهزة التسـجيل وحدها المسموح بتشـغيلها طوال سـاعات النهار، وحتي نـأوي إلـى فراش النوم. هنـاك أكثر من جهاز خصصه زوجي لسـماع آيات القـرآن الكريم، وباقي الأجهـزة مخصصة لإذاعة أحاديـث علماء الدين، ودعاتـه مـن المصرييـن والعرب.. لدينا مئـات من هذه الأشـرطة التي يزداد عددها، أو يتناقص تبعا لأسباب أصبحنا نعرفها، ونتوقعها في أية لحظة.

فعلي سبيل المثال..لا الحصر:

كان زوجي من أكثر المتحمسين لشرائط الداعية الإسلامي المعروف (حسان الحسـانى) وكثيرا ما كان يجمعنا لسماع أحاديثه، وخطبه، وتفسيراته لكل ما يهتـم به المسـلم المؤمن الملتزم في حياته اليومية. وكثيـرًا ما كان يثني على ابن أو ابنـة مـن أولادنـا إذا حفظ هذا الابـن، أو تلك الابنة مقاطع مـن خطب وكلمات وتفسـيرات الداعية(حسـان الحسـانى) وكانـت المكافـأة الوحيـدة والمعتـادة لهمـا هـي منحهمـا المزيد مـن الأشـرطة الجديـدة للداعيـة الإسـلامي المعروف. مرت سنوات عديدة..وحفاوة زوجي بأشرطة (حسان الحسانى) تتزايد، وتتضاعف، شريطًا بعد شريط إلى أن فوجئنا ذات مساء بزوجي يعود إلى المنزل مكتئبًا وثائرًا وساخطًا وانهال سبًا وشتمًا، وتجريحًا في هذا الداعية!

لم نجرؤ بالطبع على سـؤاله عن سـبب ثورته على شـيخه المفضل، فقد اعتدنـا أن نترك له حق تفسـير مايقوله أو الامتناع عنـه. وبعد وصلة الهجوم

العنيف على الشيخ انتقل زوجي في حديثه الغاضب والساخط إلى تقديم مبرراته التي أنصتنا لها دون مقاطعة، أو مشاركة في وصلة الغضب والسخط والشتم.

تحدث زوجي قائلا: تصوّروا.. لقد طلع هذا المذكور نصابًا فاسدًا ومنحلاً! لقد سجلت له وزارة الداخلية شريط فيديو ظهر فيه المذكور بالصوت والصورة في أوضاع مخلة بالدين والأدب ويستحق عليها شنقه في ميدان عام! وعندما استدعوه إلى مقر مباحث أمن الدولة وعرضوا عليه الشريط.. إنهار، وبكي، وركع ليقبل حذاء الضابط الكبير، ويستحلفه بأغلي ما عنده أن يستر فضيحته، مقابل أن يفعل أي شيء وكل شيء يطلب منه، بما في ذلك استعداده الفوري للهجرة نهائيًا من مصر وعدم العودة إليها حتي آخر يوم في حياته.. وتركه ضباط مباحث أمن الدولة فترة طويلة يعلن خلالها عن ندمه على ما قام به، وطلب منهم الرحمة به وبأسرته من الفضيحة المدوية التي ستصدم الملايين الذين يعجبون به، ويحرصون على سماعه في المساجد، ويدعونه إلى زيارتهم في بيوتهم ليهديهم بما لم يستطع أن يهدي به نفسه! وفي النهاية.. تعطف الضابط الكبير على الكافر المنحل النصاب الذى يتدثر بعباءة الشيوخ والعلماء الأجلاء فوافق على عدم عرض الشريط المخجل على الملأ، وطلب منه عدم الهجرة والبقاء في مصر بشرط واحد هو أن يتواري عن الأنظار، ويتوقف نهائيا عن انتحال صفة الداعية الإسلامي التي هو أبعد الناس عنها، وآخر من يمكن أن يتقمصها. وظهرت آثار الصدمة الهائلة وملامح الحزن العميق على وجوهنا جميعا، ولم تصدر كلمة واحدة منا تعليقًا على ما سمعناه... ولم يكن زوجي ينتظر سماع أي تعليق على ما قاله فهو يكتفي عادة بإبلاغنا بالحدث، ثم يعلمنا بعد ذلك بقراره، وما علينا إلاّ التنفيذ. صمت زوجي قليلا.. ثم أمرني بإحضار الحلة الكبيرة! فسارعت إلى المطبخ دون أن أسأله بالطبع عن سبب طلبه الحلة، فقد تعودت مرارا على هذا الطلب، وأعرف مقدما الغرض منه.

جئت مسرعة بالحلة الكبيرة، ووضعتها على الأرض وسط غرفة الجلوس، وطلب زوجي من إبني الكبير أن يأتي بكل أشرطة الداعية الإسلامي المنحل من مكتبة الأشرطة التي تشغل حيزًا كبيرًا من حوائط كل غرفة من غرف شقتنا الكبيرة. وكان الحمل ثقيلاً على ابني فاحتاج إلى سواعد أبنائي وبناتي الستة لمعاونته في حمل عشرات الشرائط للداعية المنحل!

وعندما تجمّعت أكوام الشرائط على المائدة وعلي الشلت الموزعة داخل الصالة الكبيرة.. نسيت أن أقول لك أن زوجي باع غرفة الصالون.. المقاعد والفوتيل والكنبة لأن السلفيين العظماء كانوا يجلسون على الأرض، ولا بأس من الاستعاضة عنها بالشلت في عصرنا الحديث، وقام صاحب الأمر والنهي الأوحد في بيتنا بإحصاء عدد الأشرطة ثم قسمها على أفراد الأسرة بالطريقة الشرعية للذكر ضعف حظ الأنثي، وطلب منّا إلقاءها شريطا بعد آخر داخل الحلة الكبيرة، ثم سكب فوقها الكيروسين، وألقي بعود كبريت مشتعل فوقها، لتتصاعد ألسنة النار، وتمتليء الغرفة بالدخان والرائحة المنفرة من الأشرطة المحترقة، وكنّا نردد وراء كبير العائلة أدعيته، وكلها تبتهل إلى الله بسرعة توقيع العقاب على الداعية المنحل الذي خدعنا وخدع الملايين معنا. لم يكن الداعية المنحل (حسان الحسانى) هو أول أو آخر من عرفت أشرطته طريقها المحتوم داخل الحلة الكبيرة، فلقد سبقه كثيرون من الدعاة الكبار، وكم أحزنني اليوم الذي ظلم فيه زوجي داعية إسلاميًا كنت وما زلت مؤمنة بأنه أعظمهم وأتقاهم وأزهدهم حياة وأخشاهم لله، ورغم ذلك كله صدق زوجي وشاية كاذبة زعم له صاحبها أن فضيلة الشيخ(حسان الحسانى) يعيش عيشة المترفين المبذرين، ويسكن قصرًا منيفًا، وأنه بالإضافة إلى ذلك ينافق الحكومة، ويسعي إلى التقرب منها، ويمتنع عن كشف كفرها، وفضح قوانينها التي تتعارض مع تعاليم ونصوص الشريعة الإسلامية، مما استحق الامتناع عن ذكره، أو الاستماع إلى مايقوله في

الأشرطة التي احتفلنا ذات مساء بحرقها داخل الحلة الكبيرة!

وفي هذا العام فقط حدثنا زوجي عن شاب صغير السن تخرُج في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ويرتدي أحدث بدع الأزياء الأوروبية، وأنه أصبح فجأة داعية من دعاة الإسلام، وأن السيدات الثريات يتسابقن إلى حضور الجلسات التي يعقدها لتعليمهن حقائق الدين الإسلامي.. وعلق زوجي بعد ذلك قائلا: يكفي أن نعلم أن هذا الغلام تخرج في الجامعة الأمريكية حتي نحكم عليه بأنه دسيسة أمريكية هدفها تشويه ديننا الحنيف في أذهان السامعين! ويكفينا أيضًا أن هذا الغلام يجد قبولاً من السيدات اللاهيات السافرات المتعطرات اللاتي تترددن على منازل الغرباء عنهن بزعم الاستماع إلى مايقوله لهن هذا الغلام من خزعبلات ترضيهن، ومحرٌمات يحلّها لهن حتي نتأكد من أن الحكاية كلها لا تخرج عن كونها فسق في فسق، لا يرضاه الله ورسوله الكريم.

وفهمنا من حيثيات الحكم الذي أصدره زوجي ضد هذا الداعية الغلام أنه لن يحضر لنا أشرطته لسماعها كما تعودنا منه مع كل الدعاة الجدد الذين سمع عنهم، واستمع إلى أقوالهم ووافق عليها ورضي عنهم مقدما. وبعد شهور عديدة.. فوجئنا بزوجي يجمعنا من حوله ليقول:

يبدو أنني ظلمت الداعية الشاب.. فقد تأكدت بنفسي من أنه مخلص في جهاده من أجل نصرة ديننا الحنيف، وأن هدفه الحقيقي هو هداية الفتيات والنساء السائرات على حل شعرهن! وكان من الذكاء بحيث أنه حرص على الظهور كشاب أوروبي يرتدي البدلة ويحلق لحيته حتي تطمئن النساء السافرات إليه، ويجلسن أمامه ليسمعن حديثًا هادئًا فيه من المسموحات أكثر بكثير من الممنوعات، وجلسة بعد أخري يبدأ الداعية الداهية بعد أن كسب ثقتهن، ونال إعجابهن، وسيطر على عقولهن في الكشف عن حقيقته كداعية إسلامي متشدد، وكواعظ ديني متمكٌن، وسمعت أن العشرات من الفتيات السافرات

حرقن أثوابهن العارية الفاجرة، وتحجب بعضهن وتنقب البعض الآخر. لقد رفضت شراء أشرطته الأولي التي يموّه بها، ويظهر خلالها في صورة غير حقيقته.. أما الأشرطة الأخيرة فهي مختلفة تمامًا وجئت لكم ببعضها حتي نستمع إليها ثم نتناقش حول أقواله وأحكامه.

أذكر أن ابنتي الكبري سألت أباها ذات يوم:

لماذا يا والدي لا تحضر لنا أشرطة كبار علماء الدين مثل فضيلة شيخ الأزهر و فضيلة مفتي الديار المصرية، وأساتذة جامعة الأزهر الذين سمعت خالي يبدي إعجابه بأقوالهم في الإذاعة والتليفزيون؟!

فوجئت بزوجي يرد على إبنتنا بأغرب إجابة كنت أتوقعها قال:

هؤلاء من عملاء الحكومة الكافرة يأتمرون بأوامرها، وينطقون بلسانها. إن خالك من الجهلاء الذين لا أمل في هدايتهم، لذلك نراه يجد بغيته فيما يسمعه من أحكام عملاء الحكومة الذين يحللون الحرام، ويفسرون كلام الله على غير ما أنزل به! لا مكان في بيتي لأشرطة هؤلاء.

توقفت السيدة لحظات ثم قالت: أكرر رجائي بمزيد من صبرك على ثرثرتي..

لقد شرحت لك باختصار مخلٍّ عن حياتنا اليومية داخل بيتنا، والآن حان وقت الحديث عن قضايا أخرى تحظى هى أيضًا بفرمانات زوجي التفسيرية: يرى زوجي أن التعليم حتي آخر مراحله.. يصلح للابن الذكر، ولا فائدة منه للابنة الأنثى.. وحجته في ذلك أنني زوجته تعلمت وتخرجت في الجامعة، ثم تفرغت فور زواجنا لإنجاب الأولاد وتولِّي مسئولية تربيتهم التربية الإسلامية البعيدة كل البعد عن تربية المجتمع الكافر الذي نرفضه، ونضطر إلى الانتساب إليه رغما عنّا وعلي أمل السعي الدءوب مع غيرنا من المسلمين المؤمنين الحقيقيين لتغييره، وإنقاذه من عذاب جهنم الذي ينتظره!

لقد وافق زوجي على تعليم أولادنا من الذكور في المدارس والجامعات.. الإبن الأكبر حاليا في منتصف دراسته الجامعية، والأصغر في نهاية

obeikandl.com

المرحلة الثانوية. أما بناتنا الأربع.. فقد اختار لهن معهدًا دينيًا قريبًا من منزلنا ليتعلمن فيه ما لا علم لي ولا له به من تعاليم الدين وشريعته.. هذا المعهد عبارة عن شقة في الدور الأرضي لا يقبل غير الفتيات الصغيرات، ولا علاقة بين ما يُدرٌس في فصوله وبين مناهج التعليم الحكومية، وبالتالي فإن الشهادة التي يمنحها في نهاية المرحلة الدراسية لا تجد من يعترف بها أو تساوي أكثر من ثمن الورق الذي كتبت بياناتها عليه.

الابنة الكبري، والإبنة الثانية أنهتا دراستهما الابتدائية في هذا المعهد، ثم انتهت علاقتهما به، وقرر زوجي بقاءهما في البيت، وجاء لهما بالشيخ الضرير ليواصل تعليمهما الديني الذي يجب ألاٌ تحصلا عليه خارج جدران المنزل، أما الابنتان الثالثة والرابعة فهما في سن تسمح لهما بالتردد على المعهد الديني إلى أن تعودا نهائيًا إلى البيت بمجرد الانتهاء من المرحلة التعليمية الدينية الابتدائية.

لا تسألني ماالذي تعلمته بناتي؟! ولا تسألني أيضا عن جهلهن المطبق بكل شيء وأي شيء مما تقدمه مناهج وزارة التربية والتعليم في مدارسها الحكومية المجانية.. ولا أقول عن مناهج المدارس الخاصة التي تفوق مدارس الحكومة في نوعية موادها، وحداثة مناهجها.. إن بناتي الأربع لا يعرفن ـ الكبري منهن قبل الصغري ـ أكثر من فك الخط، وإن كن يحفظن الكثير من آيات القرآن الكريم، وأحاديث رسوله صلٌي الله عليه وسلٌم، وبعض فقرات مطولة من أحاديث ومواعظ الدعاة الإسلاميين من خلال انصاتهن الدائم لما يسمعنه طوال ساعات النهار من الأشرطة التي حدثتك عنها من قبل.

والأمر يختلف بالنسبة لولدينا الشابين اللذين يواصلان بتفوق ملحوظ الدراسة المنهجية في المدارس الحكومية وجامعتها، ويستقطعان كل وقت وجودهما داخل المنزل وحتي لحظة نومهما في مشاركة شقيقاتهما الاستماع إلى الأشرطة، وقيام الأخ الأكبر بامتحان شقيقاته فيما تعلمنه وحفظنه أولاً بأول.. ويقدم للأب بعد عودته من العمل نتيجة هذه الاختبارات اليومية، فيكافيء الحافظة الناجحة بشريط جديد، ويعنٌف التي لم تحفظ جيدًا مستخدمًا في ذلك لسانه ويده وعصاه وحزامه الجلدي!

في البداية كنت أشفق على الولدين من الحياة التي فرضت عليهما، وكنت أبكي بحرقة وأنا أراهما محرومين من اللعب مع أولاد الجيران، ومنعهما من التردد على النادي في أيام الجمعة والأجازات، ورفض ذهابهما إلى دار السينما إلى جانب حرمانهما من وجود جهاز تليفزيون يشاهدان برامجه، وعدم وجود جهاز راديو يستمعان إلى ما يذيعه من نشرات أخبار وبرامج وموسيقي وغناء! وفي بعض الأحيان ومن فرط إشفاقي عليهما، كنت أنتهز فرصة خروج زوجي إلى عمله فأصحبهما لزيارة إحدي جاراتي في نفس العمارة للعب مع أولادها، ومشاهدة برامج التليفزيون، والاستماع إلى موسيقي وأغنيات منبعثة من جهاز الراديو ثم توقفت هذه الزيارات الخاطفة فور علم زوجي واعتراف الابن الأكبر بها فأنزل زوجي عقابه الشديد عليّ، وعلي الولدين اللذين لا ذنب لهما! هل تصدق أننا لا نعرف ما يجري في الدنيا خارج حدود شقتنا إلاّ ما نسمعه من أخوتي وأخواتي؟!

وهل تصدق أيضا أنه لا وسيلة لنا بالاتصال بهؤلاء الأخوة والأخوات إلاّ إذا جاءوا لزيارتنا، وبتصريح مسبق من زوجي؟!

لقد حرمنا من ترف التليفون حتي لا نتعرض للمعاكسات! واكتفي زوجي بالتليفون المحمول الذي لا يفارق الجيب الأعلي من جلبابه طوال اليوم، ويضعه بجانب مخدته خلال ساعات نومه، ولست في حاجة لأقول لك إنه محظور علينا استخدامه أو حتي الرد على مكالماته فهذا تحصيل حاصل.

وقد تسألني: ماالهدف الذي حدده زوجي لي ولأولادي؟!

الهدف ببساطة شديدة إنقاذ أرواحنا في الآخرة بشرط واحد أن نلتزم بكل أوامره، ونؤمن بكل أفكاره ونبتعد عن كل المحظورات التي يتزايد عددها يوما بعد يوم.. في مواجهة التحديات والبدع الإنحلالية التي تحيط بنا من كل جانب، وفي كل مكان كما يقول. الممنوعات التي فرضها علينا، تكون ضرورية من وجهة نظره لتعزيز إيماننا،

والفوز برضاء الله سبحانه وتعالي، وربما تفتح أبواب الجنة أمامنا لننعم بها إلى أبد الأبدين.. كما أن النفور من قائمة المحرّمات الطويلة التي يمارسها الكافرون والكافرات في الدنيا الفانية هو وحده الذي يمكنه حمايتنا من مصير هؤلاء وأولئك الذين اشتروا دنياهم، و باعوا آخرتهم بأبخس ثمن، وكثيرًا ما أوصانا بأن نبذل كل مافي وسعنا واستطاعتنا من أجل هداية قريباتنا وجاراتنا ونساء وبنات حيّنا حتي تتضاعف حسناتنا، وتثقل كفتها أمام كفة أخطائنا وخطايانا في ميزان يوم الحساب وهو آت لاريب فى ذلك. وقمنا بتنفيذ كل أوامره والتزمنا حرفيا بأفكاره كلها، وبذلنا كل مافي استطاعتنا من أجل هداية و إنقاذ كل من دخل بيتنا أو قمنا بزيارتهم في منازلهم. وأعطي زوجي لعمليتي الهداية والإنقاذ كل ما تستحقهما من اهتمام ومتابعة ومحاسبة. والأمثلة عديدة:

قال لي ذات يوم فورعودته من عمله:

جارتك أم فلان.. رأيتها اليوم أمام باب شقتها شبه عارية تتحدث إلى رجل! إذهبي إليها غدا بعد أن تتأكدي من غياب زوجها وأولادها وابذلي كل مافي وسعك لهدايتها، وإنقاذها مما هي فيه.

في اليوم التالي أرسلت صغري بناتي مرتدية نقابها لتستأذن جارتي أم فلان في زيارتي لها لعدة دقائق، وبعد الاستئذان والتأكد من عدم وجود الجنس الآخر في الشقة جلست مع جارتي، وفوجئت بها ترتدي فستانا عاديا محتشما ترتديه عادة داخل منزلها، وهو نفسه أو مثله الذي كانت ترتديه بعد ظهر أمس، عندما فتحت باب شقتها لتدفع حساب النور لموظف وزارة الكهرباء!

لقد مررت بنظري على جسم جارتي بحثا عن العري الذي فزع منه زوجي، وأكد أنها كانت شبه عارية أمام رجل غريب فلم أجد أي جزء عار غير وجهها، ويديها وفيما عدا ذلك كانت مغطاة برداء كامل، وحتى شعرها كان مخفيا تحت الحجاب الأبيض الذي تحرص عليه عند الخروج، أو عند

استقبال ضيوف في منزلها!

لم أعلق ولم أتهم زوجي بالكذب أوالمبالغة في وصفه المهين لهذه الجارة الفاضلة.. على العكس من ذلك تفهٌمت ماقاله وعذرته في اتهامه. فمن رأي زوجي الذي يؤمن به ويؤكده ويكرره، بمناسبة وبدون مناسبة:

أن المرأة العارية هي التي تسمح للرجل الغريب كهلاً أو شابًا أو طفلاً أن يري أي جزء من جسدها أو وجهها أو حتي خصلة واحدة من شعرها! ورغم عدم اقتناعي بهذا الرأي الغريب جدا، والمرفوض قطعا من أي عقل متحرر أو نصف متحجٌر إلاٌ أنني لم أعترض عليه..ليس فقط خوفاً منه، وإنما حتي لا أصدم بناتي اللاتي يتعذبن ٢٤ ساعة في الـ٢٤ساعة من فرمانات أبيهن ولا أريد لهن بالتالي الوقوف إلى جانبي ضد أبيهن.

هذه المشاعر والأحاسيس كلها دارت في مخيلتي وأنا جالسة أمام جارتي المسلمة المؤمنة المهذبة التي تفهم حقائق ديننا، وتحرص على تعاليمه السمحة، ورغم ذلك وصفها زوجي بأنها تستقبل الغرباء.. شبه عارية لا لشيء إلاٌ لأنها اكتفت بالحجاب، ولم تأخذ بالنقاب!

تناسيت هذه المشاعر والأحاسيس والاعتراضات كلها.. وركٌزت همٌي في تحقيق الهدف من وراء زيارتي طبقا لأوامر وتعليمات زوجي والذي يعتبره هدف حياته الأوحد في هذه الدنيا الفانية.. وسألت جارتي سؤالا أنا أكثر الناس رفضا له ومعاناة منه:

لماذا لا تتنقبي يا أم فلان؟!

فوجئت جارتي بهذا السؤال الغريب والعجيب والمسٌتفز لها ولي قبلها، وللملايين من السيدات والفتيات المصريات. وبدلا من أن تجيب عن سؤالي تجاهلته وسارعت بسؤالي:

ـ ولماذا يجب عليٌ أن أتنقٌب؟! هاتً لي آية قرآنية واحدة، أوأي حديث نبوي صحيح، وغير مدسوس يفرض على المرأة المسلمة والمؤمنة والملتزمة بتعاليم دينها والحريصة على نصوص شريعته ارتداء ما يسمي بالنقاب.. إن

الدين كما نعرفه يسر لا عسر، والإظلام الذي يفرضه هذا النقاب على من ترتديه نفسيًا، وإنسانيًا، وحضاريًا، وصحيًا، واجتماعيًا يتعارض جملة وتفصيلاً مع ألف باء ديننا الإسلامي الصحيح، وليس المفتعل أو المزوٌر أو الذي أفتي به المعقدون، والمهووسون والمتحجرون الجهلاء..ممن تتزايد أعدادهم في مصر لسوء حظ شعبها يوما بعد يوم وسنة بعد أخري.

ولم تكتف جارتي أم فلان بما لم تصدمني مكاشفتي به، وإنما أضافت إليه قائلة:

إنني كثيرًا ما بكيت على حالك وعلي حال بناتك.. وولديك. فكلنا في العمارة نسمع ونتألم وندهش مما تعانون منه على يد زوجك.. لقد تحدثنا كثيرًا عن هذه المأساة، وقد سألني زوجي مندهشًا ومستغربًا: لماذا تقبل جارتك البقاء مع هذا الرجل؟! لماذا لا تترك بيته وتعود إلى بيت أبيها، أو إلى أي مكان آخر.. فمهما تدنٌي مستوي المعيشة في هذا المكان، سيكون بالقطع أرحم، وأخف وطأة وإذلالاً مما تعانيه حاليًا في شقته؟! ولم أجد ردًا مقنعًا على سؤال زوجي فأنا شخصيًا لا أتصوٌر ولا أصدق.. في نفس الوقت كيف يمكنك احتمال ما تتحملينه؟! ولا أعرف في الوقت نفسه لماذا قبلت أن يحرم أطفالك أبسط حقوقهم، وأولها حرمانهم من الضحك واللعب واللهو مع غيرهم من الأطفال؟! قد لا تصدقين إذا قلت لك أنني وزوجي وأولادي، وكل سكان العمارة بلا استثناء لا حديث لنا غير السخط على زوجك، والتعاطف مع أطفالك، وفي الوقت نفسه نسخط عليك لأنك وافقت على العيش يومًا واحدًا مع هذا المخلوق الذي لا يمكن أن يعيش في مطلع القرن الحادي والعشرين، فمكانه المناسب.. هو عهد سكان كهوف ماقبل التاريخ، أو على الأقل من الجاهلية الأولي. لم أغضب مما سمعته من جارتي التي اتهمها زوجي ظلمًا، وافتراءًا بالفسوق، و الانحلال لمجرد أنها لم تتنقب وهي تحاسب مندوب وزارة الكهرباء، وأظهرت له وجهها عاريًا، ويديها بلا قفاز من القماش السميك

الذي يفرضه عليٌ وعلي بناته فور بلوغ الواحدة منهن سن الثامنة من عمرها! علي عكس ما كانت جارتي تخشي منه فوجئت بي أوافقها على رأيها.. ليس هذا فقط.. بل وشاركتها في غضبها وسخطها على شخصي الضعيف، وزايدت على رأيها..قائلة:

ـ لا تظلميني يا أختي العزيزة.. فأنا أدري بحالي، وأقسي منك في إدانتي لضعفي وقلة حيلتي.. إنني أعترف بأنه لولا استسلامي ولولا عجزي، ولولا ضعفي مااستأسد زوجي..كما استأسد وماوصلت وأولادي إلى ما وصلنا إليه. إنني وحدي المسئولة عما أصابني، وحطم حياتي وأوصلني إلى الحالة التي أتمني فيها الموت على البقاء في هذه الحياة التي لا يمكن لإمرأة عادية أن تقبل بها، أو توافق عليها.

ولمحت مؤشرات الدهشة والعجب على وجه جارتي أم فلان.. فالذي سمعته مني كان متفقا مع رأيها، ورأي زوجها وآراء كل سكان شقق عمارتنا ورغم ذلك لم تسمع منٌي ردًا..أو مبررًا مقنعًا واحدًا لاستسلامي لهذا الزوج الجاهل المتسلٌط الذي ألغي كل ما جاء بالكتاب السماوي الكريم، وكل ما حدده لنا رسول الإسلام صلٌي الله عليه وسلم، وكل ما انتهت إليه الحضارة الإنسانية بمختلف دياناتها، واتساع اهتماماتها وجاء زوجي بدينه الخاص، مبتكرًا حدوده، وفارضًا اشتراطاته ومعانيه وتفسيراته التي تتناقض كلها مع ألف باء الدين الذي ولدت منتسبة إليه، ونشأت ملتزمة به، و كبرت في العمر طامعة في هدٌيه وسماحته وتعاليمه. احترمت جارتي رغما عنها هذا التناقض الشديد في مبادئي وتصرفاتي. فأنا مسلمة حقيقية، ورغم ذلك وافقت على خزعبلات الرجل الجاهل التافه الذي شاء قدري أن أرتبط به وأنجب منه ستة من الأولاد والبنات!

ربما يرجع تفهم جارتي لتناقضي الغريب واللامعقول مع ذاتي إلى اعترافي لها بأنه سبق السيف العذل.. بمعني أن خضوعي لهذا الرجل المتحجر، وموافقتي على أفكاره الجاهلية يرجع أولاً وأخيرًا لعجزي عن حماية أولادي مما يمكن

أن يدمر حياتهم في حالة ابتعادي عنهم، وترك البيت تحت رحمة من لا يرحم! كل ما حصلت عليه من نتائج زيارتي لجارتي التي اتهمها زوجي ظلما بلا أدنى خجل بالعري والفسق والفجور.. أن غضبي من نفسي وسخطي على ضعفي، تضاعف مرات ومرات.. وأن كراهيتي للحياة ذاتها شجعني على الإقدام على ما كنت أنويه عشرات المرات، وفي كل مرة كنت أخشى من غضب الله فأرجع عن ارتكاب جريمتي. صدقني إذا قلت لك انني صممت على الانتحار والتخلص من حياتي أكثر من عشرين مرة، وفي المرة الحادية والعشرين فور مغادرة شقة جارتي شعرت بإحساس عميق ملأ قلبي وعقلي بأن الله سيرحمني لو نفذت قراري وأنهيت حياتي بيدي! فالعذاب الذي ذقت مرارته طوال معاشرتي لجلادي لا أتصوّر أنه يزيد على العذاب الذي ينتظرني في السماء لإقدامي على الانتحار الذي يحرمه الله الغفور الرحيم بعباده. انتهزت فرصة خروج زوجي وولديه لصلاة الفجر في زاوية قريبة من المنزل يجتمع فيها مع من شابهه في أفكاره، ومن تعلم منهم استبداده، ومن يعلمهم أسلوبه في جعل حياة من يعيشون معهم جحيما، واطمأننت إلى استمرار بناتي في نومهم.. وتوجهت إلى المطبخ وأغلقت بابه خلفي ثم أمسكت بسكين حادة قطعت بها شرايين يدي، وجلست على مقعد خشبي صغير أتابع براحة عميقة لم أشعر بها منذ ربع قرن سيلان دمي الغزير المتدفق من جرحي، وأخذت أتمتم بكلمات صامتة استغفر بها الله، وأتمني رحمته وأرجع عصياني لتحريمه الانتحار إلى هول العذاب الذي تحملته وصبرت عليه حتى اللحظة التي فقدت عندها البقية الباقية من صبري، ولم أعد أستطيع فيها تحمل أكثر مما تحملته.. ولم أتوقف عن ابتهالاتي للرحيم الغفور إلاّ بعد أن فقدت الوعي، وللأسف الشديد استرجعته في اليوم التالي على سرير المستشفى! لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن أعود إلى الحياة بعد أن تصوّرت أنني نجحت في التخلص منها.

تجمّع أولادي وأفراد عائلتي أمام سريري، ووجوههم ناطقة بالفرح والسعادة لعودتي إليهم، أما وجه جلادي فكان كالعادة جامدًا، غاضبًا، وساخطًا! لم أسمع منه كلمة واحدة يشجعني بها أو حتي كلمات: حمدا

لله على سلامتك.. لم ينطق بها! ولم يكتف بذلك.. وإنما صمم على إذلالي وأصر على صدم مشاعر أخوتي وشقيقاتي وبناتي عندما فاجأنا قائلاً:

لقد ارتكبت جريمة لا تغتفر في حق ديننا، ولا تتصوُّري أن الله سبحانه العادل، القاهر الجبار قد غفر لك لأنه سبحانه وتعالي قد أعادك إلى الحياة، وإنما الهدف من هذه العودة هو أن تمضي بقية عمرك في التكفير عن خطيئتك العظمي، ونسأل الله أن يتقبل توبتك، وأن يجعلك من الصالحات المؤمنات.

ولم أغضب مما قاله.. فلا جديد فيه، ولا كلمة من كلماته تستحق التفكير أو تتطلب الغضب.

أخوتي وشقيقاتي وبناتي هم وحدهم الذين ظهرت على وجوههم ملامح السخط، والقرف والكراهية.. وإن كانت صامتة ومكبوتة.

عدت إلى جحيمي الأسري مرة أخري..

والطريف أن جلادي تصوُّر أنه مضطر إلى أن يطيب خاطري، ولو للمرة الأولي منذ ربع قرن من الزمان.. ففوجئت به يدخل غرفتنا وبادرني قائلاً: أعلم أنك غاضبة عندما منعتك بعد زواجنا من قيادة السيارة حماية لك، وحفاظا على تعاليم رب السماوات والأرض! ولا بأس الآن من السماح لك بقيادة السيارة بعد أن سمعت فتوى من الداعية.. تبيح ذلك بشروط محددة أهمها ضرورة وجود محرم معك في السيارة مثل أحد ولدينا.. لقد اشتريت لك سيارة جديدة تقف الآن أمام المنزل، ولننزل فورًا لتجربتها، ولم أعلق بكلمة يفهم منها الترحيب أو الرفض، واكتفيت بإبداء دهشتي في سري من هذا الرجل الذي تصوُّر أن السماح لي بالعودة إلى قيادة السيارة هو أكبر تنازل، وأعظم تسامح يمكنه الإغداق عليٌ بهما! أو ربما يتصوُّر أن إقدامي على الخلاص من حياتي كان نتيجة هذا الحرمان، وليس نتيجة الأهوال التي سمم بها حياتي وحياة أولادي منذ عرفناه لأول مرة وحتي تلك اللحظة! نزلت معه لركوب السيارة الجديدة، وعندما طلب مني الجلوس أمام عجلة

قيادتها اعترضت قائلة: كيف أقود السيارة وأنا منقبة، وأنت تعلم أن نظري ضعيف وإذا وضعت النظارة الطبية تحت النقاب فلن أري شيئا من خلال ضربة الموسي بطول العينين؟!

لم يرد زوجي على اعتراضي، واكتفي بالجلوس إلى جانبي في المقعد الأمامي، وأمرني بالانطلاق!

وسرنا في شارع أو شارعين.. وكدت أصطدم مع المارة والسيارات من حولي وأمامي.. والمدهش أننا مررنا بالقرب من رجال شرطة المرور عساكر وأمناء شرطة وضباط ولم يعترض أحد منهم على قيادتي السيارة بالنقاب، ولا على تخبطي وتهديدي لأرواح وممتلكات الآخرين ناهيك عن تهديدي لحياتي وحياة من معي! على العكس فوجئت برجال المرور يتطلعون إليّ وربما لمحت على وجوههم علامات الرضا والاحترام والتشجيع!

فالنقاب يحظي شئنا أم أبينا باحترام الكثيرين، وتأييدهم وإعجابهم.. ولا يجرؤ أحد على منعه في الأماكن والمواقف التي ينص القانون على ضرورة الكشف عن الوجه والتحقق من الشخصية!

فلا يخفى عليك أن هناك من المتقدمات لأداء امتحانات المدارس والجامعات من يرتدين النقاب، ولا يستطيع المراقبون التحقق من شخصيتهن، لأنهن يرفضن الكشف عن وجوههن!

وما يقال عن الامتحانات يقال أيضًا عن مغادرة المنقبات عبر منافذ الجوازات في المطارات، أو عودتهن إلى البلاد من خلال نفس هذه المنافذ، فلا يعترض الضباط بعد أن يئسوا من الجدل العقيم الرافض للكشف عن الوجه بأي شكل من الأشكال! ورجال المرور لا يعترضون على قيادة المنقبات لسياراتهن، رغم أن النقاب لا يسمح لهن بالرؤية الكافية وبالذات على الجانبين، مما يعرضهن ويعرِّض الآخرين لأخطار قد تكون قاتلة! أعرف منذ زمن بعيد أن رجال المرور في أوروبا وأمريكا يمنعون تعليق حلية صغيرة مثل الحجر الأزرق

أو الدمية، أو حتى سلسلة تتدلي من المرآة الداخلية أمام قائد السيارة لأن هذه المدلاة رغم صغرها وضآلتها، يمكن أن تحجب بضعة سنتيمترات من مساحة الرؤية.. هذا ما يطبقه رجال المرور في العالم كله منذ عشرات السنين.. أما نحن في مصر فلا يعترض واحد منهم على هذه الخيمة المغلقة والمظلمة فيما عدا ضربة الموسي التقليدية ويسمح للمتخفية شبه العمياء تحتها قيادة السيارة، وتهديد حياة وممتلكات كل من يعترض طريقها أو يقترب منها!

لست في حاجة إلى تكرار ما تعرفه ونعرفه جميعًا عن استغلال البعض لهذا التساهل والاحترام لكل منقبة:

رجال هاربون من العدالة وجدوا في ارتداء النقاب الحماية الكاملة من الملاحقة والقبض عليهم!

ورجال يرتدون النقاب لتأدية الامتحانات بدلا من الفتيات! وفتيات فاسدات يحميهن ارتداء النقاب من نظرات المتطفلين، وحراس العمارات وهن يترددن على شقق العزاب!

ورجال يرتدون النقاب ويدقون على أبواب شقق عشيقاتهم، ويرحب بهم الأزواج باعتبارهن صديقات زوجاتهم!

هذه الطرائف الباكية نسمع عنها ونقرأ تفاصيل ما يكشف عنه في صفحات الحوادث في الصحف، ولا تحتمل التعليق أكثر مما سمعناه وقرأناه، وأعود إلى حكايتي لأقول لك إنني توقفت بالسيارة فجأة..ونزلت منها وطلبت من زوجي قيادتها وإعادتي إلى منزلي، وكانت آخر مرة قدت فيها سيارة حتي لا أكون مصدر خطر وتهديد على حياتي وحياة المحرم بجانبي، وحياة الآخرين. ولعلك لا حظت قولي بأن هناك من يستغل ارتداء النقاب للقيام بأعمال غير سوية، ومعني ذلك أن الأغلبية من النساء والفتيات المنقبات لا غبار على تصرفاتهن، ولا طعن في سلوكهن.. فمنهن من ارتدت النقاب اقتناعا به، ومنهن أيضا مثلي من أجبرت على ارتدائه.

إن ما ألاقيه من عذاب هو ذاته عذاب بناتي، وكدت أقتنع بأن هذا هو قدر المرأة منذ طفولتها وحتى مماتها ما دام هناك رجال على شاكلة الجلاد الذي إبتلينا به. لم أستطع أن أفعل شيئًا لبناتي ففاقد الشيء لا يعطيه.. كما يقولون.. المشكلة الكبري كانت مع الولدين الشابين.. فقد فوجئت بهما يصبحان نسخة طبق الأصل من أبيهما.. فهما يؤمنان بما يؤمن به من أفكار وآراء وتفسيرات وممنوعات ومحرّمات ومحظورات!

وكم كانت سعادة الأب بما حققه من نجاح وإصلاح في تربية من يحملان اسمه، ويواصلان سيرته بعد وفاته. وكنت أتصوّر أن طالب المدرسة الثانوية، أو شقيقه في الجامعة لن يلتزما بما فرض عليهما وهما بعيدان عن البيت.. لكن ما عرفته منهما، ومن أبيهما أنهما يطبقان حرفيا في المدرسة والجامعة ما يلتزمان به تمامًا في المنزل! والأخطر من هذا.. أن طالب الجامعة أصبح في أفكاره أكثر تطرفًا من أبيه، وأكثر منه حماسة ورغبة في إنقاذ الكرة الأرضية من مهازل وخطايا وموبقات، وكفر سكانها غير المؤمنين، وغير الملتزمين بالأفكار التي يصر على أنها أنزلت في كتاب الله وأحاديث رسوله صلّي الله عليه وسلم.

كان الأب بحكم سنه يكتفي بالقول.. أما الابن فإنه يري أن فرض الإلتزام بهذه الأفكار لا تجدي معه الهداية بالموعظة الحسنة، ولابد من استخدام اليد أي القوة في إجبار الشعب على الالتزام بما فرض عليهم الإيمان والالتزام به حرفيا. لقد بكيت ساعات طويلة عندما جاء ابني من الجامعة ليشيد بما تحقق في ١١ سبتمبر الماضي في نيويورك! لم أبك فقط على آلاف الأبرياء الذين قتلوا في هذه العمليات الإرهابية، وإنما كان بكائي الأكثر على ما رسخ في عقل وقلب ابني من عنف وحقد وكراهية تخطت كل ما كنت أتصوّره أو أتوقعه من فلذة كبدي. قد تقول إن موقف ابني هو مجرد حالة فردية أو مرضية.. لكن هذا الابن نفسه هو الذي كان يبشرنا بأن المئات من رفاقه

هللوا مثله لما يصفونه بأنها الحرب التي اشتعلت لتحرق كل من ليس مسلما كإسلامهم، وكل من لا يطبق ما ينادون بتطبيقه! الخطر كما أري ليس مقصورًا على بيتنا ، ولا على بيوت العشرات أو المئات غيرنا.. وإنما أؤكد أن العدد أكبر بكثير مما نتصوره.. كما أنه ليس وقفًا على الأحياء العشوائية، والمناطق الفقيرة حيث تنتشر البطالة بين شبابها.. كما يحلو للبعض تبسيط هذه القضية الخطيرة في كل مرة نسمع فيها عن حادثة إرهابية. إن بيتي يقع في حي راق، وزوجي لا هم له بعد تفننه في تعذيبنا غير جمع المال الوفير من عائدات محلاته.. فهو المتدين والأمين والعادل.. كما تؤكد لحيته الطويلة، و السبحة التي لا تفارق يده.. يتمتع في الوقت نفسه بأكل حقوق الدولة فهو لا يدفع ضرائب عن أرباحه الطائلة، ويزوّر مستنداته ليثبت خسائره والإفلاس الذي يتهدده!

وولدّي يدرسان في المدرسة والجامعة، وينتظرهما مال طائل يرثانه عن أبيهما غدا أو بعد غد ليسارعا بالزواج وإنجاب الأولاد ليبثا في عقولهم وقلوبهم أعنف الأفكار التي غرسها أبوهما فيهما ليصبحوا أكثر منهما عنفا، وحماسة، وتطرفا.

ليس هذا بلاغًا ضد زوجي، ولا صرخة لحماية أولادي من التطرف واستخدام العنف الجاهل، لكنه بلاغ إلى الرأي العام لينظر إلى ما هو أبعد من طرف أنفه.

فجأة دخل الساعى قائلا لها: رئيس التحرير وصل وفى انتظار سيادتك..

همت بالإنصراف قائلة: آسفة على الإطالة وشكرا لك على صبرك وحسن انصاتك.

***

(٥٣)

" الذئب لا يعوى لمجرد المرح! "

دأب الدكتور محمد العادلى من حين لآخر على شن حملة صحفية من خلال صحيفته " العدالة " ضد بعض كبار رجال الأعمال، ويظل يواصل حملته الشرسة للتشهير بهم، والنيل منهم وتلطيخ سمعتهم فى الوحل، ولا يكتفى بذلك بل يرسل عشرات النسخ من الجريدة إلى مقر شركات ومؤسسات ومكاتب هؤلاء الرجال حتى يتأكدوا بأم أعينهم أن فضيحتهم بجلاجل، ويظل الرجل كالذئب الذى ينتظر لحظة ضعف فريسته كى ينهش لحمها، ولا يطول انتظاره ولا يخيب ظنه، فسرعان ما يرن هاتفه المحمول بعد ساعات قليلة من النشر، يأتيه صوت رجل الأعمال المستهدف مستغيثًا مثل شاه صارت رقبتها تحت نصل السكين.

فى هذه اللحظة المفصلية يشعر العادلى بقوته وجبروته وسطوة نفوذه وطغيان سلطانه.. فالناس لا تخشى شيئًا أكثر مما تخشى الفضيحة، وتحسب لها ألف حساب فهو يملك أداة الفضيحة، يملك صحيفة سيارة بين الجماهير، صحيفة لا تقل فتكًا عن قنابل أمريكا الذكية والعنقودية التى هدمت العراق فوق رؤوس أحفاد هارون الرشيد، ودمرت الهاربين من جحيم النيران فى أفغانستان إلى أعماق جبال وكهوف تورا بورا.. هنا فى تلك اللحظة يتأهب الرجل على الفور للمساومة والمناورة حتى يحقق مأربه، ويتلذذ بالإجهاز على فريسته، ويحصد صيده الثمين وفى بعض الأحيان تكون المكافأة سيارة فخمة أحدث موديل أو مبلغًا ضخمًا من المال يضاف إلى رصيده السرى فى البنك فى صورة تبرع من رجل أعمال إلى حزب العدالة الإنسانية وجريدته الموقرة!

سارت الأمور على ذلك العديد من الأعوام، وفى كل مرة يصطاد العادلى فريسته، ويمعن فى البحث عن فضيحة مدوية مؤلمة تطول عنان السماء

حتى تأتيه الضحية راكعة متوسلة مستسلمة فينال المكافأة المجزية، ويقبض ثمن السكوت، وقد يحول حملة الهجوم والسباب الجارح إلى التسبيح بإنجازات ووطنية رجل الأعمال ويجعل منه بطلاً قوميًا على صفحات جريدته.

لا يهم إن كانت التهم التى ينشرها زورًا وبهتانًا أو حقيقة دامغة.. لا يهم أى شئ بعد ذلك.. المهم الالتزام حرفيًا بمذهب ميكيافيللى الوقح.. الغاية تبرر الوسيلة.. معظم الناس بسطاء يصدقون تمامًا ما تنشره الصحف ويعتبرونها لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها حتى لو كانت ما تنشره زيفًا وشائعات وأكاذيب ودسائس ونميمة.. الناس فى كل زمان ومكان تستهويهم الفضائح، ولا يعنيهم كثيرًا من ستكون سيرته مضغة فى الأفواه، وسمعته على حافة الهاوية، ويحرص أى رجل أعمال أن يكسب ثقة الناس لأنهم مصدر قوته ورواج سلعته، ولو خسر ثقة الناس خسر الكثير والكثير، وقد تكون خسارته تلك فوق طاقته.. لكل ذلك يكون العادلى هو الحصان الرابح فى كل مرة، وأرصدته ترتفع ونفوذه يتعالى.. لكن الله لا يستر المرء ألف مرة ومرة، ولا يدارى ذنوبه ويخبئ خطاياه عن العيون الدهر كله، فالسماء تمنح المخطئين عشرات الفرص الذهبية ليتوبوا ويتوقفوا ويعودوا إلى رشدهم، لكن يبدو أن العادلى استنفذ فرصه مع السماء، وكان لزامًا عليها أن تكشفه وتعريه وتجعله عبرة لمن يعتبر، ومن لا يعتبر!

بعد حملة ضارية وشرسة ضد رجل أعمال شهير يمتلك سلسلة محلات تجارية عملاقة " التوحيد والإيمان " كشف فيها العادلى على صفحات جريدته بأن هذا الرجل آفاق ومخادع.. زير نساء يشترى الصبايا الصغيرات بعقود زواج عرفى ويمهرهن بضعة آلاف من الجنيهات ثم يتمتع بعذريتهن وأنوثتهن عدة أسابيع وقبل أن يصاب بالملل يلفظهن للبحث عن أخريات.. جميلات صغيرات فاتنات فقيرات دائمًا تلك هى المواصفات.

لقد أطلق العادلى عليه فى مانشيتات جريدته.. " شهريار العصر ".. لم ينتظر طويلاً فسرعان ما جاءت المكالمة المرتقبة، ودار الحديث بينهما بكل صراحة وبلا خجل أو مواربه، طلب العادلى بكل وقاحة مئة ألف جنيه لكى يوقف نشر حملته الصحفية لتشويه سمعة الرجل بين أهله وذويه ومجتمعه، ويمنع نزيف الخسائر الفادحة التى منيت بها سلسلة محلاته التجارية، وكان " شهريار العصر " حصيفًا ذكيًا عندما وضع الأمر برمته تحت أعين العدالة وأبلغ النيابة قبل أن تدور المكالمة بينهما، والتى اتفقا خلالها على زمان ومكان تسلم العادلى للمبلغ المالى الذى طلبه، وعندما حانت اللحظة الحاسمة كان رجال العدالة قد ألقوا القبض عليه متلبسًا بالأدلة الدامغة، والتسجيلات الصوتية التى لا تقبل الشك، ولا تحتمل اللبس!

فى اليوم التالى كتبت الصحف الحزبية الأخرى المنافسة لحزبه وصحيفته تقول:

" أخيرًا سقط واحد من أصنام الفساد الصحفى والسياسى فى مصر رغم محاولاته المستميتة للتقرب إلى السلطة، فقد انتهت المحكمة إلى قرار بإدانته بجرائم الرشوة والابتزاز، وقضت بسجنه عشر سنوات مع عزله من منصبه.. فهل يمكن أن يمثل هذا الحكم بداية جديدة مع فساد الصحافة، وصحافة الإفساد فى البلد؟! "

التاريخ الأسود للدكتور محمد العادلى وعلاقته بالحكومة تلقى ظلالاً من الشك والريبة حول قيام الحكومة بتفعيل هذا الحكم ليكون رادعًا لغيره من الأفاسد، وبداية مرحلة جديدة لتطهير الصحافة والإعلام من أمثاله.

لم يكن العادلى اكتشافًا فى تاريخ الانحراف الصحفى داخل بلاط صاحبة الجلالة، بل هو معروف منذ سنوات، وارتكب حماقات ووقاحات يندى لها جبين أى إنسان، وسبق إدانته فى قضايا أشد خزيًا مما دفع نقابة

الصحفيين إلى إسقاط عضويته من النقابة.. أما وصف " الثعبان الأقرع " فقد أطلقه عليه الصحفى المعارض حمادة حمودة فى تحقيق صحفى نشره قبل خمس سنوات أدان فيه أفعال العادلى وجرائمه، وأقام العادلى وقتها دعوى قضائية ضده لكن حمادة وقف أمام هيئة المحكمة يؤكد بجرأة وجسارة ما وصفه به، وقدم ما يكفى من الأدلة والبراهين مما أدى إلى إصدار المحكمة لحكمها ببراءة الصحفى المعارض المشاكس من تهمة السب والقذف بحق العادلى، إنما الغريب فى الأمر أن الحكومة كافأت العادلى بتعيينه عضوًا فى مجلس الشورى.

وعلى غير عادة الحكومة مع أقطاب الأحزاب الجديدة، والصغيرة سمحت للعادلى بتأسيس حزبه المشبوه وجريدته الصفراء بمجرد حصوله على حكم قضائى بذلك فى حين لم تسمح لحزب العمل بمعاودة نشاطه أو إصدار جريدته " الشعب " رغم حصوله على ١٥ حكمًا قضائيًا، وفى الوقت الذى كان فيه العادلى يمثل داخل قفص الجنايات لمحاكمته فى الجرائم التى أدين فيها " وهو مخلى سبيله " كانت جريدة " الأيام " الحكومية تفتح صفحاتها لنشر مقالاته التى عنونها " عبقرية رئيس الجمهورية " بل وفتحت له مطابعها لكى يطبع فيها جريدته التى خصصت معظم صفحاتها لمدح سدنة الحكم وبطانته، والتشهير بمن لا يرضون عنه واتهامهم فى شرفهم وعرضهم.

تم ترحيل محمد العادلى خلف الأسوار الذى لم تتناول التقارير السنوية للمجلس الأعلى للصحافة مخالفاته الصحفية رغم أن جريدته نموذج مثالى يمكن أن يدرس بما تعج به من مخالفات من النشر الدعائى إلى النشر المجهل إلى الترويج للخرافة لدرجة أنه كان ينظم لقاءًا أسبوعيًا لدجال مع زبائنه من أصحاب الأمراض والأوهام بمقر الجريدة مقابل أجر مادى.

أزاح مجلس الشورى العادلى بالإجماع من عضويته، أطاحوا به خارج مجلس الحكماء وكأن المجلس الموقر اكتشف فجأة أن مبادئ حزب

العدالة الإنسانية من الخيال العلمى مثل أفلام " سوبرمان واكس مان، وبلاك أند وايت أند براون مان " وأنه اعتمد على القرصنة على الجمعيات والحصول على المال من الأميرة الخليجية هند العباسى، وعدد من الشخصيات الكبيرة فى البلد.

كان البعض يتوقع أن تمتلئ الصحف بمانشيتات عن رئيس الحزب المرتشى الذى يبتز الأكابر.. عن الأسباب والدوافع التى حولت الطبيب الفاشل إلى محترف سياسة وصحافة حزبية، وكانوا يتوقعون أن يكون هناك نقاشًا حول ظاهرة هى الأكثر غرابة فى الصحافة المصرية والعربية.. شخصية اللص الذى يسرق ويسرق ويسرق دون أن يشكو منه أحد ثم يستاء الكثيرون من القبض عليه عكس نهايات كل الأفلام العربية والهندية!

لم تكن نهاية مفاجآت هذا الحاوى حديث الصحافة والسياسة، ففى اليوم التالى نشرت صحيفة " المساء والسهرة " أن زوجة الدكتور محمد العادلى زينات السيد الشهيرة بزيزى فؤاد قد عينت نفسها رئيسًا لحزب العدالة الإنسانية بأصوات ١٤٥ شخصًا من أعضاء الجمعية العمومية ودون منافس، وفسرت الصحيفة هذا الاختيار الكاسح بأن زينات أرادت عقد الجمعية العمومية للحزب قبل أن يعقد منافسها عبد الراشد العدوى جمعية مماثلة ويفوز بالحزب والجريدة.

المهم أن زينات السيد وعدت فى تصريحاتها الصحفية النارية بتلافى السلبيات السابقة التى حدثت فى الحزب أثناء رئاسة زوجها وأدت إلى انشقاقات داخلية، وتصدعات لجدران الحزب وأعمدته، وتعهدت زينات بأن تعمل بجد وإخلاص لصالح المرأة المصرية فى عهد سيدة مصر الأولى التى ترعى المرأة فى كل مكان من ربوع المحروسة.

وبعد يومين نشرت نفس الصحيفة نبأ مثيرًا للدهشة، فقد كشفت أن العادلى حاول الهرب من مصر لكن الشرطة ألقت القبض عليه.

الطريف فى الخبر أن الصحيفة ذكرت أن رجال الشرطة قبضوا عليه

Obeikandl.com

وهو متنكر فى ملابس إمرأة حتى يستطيع الفرار!

لم تنته قصة محمد العادلى عند هذا الحد فقد أفرج عنه بعد عشرة أشهر فقط رغم أن الحكم عليه كان عشرة أعوام، وفى أول تصريح صحفى له عقب الإفراج عنه قال:

" أحمد الله رب العالمين أننى سجنت فى عهد رئيس مصر المبارك.. بارك الله فيه.. وفى وقت يتولى فيه اللواء حسان الشاذلى حقيبة وزارة الداخلية، وأضاف قائلاً: إن السجون المصرية الآن تراعى حقوق الإنسان، وأكد أنه تمتع داخل السجن بكافة صور الرعاية الصحية، وقضى تلك الفترة فى المستشفى الملحق بسجن القناطر بسبب معاناته من مرض القلب والضغط والسكر.. قال العادلى بثقة: إن السجناء اليوم يلقون كل صور الرعاية واختفت تمامًا الصور المأساوية التى كانوا يعانون منها فى عهود سوداء سابقة حين كان السجناء يسمون بأسماء النساء، ويقفون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم فى أول يوم من دخولهم السجن ثم يؤمرون بتنظيف أرضيات السجون بأجسادهم العارية!

وكانت محكمة النقض قد أصدرت أخيرًا حكمًا بإلغاء الحكم الصادر من محكمة أمن الدولة العليا بسجن محمد العادلى عشر سنوات فى قضية الابتزاز والرشوة على أن تعاد محاكمته أمام دائرة أخرى لم يتم تحديدها ولا موعدها وجاءت حيثيات الحكم الأول صدر معيبًا بالقصور فى التسبيب.

وقال العادلى الذى بدا فى حالة معنوية عالية:

"لقد تم الإفراج عنى ونقلى من السجن إلى بيتى مباشرة فى سيارة مجهزة نظرًا لظروفى الصحية " مشيرًا إلى أن اهتمامه فى المرحلة الحالية سوف ينصب على العناية بحالته الصحية خاصة بعد إصابته بالتهاب فى أعصاب ساقة اليسرى، إضافة إلى معاناته من مرض القلب مؤكدًا أنه سيمارس مهامه كرئيس للحزب من جديد فور تسلمه قرار محكمة النقض بإلغاء

الحكم السابق القاضى بسجنه، والذى تضمن عزله من منصبه مشيرًا إلى أنه سيرسل القرار إلى لجنة شئون الأحزاب بعد النزاع الذى نشب بين ثلاثة من أعضاء الحزب على رئاسته فى ظل إبعاد الحكم الأول للعادلى من منصبه.

وقال العادلى أنه تلقى العديد من برقيات التهنئة، وسوف يعيد ترتيب أوراق الحزب من الداخل وإعادة إصدار صحيفته من جديد.

ونفى العادلى فى مؤتمر صحفى عقده بمقر الحزب ما نشرته بعض الصحف عن وجود ٢٥ جنحة وأحكام سابقة ضده تسببت فى تعطيل الإفراج عنه وقال:

" بالفعل كان هناك حكمان صدرا ضدى، واتخذت كافة الإجراءات للطعن فيهما أثناء فترة سجنى وليس بعد الإفراج عنى " وبشأن الحكم بإعادة محاكمته من جديد بنفس التهم التى وجهت إليه مثل الابتزاز والرشوة إسترسل قائلاً:

" إننى واثق من أن عدالة السماء سوف تنصفنى وواثق من براءتى وإلغاء محكمة النقض لحكم محكمة أمن الدولة العليا بسجنى عشر سنوات خطوة على طريق إثبات براءتى من كل ما نسب إلى من تهم! "

بعد ستة أشهر تقدم الدكتور محمد العادلى رئيس حزب العدالة الإنسانية المجمد نشاطه بالترشيح لعضوية مجلس الشعب على مقعد الفئات فى دائرة الكيت كات، وتم قبول طلبه، وبدأ يتجول فى الدائرة وسط مجموعة من أنصاره ومؤيديه وكان من بينهم على مضض ناجى شرف الدين وفوجئ بأن أقوى المنافسين ضده على مقعد البرلمان ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين، فتقدم العادلى إلى اللجنة العليا للانتخابات ببلاغ رسمى يطلب فيه شطب جميع مرشحى جماعة الإخوان المسلمين المحظورة من إنتخابات مجلس الشعب باعتبارهم جماعة غير شرعية، وباطلة بعد أن تم حلها ولم يصدر حكمًا قضائيًا حتى الآن يعيدها من منطلق أن ما بنى على باطل فهو

باطل، كما أن المحظورة ارتكبت مخالفة خطيرة للقانون باستخدامها شعار " الإسلام هو الحل ".. ووصف العادلى الجماعة فى بلاغه بأنها كافرة لاعتمادها على شعار يعنى أن أعضاءها فقط هم المسلمون.. أما غيرهم فليسوا مسلمين، وأنهم يتاجرون فقط بشعار الإسلام هو الحل لكسب أصوات البسطاء الذين لا يدركون حقيقة هذه الجماعة المحظورة وشعارهم نصب فى نصب.

ذات مساء كان العادلى يطوف الدائرة وسط المئات الذين تجمهروا حوله ينصتوا لاتهاماته للجماعة المحظورة.. فى تلك اللحظة انطلقت رصاصة فى الزحام تعرف طريقها ووجهتها وخط سيرها حتى استقرت فى قلب العادلى.. سقط الرجل مضرجًا فى دمائه، وسط ذهول الجميع هرول ناجى شرف الدين مسرعًا وضع العادلى رأسه على صدر ناجى، ولفظ أنفاسه الأخيرة، وهو يهمس بصوت مكتوم متحشرج لم يسمعه سوى ناجى:

ـ زهرة.. زهرة..

تطلع ناجى من بين صفوف المتزاحمين فلمح فتاة فى منتصف العمر تهرول من بين الجموع حتى اختفت عن الأنظار، أدرك ناجى أن الرصاصة التى قتلت الرجل جاءت من ناحيتها..

وقبل أن تغادر مسرح الجريمة نظرت نظرة انتقام وشماتة..

كانت زهرة دون سواها سكرتيرة محمد العادلى السابقة التى خرجت توا من السجن، ثأرت لنفسها، ومضت غير آسفة على شئ فلم يعد لديها ما تخسره!

***

obeikandi.com

(٥٤)

" على الباغى تدور الدوائر!"

مع بزوغ شمس يوم ٢٥ يناير خرج الشباب بالألاف ثائرون غاضبون يهتفون بسقوط النظام..انتفضوا فى كل محافظات مصر، وربوعها وحواريها وشوارعها وميادينها رافعين شعار.. الشعب يريد اسقاط النظام.

بدت المظاهرات العارمة والحاشدة، كما لو كان متفقا عليها بين ملايين الشباب الذين رسموا خطة التحرك ضد أباطرة النظام الذى جثم على الصدور ثلاثة عقود من الزمن عبر " الفيسبوك " أومايعرف بشبكة التواصل الإجتماعى.. الصحف الحكومية وصفت هؤلاء الشباب بالقلة المندسة والمخربة، بينما وصفتهم الصحف المستقلة والمعارضة والحزبية بورد الجناين الذى فتح فى حدائق مصر!

سقط العشرات قتلى، والمئات جرحى فى مواجهات عنيفة مع الشرطة، وبلطجية النظام والحزب الحاكم، وامتلأت الميادين والشوارع بالثائرين الذين أعلنوا الصمود، وقبلوا التحدى بصدور عارية، وطالبوا رأس النظام الحاكم بالرحيل أو الزحف من ميدان التحرير بالملايين نحو القصر الرئاسى لخلع الطاغية من فوق كرسى العرش.. ومع بيان التنحى للرئيس، واختياره شرم الشيخ منفاه الإضطرارى سقطت كل الأقنعة، وخرجت للنور كل الملفات السوداء، وتوارت الوجوه الكالحة التى عاشت فى البلاد فسادًا وطغيانًا، وملأت الصحف بصورها وأخبارها وأكاذيبها سنوات وسنوات، ومع سقوط النظام وتصدع أركانه، اندلعت المظاهرات المطالبة بالتطهير، وتحرير الصحف الحكومية من رؤساء تحريرها، ورؤساء مجالس إدارتها الذين اعتبروها عزبة لهم ولأولادهم من بعدهم، وتكية ورثوها عن أبائهم وأجدادهم!

لـم تطـل الفترة الزمنيـة حتى صـدرت القـرارات الثوريـة التطهيرية التى أطاحـت برؤسـاء تحرير ومجالـس إدارات الصحف الحكوميـة، منهم من تـوارى فـى بيتـه خوفًـا وهلعًا مـن بطـش الصحفييـن الثائرين الذيـن أذلهم وأذاقهم الهوان سنوات عجاف!

ومنهم من كان مصيره المثول أمام النائب العام بتهم إهدار المال العام، والكسـب غير المشـروع، والإثراء الحرام.. وكان مثواه الأخير فى زنزانة ضيقة لاتدخلها أبدًا شـمس الحرية.. جفت الأقلام، وطويت صفحة سـوداء من تاريخ صاحبة الجلالة ذات الثوب الناصع البياض كعروس ليلة زفافها.

***

تمت بحمد الله..

obeikandi.com

من قائمة الإصدارات
رواية – قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
وراء السراب قليلا	إبراهيم درغوثي
حيطان الريحٍ	إبراهيم الناصر الحميدان
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ
سريب	أحمد الفيتوري
وقائع غرق السفينة	إدريس علي
طريق النسر	إدوار الخراط
صخور السماء	إدوار الخراط
صيد الحضرمية	أمير تاج السر
همس القوارير	تركية عبد الحفيظ
مطرية الغروب	جمال الغيطاني
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي
رفيف الترائب	خالد الأنشاصي
كيد النسا	خيري عبد الجواد
حب خلف المشربية	د. رشا سمير
حالات الروح	زكريا عبد الغني
أوزار	سليمان زيدان
عندما تموت الملائكة	صابرين الصباغ
الطماشة	عباس منصور
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
مرسى ديله	عبد الفتاح البشتي
حكايا أنثوية	عبد الفتاح صبري
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسواني
سراديب	عفاف السيد
إينارو	د. علي فهمي خشيم

obeikandl.com

ولا يزال المعطف معلقًا	علي مصطفى المصراتي
جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدًّا)	د. فاروق أوهان
تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلي
الحمامة البرية	فؤاد قنديل
فنار الأخوين	فوزية مهران
النعاس يغشي المدينة	فيصل سليم التلاوي
أعباء	كريم شعلان
الفتيت المبعثر	محسن الرملي
المداسة	محمد الأصفر
مد الموج	محمد جبريل
العابدة	محمد جراح
هالة النور	محمد العشري
رماد مشتعل	سيف المري
حريم .. (أعزكم اللّه)	محمد الغربي عمران
الخروج إلي النبع	محمد قطب
الحياة مفرد مؤنث	محمود قاسم
شمس الملوك	مريم الخولي
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
وبر الأحصنة	نجوى بن شتوان
شموع تحترق	نفيسة الشرقاوي
المشي إلي مدار المطر	نمير بن سالم آل سعيد
تحت المجهر(رواية من الخيال العلمي)	نهاد شريف
قمر أخضر	نهلة السوسو
الولايا و....	هناء زكي
أنت وحدك السماء	هيام عبد الهادي
شبيه الخنزير	وارد بدر السالم
امرأة بين الرجال	وفية خيري

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

obeikandl.com

obeikandl.com